تاريخ المغرب العربي

د. عبد الواحد ذنّون طه
د. خليل إبراهيم السامرائي
د. ناطق صالح مطلوب



تاريخ المغرب العربي

تاريخ
المغرب العربي

تأليف

د. خليل ابراهيم السامرائي   د. عبد الواحد ذنون طه
د. ناطق صالح مطلوب

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 5922/ 2004
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-206-1
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،
هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218،
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

الإهداء

إلى الذي فارقنا على حين بغتة وكتابنا هذا قيد الطبع. فترك في القلوب لوعةً، وفي العيون دمعةً، وفي الأذهان ذكرى تتردد مع الأيام بين طيات هذا السِّفر وعلى كل صفحات الأفئدة التي أحبتك وعرفت فيك العالِم الفاضل والأستاذ القدير والأخ العزيز والصديق الصدوق.

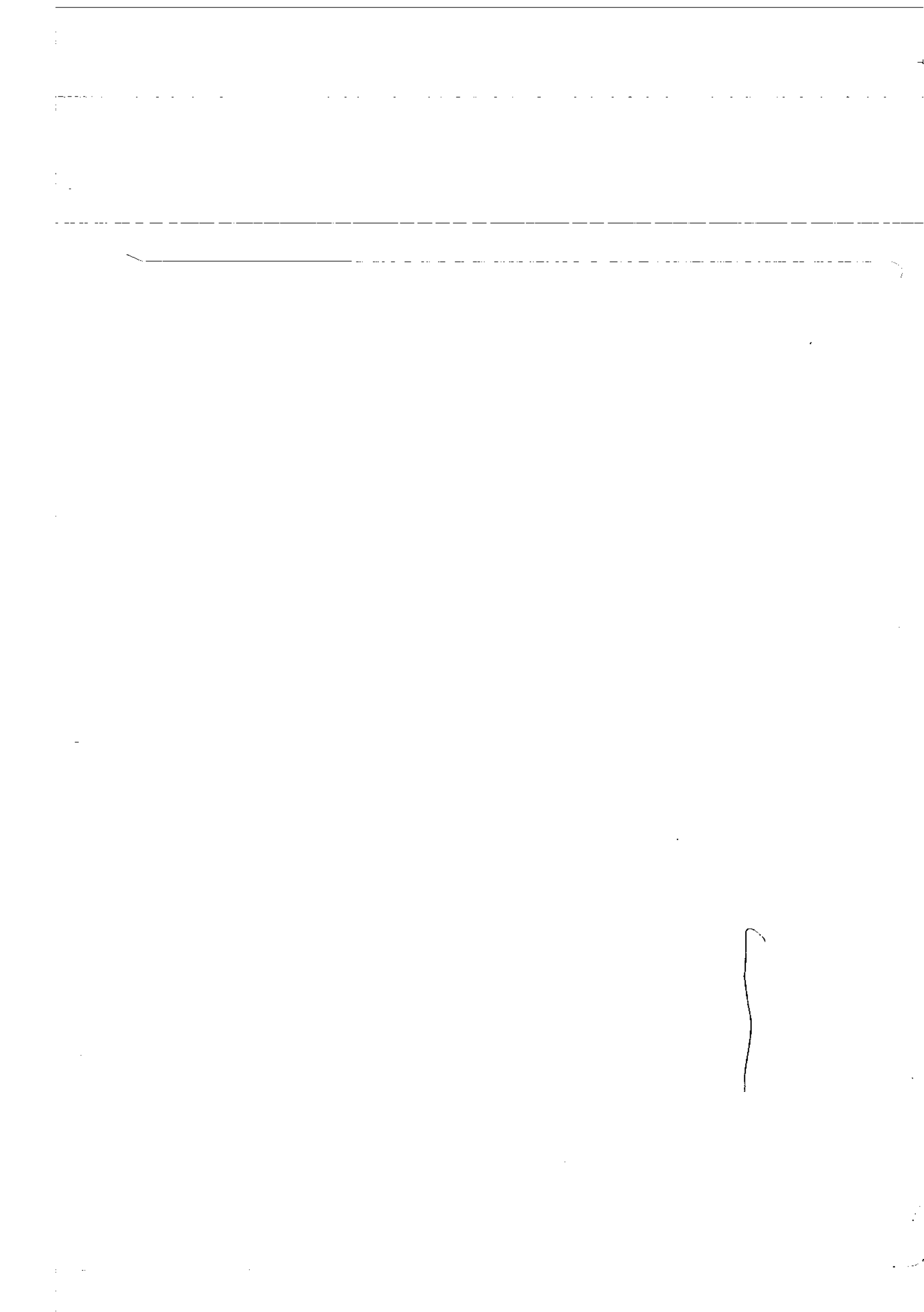
إلى الراحل الغالي:

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

وفاءً تحفظه القلوب

وإكباراً يؤثر في الأسفار

وحسرة لا تنقضي مع الزمن



المقدمة

لا تخفى أهمية مادة تاريخ المغرب العربي، ودورها في حث الطالب على النظر دائماً إلى وحدة الوطن العربي، وذلك لتأثر أحداث كلّ من المشرق والمغرب فيما بينها. فقد كان العرب في المغرب العربي جزءاً لا يتجزأ عن إخوانهم في المشرق، وما الأحداث التاريخية التي مرّت بهم إلاّ صدى للأوضاع العامة في قلب الدولة العربية الإسلامية. ولهذا فقد كان من الضروري أن يطّلع طلاب أقسام التاريخ على تاريخ المغرب العربي، وأن يكون بين أيديهم هذا الكتاب، الذي يمثّل الحد الأدنى من منهج هذه المادة الحيوية. ويتألف الكتاب من ثلاثة أبواب، تنقسم إلى فصول مختلفة، وقد قام المؤلفون بتأليف حصصهم على النحو الآتي:

كتب الدكتور ناطق صالح مطلوب: البابين الأول والثاني، ويشمل الباب الأول المواضيع الآتية: تسمية المغرب العربي، السكان، عصور ما قبل التاريخ، عصور الاحتلال. ويشمل الباب الثاني: التحرير وسياسة الولاة، وانتشار الإسلام والإدارة.

وقام الدكتور عبد الواحد ذنون طه بكتابة الفصلين الأول والثاني من الباب الثالث، ويشمل الفصل الأول: الأدارسة وتأسيس دولتهم، بناء مدينة فاس، إسهام الأدارسة في تنمية الحضارة العربية. أما الفصل الثاني فيشمل: الأغالبة وتأسيس دولتهم، وعلاقتهم بالخلافة العباسية وبالإمارة الأموية في

الأندلس، واهتمامهم بإنشاء الأسطول ونشاطهم في البحر المتوسط، وفتح صقلية وأهميته.

وكتب المرحوم الدكتور خليل إبراهيم صالح السامرائي الثالث والرابع والخامس من فصول الباب الثالث. ويشمل الفصل الثالث: المرابطين وقيام دولتهم، ودورهم في نشر الإسلام في أفريقيا، وعلاقاتهم بالأندلس، وضعف دولتهم وانهيارها. أما الفصل الرابع فيتضمن: الموحِّدين وتكوين دولتهم وتوسعها، وعلاقاتهم بالأندلس، وضعفهم وانهيار دولتهم. وتناول الفصل الخامس: دور المغرب العربي في احتضان العرب المهاجرين من الأندلس، وفي حفظ الثقافة والحضارة العربية.

ونرجو ـ بعد هذه المقدمة الوجيزة ـ أن نكون قد وفقنا في هذا العمل، والله من وراء القصد.

المؤلفون

الموصل 1988م

الباب الأول

الفصل الأول: التسمية

- جغرافية البلاد
- السكان

الفصل الثاني: تاريخ المغرب العربي قبل الإسلام

1 ـ العصور الحجرية القديمة

2 ـ العصر التاريخي

3 ـ عصر السيطرة الأجنبية

الدكتور ناطق صالح مطلوب

الفصل الأول

التسمية

اصطلح الكتّاب على تسمية المناطق التي تلي حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي بأسم «المغرب العربي» وتشمل: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب الحالي، وموريتانيا،[1] ولم تكن هذه التسمية بدعاً من القول لأنها تستند إلى حقائق إنسانية ذات مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية، وعوامل تاريخية موغلة في القدم تمخضت عن وحدة الفكر والتراث ووحدة الهدف والمصير[2].

وعُرِفت بلاد المغرب العربي منذ أقدم العصور بأسماء متعددة، فقد أطلق العرب الفينيقيون على السكان الذين سكنوا حول مدنهم طاقة[3] «أوتيكا» وقرطاجنة: أسم «أفري»[4] وعنهم أخذها اليونان[5]، فأطلقوها على جميع سكان المغرب العربي ابتداء من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي، ومنها اشتُقّ أسم «أفريقية» أي: بلاد الأفري[6].

---

(1) سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، 1/ 61، الإسكندرية، 1979.

(2) عبد العزيز بن عبد الله: معطيات الحضارة المغربية، 1/ 7، الرباط، 1963.

(3) وكانت تسمّى المدينة القديمة، وقرطاجنة المدينة الجديدة.

(4) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947، ص: 1.

(5) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 1 و2، وينظر: عبد العزيز سالم: المغرب العربي، ص 2/ 125، القاهرة: 1966.

(6) حسين مؤنس: المرجع السابق، 1، وينظر: السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق، محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1970، ج1، ق2، ص: 528 وما بعدها.

وعندما تمكّن الاستعمار الروماني من احتلال مدينة قرطاجنة سنة 146م، أطلقوا اسم: أفريقية على جميع مناطق نفوذ الفينيقيين «قرطاجنة» وما حولها[7] حتى نوميديا غرباً[8].

ثم بدأ مدلول هذه اللفظة في الاتساع ليتماشى مع اتساع نفوذ الغزاة الرومان حتى شمل معظم بلاد المغرب[9]. وفي بداية حروب التحرير العربية أُطلقت لفظة «أفريقية» للدلالة على جميع الأقاليم مما يلي إقليم طرابلس غرباً[10]، ثم تحدد مدلولها لتعني الإقليم الذي نشأت فيه مدينة القيروان فقط، وهو ما يُسمَّى بالمغرب الأدنى.

وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين ظل يخلط بين مدلول لفظتَيْ أفريقية والمغرب ولا يميّز بينهما[11]، فقد انتهى لفظ أفريقية للدلالة على الإقليم الذي تتوسطه مدينة القيروان وحده من غرب طرابلس حتى بجاية، وانتهى لفظ المغرب ليشمل عموم أقاليم البلاد وحدُّها من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي وأفريقية جزء منه[12].

---

(7) سالم: المرجع السابق: 2/ 125.

(8) وهو الإقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي من تونس.

(9) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب: 2.

(10) وقد كتب عمرو بن العاص كتاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بعد تحرير مدينة طرابلس يستأذنه فيه بمواصلة الزحف غرباً، نصه: «إن الله قد فتح علينا طرابلس، وليس بينها وبين أفريقية إلاّ تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يده، فعل.» ابن عبد الحكم: 232، تحقيق عبد المنعم عامر. وينظر: البلاذري، فتوح البلدان: 237، ط1. وينظر سعد زغلول: 1/ 67 و68.

(11) حسين مؤنس: 3. وينظر: العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ط 1978، ص: 9.

(12) حسين مؤنس: 4. سالم: 1/ 125 و126. وينظر: العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، 1970، ص: 9 و10.

وللوقوف على آراء المؤرخين في ذلك: ينظر، ابن حوقل: صورة الأرض، طبعة بيروت 64، 65 البكري: طبعة الجزائر، ص: 6 وما بعدها. ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية، طبعة سنة 1984، ص: 30 و31.

وعلى هذا الأساس تُقسَّم بلاد المغرب العربي إلى أقسام أربعة:

1 ـ برقة «انطابلس»[13] وطرابلس «طربيله»[14]

وهما أول أقاليم المغرب فيما يلي حدود مصر الغربية. والملاحظ: أن بعض المؤرخين يُدخِلون هذين الإقليمين ضمن المغرب الأدنى «أفريقية» وقد يُدخِلون إقليم طرابلس فقد دون إقليم برقة[15]، وفصل إقليمَيْ برقة وطرابلس عن أقاليم المغرب الأخرى يعود إلى كون هذين الإقليمين قد كانا يشكّلان وحدة مستقلة في بداية حروب التحرير العربية مرتبطة ارتباطاً طبيعيّاً بمصر أكثر من ارتباطها بالمغرب العربي[16].

2 ـ المغرب الأدنى «أفريقية»

وهو أول أقاليم المغرب، وأقربها إلى مركز الخلافة في المشرق العربي، ويمتد من طرابلس حتى بجاية غرباً، وقاعدته مدينة القيروان[17].

3 ـ المغرب الأوسط

وسُمّيَ بالأوسط لتوسطه المغربين الأدنى والأقصى وحدوده من بجاية غرباً حتى وادي ملوية وجبال تازة في الغرب، وقاعدته مدينة تلمسان وهو يضم معظم بلاد الجزائر الحالية[18].

---

(13) وتعني المدن الخمس التي يتكون منها الإقليم: قورينة وسوسة وطوكره وبرنيق وبرقة وهي قاعدة الإقليم وأشهر مدنه. ينظر: البكري: المغرب، طبعة الجزائر، ص: 4. مجهول: الاستبصار بغداد ـ 1986، ص: 143. وينظر، سعد زغلول: 1/ 63 والهامش السابع.

(14) وتعني المدن الثلاث: إياس (طرابلس) ولبدة، وصبرة، ينظر: البكري: 7. الاستبصار: 110.

(15) السلاوي: 71.

(16) حسين مؤنس: 50 و51. سعد زغلول: 1/ 64 وما بعدها.

(17) حسين مؤنس: 4.

(18) ابن خلدون: 6/ 102.

4 ـ المغرب الأقصى

وامتداد هذا الإقليم من وادي ملوية، حتى مدينة آسفي على ساحل المحيط الأطلسي[19]. ويشمل: المغرب الحالي، وموريتانيا.

جغرافية البلاد

تؤلّف بلاد المغرب العربي، ابتداءً من خليج سِرْت حتى المحيط الأطلسي بأقاليمها المختلفة، وحدة جغرافية وبشرية مميّزة عن بقية أجزاء القارة الأفريقية[20] حتى إنها قد عُرِفت في القرن التاسع عشر بأسم «أفريقية الصغرى» أو ببلاد أطلس إشارة لسطحها الجبلي، وهي بلاد يتجاوز طولها ثلاثة آلاف كيلو متر، وعرضها حوالي ألفَيْ كيلو متر، ومساحتها على هذا الأساس تبلغ ستة ملايين كيلو متر مربع[21].

تحدّها المياه من جهتَي الشمال والغرب، وبعض مناطق الشرق، وتحدّها الصحراء الكبرى من الجنوب[22].

وطبيعة هذه البلاد الجغرافية تتدرج تحت أقسام ثلاثة رئيسة:

الأول: الإقليم الساحلي:

ويمتد على طول شواطئ البحر المتوسط، حتى مدينة طنجة، ثم يستمر محاذياً للمحيط الأطلسي، حتى مدينة نول في بلاد السوس، وأغلب هذه المناطق مناطق سهلية صالحة للزراعة[23].

---

(19) ابن خلدون: 6/ 101. وللمؤرخين اجتهادات في تقسيم بلاد المغرب العربي، ينظر وعلى سبيل المثال: ابن الشماع: 31. السراج: ج1، ق1، ص: 235. العبادي: 9.

(20) يقول ابن خلدون: 6/ 98: «إن المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار».

(21) ابن منصور. قبائل المغرب، الرباط 1968، ج1/ 3 و4.

(22) ابن خلدون، 6/ 98 وما بعدها.

(23) ابن منصور: 1/ 9.

والثاني: الأقاليم الجبلية:

حيث تخترق البلاد المغربية سلسلة جبال درن أو جبال أطلس وهي جبال ضيّقة وَعِرة الدروب والمسالك، تكلل قممها الثلوج في فصلي الشتاء والربيع، وتنقسم هذه السلسلة الجبلية إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ الأطلس الساحلي؛ ويمتد غرباً من جبال أنجزه على ساحل بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ويشمل: جبال غمارة وجبال الريف وجبال بني يزناتن وترارة ويدوغ وغيرها[24].

2 ـ الأطلس التلي؛ ومبتدأه من المغرب الأقصى، ومنتهاه في تونس بجبال الخمير ويشمل: جبال كندافه وكلاوه، والمدحوس، وبادو وتلمسان وونشريس، والجرجرة.

3 ـ الأطلس الصحراوي؛ ويمتد من الغرب إلى الشرق، ويشمل: جبال باني ودرعة، وصغرو، والقصور، وأولاد نائل، ويرتفع كثيراً عند أوراس[25]، وينتهي في تونس بجبال زغوان وفي ليبيا بجبال نفوسة[26].

وهناك قسم رابع يسمّى النجود العليا، يقع بين الأطلسين التلّي والصحراوي، وارتفاعه يتراوح بين سبعمائة وألف ومائة متر[27].

والثالث: الإقليم الصحراوي

وامتداده من واحات برقة ثم فزّان وزويلة ووارجلا إلى سجلماسة إلى وادي درعة حتى المحيط الأطلسي غرباً. وعلى الرغم من الصبغة الصحراوية

(24) ابن منصور: 1/8.
(25) يبلغ ارتفاع قمة الشلية «2328م».
(26) ابن منصور: 1/8. وينظر، الجوهري: شمال أفريقية «دراسة جغرافية» طبعة الإسكندرية، ص: 6.
(27) ابن منصور: 1/9.

التي حملها هذا الإقليم، فإن ينابيع المياه والواحات تنتشر في أغلب المواضع، وكانت القوافل تجتاز هذه الأقاليم من مصر حتى المغرب الأقصى لقِصَره عن الطريق الشمالي بحوالى ثلث المسافة[28]. وأما المناطق التي لا خصب فيها ولا ماء فهي الهضاب التي تُعرَف بأسم الحمادة[29]، وهي أراضي صخرية حرشة جرداء اشتهرت منها الحمادة الكبيرة بين سجلماسة ووادي جير، وكانت القوافل تقطعها في ثلاثة أيام، ثم الحمادة التي تفصل وادي جير عن وادي الساورة، ثم الحمادة الواقعة بين وادي الساورة وتوات، ثم الحمادة الكبيرة الواقعة في الطريق المؤدي من وادي أيكون إلى وارجلا وهي مسيرة أربعة أيام في أرض جرداء، ويستمر الطريق من وارجلا إلى وادي ريغ ثم وادي سُوف وقبل الوصول إلى نفزاوة في الجنوب التونسي توجد سبخة هشة يخترقها طريق ضيق تسلكه القوافل بعيراً أثر بعير[30].

وتتخلل بلاد المغرب أنهار متعددة، تُدعى أودية، حتى وإن كانت غزيرة المياه دائمة الجريان وأهمية هذه الأنهار أو الأودية تتحدد بالمصادر التي تغذيها طوال السنة أو لفترة زمنية محددة، فأنهار كلوس وسبو وأبي رقراق وأم الربيع تنبع من الجهات العالية التي تكثر فيها الأمطار والثلوج وتصب جميعها في المحيط الأطلسي[31].

وثمة أنهار تغزر مياهها شتاءً وتجف صيفاً كنهر ملوية وتافنا وشلف وسومام ومجردة والمليان وكلها تصب في البحر المتوسط. وينبع قسم من الأنهار من المنحدرات الجنوبية لجبال أطلس ويتجه نحو الصحراء ويضعف شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى في رمال الصحراء ومنها على سبيل المثال:

نهر الداورة والساورة والناموس والغرغار، وفضلاً عن الأنهار تنتشر

---

(28) سعد زغلول: 1/ 73 و74.

(29) ابن خلدون: 6/ 100 «وبدايتها: من دوتر - كذا - إلى بلاد ريغ».

(30) سعد زغلول: 1/ 74.

(31) ابن منصور: 1/ 10.

البحيرات في معظم أقاليم المغرب العربي، وبعض هذه البحيرات تظل مغمورة بالمياه طوال فصول السنة، وبعضها تتبخر مياهها في الصيف فتتحول إلى منطقة ملحية يُطلَق عليها ٱسم: الشط أو السبخة.

السكان

أطلق المؤرخون على السكان الذين يعمرون بلاد المغرب العربي، ٱسم البربر[32]، وللمؤرخين في تفسير هذه الكلمة عدة آراء، فمنهم من يفسّر الكلمة تفسيراً لغويّاً. فيرى أن لغة القوم وكانت تختلط فيها الأصوات غير المفهومة حتى قِيل لهم: «ما أكثر بربرتكم»[33]، وقيل: إن لغة البربر يكثر فيها استعمال حَرفَي الباء والراء، فقيل ما هذه البربرة[34].

ونسب البعض هذه التسمية إلى جدهم الأعلى بر أو بربر. والحقيقة أن الاختلاف في أصل هذه التسمية ما زال قائماً، وأن سكان المغرب يأنفون من تسمية «البربر» ويُطلِقون على أنفسهم ٱسم الأمازيغ «الرجل الحر»[35] أو ربما سُمّوا بأسماء قبائلهم[36].

وقد وصف ٱبن خلدون البربر بقوله: «هذا الجيل من الآدمين هم سكان المغرب القديم ملأوا البساط والجبال من تلوله وأرياضه وأماره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين، ومن الخوص والشجر، ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العز والغلبة منه لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة،

---

(32) ابن خلدون: 6/ 101 و102. ابن منصور: 1/ 10.

(33) ابن خلدون: 6/ 89، وذكر ابن خلدون: «أن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لمّا غزا المغرب وأفريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار... رأى هذا الجمع من الأعاجم وسمع رطانتهم... فقال ما أكثر بربرتكم، فسمّوا بالبربر». وينظر أيضاً: ص 96.

(34) سعد زغلول: 1/ 80 والهامش رقم: 83. العبادي، ص 13.

(35) ابن خلدون: 6/ 89. وينظر: البلاذري، فتوح، ص 231.

(36) ابن منصور: 1/ 264. العبادي: 13.

لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأمس، ومكاسبهم الشاء والبقر، والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأظعان في نتاج الإبل، وظلال الرماح وقَطْع السابلة، ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف، يشتملون الصمَّاء بالأكسية المعلمة، ويفرغون عليها البرانس الكحل، ورؤوسهم في الغالب حاسرة، وربما يتعاهدونها بالحلق.»[37].

والبربر قبائل عربية هاجرت من الجزيرة العربية في عصور موغلة في القدم ثم أعقبت ذلك هجرات أخرى من بلاد الشام ومصر استقرت في أقاليم المغرب المختلفة[38]، وقد كشفت الحفريات جماجم بشرية، وُجِدت في ليبيا والجزائر واليمن وفلسطين، ووُجِد بين هذه الجماجم الأربع تطابق كامل، وقُدّر عمر تلك الجماجم بأكثر من خمسين ألف سنة[39].

وقد عُثِر على فكّ إنسانيّ ينتمي إلى العصر الحجري القديم الأوسط في كهف هو افتيح غرب درنة في ليبيا، واستُخدِم الكربون المشع في اختبار عمر الفحم الخشبي الذي وُجِد في مواقد هذا الموقع الراجعة إلى تلك الحقبة، وقد أُعطِيت سنة (43,000) ق.م. تاريخاً له. «وقد ثبت من الدراسات المقارنة تشابه هذا الإنسان مع إنسان نياندرتال في فلسطين، كما أن هذا التشابه أيضاً يُمْكن ملاحظته في الصناعة الحجرية المنتمية لهذه المرحلة، مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية، والبشرية بين جنوب غرب آسيا، وشمال شرقي ليبيا»[40] وأثبتت الحفريات أيضاً وجود علاقة قوية

(37) ابن خلدون: 6/ 89.

(38) ولابن خلدون رأيٌ في أصول البربر، وينظر: العبر: 6/ 97.

(39) عثمان سعدي، الأصول العربية للبربر، بحث منشور في مجلة آفاق عربية، العدد 9/ السنة الخامسة، ص: 8.

(40) الناظوري: 1/ 62.

بين إنسان العصر الحجري القديم الأعلى في المغرب، ونظيره إنسان الوطن العربي في المشرق وحُدِّد عمر الآثار المكتشفة بحوالى (28,000) أو (29,000) سنة قبل الميلاد[41]، ولاحظ الدارسون أيضاً وجود شبه علاقة بين الآثار المكتشفة في مواقع إنسان العصر الحجري الحديث في المغرب، والمواقع الأثرية في الفيوم بمصر[42]، وهذه العلاقة والتشابه يدلان دلالة قاطعة على أن إنسان المشرق والمغرب من أصل واحد، وأن أقدم هجرة عربية إلى بلاد المغرب حسب المكتشفات الأثرية قد كانت في حدود خمسين ألف سنة قبل الميلاد، إن لم تكن أقدم من هذا التاريخ بكثير.

وتتفرع قبائل المغرب العربي «البربر» إلى فرعين كبيرين هما:

أ ـ البتر:

نسبة إلى مادغيس بن بر المُلقَّب بالأبتر، وقبائلهم كثيرة، تنتشر في مناطق واسعة من بلاد المغرب العربي، حتى لا يكاد إقليم من أقاليمه يخلو من جماعة منهم.

والبتر في معظمهم قبائل رحّالة تنتقل من مكان إلى آخر طلباً للكلإ، وتنتشر في أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس الأقصى، وهي تكوِّن أغلب سكان القُرى والمناطق الصحراوية، ويمتاز البتر بالروح الحربية العالية، وفرسانهم من أشجع فرسان البربر، وقد كان لهم دورٌ فاعل في نشر الإسلام في المغرب العربي والأندلس وجنوب الصحراء.

أما اعتزاز البتر بالعروبة فلا يعادله اعتزاز، فقد استمسك بها كُتَّابهم وشعراؤهم، وافتخروا بها على من عداهم[43].

وأشهر قبائل البتر، قبيلة اداسة، وهم بنو داس بن زحيك بن مادغيس

---

(41) الناظوري: 1/ 112.

(42) الناظوري: 1/ 126. وينظر، جوليان: 1/ 58.

(43) ابن منصور: 1/ 299.

الأبتر، وتتفرع من اداسة قبائل اندارة، واوطيطه، وترهونة، وصنبره وهداغه، وهنزولة، وشتاتة، ومنها قبيلة معروفة بأسمها مستقرة بالجبال الغربية من نهر مجردة بتونس[44].

ـ وقبائل نفزاوة: وهم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر، كانت مواطنهم جنوبي شط الجريد، حتى سُمِّيت المنطقة ببلاد نفزاوة، ثم تفرعت قبائلهم في سائر المغرب واستوطنت في مناطق متعددة منه[45]. ومن قبائلهم مكلاته، وأصلهم كما يقول أبن خلدون: من عرب اليمن، ولها بطون متعددة مثل: بني ورياغل، وكزناية، وبني يصلتن، وبني يزناسن، ويقال إن غساسة منهم[46] وولهاصة، أكبر قبائل نفزاوة سُمّيَت بأسم أبيها ولهاص بن يطوفت وزاتيمة، وزهيلة وكانوا بنواحي بادس مندمجين في قبائل غمارة، ومجر، ومرتيسة وسوماته في نواحي القيروان ومليانة في المغرب الأوسط، ورغوس وكانت تسكن مدينة تيجس العتيقة ووردين، ووركول، ومنهم أيضاً قبائل ورفجومة، وكانت ورفجومة كما يقول أبن خلدون: من «أَوْسَم بطون نفزاوة وأشدهم بأساً» ومواطنهم بجبال أوراس[47].

ـ وقبائل لواتة؛ «وهم بطن عظيم متسع من بطون البربر البتر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك»[48].

ومواطنهم في برقة وإقليم طرابلس قبائل في جبال أوراس وفي تاهرت[49]، وكانت قبيلة لواته من أوائل القبائل التي دخلت في الإسلام، وشاركت القوات العربية في حروب التحرير.

(44) ابن منصور: 1/ 303.
(45) ابن خلدون: 6/ 114. ابن منصور: 1/ 306.
(46) تاريخ ابن خلدون: 6/ 114.
(47) ابن خلدون: 6/ 115.
(48) ابن خلدون: 6/ 116. وينظر، ابن حزم: الجمهرة: 498 وهو يزعم أن لواتة من القبط.
(49) ابن خلدون: 6/ 96، 117. البكري: 5.

ومن أشهر قبائلها، مزيتة وهي من أكبر قبائل لواته.

وجدانة، ومفاغة، وعزوزة، وأكورة، وجرمانة، ومغانة، وسدراته، وهم بطون كثيرة اختلطت بقبائل مغراوة وبطونها(50).

ـ وقبائل نفوسة، نسبة إلى نفوس بن زاجيك، وهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها، وكانوا من أوسع قبائل البربر وفيهم قبائل كثيرة، وموطنهم بجهات طرابلس، وإليهم يُنسَب الجبل الواقع قبالتها، وكانت مدينة صبرة من مدنهم المعروفة قبل الإسلام(51)، ومن أشهر قبائلها، بنو زمور، وماطوسة وبنو مسكور(52).

ـ وقبائل ضريسة، بنو ضريس بن زحيك، وأشهر قبائلها: درنة، أو دونة، إخوة مغيلة ومعدودون منها.

وكشاتة، وهم أيضاً إخوة لمغيلة.

وكوحيه، وكانوا يعرفون بصطفورة، ولهم ثلاثة بطون منها تفرعت قبائلهم وبطونهم وهي: ندرومة، وصغارة، وبنو يلول وموطنهم بجبال تراره شمال غرب مدينة تلمسان، وهم قبيلة عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين(53). ولماية: من قبائل ضريسة المعروفة بوفرة العدد، كانوا ظواعن بأفريقية والمغرب ومواطنهم بالتخوم الجنوبية مما يلي الصحراء، وهم الذي آزروا عبد الرحمن بن رستم واتخذوا له مدينة تاهرت مركزاً، وتفرّق أمرهم بعد خراب تاهرت وبقيت منهم بقية بين زوارة وطرابلس في قرية حملت ٱسمهم(54).

ومديونه: من قبائل المغرب المشهورة، كانوا بنواحي تلمسان وشاركت

---

(50) ابن خلدون: 6/ 117. ابن منصور: 1/ 304.

(51) ابن خلدون: 6/ 114.

(52) ابن منصور: 1/ 308.

(53) ابن خلدون: 6/ 126.

(54) ابن خلدون: 6/ 120 ـ 122. ابن منصور: 1/ 309. وينظر: البكري: 18.

جماعات منهم في فتح الأندلس، وعندما زاحمتهم القبائل في مواطنهم لجأوا إلى حصون جبل تاسالة وجبل وِجْدة[55].

ومطماطة: واسم أبيهم مصكاب، ومطماط لقب له، وهم قبيلة كبيرة منتشرة في عموم بلاد المغرب، وإليهم ينسب الجبل الواقع جنوب تونس[56].

ومطغرة؛ وموطنهم بالمغرب الأقصى. دخلوا الأندلس في حملة طارق بن زياد، واستقرت منهم جماعة كبيرة في تلك البلاد.

وقد فشت فيهم دعوة الخوارج الصفرية، فخرجوا على عبد الله بن الحبحاب سنة 122هـ ، وتمكّن زعيمهم ميسرة المطغري من إلحاق هزائم متعددة بقواته[57].

ومغيلة؛ استوطنت وادي شلف بالمغرب الأوسط، ومنهم جماعة كبيرة بالمغرب الأقصى، وقد عاضدت قبائل مغيلة إدريس بن عبد الله ومكّنته من تأسيس دولته سنة 172هـ [58].

مديونة: إحدى القبائل التي كانت مع مغيلة لمؤازرة إدريس بن عبد الله[59].

وزناتة: من ولد زانا أو جانا بن يحيى بن ضريس، وزناتة من أكبر القبائل البربرية وأوفرها عدداً كان لها في تاريخ المغرب العربي نصيب وافر، ومواطنهم بصحراء المغرب ما بين غدامس إلى ما وراء الساورة، ثم وطنوا المغرب الأوسط حتى سُمّي بوطن زناتة، والقسم الشرقي من المغرب

(55) ابن خلدون: 6/ 125.
(56) ابن خلدون: 6/ 123.
(57) ابن خلدون: 6/ 118، 119.
(58) ابن منصور: 1/ 310.
(59) ابن منصور: 1/ 310.

الأقصى إلى جبال تازة، وإلى زناتة يُنسَب بنو مَرِين سلاطين الدولة المرينية، وبنو عبد الواد حكام تلمسان[60].

وزوارة، ويُقال: إنها من قبائل كتامة من البربر البرانس، ومواطنهم بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة، وهي مناطق وعرة صعبة المسالك. ومن مشاهير بطونهم بنو عردان وبنو تورغ، وبنو عيسى، وبنو شعيب[61].

وزواغة: قال آبن خلدون: «وأما زواغة فلم يتأدَّ إلينا من أخبارهم وتصاريف أحوالهم ما نعمل فيه الأقلام ولهم ثلاث بطون وهي: دمر بن زواغ، وهراوطيل بن زحيك... وبنو ماخر بن زواغة، ومن دمّر سمكان وهم أوزاع في القبائل ومنهم بنواحي طرابلس مفترقون في براريها ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر، ومن جهات قسنطينة أيضاً رهط من زواغة، وكذلك بجبال شلف... وبنواحي فاس.»[62].

ومكناسة، وهم قبائل عديدة، مشهورة في تاريخ المغرب موطنهم على وادي ملوية من منبعِه بجبال الأطلس المتوسط حتى مصبّه في البحر المتوسط، وبآسم هذه القبائل سُمّيَت مدينة مكناس، وكانت رئاسة هذه القبائل في بني أبايرون وآسمه مجدول بن ناقريس.

وخرجت قبائل منهم إلى الأندلس فآستقرت بها وكانت لهم بها رئاسة ولبعض زعمائهم عداوة لعبد الرحمن الداخل، وأخبارهم في بلاد المغرب مفصلة اختصر آبن خلدون بعضاً منها[63].

ب ـ البرانس:

وهم البربر الذين عُرِفوا بالاستقرار وسُكنى المدن وكان معظمهم ينزل في المناطق الساحلية القريبة من البحر والمناطق الجبلية الممتدة عبر

---

(60) ابن منصور: 1/ 311. عبد العزيز بن عبد الله: 9 وما بعدها. العبادي: 15.

(61) ابن خلدون: 6/ 128، وقارن: ابن منصور: 1/ 311.

(62) تاريخ ابن خلدون: 6/ 129. وينظر: البكري: 18.

(63) ابن خلدون: 6/ 129 و130. ابن منصور: 1/ 312. عبد العزيز بن عبد الله: 10.

المغرب، والبرانس ـ كما يؤكد المؤرخون ـ أكثر حضارة وتمدناً من البربر البتر، كما كانوا أكثر تأثراً منهم بالدول التي توالت على حكم المغرب العربي.

من أشهر قبائل الرانس: أزداجة، وأوربة، وأوريغة وكتامة، ومصمودة، وصنهاجة، وعجيسة. وأضاف بعض النسابة: ولنطة، وهسكورة، وكزولة[64].

- وقبائل أزداجة، ويُعرَفون أيضاً بوزداجة ويقال إن أزداجة من زناتة.
- وكان موطنهم بنواحي وهران في المغرب الأوسط، وكانت لهم كثرة ووفرة، شاركوا في الحوادث التي جرت يومئذ في بلاد المغرب ونُكِبوا عدّة مرات. ومن بطونهم مسطاسة، وبني مسكن[65].
- وقبائل أوربة منهم ولد أورب بن برنس، وكان زعيمهم في بداية حروب التحرير العربية سكرديد بن زوغي المتوفى سنة 71هـ ومواطنهم المشهورة في مناطق تلمسان ثم انتقلت إلى مناطق وليلي بعد اندحار كسيلة أمام زهير بن قيس البلوي سنة 69هـ . ومن قبائلهم: ديقوسة، وزهجولة، ولجاية، ومزياتة، ونفاسة، ونيجة[66]. .
- قبائل أوريغة أو هوارة، وهم بنو أوريغ بن برنس، ويقال إنهم من عرب اليمن، وإنهم أحد بطون قضاعة، وتارة يقال: إنهم من وَلَدِ المسوَّر بن السكاسك بن حمير[67]. .

وقبائل أوريغة كثيرة، وكانت مواطنهم في أول حروب التحرير بنواحي طرابلس وما يليها من إقليم برقة ثم انساحوا مع حركة حروب التحرير

(64) ابن منصور: 1/ 301.
(65) ابن خلدون: 6/ 144.
(66) ابن خلدون: 6/ 146. وينظر البكري: 55. عبد العزيز بن عبد الله: 11.
(67) ابن خلدون: 6/ 139.

وانتشروا في عموم المغرب. وشاركوا في فتح الأندلس مع طارق بن زياد، ودخلوا صقلية مع أسد بن فرات زمن الأغالبة. ويدخل في قبائل هوارة عدد كبير من القبائل وأكثرها شهرة: أسيل وسطات، ومليلة، ومسلاته، وقبائل أخرى[68].

- وقبائل كتامة: يُنسَبون إلى كتام بن برنس وهم من حمير. وتُعَدّ كتامة من أشهر قبائل البربر البرانس وأشدها وبأساً وهم أهل استقرار وحضارة، وكانت مواطنهم بإقليم قسنطينة وفي شرق المغرب الأوسط وفي جبال أوراس وكانت لهم في تلك المناطق مدن مشهورة مثل: مدينة أسطيف، وباغية، وميلة، وجيجل وغيرها. ومن قبائلها المشهورة: جيملة، ولهيصة، واجانه، وماوطن، ومتوسة، وزوارة، ومصالة، وغيرها[69].

- قبائل مصمودة: وهم أبناء مصمود بن برنس، ومواطنهم الأصلية في شمال المغرب الأقصى، وتبدأ رقعة انتشارها من حدود بلاد الريف إلى المحيط الأطلسي غرباً ثم تمتد إلى الجنوب إلى تامسنة ودكالة حتى جبال الأطلس الكبير والمناطق المطلق عليها إقليم السوس، وقد اختصت مصمودة بسُكنَى جبال المغرب الأقصى وظلت على حالها حتى دخول القوات العربية بلاد المغرب.

ومن أشهر قبائل مصمودة: قبيلة برغواطة[70]، وحاحة، ودكالة، ورجراجة، وغمارة، وهم مصامدة الشمال، وكانوا من أشهر البربر وقد سُمّوا بأسم غمار بن مصمود، ومواطنهم على ساحل البحر المتوسط في حد بلاد الريف إلى المحيط الأطلسي وتمتد على السهول الساحلية، وقبيلة هرغة

---

(68) ابن خلدون: 6/ 139 ـ 144.

(69) ابن خلدون: 6/ 148. وينظر: البكري: 63. عبد العزيز بن عبد الله: 10.

(70) ابن خلدون: 6/ 207.

وهي قبيلة المهدي بن تومرت وقبيلة هنتانة، وقبيلة هيلانة، وقبيلة وريكة وغيرها من القبائل الأخرى[71].

- قبائل صنهاجة: بنو صنهاج بن برنس، وهم من حمير وقبائل صنهاجة من أكبر قبائل البربر على الإطلاق وتنتهي قبائلهم وبطونهم إلى سبعين قبيلة ينتشرون في معظم بلاد المغرب العربي[72]، لا يخلو منهم جبل ولا بسيط ومواطنهم الأصلية أربعة:

1 - الناحية الواقعة بين بجاية، والمسيلة، ومليانة، والمديّة، بالمغرب الأوسط.

2 - الناحية الواقعة بين نهر كرط، وبلاد غمارة، والبحر المتوسط بالمغرب الأقصى.

3 - والناحية الواقعة بين المحيط الأطلسي ووادي درعة والسفوح الخلفية لجبال الأطلس.

4 - مناطق الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس إلى المحيط الأطلسي وبلاد السودان بأقصى الجنوب[73].

وأهم قبائل صنهاجة هي: قبيلة بجاية، وقبيلة بطوية، وقبيلة جزولة، وقبيلة كدالة وهي من قبائل المُلثَّمِين في الصحراء وقبيلة لَمْتُونة مؤسسي الدولة المرابطية وقبيلة لَمْطة، وقبيلة مليانة، وهم من بطون صنهاجة المغرب الأوسط. وقبيلة مسوفة، وقبيلة فشتالة، وقبيلة هكسورة وقبائل عديدة أخرى منتشرة في عموم المغرب العربي[74].

- قبائل عجيسة: وهم بنو عجيسة بن برنس وكانت هذه القبائل تجاور في

---

(71) ابن خلدون: 6/207 وما بعدها.

(72) ابن خلدون: 6/152.

(73) ابن منصور: 1/329. وينظر، عبد العزيز بن عبد الله: 11 وما بعدها.

(74) فَصّل ابن خلدون الكلامَ عن قبائل صنهاجة ودورها في أحداث المغرب العربي تفصيلاً وافياً، ينظر: 6/152 وما بعدها.

مواطنها لصنهاجة المغرب الأوسط وبعضهم يسكن جبل القلعة «قلعة بني حماد»[75].

الأقليات غير الوطنية

وإضافة إلى سكان المغرب الأصليين «البربر» وُجِدت هناك أقليات سكنت المغرب العربي ومن هذه الأقليات:

1 ـ الأفارقة: وهم السكان الذين اختلطوا بالروم، ودخلوا في خدمتهم وتأثروا بعاداتهم وتقاليدهم، كما اعتنقوا النصرانية في بداية أمرهم. وأسلم قسم كبير منهم عند دخول القوات العربية بلاد المغرب، لكنهم ظلوا محافظين على لغتهم الخاصة، وعاداتهم، وكانوا ميّالينَ إلى مؤازرة الخارجين على السلطة المركزية[76].

2 ـ الروم: وهم بقايا الاستعمار الروماني، آثرت جالية منهم البقاء في المغرب بعد تحريره ودخل بعضهم الإسلام، في حين ظلت غالبيتهم على معتقادتهم السابقة. وكانوا يتمركزون في بعض إقليم الجريد، وقسطيلية[77].

3 ـ السودان: ووجود السودان في المغرب العربي قديم، وعلاقة المغرب مع أمم السودان الغربي والشرقي وثيقة جدّاً[78]، واستمرت هذه العلائق في العصور الإسلامية وازدهرت في عصر المرابطين[79].

4 ـ وإضافة إلى ذلك فقد وُجِدت جماعة من اليهود، يمارسون التجارة

---

(75) ابن منصور: 1/ 336.

(76) سعد زغلول: 1/ 106.

(77) الاستبصار: 15.

(78) دنيز بولم: الحضارات الأفريقية، ترجمة: نسيم نصار، ط2، 1982، بيروت، ص: 23 وما بعدها.

(79) سعد زغلول: 1/ 108.

وأعمال الرِّبا بين السكان شأنهم في كل زمان ومكان[80].

الديانـــة

كان معظم السكان يدينون بالديانة الوثنية، ويقدمون القرابين لآلهة ذُكِر منها: الإله ماكورنا، ويوتا، وماكورفوس وماتيلا[81]، واهتم الفينيقيون ببناء المعابد للإله تاميت والذي كانت تقدسه قبائل عديدة من السكان[82]، كما كانت عبادة الشمس والقمر وغيرهما من الظواهر الطبيعية منتشرة في أوساط واسعة[83]، إضافة إلى عبادة الأشجار والحيوانات، وتقديس الملوك ورؤساء القبائل[84].

وقد عُرِفت قبائل معيَّنة بعبادة آلهة خاصة بها، فأهل ودَّان كانوا يقدّسون صَنَماً كبيراً من الحجارة، ويقدمون له القرابين[85]، وكانت قبائل أخرى تقدم الكِبَاش وتتبرك بها[86].

وكانت الكاهنة ملكة جبال أوراس وقومها من جراوة يعبدون صنماً كبيراً من الخشب، يُحمَل معها حيث رحلت[87].

وكانت أعمال الشعوذة والسحر منتشرة بين صفوف بعض القبائل، وكان لهذه الأعمال أثر كبير في نفوس العامة من السكان، ولعل خير مثال على ذلك ما كانت تقوم به الكاهنة من أعمال حتى تمكنت من سلب لُبّ وإرادة

(80) العبادي: 16.
(81) السائح: 1/ 58.
(82) الناظوري: 1/ 127.
(83) ابن خلدون: 6/ 94.
(84) السائح: 1/ 85.
(85) البكري: 12.
(86) البكري: 161.
(87) المالكي: 1/ 35.

قومها من جراوة عن طريق التنبؤ، وإخبارهم بأمور لم يألفوها[88].

ووُجِدت الديانة اليهودية طريقها إلى المغرب، فدانت بها قبائل من السكان. كما انتشرت الديانة النصرانية في المناطق والمدن الساحلية التي كانت خاضعة لنفوذ الغزاة البيزنطيين. «غير أن كل هذه الديانات في الواقع، كانت منتشرة انتشاراً سطحيّاً ضعيفاً، بمعنى أنها انتشرت بالاسم فقط، ولم يكن لها غَلَبة أو نفوذ، بدليل أن العرب لم يجدوا صعوبة في اجتذاب المغاربة إلى الإسلام، حتى صاروا من أشد الناس دفاعاً عنه»[89].

(88) ينظر مثلاً: ابن عذاري: 1/37.

(89) العبادي: 17.

الفصل الثاني

تاريخ المغرب العربي قبل الإسلام

العصور القديمة

يتميّز تاريخ المغرب العربي بخصائص ومقومات هامة أثرت في تكوينه الحضاري ومنذ عصور موغلة في القدم، ويمكن تتبع هذه الخصائص والمقومات في عاملين أساسيين هما: الموقع الجغرافي، وبيئة بلاد المغرب.

فالمغرب العربي يشغل المناطق الشمالية، والشمالية الغربية من قارة أفريقية، وهذا الموقع هيّأ له ـ ومنذ القدم ـ الاتصال بأوربا من ناحية وبسكّان أفريقية عبر المناطق الجنوبية والشرقية من ناحية أخرى، ومن ثم ارتباطه الوثيق بالوطن العربي، الوطن الأم، ولا يَخفَى ما لهذه الاتصالات من تأثيرات على تاريخ المغرب في نواح عديدة.

وبيئة بلاد المغرب وطبوغرافيتها، فرضت على الإنسان ظروفاً قاسية دعته إلى بذل جهود كبيرة ولسنوات طوال في سبيل تطويعها إلى جانبه. فسلاسل جبال أطلس التي تمتد من الجنوب الغربي، حتى الشمال الشرقي في جانب الهضاب، والمناطق الوعرة والصحراوية، إلى وجود الأنهار الدائمة الجريان، والأخرى الموسمية، مع ندرة الأراضي السهلية، والتي لا تشكل إلاّ جزءاً يسيراً من مساحة البلاد الكلية، وكان لتأثير البيئة أثر في قيام أنماط من الحياة في المناطق الساحلية تختلف اختلافاً كبيراً عن قرينتها في المناطق

الداخلية والسبب المباشر يعود وقبل كل شيء إلى صعوبة الاتصال بين المنطقتين بسبب قساوة البيئة.

وثمة ظاهرة أساسية حكمت تاريخ المغرب العربي، تلك هي الجمع بين الصفة المحلية والصفة الدولية ضمن نطاق حوض البحر المتوسط[1]، وسنلاحظ هذه الظاهرة بوضوح خلال دراستنا لتاريخ المغرب عبر العصور.

وينقسم تاريخ المغرب العربي القديم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: عصور ما قبل التاريخ:

وتنقسم بدورها إلى:

- العصر الحجري القديم الأسفل.
- العصر الحجري القديم الأوسط.
- العصر الحجري القديم الأعلى.
- العصر الحجري الحديث[2].

وتُعتَبر مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل من أطول وأهم مراحل تاريخ الإنسان القديم، ومهمة الإنسان خلال هذه المرحلة لم تكن بالمهمة السهلة، فقد صارع خلالها عوامل الطبيعة بكل ما تحمله من قساوة، وتغلّب عليها بفضل تفوّقه العقليّ وصموده أمام الصعاب، وأجبرته عوامل الطبيعة على اختيار الأودية والسهول ومصادر المياه كمواطن له، يؤمّن منها قوت يومه لتستمر حياته، والالتجاء إلى الكهوف والمغارات ليحمي نفسه من تقلبات الطبيعة والوحوش المفترسة. وقد تطلبت حياته هذه صنع أدوات

---

(1) الناظوري: المغرب الكبير، العصور القديمة، طبعة 1966، ج1/ ص: 21 ـ 23.
وينظر: الحسن السائح، الحضارة المغربية عبر التاريخ، ط1، 1975، الرباط، ج1، ص: 38.

(2) قسّم ابن منصور، العصور الحجرية التي مرّ بها إنسان المغرب العربي إلى ثلاثة أقسام رئيسية، هي: القديم، والمتوسط، والحديث، ينظر: قبائل المغرب: 1/ 246.

مختلفة مما وجد حوله من الحجر أو العظام أو الخشب لتعينه على تحقيق مهماته في جمع القوت والدفاع عن نفسه. ومن هنا بدأت حضارة الإنسان القديم، ومع مرور الوقت تعددت أدواته المصنوعة بناء على تعدد حاجاته ولم يقتصر مجهود هذا الإنسان على الجانب المادي فقط بل حاول استكمال حياته المادية بجانب معنوي. وقد عُثِر على بعض الآثار التي تؤيد اتجاه إنسان هذا العصر نحو الإيمان ببعض المقوّمات المعنوية[3].

وقد قسَّم العلماءُ المراحلَ الحضارية التي مرَّ بها إنسان هذا العصر إلى مرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى: وتبدأ بصناعة الأدوات الحجرية، وجهود الإنسان في عملية «تشذيب الحجر في اتجاه واحد أو عدَّة اتجاهات» وقد أُطلِق على حضارة هذه المرحلة اسم حضارة «الحصى المُشَذَّب» وقد وُجِدت آثار هذه المرحلة في مواقع عرباوة، ودوار الدوم في نواحي الرباط، وترديجه الرملا في نواحي غابة المعمورة، وتقع جميع هذه المواقع في غربي المغرب الأقصى[4].

المرحلة الثانية: وهي المرحلة الأشولية، وتُقسَّم إلى ثلاثة أقسام: القديمة، والوسطى والمتطورة، وفي هذه المرحلة سادت حضارة النّواة المُشَذّبة ذات الوجهين، وتضمنت المرحلة الأشولية، طبقات ثمانٍ، من الأولى حتى الثامنة، وقد عُثِر على آثار هذه الحضارات في:

أ ـ المواقع الساحلية، ومنها موقع سيدي عبد الرحمن، وموقع مارتن. وموقع دبرية[5].

---

(3) الناظوري: 1/67 وما بعدها. جوليان: تاريخ أفريقية الشمالية، ترجمة: محمد مزالي تونس، 1969، ج1، ص: 50.

(4) الناظوري: 1/82. وينظر: جوليان: 1/50.

(5) ومعظم هذه المواقع تقع في نواحي مدينة الدار البيضاء في المغرب الأقصى.

ب ـ المواقع السهلية، التي لجأ إليها الإنسان بحثاً عن القوت، ومصادر المياه، ومنها موقع عين كرمان جنوبي غربي مدينة الأصنام (الشلف حالياً، ومواقع تمدا في أعالي وادي سبو، وموقع قفصة، وسيدي الزين.

جـ ـ مواقع العيون، التي تجمّع عندها الإنسان كموقع عين حنش. وموقع ثبت حليل، وموقع عين فريطسة، وبحيرة كارار قرب تلمسان.

د ـ المواقع الصحراوية، ومنها موقع ثيهودين في منطقة جبال الهقار(6).

وكانت النُقلة من حضارة الحصى المشذَّب إلى حضارة النواة ذات الوجهين بطيئة جدّاً، وقد تميّزت بظهور الفؤوس اليدوية، والمكاشط والمحكات إلى غير ذلك من الأدوات التي كان وجودها دليلَ تعدد حاجات الإنسان لتنقّله بعد ذلك إلى العصر الذي يليه(7).

وأما مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط، فتتميز عن المرحلة السابقة بميزة هامة هي: صناعة الشظايا، والتي مما لا شك فيه قد أخذت وقتاً طويلاً من إنسان ذلك العصر كي يهتدي إلى صناعة الشظايا التي تلائم حاجاته، وقد كُشِف عن مواقع أثرية عديدة تحمل آثار هذا العصر ومنها، على سبيل المثال، مواقع وادي درنة في ليبيا حيث عُثِر في هذا الموقع على عظام حيوانية كثيرة خاصة الأغنام مع أدوات حجرية حيوانية لصناعة الشظايا وقُدّرت البقايا المتفحّمة المكتَشَفة في طبقات كهف هوافتيح في وادي درعة بـ 43,000 سنة قبل الميلاد. والصلة بين حضارة هذه المواقع، وحضارة المواقع المكتشفة في فلسطين وثيقة جدّاً مما يدل دلالة قاطعة على وجود صلات حضارية وبشرية بين الإنسان العربي في المشرق والمغرب، إضافة إلى وجود آثار الصناعة العتيرية في بعض المواقع الليبية مما يؤيد وجود

(6) الناظوري: 1/ 70 ـ 75. جوليان: 1/ 51.

(7) الناظوري: 1/ 82. وينظر: السائح: 1/ 31.

الصلات الحضارية والبشرية أيضاً بين أقاليم المغرب المختلفة في هذه الفترة أيضاً.

ويُعَتَبر موقع بئر العتير «الحضارة العتيرية»[8] مثالاً للتعبير عن ما وصله هذا العصر في مجال صناعة الشظايا، والمكاشط الجانبية، ورؤوس السهام والأزاميل وغيرها، وقد اكتُشِفت هذه الآثار في مواقع مغربية كثيرة أهمها: كهف الخنزيرة، وكهف مغارة العليا قرب طنجة، وكهف دار السلطان بين الرباط والدار البيضاء إضافة إلى اكتشاف مواقع أخرى في تونس وشرقي الجزائر.

وقد تميّز هذا العصر أيضاً ببداية تطور المعابد أو الأماكن المقدسة، فقد عُثِر في موقع جنوب تونس على أكوام متناسقة من الكرات الحجرية الكبيرة، تتوسط المواقع الأثرية قد تدلّ على أنّ إنسان هذا العصر بدأ بٱتخاذ هذه الأماكن للتقدس وللاستغاثة بها ضد القوى الشريرة[9].

وتُعتَبَر مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى، من أهم مراحل التطور الحضاري، ذلك لأن هذا العصر يمثل خلاصة التجارب التي مرّ بها الإنسان خلال السنوات الطويلة، وعبر العصور الحجرية القديمة السالفة الذكر، ومَهّد لظهور العصر الحديث الذي يمثّل أرقى عصور الإنسان القديم[10].

وتتميّز هذه المرحلة من حياة الإنسان بٱبتكاره لأنواع مختلفة من الأسلحة الحجرية الدقيقة عُرفت بٱسم الأدوات «الميكروليثية»[11] فقد شعر الإنسان خلال هذه المرحلة بحاجته إلى أسلحة خفيفة يَسهُل حملها والتعامل معها بسهولة، مع شدة فاعليتها.

وانتشرت مخلّفات هذه المرحلة في العديد من المواقع الأثرية في

(8) ينظر: جوليان: 1/ 51.
(9) الناظوري: 1/ 104 و105.
(10) الناظوري: 1/ 105. السائح: 1/ 31.
(11) الناظوري: 1/ 106.

الجبل الأخضر بليبيا في مواقع كهف حجفة الطير، وحجفة الضبع، وكهف هوافتيح، وتاريخ هذه الحضارة يعود إلى حوالى (28,000 أو 29,000 ق.م.)[12]، كما وُجِدت آثار هذه الحضارة في مدينة قفصة. وقد قسَّم الاختصاصيّون حضارة قفصة إلى قسمين رئيسيين تبعاً للمراحل التي مرّت بها، وهما: الحضارة القفصية السفلى، والحضارة القفصية العليا، وقد وُجِدت آثارها في مواقع عديدة أشهرها ما أُطلِق عليه اسم الرماديات أو الحلزونيات، وهي التلال التي تجمّعت فيها بقايا الطعام والقواطع والأدوات الحجرية المستخدَمة خلال هذه الفترة[13].

وقد انتشرت الحضارة القفصية في تونس، وشرق الجزائر، إضافة إلى مناطق أخرى من بلاد المغرب العربي.

وإضافة إلى ما سبق، هناك الحضارة الوهرانية الساحلية، والتي تميَّزت، «بصناعاتها الحجرية الخاصة حيث يلاحَظ أن النَّوَاة الحجرية التي استخدمها إنسان هذه الحضارة كانت صغيرة ومسطَّحة أو مستطيلة أو بيضاوية، وتشبه إلى حد كبير صناعة موقع حجفة الطير»[14].

وقد ازدادت قدرات الإنسان الفكرية خلال هذا العصر، فبدأ بعض الرسومات والمنحوتات البدائية للتعبير عن بعض ما يجول في فكره، ففي موقع «المكتا» جنوب تونس، وُجِدت مجموعة من النقوش ومنحوتات من الحجر تدلّ على أن إنسان هذا العصر لا يزال يبحث عن الأمان، ويتقرّب إلى القوى الخفية بطرق مختلفة، اتقاءً لشرها، كما أن اهتمام إنسان هذا العصر بالرسوم والنقوش يعدّ مرحلة هامة في تطوّر التعبير الإنساني والتي ستوصله إلى مرحلة التعبير بالكتابة في بداية العصر التاريخي[15].

---

(12) الناظوري: 1/ 112.

(13) الناظوري: 1/ 112. وينظر جوليان: 1/ 53 و54.

(14) الناظوري: 1/ 114. ويقع هذا الموقع على بعد 15 ميلاً من مدينة بني غازي.

(15) الناظوري: 1/ 121. جوليان: 1/ 56.

وأما مرحلة العصر الحجري الحديث، فهي المرحلة الأخيرة من المراحل التي مرّ بها الإنسان القديم، قبل مرحلة التدوين التاريخي، وتُعَد هذه المرحلة نقلة هامة وحاسمة من حياة الإنسان القديم، فقد انتقل من عصر جمع القوت إلى عصر إنتاج القوت وخزنه، ومن حياة التنقل وعدم الاستقرار إلى حياة الاستقرار وبناء الملاجئ لسكناه، إضافة إلى الاستقرار الفكري التي تمتع به إنسان هذه الفترة، لذلك يعتبر العصر الحجري الحديث، ثورة في حياة الإنسان[16]. وقد ثبت من التحري الدقيق لتراث الإنسانية أولوية الإنسان العربي في التوصل إلى مرحلة الإنتاج والاستقرار المادي والفكري، وقد سبق إنسان المشرق العربي أخاه إنسان المغرب العربي في هذه الثورة، وتقدم عليه، فتوصل إلى زراعة البذور والإنتاج، وتخزين محصوله، وبناء المساكن، ورصف الطرق، واعتمد المقابر لموتاه، والمعابد للإله.

وكان لاختلاف ظروف الإنسان القديم في المغرب العربي سبباً في تأخره عن إنسان المشرق العربي، فالبيئة المغربية بطبيعتها الجغرافية، وجّهت الإنسان العربي في المغرب إلى «طابع آخر في مجال التطور الحضاري، فبينما كان الطابع المميز لحضارات المشرق العربي القديم هو الزراعة، نجد أن الرعي هو الطابع الذي يميّز هذه المرحلة في بلاد المغرب، وإن وجدت مظاهر الإنتاج الزراعي، فهي محدودة في أغلب الأحيان، ذلك لأن طبيعة البيئة تتفق مع حياة الرعي أكثر من اتفاقها مع حياة الزراعة، ولهذا السبب أيضاً تأخّر العصر الحجري الحديث في المغرب عن ظهوره في المشرق العربي بحوالي ألف سنة، فقد بدأ في المشرق في منتصف القرن الألف السادس قبل الميلاد بينما بدأ في المغرب أواسط الألف الخامس قبل الميلاد، وبينما انتهى هذا العصر في المشرق في منتصف الألف الرابع قبل

(16) الناظوري: 1/ 123. دنيز: 18.

الميلاد ـ حيث تبدأ العصور اللاحقة ـ يستمر هذا العصر في المغرب لغاية سنة 1200 ق.م، ويعود ذلك كما قلنا إلى الصعوبات البيئية التي واجهها الإنسان العربي القديم في بلاد المغرب مما تطلب منه جهوداً مضنية ووقتاً أطول لتطويع بيئته والتغلّب على الصعوبات التي واجهته(17).

وقد وُجِدت آثار العصر الحجري الحديث في موقع هوافتيح، حيث عُثِر على مجموعة من الأواني الفخارية الدالة على استقرار الإنسان وميله إلى تخزين قوته، وقد أرخت آثار هذه الفترة بحوالي النصف الثاني من الألف الخامس قبل الميلاد، وقد لاحظ الدارسون لهذه الآثار وجود علاقات وصلات حضارية بين ما اكتشف في هذه المواقع، وما اكتشف في مواقع الفَيّوم الأثرية بمصر(18).

ووُجِدت آثار هذا العصر أيضاً في مواقع الكهوف الساحلية، فقد عُثِر في هذه المواقع على الأواني الفخارية الكروية الشكل، أو البيضوية الشكل ذات القواعد المدببة، زُيِّن بعضها بحزوز أو خطوط أسفل الفوهة، وقسمٌ منها له ثقوب في الناحية العليا، وبروز جانبي ليسهل أمر حملها ونقلها من مكان لآخر.

واستمر إنسان هذا العصر بأستخدام أسلحة الشظايا الدقيقة ورؤوس السهام، كما بدأت معه محاولات لصناعة حلى الزينة(19).

وزادت الرسومات التعبيرية لإنسان العصر الحجري الحديث، فقد خلّف الكثير من النقوش والرسومات على الصخور، وعُثِر في الكهف الأحمر بنواحي تِبِسّة على نقوش طُرِّزت ببَيْض النعام، وأهتم الإنسان بالدرجة الأولى برسوم حيوانات بيئية كرسوم الكِبَاش التي تحمل فوق

---

(17) الناظوري: 1/ 124.

(18) الناظوري: 1/ 126. وينظر جوليان: 1/ 58. السائح: 1/ 34.

(19) الناظوري: 1/ 126. وينظر أيضاً: عبد العزيز بن عبد الله: 1/ 29.

رؤوسها رموزاً بيضاوية الشكل، وأمامها رسم رَجُل يرتدي قميصاً وحزاماً عريضاً، إضافة إلى رسومات أخرى عشر عليها في بَرْقَة وجنوب وَهْران. وتؤرِّخ رسوم هذه المرحلة بالفترة الممتدة من حوالي منتصف الألف الثالث حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد[20].

وبنهاية هذا العصر يبدأ في بلاد المغرب العربي وابتداء من سنة «1200 قبل الميلاد» عصرٌ جديدٌ هو: العصر التاريخي، والذي يُعتبَر من أهم العصور في تاريخ المغرب.

القسم الثاني: العصر التاريخي

ـ العصر الفينيقي

ويبدأ هذا العصر بوصول العرب الفينيقيين[21] بلادَ المغرب، وتأسيسهم لأعظم دولة عربية قامت في المنطقة آنذاك. ولعبت الأسباب السياسية والاقتصادية والبشرية دوراً في هجرة العرب الفينيقيين من بلاد الشام إلى المغرب العربي، ولم يلاق الفينيقيون أي صعوبات تذكر في نزولهم السواحل المغربية، ذلك لأن الهجرات العربية في بلاد الشام وغيرها من الوطن العربي كانت قد سبقت الفينيقيين على الاستقرار في المغرب منذ العصور الحجرية القديمة.

ويؤرّخ العصر الفينيقي في المغرب بنهاية الألف الثاني قبل الميلاد وحتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وقد تميّز بالنشاط التجاري الواسع في مناطق البحر المتوسط الغربية، وبٱرتباطه الوثيق بمدينة صور في المشرق العربي، وقد ظل هذا الارتباط واضحاً في كثير من المجالات حتى

(20) الناظوري: 1/ 126 ـ 144. جوليان: 1/ 58 ـ 61.

(21) عن أصل التسمية ينظر: أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ط2، ص: 19. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، 1956، ج2، ص: 239.

بعد استقلال المراكز الفينيقية في المغرب بقيام دولة قرطاجنة[22].

وقد عمل الفينيقيون على تأسيس مراكز تجارية لهم على طول السواحل المغربية ودواخلها بلغت الخمسمائة مركزاً[23]. أقدمها وأشهرها مدينة طاقة «أوتيكا» وسوسة، وبنزرت، وصلداي «بجاية» وهسبو «عنابة» وتينجيس «طنجة» وليكسوس «العرائش» وروسادير «مليلية» وقرطاجنة[24].

ولقي الفينيقيون في المجال الاقتصادي، منافسةً شديدة من قِبَل اليونان، وبدأت العلائق بينهما تنحو منحىً خطيراً، عندما ظهرت بوادر الاختلاف بين الطرفين على إثر محاولة اليونان استحواذهم على جزيرة صقلية، والتي كانت تجمع بين النفوذين الفينيقي واليوناني، ومع بداية القرن السادس قبل الميلاد، بدأ الصدام المسلّح بين الطرفين، ولما كانت مدينة صور عاجزة عن القيام بأمر الدفاع المطلوب عن أملاكها في المغرب نتيجة الظروف التي أحاطت بها في المشرق، انبرت مدينة قرطاجنة للذود عن مناطق نفوذها ضد اليونان، ودخلت في حروب طاحِنة معهم، حتى تمكّنت في النهاية من إقرار الأمن والسلام في معظم المناطق التي هددها اليونانيون[25].

وهكذا كانت هذه الظروف سبباً في الانتقال من المرحلة الفينيقية المرتبطة بالمشرق العربي وبالعاصمة الأم صُور، إلى المرحلة القرطاجية المستقلة، وتمّ ذلك الانتقال على يد أسرة فينيقية في مدينة قرطاجنة هي الأسرة «الماجوية» نسبة إلى زعيمهم «ماجو» قائد الجيش[26] وقد سعى ماجو ومنذ البداية إلى تكوين جيش قوي يعتمد عليه في الدفاع، والهجوم، اختاره من خيرة المقاتلين والفرسان.

(22) الناظوري: 1/ 150 وما بعدها. ابن منصور: قبائل المغرب: 1/ 90.
(23) ابن منصور: 1/ 92.
(24) ابن منصور: 1/ 257.
(25) الناظوري: 1/ 171. وينظر: جوليان: 1/ 89.
(26) الناظوري: 1/ 173.

ولم يَعِب هذا الجيش، غير وجود بعض فِرَق المرتزقة من الغال واليونانيين والزنوج وغيرهم، وكان لهذه الفِرَق خطورتها «في كافة الجوانب التنظيمية والتكتيكية والقومية» ومن متطلبات الدفاع أيضاً الاهتمام بتحصين المدن وشحنها بالحاميات المزوَّدة بكافة الأسلحة. وهكذا بدأت مرحلة جديدة أقرب إلى الصفة السياسية منها للاقتصادية، وهي مرحلة العصر القرطاجنّيّ، زادت خلالها الصلات بين الفينيقيين وسكان المغرب العربي[27]، وانتقل فيها المغرب من الإطار المحلّي إلى صميم معترك التطورات السياسية الدولية في حوض البحر المتوسط[28].

القصر القرطاجني:
«منتصف القرن السادس قبل الميلاد ولغاية 146ق.م.».

يُعتبَر العصر القرطاجنّي من أهم العصور في تاريخ المغرب العربي القديم، فقد تبوّأت فيه مدينة قرطاجنّة مكان الصدارة بين المدن، وأصبحت عاصمة البلاد ومركزاً مهمّا من مراكز الإشعاع الفكري والحضاري، ليس على مستوى المغرب العربي فحسب، وإنما على مستوى عموم شعوب المنطقة.

تأسست مدينة قرطاجنة سنة 814ق.م[29]، وقُدِّر لها أن تكون من أهم المدن الفينيقية في بلاد المغرب، فقد قامت بقيامها مختلف العمائر المدنية

(27) ابن منصور: 1/ 257، 259. الناظوري: 1/ 173.

(28) الناظوري: 1/ 173 و174.

(29) جوليان: 1/ 86. وينظر: ابن منصور: 1/ 57، أحمد سوسة: 23.
وعن تأسيس المدينة تردد رواية مفادها أن الأميرة الفينيقية جونوأ و«عليشه ديدون» أرملة أسرباس رئيس كهنة مدينة صور، خرجت مغاضبة أخيها بيغماليون لاستبداده بالمُلْك واستئثاره بكنوز وأموال زوجها، فنزلت وعدد كبير من أتباعها المغرب العربي، فأقامت مدينة قرطاجنة سنة 814ق.م. وما كاد خبر قيام هذه المدينة يشيع حتى قصدها عدد كبير من أهل الشام وغيرهم من السكان الآخرين حتى بلغ عدد نفوسها في أوج عمرها المليون نسمة.

والعسكرية، ويُعتبَر ميناؤها من أهم المنشآت القائمة في المدينة، وهو قسمين: قسم مخصَّص للأغراض التجارية، وقسم مخصّص للأغراض العسكرية. وقام الميناء التجاري على مسطّح مستطيل الشكل، بينما قام الميناء البحري على شكل دائري تتوسّطهُ جزيرة يقع عليها مقرّ قيادة الأسطول العسكري(30).

وقد اعتُنيَ بتحصين المدينة اعتناءً فائقاً، فأُحيطت بسور طوله أربعة وثلاثين كيلو متراً، وارتفاعه حوالي ثلاثة عشر متراً، وعرضه تسعة أمتار. وكانت جدران السّور العالية والسميكة تُستخدَم بمثابة ثكنات للقوات ذات أدوار سُفلية وعُلوية، فقد كانت تتسع لعشرين ألف جندي، وأربعة آلاف من الفرسان. إضافة إلى المعدات العسكرية والحيوانات المستخدمة للأغراض العسكرية. ولغرض تدعيم هذه التحصينات فقد أحيطت بخندق عرضه عشرون متراً. وتُعتبَر قلعة المدينة قصبتها المنيعة، ومركز السلطة الزمنية، وقد أُحيطت هي الأخرى بسور منيع، وإضافة إلى القلعة كانت هناك بناية مجلس الشيوخ، وقاعات القضاة، والمعابد العديدة للإله ثانيت، والإله أشمون والمنازل ذات الأدوار العديدة المتأثرة بعمائر مدينة صُور(31).

التنظيم السياسي

مرَّ التنظيم السياسي الفينيقي بمراحل ثلاث رئيسية:

المرحلة الأولى: المرحلة الملكية:

وتُعتبَر امتداداً لعصر حكومات المدن الفينيقية في المشرق، فقد كان الملك الفينيقي يُختار من بين الطبقة الثرية، وذات الجاه التقليدي بالوراثة وهي الطبقة الأرستقراطية، وقد احتكرت هذه الأُسَر الحكم لنفسها خلال

(30) أحمد صفر: مدينة المغرب العربي عبر التاريخ، طبعة تونس، 1959، ص: 97.
(31) أحمد صفر: 102. الناظوري: 1/180.

هذه المرحلة ومنها الأسرة الماجوية[32].

المرحلة الثانية:

وتمثّلت بانتزاع السلطة السياسية من الأسرة الماجوية في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وتمثل هذه المرحلة مرحلة جديدة، أشبه ما تكون بالنظام الجمهوري، رغم الاحتفاظ باللقب الملكي، وقد شهدت هذه المرحلة تعدد الوظائف السياسية، وظهور الهيئات العديدة في مجال الحكم مثل مجلس الشيوخ المتكوّن من ثلاثمائة عضو، ومجلس المائة.

وتُركت السلطة السياسية بيد حاكمين. مدة حكمهما سنة واحدة ولهما رئاسة مجلس الشيوخ، أما مجلس المائة، فكانت واجباته محصورة في مراقبة السياسة العامة وضمان سيرها في الطريق المطلوب.

المرحلة الثالثة:

وقد شملت القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، وكان الحكم خلالها لأسرة برقة، وقد جمعت هذه المرحلة بين السلطة التي مُنِحت لأسرة برقة، وسلطات مجلس الشيوخ والمجلس الثلاثيني، ومجلس العشرة، أي الجمع بين الأنظمة الملكية والأرستقراطية والشعبية.

وقد تميّزت المراحل الثلاث السابقة بميزتين أساسيتين:

الأولى: تركيز السلطات بيد المواطنين الفينيقيين دون غيرهم من عناصر السكان الأخرى.

والثانية: الجمع ولحد كبير بين الوظائف المدنية والوظائف العسكرية[33].

---

(32) جوليان: 1/ 289. الناظوري: 1/ 180 وما بعدها.

(33) الناظوري: 1/ 183 ـ 1/ 183 ـ 185.

الصراع مع القوى الاستعمارية

دخل الفينيقيون في صراع مع القوى الاستعمارية المتواجدة في منطقة البحر المتوسط، وحاولت هذه القوى وبطرق شتى غزو أملاك الفينيقيين والسيطرة عليها، ففي المرحلة الأولى من العصر القرطاجنّي بدأت القوى اليونانية في محاولات لبسط سيطرتها على مناطق هي الأصل من مناطق نفوذ الدولة القرطاجية، ومع بداية العصر القرطاجني الثاني، تبدأ صفحة الصراع العنيف مع القوى الاستعمارية الرومانية، واستمر هذا الصراع طويلاً حتى تمكّن الغزاة الرومان من دخول قرطاجنة وإبادة أسباب الحياة والحضارة فيها سنة 146ق.م.

وبدأ الصراع مع القوى الاستعمارية اليونانية خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وكانت جزيرة صقلية ميدان الاحتكاك بين الطرفين فقد كانت هذه الجزيرة تجمع بين النفوذ القرطاجني، والنفوذ اليوناني، وكان حكام المدن فيها يرتبطون برباط الولاء لهذه القوة أو تلك ويحتمون بحمايتهم، وكانت خلافات حكام المدن فيما بينهم، سبباً في تجريد الحملات العسكرية وتجديد أسباب النزاع بين القوتين القرطاجية واليونانية[34].

فعندما قام ثرون حاكم مدينة أكراجاس والمدعوم بالنفوذ اليوناني بمهاجمة مدينة هميرا استنجد حاكمها تريلوس بقرطاجنة، ولم تتوان قرطاجنة عن إنجاده فسيّرت إلى الجزيرة حملة كبيرة، شاركت فيها القوات البحرية والبرية، قادها هملكار «عملقات» فنزل ساحل الجزيرة، ودارت بينه وبين جلون قائد الجيش اليوناني الصقلي معركة شديدة اضطر خلالها الفينيقيون إلى الانسحاب والعودة إلى قرطاجنة بعد مقتل قائدهم وخسارتهم لأعداد كبيرة من السفن[35].

---

(34) ينظر: جوليان: 1/ 89. الناظوري: 1/ 187.

(35) جوليان: 1/ 89 «ويجعل تاريخ الحملة سنة 480 ق.م». وينظر: الناظوري: 1/ 188.

ورغم توقف نشاط الفينيقيين العسكري فترة طويلة من السنين[36]، فقد عاودوا الكرّة سنة 409ق.م[37]، عندما طلب حاكم مدينة سجستا الدخول تحت حماية قرطاجنة لصدّ خطر اليونان الذين باتوا يهددون كيانه، فقاد هانيبال بن جزجو حفيد هملكار حملة نزلت على مدينة سلينوس، فأنتصر على قواتها ثم زحف نحو مدينة هميرا لأستعادة السيادة القرطاجية عليها بعد أن فقدتها في المعركة السابقة، وحاول حاكم سوقوسة «سيراكيوز» وقف تقدم القوات الفينيقية ومنعهم من استعادة مدينة هميرا، ولكن هانيبال اعتمد مناورة ذكية، عندما ترك مدينة هميرا، وأظهر نيته في الزحف والسيطرة على سرقوسة، مما أثار فزع قواتهم المتواجدة لحماية هميرا، فغادروها للدفاع عن مدينتهم سرقوسة عندها عاد هانيبال مسرعاً فدخل مدينة هميرا، وتمكّن من استعادة نفوذ قرطاجنة على القسم الغربي من الجزيرة لتأمين خطوط مواصلاتها البحرية في غرب البحر المتوسط[38].

وقد استمر الصراع عنيفاً بين القوات القرطاجية وحُكام سرقوسة طيلة فترة القرن الرابع قبل الميلاد، ووقعت بين الطرفين معارك عديدة أشهرها معركة موتيا سنة 398ق.م والذي تمكّنت فيها قوات قرطاجنة من إنزال أفدح الخسائر بين صفوف القوات السرقوسية البحرية والبرية[39]. ورغم تمكّن السرقوسيين من إحراز بعض التقدم في معارك سنة 393ق.م. وسنة 382ق.م[40]، إلاّ أن قرطاجنة تمكّنت من المحافظة على مناطق نفوذها في جزيرة صقلية، ولم يتمكن السرقوسيون وحلفاؤهم من تحقيق أهدافهم.

(36) جوليان: 1/ 89.
(37) جوليان: 1/ 91.
(38) الناظوري: 1/ 194 وما بعدها.
(39) الناظوري: 1/ 198: خسر حُكّام سرقوسة في هذه المعركة أكثر من مائة سفينة وعشرين ألف جندي.
(40) جوليان: 1/ 92.

وبعد أن تمكّن الرومان من توطيد سلطانهم في إيطاليا، وجّهوا أنظارهم نحو جزيرتي صقلية وسردينية، ووجدوا في تواجد الفينيقيين فيها تهديداً لأمن وسلامة دولتهم من ناحيتي الجنوب والغرب، وبدأت العلاقات بين الطرفين تُنذِر بالصدام المسلح، وكان لحُكّام المدن في جزيرة صقلية أثر كبير في إذكاء نار العداوة، وتعميق الخلافات، وتعجيل الصدام، فقامت بين الدولتين حروبٌ أُطلق عليها أسم الحروب البونية[41]، وهي: الحرب البونية الأولى والثانية والثالثة، وقد استغرقت هذه الحروب طيلة سنوات القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، وأنتهت سنة 146ق.م. بأحتلال الغزاة الرومان لمدينة قرطاجنة.

قامت الحرب البونية الأولى سنة 264ق.م. واستمرت لغاية سنة 241ق.م، وكانت هذه الحرب في طبيعتها حروباً بحرية، تناطحت فيها أساطيل كِلاَ الدولتين، ففي سنة 262ق.م وقع الصدام بين الطرفين في ليبارا، ثم ميلاي بجوار مدينة مسينا، ورغم تمكّن الغزاة الرومان من إحراز بعض الانتصارات على القوات القرطاجية، إلاّ أنهم مُنوا بهزيمة كبيرة في موقعة ترماي سنة 259ق.م، ولكي يتجنب الرومان قوة الأسطول القرطاجي، فقد عملوا على نقل المعارك من المجال البحري إلى المجال البري وتمكّنوا في سنة 256ق.م[42] من إنزال قواتهم البرية في «اسبيس» شرق عنابة ومنها زحفوا غرباً بأتجاه منطقة تونس، وتمكّنت القوات القرطاجية من وقف تقدّمهم وتدمير معظم قواتهم، وقَتْل قائد الحملة «رجولوس» وأرتد من بقي منهم منهزماً بما تبقى لديهم من سفن الأسطول[43].

وإزاء هذه الخسائر التي مُنِيَ بها الغزاة الرومان، عاودوا الهجوم على مناطق

(41) جوليان: 1/ 96. طه باقر: 2/ 255. الناظوري: 1/ 244.
(42) الناظوري: 1/ 249.
(43) الناظوري: 1/ 250. وينظر جوليان: 1/ 97.

القرطاجيين في جزيرة صقلية[44]. واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين حتى سنة 241ق.م. عندما تمكّن الغزاة الرومان من الانتصار على القوات البحرية القرطاجية وأضطر القرطاجيّون إلى القبول بشروط الهدنة والتي تضمنت:

1 ـ دفع مبالغ كبيرة من الأموال إلى الرومان تعويضاً عن خسائرهم[45].

2 ـ الجلاء من جزيرة صقلية.

3 ـ التعهد بعدم مهاجمة مدينة سرقوسة[46].

وبهذا الاتفاق انتهت الحرب البونِيّة الأولى، لصالح الغُزاة الرومان.

وأما الحرب البونية الثانية (218 ـ 201ق.م) فقد حاول القرطاجيون تعويض ما فقدوه بعد انتهاء الحرب البونية الأولى، فعملوا وبسرعة فائقة على بناء قواتهم العسكرية، وزودوها بكافة الأسلحة المتطورة، ووجّهوا قواتهم نحو قاعدة جديدة للوصول إلى روما عن طريق البر. فدخلوا شبه جزيرة إيبريا «إسبانيا» في عهد القائد هملكار، وأوهموا الرومان بأنهم لا يقصدون من هذه العملية إلاّ لاستغلال المعادن لأغراض تجارية بحتة لتُعينهم على دفع التعويضات المفروضة عليهم[47]. وعندما توفي هملكار سنة 228ق.م اتَّبع خَلَفه هزدروبال «صدر بعل» سياسة اللين والمداراة مع الإيبيريين وتمخّضت هذه السياسة عن كسب أحد زعمائهم، ثم قام بتأسيس مدينة قرطاجنة الجديدة، ووجد الرومان في سياسة هزدروبال، وميل السكان الإيبيريين نحوه، تهديداً لسلطانهم، فسعوا إلى عقد اتفاقية بينهم وبين القرطاجيين سنة 226ق.م تعهدت بموجبها حكومة قرطاجنة بعدم تخطي نهر الإيبرو في عملياتها العسكرية[48].

---

(44) جوليان: 1/ 97.

(45) قدّرها جوليان بـ «3200 وزنة أوبية أقساطاً مدة عشر سنين».

(46) الناظوري: 1/ 215. جوليان: 1/ 98.

(47) الناظوري: 1/ 258. طه باقر: 2/ 225.

(48) جوليان: 1/ 100. وينظر: الناظوري: 1/ 258.

وبتولّي هانيبال زمام القيادة في إيبريا بدأت معه سلسلة من الأعمال الجريئة لتوطيد السيادة القرطاجية، وعَبَر سنة 218ق.م نهر الإيبرو منهياً بذلك المعاهدة المفروضة على القرطاجيين، وزحف بقواته، وهدفه مهاجمة الرومان في عقر دارهم[49]. وقد تمكّن هانيبال من تجاوز جميع الصعاب التي واجهته، والانتصار على القوات الرومانية عند نهر تربيا في إيطاليا «وكان لهذا الانتصار أثره البالغ في هذه المرحلة من الصراع القرطاجي ـ الروماني، وذلك لأن أعداء الرومان لم يقتصروا في ذلك الوقت على العناصر القرطاجية، بل لقد كان هناك العناصر الغالية التي كانت تنتهز الوقت المناسب للزحف على روما وإنهاء السيادة الرومانية، وكذلك كانت هناك بعض العناصر الإيطالية الأخرى مثل العناصر السمنية في الجنوب، والتي كانت تريد التخلص من الزعامة الرومانية. . . ولذلك فقد كان انتصار هانيبال على الرومان في شمال إيطاليا حافزاً على تشجيع هذه العناصر المعارضة لروما في الاستمرار على اتجاهاتها السياسية بل وتأييد هانيبال في عملياته الحربية»[50] ولهذا عمد هانيبال إلى التحالف مع الغاليين، وأطلق سراح الأسرى الإيطاليي الأصل. وواصل زحفه في إيطاليا، فألحق بالقوات الرومانية هزيمتين عسكريتين الأولى في تراسيمنوس في إقليم أترووربا، والثانية في كناي[51]. وكان بإمكان هانيبال بعد انتصارته هذه، من التوجّه نحو روما للقضاء على السيادة الرومانية، ولكن بدلاً من ذلك قرر الاتجاه نحو الجنوب، وقيل في تعليل ذلك، إن خطته هذه تتفق مع سياسته المعتمدة

---

(49) الناظوري: 1/ 259. طه باقر: 1/ 255. قدر جوليان: 1 ـ 101، قوات هانيبال بحوالي خمسين ألف من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان إضافة إلى سبعة وثلاثين فيلاً كانت ترافق الحملة.

(50) الناظوري: 1/ 260 و261.

(51) الناظوري: 1/ 261. جوليان: 1/ 102، وقد تمكّن هانيبال في هذه المعركة من قتل أكثر من (45) ألف روماني وأسر (20) ألف وانهزمت البقية. وكانت قواتهم على حد قول جوليان (80) ألف مقاتل.

على بث الفُرقة داخل إيطاليا تمهيداً لتوجيه ضربة قوية للرومان، ومن ناحية أخرى فقد كانت روما مدينة محصَّنة تحصيناً جيداً، ولم يكن بمقدور قوات هانيبال التعرض لها بعد أن أنهكت العمليات العسكرية جهود قوّاته وطالت خطوط مواصلاته، مما جعل أمر تموين قواته عن طريق إيبريا «إسبانيا» أو المغرب أمراً بالغ الصعوبة[52]، وقد وضح ذلك عندما طلب الإمداد من قرطاجنة فلم يمدوه إلاَّ بقوّات رمزية، وكانت معارضة حاكم قرطاجنة لخطط وأهداف هانيبال سبباً في عدم إغاثته وإمداده بالقوات اللازمة، وحاول أخوه هزدروبال إمداده بقوات كافية عن طريق إسبانيا، ولكن الرومان اعترضوا هذه الإمدادات وتمكّنوا من قتل هزدروبال وتشتيت قواته[53].

ورغم نجاح هانيبال في محالفة الغاليين والمقدونيين في عهد ملكهم ڤيليب الخامس إلاَّ أن هذه المحالفات لم تُخرِجه من المأزق الذي وقع فيه خصوصاً بعد أن اضطر القرطاجيون إلى إخلاء شبه جزيرة إيبريا والعودة إلى بلادهم، وخطط الرومان في نقل الصراع إلى الساحة المغربية، فاْضطر أخيراً إلى الانسحاب والعودة إلى المغرب للدفاع عن مدينة قرطاجنة[54].

وفي سنة 202ق.م وقعت معركة شديدة بين الطرفين أُطلق عليها اْسم معركة زاما «جامِه» تمكّن الغزاة الرومان خلالها من إلحاق خسائر كبيرة في صفوف القوات القرطاجية[55] حتى أَجبرت هانيبال على عقد هدنة في سنة 201ق.م تضمنت الكثير من البنود القاسية ومنها:

- تعويض الغزاة الرومان عن خسائرهم المادية في المعركة[56].
- تحديد الأسطول القرطاجي بعشرة سفن فقط.

---

(52) الناظوري: 1/ 263. جوليان: 1/ 103.
(53) الناظوري: 1/ 264.
(54) الناظوري: 1/ 265.
(55) جوليان: 1/ 105. طه باقر: 2/ 255.
(56) ينظر مقدار التعويض، جوليان: 1/ 106.

- عدم السماح للقوات القرطاجية بدخول أي حرب داخلية كانت أم خارجية إلاّ بموافقة الرومان.

- استلاب مساحات واسعة من الأراضي، ومَنْحِها لحلفاء الرومان من زعماء البربر. وبهذه الشروط التي نالت الكثير من سيادة الدولة القرطاجية، أنهى الرومان الحرب البونية الثانية[57].

وحاولت قرطاجنة بعد انتهاء الحرب البونية الثانية استعادة قدراتها العسكرية على كثرة الأعباء الثقيلة التي كانت تتحملها. ولاقت في سبيل ذلك العديد من المشاكل والعقبات، فقد انتهزت بعض العناصر البربرية المتحالفة مع الرومان هذه الظروف وبدأت تُغِير على أراضي الدولة القرطاجية، وكان ماسينا من أشدهم خطراً على كيان القرطاجيين، في وقت لم تتمكن القوات القرطاجية من التحرك للقضاء عليه التزاماً ببنود المعاهدة، فطلبت الحكومة القرطاجية من الرومان التدخل لوقف الأعمال التخريبية التي يقوم بها ماسينا، ولكن الرومان لم يجدوا لهذا الطلب أُذُناً صاغية، وعندما قرر القرطاجيون القيام بسلسلة من الهجمات على قوات ماسينا ومراكز تجماعاته، وتمكّنوا من تشتيت قواته، غير أن الغزاة الرومان لم يطيقوا تحمّل نتائج هذه الانتصارات، فهددوا بالتدخل العسكري، وهم ينوون القضاء على دولة قرطاجنة، وقد أُجبِرت قرطاجنة على تنفيذ كافة شروط الرومان مقابل إيقاف تهديدهم العسكري بالتدخل وكانت شروطاً مجحفة نصّت على:

- تسليم كافة الأسلحة البرية والبحرية القرطاجية.

- تقديم ثلاثمائة رهينة من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجني[58].

وليس هذا فحسب، فقد تمادى الغزاة الرومان في مطالبهم ووَضْع

(57) الناظوري: 1/ 274. جوليان: 1/ 106.

(58) الناظوري: 1/ 278.

الشروط المذلة، حتى طالبوا القرطاجيين بإخلاء مدينة قرطاجنة والانتقال إلى مكان آخر(59). ولم يمتثل القرطاجيون لهذه الشروط التعسفية فقرروا مجابهة الغزاة ومقاتلتهم حتى النهاية.

وهكذا بدأت الحرب البونية الثالثة (149ق.م ـ 146ق.م) وخلال هذه الفترة صارع القرطاجيون قوات الغزاة الرومان صراعاً عنيفاً، وكافحوا في سبيل الحفاظ على دولتهم كفاحاً مجيداً، رغم خيانة بعض زعماء البربر ومعاونتهم للغزاة. وبرز دور المرأة القرطاجية واضحاً في هذا النضال المصيري فقد سمحت النساء باستخدام شُعورهن كحبال لبعض المستلزمات العسكرية(60)، وكان على رأس القوات القرطاجية القائد هزدروبال، وعلى القوات الغازية القائد الروماني سكيبيو، وحاصرت القوات الغازية مدينة قرطاجنة، وتمكّن القرطاجيون من إذاقة الغزاة مُرّ الهزيمة مرات عديدة، وأستمر القتال شديداً حتى تمكّن الغزاة من إحداث ثغرة في سور المدينة، فدفعوا بعض قواتهم إلى الداخل بعد أن حاصروا منافذ المدينة البحرية. وفي سنة 146ق.م. زحف سكيبيو بكامل قواته لأجتياح المدينة وإخضاعها، ودارت بين الغزاة وسكان المدينة معارك ضارية، وكان تصميم القرطاجيين على النصر أو الموت أمراً لا مراء فيه، فعندما حاول القائد القرطاجني هزدروبال الاستسلام ووقف القتال حفاظاً على أرواح القرطاجيين، رفضت زوجته هذا التصرّف وطالبته بمواصلة القتال، ولكي تمنع زوجها القائد من أي تصرف عاطفي اتجاهها ألقت بنفسها وأولادها في النيران المشتعلة، لتدفع زوجها القائد على مواصلة القتال وحتى الموت. وهكذا استمرت المقاومة العنيفة والقتال الشديد من دار إلى دار حتى فُنِيَ مُعظم سكانها، ولم يبق للغزاة الرومان إلاّ الانتقام من المدينة نفسها فدمروها تدميراً كاملاً، ونهبوا

(59) الناظوري: 1/ 278.

(60) الناظوري: 1/ 278. جوليان: 1/ 143.

كل ما وجوده فيها من نفائس وذخائر، وبلغ حقد الغزاة ووحشيتهم إلى درجة ذر الملح في أرضها وحرثها كي لا تعود صالحة للحياة مرة أخرى[61].

القسم الثالث: المغرب تحت السيطرة الأجنبية:

وبسقوط مدينة قرطاجنة بيد الرومان سنة 146ق.م دخل المغرب العربي تحت نير الاستعمار والقوى الأجنبية فسيطر عليه الرومان ثم الوندال، ثم الروم البيزنطيين.

فقد حاول الغزاة الرومان بعد سقوط مدينة قرطاجنة وبكافة الوسائل العسكرية والتآمرية السيطرة على مقاليد الأمور في بلاد المغرب، واعتباره ولاية من ولايات إمبراطوريتهم وقسّموه إلى أربع ولايات رئيسية هي:

ولاية أفريقية، وتشمل الأقاليم الواقعة ما بين طرابلس وعنّابة.

ولاية نوميديا، وتشمل الأقاليم الواقعة في شرقي الجزائر.

ولاية موريطانيا القيصرية، وشملت الأقاليم الواقعة غرب الجزائر حتى وادي ملوية وكانت مدينة شرشال قاعدة هذه الولاية.

وولاية موريطانيا الطنجية وشملت الأقاليم الواقعة في المغرب الأقصى مما يلي وادي ملوية غرباً، وتُعتبر مدينة طنجة قاعدة هذه الولاية.

وكان على كل ولاية حاكم يتمتع بسلطات واسعة ومرتبط بحاكم المغرب العام[62].

ولم يكن همّ السلطات الرومانية إلاّ جمع الأموال الطائلة، وفرض الضرائب الباهظة، واستنزاف اقتصاديات البلاد بطرق شتى[63]، والعمل على

---

(61) الناظوري: 1/ 278 وما بعدها. طه باقر: 1/ 255 و256. جوليان: 1/ 143 وما بعدها.

(62) الناظوري: 1/ 332. وينظر: جوليان: 1/ 148 وما بعدها.

(63) يقول جوليان: 1/ 205: «كانت بلاد البربر بالنسبة لروما مستعمَرة للاستغلال لا للعمران».

بث بذور الخلاف والفُرقة بين زعماء القبائل البربرية، لإضعافها، ومنعها من التفكير في الثورة على سلطانهم.

ولم يستقر الحال للسلطات الغازية طويلاً، فقد شعر العرب البربر بضرورة تحرير المغرب من السيطرة الرومانية، وقاموا في سبيل تحقيق ذلك بثورات عديدة أشهرها ثورة يوغرتا[64]، الذي دخل في حروب عنيفة مع القوات الغازية واستمرت ثورته أكثر من أربع سنوات (111ق.م ـ 105ق.م) ولم تتمكّن السلطات الرومانية من إخماد ثورته إلاَّ بعد أن دبّرت له مكيدة غادرة اشترك فيها أحد زعماء البربر، وتم قتله سنة 104ق.م[65].

وثورة الزعيم البربري تاكفاريناس، وقد استمرت ثورته مدة ثمان سنوات (17ق.م ـ 24ق.م) وكانت ثورته تعبيراً حقيقياً لأولئك البربر الأحرار، فقد انتشرت الثورة في عموم بلاد المغرب، والْتفّ حولها عددٌ كبير من البربر وكان هدفهم تحرير المغرب من الغزاة الرومان[66].

وثورة فيرموس سنة 372م، وكان قد نجح في تحقيق التحالف السياسي والحربي بين القبائل البربرية، وكذلك استغلّ فرصة وجود مذاهب مسيحية جديدة معارضة للرومان، ونجح فيرموس في التحالف معها أيضاً. . . «واْتجه فيرموس بقواته نحو مدينة شرشال العاصمة الموريطانية، وتمكّن من إحراز الانتصار على الرومان والاستيلاء عليها. إزاء هذا التطور الحاسم في الكيان السياسي المغربي القديم، اتجه الرومان إلى استخدام وسائلهم التآمرية التي سبق لهم استخدامها. . . فقاموا بتحريض أخيه جيلدون وتمنيته بكافة الوسائل وتشجيعه على خيانة أخيه فيرموس والإيقاع به، ولما تنبّه الأخير إلى ذلك فضَّل الانتحار سنة 375م وبذلك انتهت هذه الثورة البربرية التي وصلت إلى

(64) جوليان: 1/ 155 وما بعدها.

(65) التفاصيل في كتاب: المغرب الكبير، للناظوري: 1/ 296 و297.

(66) وعن تاكفاريناس، ينظر: جوليان: 1/ 178.

درجة حاسمة في مقاومتها للنفوذ الروماني»[67]. وكان للثورات المتعاقبة أثرها في إضعاف كيان الغزاة في بلاد المغرب، إضافة إلى العوامل الأخرى التي انتابت إمبراطوريتهم في القرن الخامس الميلادي[68]، وانتهى الحال بدخول الوندال سنة 429م المغرب العربي وقضائهم على نفوذ الرومان.

وإذا كان المغرب قد تخلّص من السيطرة الاستعمارية الرومانية، فقد وقع هذه المرة تحت نير غزاة آخرين تميّزوا بخشونتهم ووحشيتهم التي لا تحدّها حدود، فساءت الأحوال الاقتصادية وعمّت الثورات عموم البلاد، وأفترق أمر الوندال في زعمائهم، وضعف سلطانهم كثيراً[69]، حتى تمكّن جستنيان من إنفاذ حملة قادها بلزاريوس سنة 533م تمكّنت من القضاء على الوندال في بلاد المغرب ليُعيدوا سيرة الاستعمار الروماني وليفرضوا على سكانه من الضرائب والمغارم ما لم يُقر في قانون أو شريعة.

ورغم سيطرة الروم البيزنطيين على الأمور، إلاَّ أن نفوذهم وسلطانهم لم يَعُم بلاد المغرب بأكمله، وإنما شمل قسماً منه يبدأ بحدود مصر الغربية «ويضم برقة وطرابلس، وحوض مَجْردة «تونس الحالية» وجبال أوراس، ثم يأخذ في الاقتراب من الساحل حتى ينتهي عند طنجة وسِبْتة، أما في الجنوب فلم يتعدّ نصف امتداد أفريقية الرومانية، فكان أقصى اتساعه: سهل مجردة وهضبة الأوراس، ووقفت حدوده الجنوبية عند تِبسّة، ومَسْكُولا، وتِمْجاد، ولمْبِيزة، وطبْنَه، والمسِيلَة، أما فيما عدا ذلك فكانت حدوده ملاصقة للساحل لا تكاد تتعدى أرباض الموانئ من أمثال: تيفش، وقيصرية، وتنس ووهران»[70].

وكان المغرب في عهد الروم البيزنطيين ولاية مستقلة على رأسها حاكم

---

(67) الناظوري: 1/ 227 و328.
(68) سالم: 2/ 1 و2.
(69) سالم: 2/ 26 و27.
(70) مؤنس: 14 و15.

عام يتمتع بصلاحيات واسعة، ويُشرف على تطبيق القوانين والأحكام القضائية وجمع الضرائب وتوزيع المصاريف، وله حق التصرف في الأموال الإمبراطورية ويعاونه عدَدٌ من المساعدين يرجعون بالنظر إليه وحده، وكان له مستشارون ومختصّون في الشؤون القضائية، إضافة إلى عشرة مكاتب تضم (118) مائة وثمانية عشر موظفاً، وتسع تشكيلات «أو نقابات» للقيام ببعض الخدمات الإدارية والمالية[71].

وقُسِّمت البلاد إدارياً إلى سبع ولايات أو مقاطعات، منها ثلاث قنصليات[72] وهي:

- زوجيتانا «زغوان» ومركزها قرطاجنة، وتشمل القسم الشمالي حتى تونس الحالية.
- بيزاسيوم «بيزاسين» وهو المزاق، جنوبي تونس.
- طرابلس.

وأربع مديريات هي:[73]

- نوميديا، شرق قسنطينة.
- موريطانيا الأولى، ومركزها سطيف بالجزائر.
- موريطانيا الثانية أو «القيصرية» وسط بلاد الجزائر، ومركزها شرشال، وكانت تضم أيضاً موريطانيا الطنجية[74].
- سردينيا.

وارتبط التقسيم الإداري السالف الذكر، بنظام دفاعي لتأمين الأراضي الخاصة للسلطة البيزنطية، وكانت البلاد تنقسم من الناحية الدفاعية أو الحربية

---

(71) جوليان: 1/ 261.

(72) تُدار الولاية القنصلية من قِبَل حاكم عسكري، أصله قائد من القواد يحمل لقب قنصل.

(73) تُدار المديرية من قِبل حاكم مدنيّ، يحمل لقب مدير.

(74) مؤنس: 15. وينظر جوليان: 1/ 261.

إلى أربع مناطق عسكرية هي:

1 ـ طرابلس، ومركزها لبدة.

2 ـ بيزاسين أو المزاق، ومركزها قفصة.

3 ـ نوميديا، ومركزها قسنطينة.

4 ـ موريطانية، ومركزها شرشال[75].

وعلى كل قسم من هذه الأقسام الأربعة رئيسٌ، أو دوق مهمته الدفاع عن المنطقة المحددة له، ويرتبط هؤلاء الرؤساء أو الدوقيات بقائد أعلى يُعيَّن من قِبل الإمبراطور مباشرة، ومقرّه مدينة قرطاجنة[76]، ويتبع هذا القائد مساعدان عسكريان، أحداهما للمشاة والآخر للفرسان، مع عدد من المستشارين العسكريين[77].

وكانت سلطة الغزاة تعتمد في الدفاع عن المناطق التي احتلتها على عدد كبير من القلاع والتحصينات، وكانت هذه القلاع والتحصينات تعتبر بمثابة خط الحدود بين المناطق الخاضعة لهم، والمناطق الصحراوية والجبلية الوعرة التي لم يتمكّن الغزاة من إخضاعها لسلطاتهم[78].

وكانت معظم المدن الكبرى محاطة بأسوار قويّة، ومحصَّنة تحصيناً قوياً، كما هو الحال في مدينتي سطيف وتبسّة. والحقيقة أن هذه التحصينات تدلّ على ضعف سلطة الغزاة وليس على قوّتهم، كما تدل على مدى العسف والجور الذي مارسوه مع سكان المغرب العربي، فالحكام البيزنطيون مدنيون وعسكريون لم يكن هدفهم إلاَّ امتصاص خيرات البلاد، واصطناع الضرائب العديدة، وفرضها على المزارعين والصُّنّاع والتجّار، وكان هؤلاء الحكّام

(75) سالم: 2/ 81. جوليان: 1/ 362.

(76) سالم: 2/ 81. جوليان: 1/ 362.

(77) جوليان: 1/ 362

(78) مؤنس: 18 و19. وعن خط التحصينات ينظر: سالم: 2/ 82. جوليان: 1/ 263.

«ينهبون أرزاق الأهالي من غير حياء وكان الامبراطور يستأثر بجلب الأموال، ولا يقبل بذلك منافساً»[79] وكثيراً ما كان الجُند يتعرّضون إلى نهب الممتلكات والإغارة على المزارع بأسم الإمبراطور، ولم يرضخ أهل المغرب لهذا الأمر طويلاً فدوّت ثوراتهم تهدد كيان الغزاة وتأذن بتفكيكه، فقام أيابداس ملك جبال أوراس بثورة استمرت سنوات عديدة[80].

وقاد كوترنياس زعيم قبائل المزاق «بيزاسين» ثورة أخرى قاومت سلطات الاحتلال لفترة طويلة[81]، وتمكّن أنطالاس زعيم قبيلة لواتة من إبادة القوات البيزنطية وقتل القائد صولومون خليفة بلزاريوس سنة 544م في واقعة القصرين «سيليام»[82] وأوقع كاركاسان بالجيش البيزنطي خسائر فادحة بالقرب من ماربت سنة 547م[83]، وحارب جارمول السلطةَ الغازية مدّة خمس عشرة سنة وقَتَل خلالها ثلاثة من أشهر قوادهم وهم: ثيودور قتله سنة 569م على إثر معركة طاحنة، وثيوكتيستوس سنة 570م، وأمابيليس سنة 571م[84].

وبدلاً من أن تُحسِن بيزنطة في سياستها اتجاه سكان المغرب، عمدت ومنذ تولّي موريس عرش بيزنطة (582 ـ 602م) إلى تنظيم الولايات البيزنطية في المغرب العربي بأسلوب يحقق لها المزيد من السيطرة والضغط على سكان البلاد ففصل طرابلس عن أفريقية وضمها إلى مصر، وكوّن من موريطانية السطيفية وموريطانية القيصرية ولاية واحدة سُمّيت بأسم: موريطانية الأولى في حين ضمت موريطانية الثانية كل من سبتة وجزر البليار، وما

(79) جوليان: 1/ 362.

(80) سالم: 2/ 57. جوليان: 1/ 367.

(81) وكان كوترنياس يحارب الروم البيزنطيين ويردد المقولة: «إن الله مع الذين يقاتلون اللصوص، لاسترجاع أموالهم وأراضيهم.» ينظر: أحمد صفر: 396.

(82) سالم: 2/ 63. أحمد صفر: 396.

(83) سالم: 2/ 66.

(84) سالم: 2/ 70. جوليان: 1/ 377.

للبيزنطيين من أملاك في إسبانيا، وأنشأوا ولاية جديدة لسردينية وكورسيكا[85].

أما خط التحصينات فلا يكاد يشمل إلاّ مُدُناً قليلة، فقد كان يمر بتبسة وتِمْجَاد وباغية، وقسنطينة، وصدفة، وسِبْتة.

وهذه التقسيمات في بلاد المغرب تعني تغليب الناحية العسكرية على الناحية المدنية، وجعل الأولى فوق الثانية ومشرفة عليها، فإلى جانب الحاكم العام المقيم في مدينة قرطاجنة أُقيم على الولاية حاكم عسكري عام (بطريق) له الإشراف التام على جميع مرافقها وموظفيها بما فيهم الحاكم المدني القديم، وأُقيم أيضاً على الأقسام الإدارية الجديدة للبلاد حكّام عسكريون يحملون لقب دوق[86]، وعُيّن على المدن قادة عسكريون يتولون قيادة حامياتها العسكرية[87].

وكان تحويل المغرب من ولاية إلى منطقة عسكرية بداية النهاية لانهيار الاستعمار البيزنطي، فقد استمرت الثورات على السلطة الحاكمة، وظلّ الحكّام العسكريون البطارقة يمارسون سياسة نهب البلاد، ويفرضون الضرائب التي تزيد اقتصاديات البلاد إرهاقاً. وأصاب الخلل جميع مرافق الإدارة المدنية والعسكرية على حدٍ سواء فيها إضافة إلى انتشار الرشوة في دواوين الحكومة، وبَيْع المناصب لمن يدفع أكثر، كان هناك انهيار شامل في القِيم الخُلُقية واستهتار من قِبَل الحاكمين بمصالح البلاد والمواطنين «ولم تكن الكنيسة بعيدة عن مجال الفساد الذي استشرى في أجهزة الدولة، فقد أُصيبت هي الأخرى بالفساد وانتشرت السيمونية[88] والمعاصي بين القساوسة»[89].

(85) مؤنس: 32. جوليان: 1/ 377.

(86) مؤنس: 32.

(87) مؤنس: 32.

(88) السيمونية: متاجرة القساوسة بالأدوات المقدسة، وهي نسبة إلى سيمون الساحر الذي أراد أن يشتري من القديس بطرس القدرة على عمل المعجزات.

(89) سالم: 2/ 73. وينظر: جوليان: 1/ 378.

وعمّت هذه الخلافات المذهبية بين سكان البلاد والسلطات الحاكمة، وجرت هذه الخلافات المذهبية إلى سياسة من الاضطهاد الديني وإلى نتائج أصابت كيان الغزاة البيزنطيين في الصميم[90]. فبدأ القادة الكبار بالتمرّد والانفصال عن السلطة المركزية مستغلّين الظروف السيئة التي تمرّ بها السلطات الحاكمة بعد أن فقدت هيبتها وسلطاتها الفعلية، ففي سنة 646م أعلن جريجُورِيُوس «جَرْجِير» خلع طاعة الإمبراطور البيزنطي والاستقلال بالمغرب وتلقّب بالإمبراطور، وضرب النقود بأسمه، ونقل مقرّه من قرطاجنة إلى مدينة سبيطلة البعيدة عن الساحل كي يأمن جانب القوات البحرية البيزنطية، واستمر جرجير في حكم البلاد حتى مقتله في واقعة سبيطلة على يد القائد العربي عبد الله بن أبي سرح سنة 28 هـ ـ 648م كما سيأتي بيان ذلك بالتفصيل.

(90) سعد زغلول: 1/23.

الباب الثاني

الفصل الأول: ـ حروب التحرير العربية

الفصل الثاني: ـ سياسة الولاة.

الفصل الثالث: ـ انتشار الإسلام.

ـ الإدارة العربية

الفصل الأول

حروب التحرير العربية

نستطيع أن نقول إن تحرير المغرب العربي مرّ بمرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى، مرحلة الاستكشاف (22 ـ 50هـ/ 643 ـ 670م).

والمرحلة الثاني، مرحلة التحرير المنظمة (50 ـ 90هـ/ 670 ـ 709م).

1 ـ مرحلة الاستكشاف (22 ـ 50هـ/ 643 ـ 670م)

وتبدأ بجهود عمرو بن العاص والي مصر، وتنتهي بتولية عُقبة بن نافع الفهري ولاية المغرب العربي، فقد كان من الطبيعي أن يتوجه عمرو بن العاص بعد إتمام تحرير مصر جهة الغرب لتحقيق هدفين:

الأول، مرحلي، لحرمان الروم البيزنطيين من قاعدتَي برقة وطرابلس، وتأمين حدود مصر الغربية فبرقة كانت تُعتبر امتداداً لمصر، وإقليماً متمماً لها فهي تجاور لوبيا ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية[1]، وكان إقليم برقة وإقليم طرابلس قد انفصلا عن ولاية أفريقية البيزنطية منذ عهد الإمبراطور موريس، 582 ـ 602م، وأصبحا إقليمين تابعين لمصر[2]، وهذا يعني أن تحرير برقة وطرابلس كان ضرورة «استراتيجية» عسكرية لحماية

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة لجنة البيان، مصر، ص: 229. وينظر: سالم: 2/ 141.

(2) مؤنس: 50.

حدود مصر الغربية ضدّ ما قد يتهددها من خطر المستعمرين الروم البيزنطيين في أفريقية[3].

والهدف الثاني، استراتيجي لتحرير كامل المغرب العربي من المستعمرين الروم.

ورغم ما يشير إليه بعض المؤرخين من أن عمرو بن العاص أرسل عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة من الفرسان تمكّنت من تحرير برقة وزويلة[4]، فيبدو أن الإشارة هنا إلى الحملات الاستطلاعية التي قادها عقبة بن نافع بأتجاه هذه المناطق وجاس خلالها مواطن قبائل لوَاتة وغيرها بحيث كان تقريره الذي رفع إلى القائد الأعلى مطمْئِناً ومشجّعاً للتوغل غرباً[5].

لذا قاد عمرو بن العاص القوات العربية سنة 21هـ/ 642م[6] وزحف نحو مدينة برقة التي كانت قاعدة لإقليم واسع يحمل هذا الأسم، أو يُسمّى بتسميته القديمة: إقليم أنطابلس[7]، فدخلها دون صعوبة تُذكر، فصالح أهلها على مبلغ من المال مقداره ثلاثة عشر ألف دينار[8]، كانوا يبعثون بها إلى والي مصر «من غير أن يأتيهم بِحاثٍّ أو مستحث.»[9].

---

(3) سعد زغلول: 1/ 131.

(4) ابن عذاري: 1/ 2 طبعة دوزي، نقلاً عنه: فتح العرب المغرب، حسين مؤنس: 59. ابن أبي دينار: المؤنس: 29.
والنص في الطبعة الثانية من كتاب ابن عذاري: 1/ 8 «... إلى لوبية وأفريقية فافتتحهما» وينظر: سعد زغلول: 1/ 135 والهامش رقم (19).

(5) مؤنس: 53 و54.

(6) وقيل في سنة 22هـ.

(7) ابن عبد الحكم: 229. البلاذري: فتوح البلدان: 225، مطبعة السعادة. ابن الأثير: الكامل: 3/ 26، طبعة دار المعارف. ابن عذاري: 1/ 8.

(8) ابن عبد الحكم: 229. البلاذري: 225. ابن الأثير: 3/ 26.

(9) البلاذري: 226. وينظر: ابن عبد الحكم: 230.

ومن برقة تَجهَّز عمرو بن العاص لتحرير مدينة طرابلس، وتطلبت الضرورة العسكرية تجهيز قوّتين[10]، قوة رئيسية اتخذت الطريق الساحلي وهدفها مدينة طرابلس وما يليها من المدن الساحلية، وقوّة فرعية وجهتها المناطق الصحراوية الجنوبية أُنيطت قيادتها إلى عقبة بن نافع الفهري[11]، لتأمين المناطق الداخلية حتى زوِيلة، ولمنعها من القيام بأي عمل من شأنه أن يُعيق تقدّم القوات الساحلية أو يهدد خطوط مواصلاتها.

وهكذا سارت العمليات العسكرية في المناطق الساحلية والمناطق الجنوبية متزامنة مع بعضها، ففي الوقت الذي تمكّن به عُقْبة من تحرير مناطق فَزّان وزويلة في الجنوب، كان عمرو بن العاص قد بدأ بتحرير أولى مدن إقليم طرابلس فبدأ بمدينة أجدابية[12]، ثم مدينة سِرْت، ثم لبدة، وأشرف على مدينة طرابلس[13] وكانت مدينة محصَّنة ومسوَّرة من جهاتها الثلاث بسور منيع[14]، فيما عدا الجهة الشمالية المطلة على البحر المتوسط[15]. ولمّا لم يتمكن ابن العاص من دخولها فقد اكتفى بمحاصرتها مدة دون طائل، حتى تمكّنت قوّة من الفرسان كانت تستطلع السور من الجهة الغربية من اكتشاف فتحة تسببها مياه الجَزْر، يسمح لدخول القوات منها[16]، ومن هذا المكان تسللت القوات العربية واجتاحت تحصينات الروم

---

(10) مؤنس: 57.

(11) ابن عبد الحكم: 230. وينظر: سعد زغلول: 1/ 133. سالم: 2/ 144.

(12) صالحها عمرو بن العاص على مبلغ مقداره خمسة آلاف دينار، ينظر: الحموي: معجم البلدان: 1/ 100.

(13) في فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم: 230: «فنزل القبة التي على الشرف من شرقيِّها فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء» وعن مدلول هذا المكان، ينظر: الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 48. سعد زغلول: 1/ 137، الهامش رقم: 29.

(14) الاستبصار: 110. وينظر: الزاوي: 49.

(15) ابن عبد الحكم: 231. ابن الأثير: 3/ 25.

(16) ابن عبد الحكم: 231. ابن الأثير: 3/ 25، وهما متفقان على رواية مفادها: أن رجلاً من بني مدلج خرج مع سبعة نفر من أصحابه للصيد وسلكوا غرب المدينة فلمّا رجعوا =

وفاجئتها بهجوم صاعق أواخر سنة 22هـ/ 643م فسيطرت على مقاليد الأمور في المدينة بعد أن ولّت حامية الروم البيزنطية بما تيسّر لها من السفن[17].

وكان ابن العاص قد أرسل بشر بن أبي أرطأة أثناء حِصاره مدينة طرابلس على رأس قوّة من الفرسان أخضعت جبل نفُوسَة[18]، وتقدمت نحو ودان فأمَّن أهلها سنة 23هـ/ 643م[19]، وكان الغرض من هذه الحملة القضاء على أي محاولة من جانب قبائل نفوسة لنجدة أهل طرابلس، وفي الوقت نفسه لتأمين تحريرهم للساحل، على نحو ما فعل عمرو عند دخوله برقة، إذ ضَمِن خضوع زويلة وفَزّان للقوّات العربية خشية أن يقوم سكانها بأعمال مضادة قد تسبب للقوات الكثير من العرقلة والمتاعب.

وأعقب ابن العاص تحرير طرابلس بدخول مدينة سبرت (صبرة) وتحريرها من فلول الروم البيزنطية[20].

وهكذا أنجز عمرو بن العاص تحرير المناطق الساحلية حتى مدينة سبرت (صبرة) والمناطق الصحراوية الجنوبية: فزّان وزويلة وودان، ولما كانت حروب التحرير العربية في بلاد مصر والمغرب تسير حسب خطّة مركزية متّفق عليها ومخطّط لها منذ البداية، فقد استأذن عمرو بن العاص

= اشتدّ عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر فرأى المدلجي وأصحابه مسلكاً بين البحر والبلد، فدخلوا منه وكَبّروا، فلم يكن للروم ملجأ إلاً سفنهم، ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة وسمعوا الصياح فأقبل بجيشه حتى دخل المدينة...».

(17) ابن عبد الحكم: 231. البلاذري: 227. ابن عذاري: 1/ 8. ابن الأثير: 3/ 26. وينظر: أحمد النائب: المنهل العذب: 22.

(18) ابن أبي دينار: 26.

(19) الزاوي: 61. مؤنس: 65. وينظر: سعد زغلول: 141 والهامش رقم (45).

(20) كانت مدينة (صبرة) مدينة حصينة لا تقل حصانتها عن حصانة مدينة طرابلس ولكي يفاجِئ ابن العاص حاميتّها فقد جرّد خَيْلاً كثيفة بعد تحريره طرابلس مباشرة وأمرهم بسرعة السير، فصبحت خيله مدينة سيرت وقد غفلوا وفتحوا أبواب مدينتهم، فدخلتها القوات العربية على حين غفلة من حاميتها وتمكّنت من تطهيرها من فلول الروم البيزنطيين، ينظر: ابن عبد الحكم: 231. ابن الأثير: 3/ 26. أحمد النائب: 22.

الخليفة عمرَ بنَ الخطّاب (رض) في التقدم نحو ولاية أفريقية وكتب إليه: «إن الله فتح علينا طرابلس، وليس بيننا وبين أفريقية إلاً تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يده فعل[21]»، ويضيف ٱبن عذاري نصّاً غاية في الأهمية، أوقف من خلاله عمرو بن العاص الخليفة عمرَ بنَ الخطاب (رض) على أحوال البلاد بقوله: «وملوك كثير، وأهلها في عدد عظيم، وأكثر ركوبهم الخيل[22]».

وإخبار ٱبن العاص بأحوال البلاد بعد إقليم طرابلس، وما أُحيط به الخليفة من معلومات أخرى عن طبيعة البلاد السياسية والاجتماعية دفعت دار الخلافة إلى التريّث، وتأجيل التقدّم فيما ما وراء إقليم طرابلس والاكتفاء بما حققته القوات العربية من تأمين حدود مصر الغربية[23].

ولا خلاف فإن عمرو بن العاص لا يمكن أن يتقدم إلى قلب المغرب العربي والروم البيزنطيون شوكة في ظهره[24]، إضافة إلى أن تحرير المغرب العربي يحتاج إلى إمدادات متواصلة، وجهود كثيفة، وقاعدة أمينة تحمي تلك الإمدادات وتؤمّن لها احتياجاتها المتعددة، وهذا ما لم يتوفر خلال هذه الفترة، فمصر لم تكن قد استوثقت أمورها تماماً للقوات العربية، إذ لا زال

(21) ابن عبد الحكم: 232. وينظر: البلاذري: 227.

(22) البيان المغرب: 1/ 8.

(23) وكان رد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كما دَوّنه ابن عبد الحكم: 232: «... لا، إنها ليست أفريقية، ولكنها المفرقة، غَادِرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت.» وفي رواية أخرى: «أفريقية المفرقة المفرقة ـ ثلاث مرات ـ لا أوجّه إليها أحداً ما قلت عيني الماء.» وروى البلاذري: كتب عمر بن الخطاب (رض) ينهاهُ عنها ويقول: «ما هي بأفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها...» فتوح: 227.
وهذه الروايات وغيرها مصطنعة لا أساس لها من الصحة وضعها المتأخرون من الرواة نتيجة الصعوبات التي واجهها العرب في تحرير المغرب العربي على امتداد أكثر من سبعين سنة.

(24) سعد زغلول: 1/ 145.

خطر الروم البيزنطيين قائماً محاولين استعادة نفوذهم الغابر[25]، لأجل هذه الأسباب وغيرها، عاد عمرو بن العاص إلى مصر ليشرف على تنظيم إدارتها مما يجعلها جديرة بقيادة حروب التحرير العربية في بلاد المغرب، بعد أن خلف في برقة حامية عسكرية على رأسها عقبة بن نافع الفهري[26].

وفي سنة 23هـ/ 643م توفي الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وتولّى الخلافة من بعده عثمان بن عفان (رض). والذي يُفهَم من الرواية التاريخية أن عمرو بن العاص طلب من الخليفة عثمان بن عفان (رض) تنحية عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن إمارة الصعيد دون سبب معقول[27]، وانتهى الحوار بينهما إلى إعفاء عمرو بن العاص من منصبه، وتعيين عبد الله بن سعد بن أبي سرح والياً على مصر سنة 25هـ/ 945م[28].

واتبع ابن أبي سرح في البداية سياسة تقوم في الأساس على بعث السرايا وباتجاهات مختلفة[29]، وكانت تلك السرايا تجوب أطراف أفريقية وتعود إلى قاعدة انطلاقها في مدينة برقة، ولم يكن هدفها الغنائم والسبي كما يُفهَم من بعض الروايات، وإنما كان هدفها الحقيقي الاستطلاع، وجسّ مواطن العدوّ، وتتبع أخباره، ومعرفة قواه، وما يملكه من عدة وعدد، وعلى نتائج هذه الحملات الاستطلاعية. كان يقدِّر ما يمكن أن تلقاه القوات العربية من المقاومة، وعلى أساسها كانت تُعَد خطة الهجوم[30].

ونظراً للتقارير المشجعة التي انتهت إليها تلك الحملات، قرر ابن أبي سرح استشارة الخليفة عثمان بن عفان (رض) لاستئناف حروب التحرير في

(25) ابن عبد الحكم: 235 ـ 237. وينظر: زغلول: 1/ 143.

(26) سالم: 2/ 152.

(27) ينظر: ابن عبد الحكم: 233.

(28) وقيل سنة 24هـ.

(29) ابن الأثير: 3/ 42.

(30) سعد زغلول: 1/ 124.

المغرب العربي وطرد المستعمرين الروم البيزنطيين[31]، وجاءت موافقة دار الخلافة مع العمل على إعداد جيش كبير شارك فيه مشاهير رجال العرب والقبائل العربية المحيطة بالمدينة والحجاز، وتجمعت هذه القوات ومن انظمّ إليها من مصر[32]، حتى بلغت العشرين ألف مقاتل[33]، وأُطلِق على هذا الجيش أسم جيش العبادلة أو «غزوة العبادلة»[34] نسبة إلى أسماء كبار أبناء الصحابة المشاركين في هذا الجيش[35].

خرج جيش العبادلة من مصر سنة 27هـ/647م وبقيادة عبد الله بن أبي سرح، وكان هدفه مدينة سبيطلة عاصمة الروم البيزنطيين[36]، وحاكمهم يومئذ جرجير «جريجوريوس» الذي كان قد خلع طاعة الإمبراطور هرقل وأستقل بحكم المغرب العربي كما أشرنا في الفصول السابقة.

وعندما وصلت القوات العربية مدينة بَرْقة انضمت إليها حاميتها وكانت تحت قيادة عقبة بن نافع الفهري، ومن هذه المدينة (القاعدة) واصلت القوات زحفها تتقدّمها بعض سرايا الفرسان لأستكشاف المناطق المتقدمة، ولتأمين خطوط مواصلات الحملة[37]، فتُرِكت مدينة طرابلس وقابس لحالها[38]، وفي منطقة قمونية[39] عسكر الجيش العربي، ودارت المفاوضات

(31) ينظر: عبد الواحد ذنون: الفتح والاستقرار: 113.

(32) ينظر: الفتح والاستقرار: 113.

(33) ابن عبد الحكم: 247. المالكي: 1/ 10. الدباغ: 1/ 33. ابن عذاري: 1/ 9.

(34) ابن خياط: التاريخ: 1/ 134. المالكي: 1/ 10. وينظر: مؤنس: 81.

(35) ومنهم على سبيل المثال: عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن أبي بكر، إضافة إلى قائد الحملة عبد الله بن أبي سرح.

(36) وعن اتخاذ جرجير مدينة سبيطلة عاصمة لمناطق نفوذه، ينظر: مؤنس: 50. سالم: 2/ 88.

(37) الدبّاغ: 1/ 34. ابن الأثير: 3/ 44. ابن عذاري: 1/ 9.

(38) ينظر: حسين مؤنس: 84 و85.

(39) المنطقة التي ستقوم فيها القيروان بعد ذلك.

بين القائد ابن أبي سرح وجرجير المتغلب على أفريقية والذي رفض الإسلام أو الخضوع لحكم الجزية معتدّاً بقوّاته التي بلغ تعدادها المائة والعشرين ألف مقاتل[40] وبدأت المناوشات بين الطرفين سنة 28هـ/648م في مكان أُطلق عليه اسم عقوبة[41]، واستمرت المناوشات أياماً حتى تمكّن عبد الله بن أبي سرح من اكتشاف نقاط الضعف في قوات جرجير فعدّل في خِطَطه العسكرية[42]، وقام بهجوم شديد اخترق صفوف القوات الرومية، وأجبرها على التراجع بدون نظام، وكان من نتيجة ذلك مقتل جرجير ومعظم قادته، وانهزم من تبقّى منهم في اتجاهات مختلفة[43]. وتمكّنت قوة من الفرسان من صد المنهزمين ومنعهم من دخول مدينة سبيطلة والاعتصام بها، وبذلك جُرّدت المدينة الحصينة من المدافعين عنها وسقطت بسهولة في معركة ثانية[44].

وسقوط مدينة سُبَيْطلة يعني أول ما يعني انهيار الحكم البيزنطي في معظم المناطق التي كانت تحت نفوذ جرجير، فقد سقطت مدنٌ وقلاع رومية مهمّة، وبلغت القوات العربية قَفْصَة ثم جاءت إلى مرماجنة، كما بلغت حصن الْجَمْ وضيّقت عليه الحصار حتى دخلته صُلحاً[45]. وكان وقع هذه

(40) ابن الأثير: 3/ 89. ابن عذاري: 1/ 10. ابن خلدون: 6/ 107. وقال الدباغ في معالم الإيمان: 1/ 35: كانت قواته في مائة ألف مقاتل.

(41) البلاذري: 228.

(42) تشير المصادر التاريخية إلى أن القتال كان يبدأ في الصباح ويتوقّف ظهراً فيعود كل طرف إلى معسكره فلا يستأنفون إلاّ في صباح اليوم التالي، وهكذا استمرّ الحال أياماً، حتى عمد ابن أبي سرح إلى خطة تقوم على تقسيم القوات إلى قسمين، يشترك قسم منها في القتال على العادة، وينتظر القسم الآخر في شكل كمين حتى إذا ما انتهى القتال عند الظهر وقد تعب الروم، يبدأ القسم الكامن بهجوم شديد على الروم وهكذا نجحت هذه الخطة فانهزم الروم.

(43) ابن عبد الحكم: 246، 247. البلاذري: 228. المالكي: 1/ 10. الدباغ: 1/ 34 و35. ابن عذاري: 1/ 10 و11.

(44) سعد زغلول: 1/ 158. سالم: 2/ 172.

(45) المالكي: 1/ 17. الدباغ: 1/ 35. ابن الأثير: 3/ 91.

الانتصارات شديداً على الغزاة الروم، «ورُعِبوا رعباً شديداً فلجأوا إلى الحصون والمعاقل.»[46] وأذعن للطاعة رؤساء المدن الأفريقية الأخرى، مقابل عهود قطعوها، ومبالغ كبيرة من المال دفعوها، بلغت الثلاثمائة قنطار من الذهب[47].

وبعد هذه الحملة التي استغرقت فترة تقارب الخمسة عشر شهراً[48]، قرر اْبن أبي سرح العودة إلى مصر، ويبدو أن تحرّكات القوات الرومية في المناطق الشمالية، والمدن الحصينة[49]، ثم طول الفترة التي قضاها في هذه الحملة والإنهاك الذي أصاب القوات، وإدراك اْبن أبي سرح أن تحرير البلاد لا يُمكن أن يتمّ من خلال الانتصار في معركة واحدة، فلا زالت أمامه الكثير من العقبات وعددٌ من الحصون والمعاقل، يحتاج تحريرها إلى المزيد من الإمدادات. هذه الأسباب وغيرها[50]، أملت على اْبن أبي سرح ضرورة العودة إلى مصر، والاكتفاء بهذه الضربة التي أصابت نفوذ الروم البيزنطيين في الصميم.

وقد يؤخَذ على اْبن أبي سرح مغادرته المغرب العربي دون أن يتخذ فيها قاعدة متقدمة للقوات العربية، أو يترك حاميات في المناطق والمدن المحررة، أو في تلك التي دخلت في أمانه[51]. ومع كل ذلك فقد كانت هذه الحملة من الحملات التي أذلّت الروم البيزنطيين[52]، ونقلت حروب

---

(46) ابن عذاري: 1/ 12.

(47) البلاذري: 228. ابن عذاري: 1/ 12. الدباغ: 1/ 34 و35 و42 وله في ذلك روايات أخرى. ابن الأثير: 3/ 91.

(48) ابن الأثير: 3/ 91. الدباغ: 1/ 42 «سنة وشهرين».

(49) الدباغ: 1/ 42.

(50) لمؤنس في كتابه: فتح العرب للمغرب: 98 ـ 101، آراء أخرى في أسباب عودة عبد الله بن أبي سرح إلى مصر.

(51) ابن عبد الحكم: 246 و247.

(52) ابن عذاري: 1/ 12.

التحرير العربية إلى آفاق جديدة أخرى، بعد أن دخل الإسلام عدد من زعماء القبائل البربرية، ومنهم مثلاً: وزمان أو وزمار بن صقلاب أمير قبائل مغراوة وسائر زناتة الذي أُسِر في إحدى المعارك وقُبِض عليه وأُرسِل إلى الخليفة عثمان بن عفان (رض) فأسلم على يده وأمّره على قومه للجهاد في سبيل نشر الإسلام، وتحرير بلاد المغرب[53].

ورغم ما يشير إليه ابن عذاري نقلاً عن عريب بن سعد من كَوْن ابن أبي سرح قد عاد إلى أفريقية سنة 33هـ/ 653م بهدف تأديب الخارجين عن العهد والطاعة[54]، فيبدو أن الإشارة هنا إلى مجموع الحملات والسرايا الصغيرة التي كانت تنطلق بأمره من قاعدة بَرْقَة بٱتجاه أفريقية لضرب بؤر المقاومة أولاً ولتفتيت تجمعات الأعداء ثانياً، ومثل هذه الحملات كانت ضرورية خلال هذه الفترة.

وكانت حملة ذات الصواري البحرية سنة 34هـ/ 654م آخر الحملات الكبيرة[55] التي قادها عبد الله بن أبي سرح ضد أسطول الروم البيزنطيين في مياه البحر المتوسط[56]، فقد تمكّن الأسطول العربي من تدمير القوات الرومية بقيادة قسطنطين بن هرقل قبالة ناحية زُوَارَة[57] ما بين ساحل طرابلس وتونس[58]. وكانت حملة الروم هذه أولى الحملات البحرية الضخمة التي جهزها البيزنطيّون واستعدوا لها، محاوَلة منهم في استعادة ما فقدوه من مناطق نفوذهم، ولا نجد ـ بعد القضاء على هذه الحملة ـ أي نشاط واسع

(53) ابن خلدون: 6/ 107.

(54) ابن عذاري: 1/ 14.

(55) كانت عدد مراكب العرب قد تجاوز المائتي مركب كما يقول ابن عبد الحكم: 256.

(56) ابن عبد الحكم: 255 وما بعدها، الكندي، الولاة والقضاة، طبعة بيروت، 1908م، ص 3.

(57) هذا رأي الأستاذ حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام، نقله سعد زغلول في كتابه: تاريخ المغرب العربي: 1/ 163.

(58) سعد زغلول: 1/ 163 و164.

للقوات العربية البرّيّة منها والبحريّة، ولا شك أن لأحداث مركز الخلافة في الحجاز، وما ترتب على ذلك من تغييرات لَفَتت السلطة المركزية، وشغلتها لحين استقرار الأوضاع للدولة الأموية بعد تولية الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ/ 661م. فأعاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر وأستمر والياً عليها حتى وفاته سنة 43هـ/ 663م[59]. والمؤرخون لا يذكرون لأبن العاص نشاطاً مميَّزاً خلال ولايته الثانية، فيما عدا إشاراتهم لسرايا الفرسان التي كانت تتوغل فيما وراء مدينة برْقَة والمناطق الصحراوية ثم تعود سريعاً إلى قاعدة انطلاقها[60].

وبعد وفاة عمرو بن العاص، فُصِلت ولاية المغرب عن مصر[61]، وأصبحت ولاية مرتبطة بمركز الخلافة مباشرة، وتولّى أمرها وقيادة جيوشها معاوية بن حديج السكوني، وأُوكلت إليه مهمة استئناف العمليات العسكرية ضد معاقل المستعمرين الروم البيزنطيين.

وقد توافرت لأبن حديج ظروف مناسبة مكّنته من تجهيز قواته وقيادتها في سنة 45هـ/ 665م مستغلاً الأوضاع السيئة التي أحاطت بالغزاة الروم في بلاد المغرب، فمن المعروف أن رؤساء أفريقية صالحوا عبد الله بن أبي سرح على مبلغ مقداره ثلاثمائة قنطار من الذهب، ووَقَّع هذا الاتفاق مع أبن أبي سرح أحد بطارقة الروم في أفريقية، تدعوه المصادر العربية بأسم: حباحبة أو جناحه «جناديوس»[62] وما إن وصلت أخبار هذا الاتفاق مسامع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني حتى بادر بإرسال البطريق أوليمة «أوليمبوس» وأمره

(59) الإصابة: 3/ 3. ابن عذاري: 1/ 5.

(60) عن هذه السرايا التي كانت تجوب أطراف أفريقية خلال ولايتَيْ عمرو بن العاص الثانية، ينظر: الكندي: 22 وما بعدها. ابن عذاري: 1/ 15. ابن خلدون: 3/ 10. السلاَويّ: 1/ 78.

(61) أَقرّ الخليفةُ معاوية بن أبي سفيان على ولاية مصر، عقبةَ بنَ عامر الجهني.

(62) ابن عذاري: 1/ 17. سعد زغلول: 1/ 169.

أن يستخلص من أهل أفريقية مبلغاً يعادل المبلغ الذي دفع لأبن أبي سرح[63]، وعندما رفض السكان[64]، وقع النزاع بينهم وبين حاكم أفريقية انتهى بطرده من البلاد، ولكن الأمور لم تستقم لحباحبة (جناديوس) فقد قام ضدّه قائدٌ من القُوّاد أطلقت عليه المصادر اسم: «الأطريون»[65]، فلجأ حباحبة إلى العرب ووصل إلى الشام ولقي الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فوافاه بشرح وافٍ عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعيشها أفريقية تحت ظل الحكم البيزنطي وسهّل له أمر تحرير بلاد المغرب واستخلاصه من الروم البيزنطيين[66].

والحقيقة أن أحوال البلاد لم تكن بغائبة عن نظر القيادة في مصر أو مركز السلطة في الشام فقد كانت تقارير الحملات الاستطلاعية تشير إلى هذا المعنى، فابن الأثير يلخّص أحوال البلاد بقوله: «كانت ناراً تضطرم»[67].

وابن عذاري يقول: «دخل معاوية بن حديج أفريقية وكانت حرباً كلها»[68].

خرج معاوية بن حديج سنة 45هـ/ 665م[69] على رأس جيش قوامه

---

(63) ابن عذاري: 1/ 17.

(64) ابن عذاري: 1/ 17.

(65) ابن عذاري: 1/ 17. وينظر: سعد زغلول: 1/

(66) ابن الأثير: 3/ 92. ابن عذاري: 1/ 16. ورغم اختلاف المصادر التاريخية في مصير حباحبة، فعلى الأرجح أنه مات بالإسكندرية قبل تحرك القوات العربية لتحرير المغرب العربي.

(67) الكامل: 3/ 92.

(68) البيان المغرب: 1/ 16. وينظر: الدباغ: 1/ 45.

(69) الدباغ: 1/ 43. ابن عذاري: 1/ 16. ويجعل ابن عبد الحكم حملة معاوية بن حديج سنة 34هـ وللمؤرخين في ذلك أقوال أخرى. ينظر سالم: 2/ 178 وما بعدها. سعد زغلول: 1/ 166 وما بعدها.

عشرة آلاف مقاتل[70] إضافة إلى حامية برقة[71] سالكاً الطريق الساحلي مروراً بمدينة طرابلس، والتي لا تشير النصوص إلى عمليات عسكرية ضدها[72] وأنتهى بقوّاته إلى الموضع الذي نزله عبد الله بن أبي سرح سنة 28هـ في منطقة قمونية[73]، وفي هذا المكان وقعت معركة بين القوات العربية وقوات نقفور البيزنطية التي كانت في ثلاثين ألف مقاتل أسفرت عن انهزامهم وأعتصامهم بمدينة سوسة[74]. وبعد هذا الانتصار تقدم معاوية بن حديج شمالاً فعسكر في موضع مرتفع يُقال له القرن أو جبل القرن[75]، والذي سُمّي فيما بعد بجبل ممطور[76].

ومن معسكر القرن بدأ أبن حديج بتهجيز قوّتين ضد الروم البيزنطيين.

الأولى: كانت بقيادة عبد الله بن الزبير[77] وهدفها مدينة سوسة حيث اعتصمت القوات البيزنطية بقيادة نقفور.

والثانية: بقيادة عبد الملك بن مروان لتحرير حصن جلولاء[78].

وحملة ثالثة: قادها عقبة بن نافع الفهري، للتوغل جنوباً في المناطق الصحراوية. وقد تمكّن عبد الله بن الزبير من إجلاء الغزاة الروم البيزنطيين الذين ولّوا هاربين بسفنهم شطر جُزر البحر المتوسط، ودخل مدينة سوسة محرِّراً[79].

---

(70) ابن عذاري: 1/ 16.

(71) سعد زغلول: 1/ 170.

(72) سعد زغلول: 1/ 170.

(73) ابن عبد الحكم: 260. الدباغ: 1/ 43.

(74) ابن عذاري: 1/ 16. حسين مؤنس: 121. سالم: 2/ 183.

(75) ابن عبد الحكم: 261. الدباغ: 1/ 43.

(76) ينظر: الدباغ: 1/ 43.

(77) شكَّ سعد زغلول: 1/ 170 في اشتراك عبد الله بن الزبير في حملة معاوية بن حديج وبالتالي قيادته حملة سوسة.

(78) ابن عبد الحكم: 261. ابن عذاري: 1/ 16.

(79) ابن عذاري: 1/ 16. وينظر: سالم: 1/ 183.

كما تمكّن عبد الملك بن مروان بعد حصار شديد من تحرير حصن جلولاء وتطهيره من جيوب المقاومة[80].

ولاحقت القوات العربية الروم البيزنطيين في البر والبحر، فدخلت مدينة بنزرت وقضت على عناصر المقاومة فيها[81].

وأبحرت قوّة بَحريّة إلى جزيرة صقلية سنة 46هـ/ 666م[82] قادها عبد الله بن قيس بن مخلد فتمكّنت من تحقيق أهدافها وعادت سالمة[83].

وقاد رويفع بن ثابت الأنصاري حملة بحرية أخرى في سنة 37هـ/ 667م تمكّنت من تحرير جزيرة جربة[84].

وأما الحملة الصحراوية، فقد كانت بقيادة عقبة بن نافع الفهري، ورغم اختلاف المؤرخين الواضح في أمر وأهداف هذه الحملة[85]، فالراجح أنها كانت متزامنة مع حملات معاوية بن حديج في المناطق الساحلية، ونافذة بأمره، سيراً على خطة القادة العرب في تأمين المناطق الصحراوية والساحلية معاً تَحسُّباً لأيّ خطر قد تتعرض له القوات الرئيسية من هذه المناطق[86].

وكانت الحملة الصحراوية مكوّنة من أربعمائة فارس[87]، بينهم قائدان خبيران بحرب الصحراء هما: بسر بن أبي أرطأة، وشريك بن سمي المرادي[88]

---

(80) ابن عبد الحكم: 261. ابن عذراي: 1/ 16.

(81) البكري: 85. الدباغ: 1/ 45.

(82) كانت في مائتي مركب كما يقول الدباغ: 1/ 45، وتاريخها عنده سنة 45هـ أو سنة 51هـ.

(83) البلاذري: 1/ 237. ابن عذاري: 1/ 16 و18.

(84) المالكي: 53. أبو المحاسن: 1/ 132. وينظر: سالم: 2/ 187.

(85) عن الروايات التاريخية واختلاف الآراء في حملة عُقْبة الصحراوية، ينظر: حسين مؤنس: 138. سعد زغلول: 1/ 178 وما بعدها.

(86) سعد زغلول: 1/ 177 و178.

(87) ابن عبد الحكم: 262 والنص: «أربعمائة فارس وأربعمائة بعير، وثمانمائة قربة (ماء)».

(88) سعد زغلول: 1/ 179.

وخرجت من قاعدة مغمداس[89] سنة 46هـ/ 666م مخترقة بلاد هوارة باتجاه ودان[90]، حيث أعاد إخضاع تلك المناطق بعد أن كانت قد انقلبت ونقضت عهدها مع العرب[91]، ثم تقدم نحو واحات فَزّان ودخل قاعدتها جرمة[92]، ثم زحف نحو إقليم كوار وقاعدته مدينة خاوار فدخل عنوة بعد حصار شديد[93]، وهكذا أنهى عقبة بن نافع حملته في الصحراوات الجنوبية، وعاد بعد فترة تقارب الخمسة أشهر إلى قاعدته في مغمداس.

وكان من أبرز نتائج هذه الحملة، توطيد السلام العربي ونشر الإسلام بين قبائل المنطقة[94].

وبعد أن ارتاح عقبة فترة في قاعدة مغمداس، قاد حملة ثانية اخترقت أرض مزاتة فدخل معظم واحاتها، ثم زحف نحو قَفْصة فأعادها إلى الولاء والطاعة ودخل إقليم قَسْطيلية[95]، وعاد بعدها إلى معسكر القرن حيث يرابط معاوية بن حديج.

وهكذا تمكّنت القوات العربية خلال هذه الحملة من طرد القوات البيزنطية من مدينة سوسة، وتحرير أهم حصون الدفاع الثاني في أفريقية وهو حصن جلولاء[96]، إضافة إلى تأمين المناطق الصحراوية وإعادة السلطة العربية إلى ربوعها.

إلاّ أن معاوية بن حديج شأنه شأن عبد الله بن أبي سرح غادر بلاد المغرب إلى مصر سنة 47هـ/ 667م دون أن يترك نائباً عنه أو حامية عربية

(89) غرب سرت.
(90) ابن عبد الحكم: 262. ينظر: سعد زغلول: 179.
(91) ابن عبد الحكم: 262.
(92) ابن عبد الحكم: 262 و263. البكري: 13.
(93) ابن عبد الحكم: 262 و264. البكري: 13.
(94) سعد زغلول: 1/ 181.
(95) ابن عبد الحكم: 264. وينظر: سعد زغلول: 1/ 181. سالم: 2/ 198. والهامش رقم 2.
(96) سعد زغلول: 1/ 174.

تقوم بأمر ضبط المدن والقلاع المحررة، وتُعتبَر حملته هذه آخر الحملات الاستطلاعية الكبرى[97]، حيث ستبدأ بعدها أولى حلقات التحرير المنظَّم على يد رجل طالت خبرته بأفريقية وأهلها ذلك هو عقبة بن نافع الفهري الذي بدأ ولايته بتأسيس أول مدينة عربية إسلامية قامت في بلاد المغرب العربي.

2 ـ مرحلة التحرير المنظَّم (50 ـ 90هـ/ 670 ـ 709م)

كانت ولاية عقبة بن نافع الفهري[98] للمغرب العربي سنة 50هـ/ 670م[99] حدّاً فاصلاً بين عهدين:

الأول: بدأ بجهود عمرو بن العاص سنة 22هـ/ 643م وانتهى بولاية معاوية بن حديج السكوني سنة 47هـ/ 667م وهي الفترة التي أُطلِق عليها عصر أو فترة الاستكشاف، فرغم الانتصارات التي حققتها القوات العربية حتى ذلك الوقت فإن نتائجها لم تكن لتدوم طويلاً بل كانت تلك النتائج مرهونة بوجود القوات العربية في بلاد المغرب، فإذا ما عادت إلى برقة أو مصر ارتدّت معظم المناطق المحررة عن الولاء والطاعة ولهذا اعتبرت الحملات العسكرية التي توالت على بلاد المغرب مجرّد حملات استطلاعية، واسعة المدى، قد تطول أو تقصر مُدّتها، حسب الأهداف المحدّدة لها.

واختيار عقبة بن نافع لهذه الولاية وفي هذا الوقت بالذات، لم يكن دون معرفة تامة بشخصيته القيادية، وجهوده الحربية على مدى فترة تزيد على الربع قرن من الزمان، ذلك أن دار الخلافة في المشرق، رسمت له خُطّة

(97) ينظر: حسين مؤنس: 127.

(98) عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري القرشي وُلِد قبل هجرة الرسول (ص) بسنةٍ واحدة أي سنة 621م، ينظر: الباجي: الخلاصة النقية، طبعة تونس، 1283هـ، ص: 5. وقد وَهِمَ ابن عذاري: 1/ 19 حيث جعل مولده قبل وفاة الرسول (ص) بسنة واحدة.

(99) وَهِمَ بعض المؤرخين عندما أرّخوا ولايته الأولى بسنة 46هـ، ينظر: مثلاً: ابن عبد الحكم: 262. البكري: 13.

عمل ترمي إلى تحقيق أهداف مركزية تقوم أساساً على تثبيت أقدام العرب في المغرب العربي من خلال تأسيس مدينة عربية إسلامية تكون قاعدة لتجمّع القوات العربية، ومركزاً لانطلاقها وملجأ لها عند الضرورة، وهذا العمل بحد ذاته وسيلة من أجل تحقيق الهدف الأسمى وهو تحرير المغرب العربي من المستعمرين الروم البيزنطيين، ونشر الإسلام[100].

ولكي يتمكن عقبة من إنجاز مهماته وتحقيق أهدافه، زوّد بعشرة آلاف مقاتل[101]، إضافة إلى القوات المرابطة في مدينة برقة، والتي كانت تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين البربر الذين حَسُن إسلامهم وتوثّقت طاعتهم[102].

وزحفت هذه القوات الكبيرة باتجاه المغرب، فأعادت إخضاع قفصة وقسطيلية والمناطق الأخرى التي تمّ إخضاعها سنة 46هـ خلال ولاية معاوية بن حديج، ويبدو أن عقبة بن نافع عاقب أهل هذه المناطق عقاباً صارماً لنكثهم العهد، وخروجهم عن الطاعة[103].

ومن إقليم قسطيلية زحف عقبة راجعاً إلى إقليم الهضبة الوسطى[104]، وفي قمونية[105]، وقف على جهود سَلَفه معاوية بن حديج في بناء معسكر القرن، وبدأ باختيار المكان المناسب لقيام أول مدينة عربية إسلامية. في بلاد المغرب، مشيراً إلى ضرورة قيام مثل هذه المدينة بقوله: «إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون

(100) سعد زغلول: 1/ 175 و176. لقبال موسى: المغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة 1969، ص: 33.

(101) البلاذري: 230. ابن عذاري: 1/ 19.

(102) ابن الأثير: 3/ 465.

(103) ابن الأثير: 3/ 465. ابن عذاري: 1/ 19. الاستبصار: 113.

(104) لقبال موسى: 35.

(105) ينظر: مؤنس: 14، دبوز: 2 ـ 28.

عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر . . .»[106] ويكون بها جيش المسلمين وذويهم وأموالهم ليأمنوا من تمردات أهل البلاد وخروجهم عن الطاعة[107].

وهكذا شرع عقبة بن نافع ببناء مدينة القيروان سنة 50هـ/ 670م[108] في موضع وسط بعيدة عن الساحل كي تكون في مأمن من هجمات الأسطول البيزنطي، وغير متوغلة في العمق خشية من تحركات القبائل البربرية وقريبة من السبخة لتتمكن الإبل من الرعي بأمان[109].

وقد علّق «كودل» على اختيار عقبة هذا الموضع بقوله: «وكان اختيار المكان موفّقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أن وُلاة المغرب، ومن خَلَفهم من الحُكام المستقلّين أقاموا بها زماناً طويلاً، ولم ينتقلوا عنها إلاّ حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة إلى ذلك. كما كان موقعها الحربي معروفاً ملحوظ الأهمية، إذ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله، يستطيع أن يرى العدوّ من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر، وإذا أراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطريق مفتوحة أمامه، إذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول إلى أعالي الهضاب. . . ومن أعالي الهضاب كان يستطيع الإشراف على ما يجاورها، فيتيسر له حُكمها إذا كانت لديه القوة الكافية لذلك. كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على أن يقوموا بهذا النوع من أعمال الاستطلاع وبالغارات السريعة والحراسة الدائمة»[110].

وكان موضع المدينة مكاناً كثير الأشجار، ومأوى لأنواع مختلفة من

(106) ابن عذاري: 1/ 19. وينظر: ابن الأثير: 3/ 465.
(107) ابن الأثير: 3/ 465.
(108) وقال صاحب الاستبصار: 113. أُسّست سنة 47هـ، وقال ابن عذاري: 1/ 20: سنة 51هـ.
(109) ابن عذاري: 1/ 19 و20. وينظر: المالكي: 1/ 6. الدباغ: 1/ 9.
(110) حسين مؤنس: 143 و144.

الحيوانات والزواحف[111]، وكان من الطبيعي أن تُقطَع الأشجار للاستفادة من أخشابها وتُحرق الأعشاب والأدغال لتنظيف المكان وتطهيره من الحيوانات المستوطنة فيه[112].

وحسب طريقة العرب في بناء المدن، فقد ابتدأ ببناء المسجد الجامع ثم دار الإمارة[113]، ثم قُسّمت الأرض المحيطة بهما على المقاتلين الذين اختطّوا دُورهم كل على قدرته[114].

ويبدو أن تحديد القِبلة بالشكل الدقيق كانت من الأمور التي شغلت عقبة بن نافع وأهمَّته لأيام قبل تحديدها، لأن ضبط قبلة أول مسجد أُقيم للناس في بلاد المغرب العربي من الضرورة بمكان، ولأنه على أساسها تُحدَّد قِبلةُ مساجد البلاد[115]، ولا عبرة بعد ذلك لما يذكره المؤرخين من أن تحديد القبلة كان بناء على كرامة من كرامات عقبة بن نافع[116]، إذ كشفت الدراسات الحديثة بأن محراب مسجد القيروان الذي بناه عقبة ينحرف قليلاً عن الاتجاه الصحيح[117].

وكانت مدينة القيروان في البداية بسيطة البناء، مادته الآجُر المطبوخ

(111) ابن عبد الحكم: 264. البلاذري: 230. الطبري: 5/ 240. الاستبصار: 114.

(112) الواقدي: فتوح أفريقية: 4. ابن الأثير: أسد الغابة: 3/ 421. ابن عذاري: 1/ 20.

(113) هناك خلاف بين المؤرخين حول بناء المسجد الجامع، ودار الإمارة، وأيهما بُني أوّلاً، ينظر مثلاً: الدباغ: 1/ 10. ابن الأثير: 3/ 466. ابن عذاري: 1/ 20. ابن خلدون: 3/ 10.

(114) سعد زغلول: 1/ 186.

(115) الدباغ: 1/ 10. الاستبصار: 114. ابن عذاري: 1/ 20.

(116) قال الدباغ: اختلفوا بالقبلة فأقاموا أياماً ينظرون مطالع الشمس ومغاربها فاغتمّ لذلك عقبة ودعا الله «فأتاه آتٍ في منامه وقال له: إذا أصبحت فاحمل لواءك على عاتقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المؤمنين غيرك فالموضع الذي يقطع عنك التكبير فيه فهو مُصَلاّك وهو محراب مسجدك...» وينظر أيضاً: ابن عذاري: 1/ 20 و21. السلاوي: 1/ 79.

(117) أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، الإسكندرية، 1963م، ص: 22. وينظر: سعد زغلول: 1/ 186.

لتَوَفُّر مادة الطين[118]، وعُمرت بمرور الزمن بأنواع الأبنية والمنشآت، وشد الناس إليها الرحال فسكنوها من كل مكان، وأتسعت الأسواق والمرافق. ودامت حركة البناء فيها فترة تقارب الخمس سنوات حتى أكتملت عمارتها سنة 55هـ/ 674م[119]، ولأجل حماية المدينة ومرافقها من الغارات المفاجئة فقد لُفَّت عمائر المدينة ومنشآتها بِسُور من اللَّبن والطين ظل قائماً حتى زمن الأغالبة فهدمه زيادة الله، وأقام عليها سُوراً من التراب[120].

وقد اختلف المؤرخون في تقدير مساحة المدينة، فحددها البعض بثلاثة آلاف وستمائة (باع)[121] وحددها آخرون بثلاثة عشر وستمائة (ذراع)[122]، ويقول سعد زغلول: «والمساحة الأولى التي تُقدَّر بحوالى (5800م^2) معقولة بالنسبة لخطة الأولى، وإقامة الأسوار، ووسائل الدفاع، أي بالنسبة للمدينة العسكرية، أما المساحة الثانية التي تُقدّر بحوالى (7000م^2) فهي معقولة بالنسبة لمساكن العسكر والقبائل، ومن أنضاف إليهم من أهل البلاد، وعلى ذلك يمكن القول إن المدينة العسكرية الأصلية المسوَّرة حيث المسجد الجامع ودار الإمارة والذخائر ـ كان محيطها (3600) باع بينما انتشرت حولها مساكن القبائل والمساجد الخاصة بها في محيط بلغ 13,600 ذراع»[123].

وكان قيام مدينة القيروان حدثاً هاماً في تاريخ أفريقية خاصة والمغرب العربي عامة، لأنها أصبحت نواة لولاية جديدة هي ولاية المغرب العربي، كما كانت مدينة الفسطاط من قبلها نواة لولاية مصر العربية[124]، وحققت

(118) المقدسي: 225. لقبال موسى: 35.
(119) ابن الأثير: 3/ 366.
(120) سالم: 2/ 208.
(121) ابن الأثير: 3/ 466. ابن خلدون: 3/ 10.
(122) ابن عذاري: 1/ 21. وينظر: سالم: 2/ 207.
(123) تاريخ المغرب العربي: 1/ 186 و167. وينظر: سالم: 2/ 207.
(124) حسين مؤنس: 146. لقبال موسى: 39.

النتائج التي أُريدَ من بنائها، فأصبحت قاعدة تنطلق منها القوات العربية، ومقراً للوُلاة، ومسكناً للكثير من القبائل العربية، وحذت بعض القبائل العربية البربرية حذو إخوانهم المشارقة، فجاوروا المدينة الجديدة، ودخلوا في دعوة الإسلام، وتعلّموا اللغة العربية، ووقفوا على أصول الشريعة الإسلامية وما يجب على المسلم من واجبات، وما له من حقوق.

وكان دور القيروان واضحاً وجليّاً في نشر الإسلام والتعريب بين قبائل البربر، فشيوخها من أبناء الصحابة والتابعين كانوا خير دعاة وخير معين[125]، تمكّنوا بعد فترة وجيزة من نقل أهل المغرب العربي من حال إلى حال، نقلوهم من حال المُعادي والمتربص بالسلطة العربية، إلى صف المشارك في حروب التحرير والفاعل في تقرير السياسة العربية بهدف تحرير البلاد من المستعمرين البيزنطيين.

ولا يخفى بعد هذا ما للآثار المعنوية من أهمية في قيام المدينة، فقد قوي جنان المجاهدين، وأطمأنت نفوسهم في الاستقرار والسُّكنى، واتخاذ الدور والمساجد فيها، وزادتهم عزيمة وإصراراً لتحرير كامل التراب العربي، وطرد الروم وملاحقة فلولهم واجتثاث أصولهم. في الوقت ذاته كان لصدى قيام هذه المدينة آثاره السلبية على الغزاة وحلفائهم، فقد كانت أخبار بنائها تزيد من عوامل الانهيار النفسي لديهم، وتعمّق من هذه الخلافات بين صفوفهم.

وقد عبّر أبن الأثير عن مجمل هذه النتائج بالمقولة الآتية: «.. ودخل كثير من البربر في الإسلام، وأتسعت خطة المسلمين، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمِنوا، وأطمأنوا على المقام فثبت الإسلام بها»[126].

(125) ينظر فيما بعد الفصل الموسوم: «انتشار الإسلام والعروبة».

(126) الكامل: 3/ 466. وينظر أسد الغابة: 3/ 184.

وهكذا قُدِّر لمدينة القيروان ومنذ البداية دَورٌ يشمل النواحي العسكرية، والسياسية، والحضارية، والدينية[127].

وفي الوقت الذي كان فيه عقبة بن نافع وقواته مشغولين بإنشاء المدينة، كانت السرايا المقاتلة تجوب مناطق عديدة، فيما بين الساحل وعمق بلاد المغرب، لتطهير المناطق المحيطة بإقليم القيروان، ولتستطلع أحوال العدوّ البيزنطي[128].

وبإنهاء عقبة بن نافع مهماته الأساسية سنة 55هـ/ 675م ارتأت الخلافة اتّباع سياسة جديدة في بلاد المغرب لكسب ولاء القبائل العربية البربرية، ونشر الإسلام والعروبة بين صفوفهم وتقوم هذه السياسة في أساسها على اعتماد الإقناع واللين والمداراة في الدرجة الأولى. ولمّا كان عقبة بن نافع عسكريّاً من الطراز الأول وعنيفاً في سياسته على حد قول معظم المؤرخين، فقد تطلبت المرحلة الجديدة والياً سياسيّاً يمتلك قدراً عالياً من المرونة دون التفريط بأهداف الدولة المركزية.

لهذا السبب استُدعي عقبة بن نافع الفهري، وأُقِرّ مكانه: أبو المهاجر دينار، الذي عُرِف بسياسته المغايرة تماماً لسياسة سلفه، والمصادر تمر مرّاً سريعاً على ولاية وأعمال أبي المهاجر دينار، ولعل السبب في ذلك يعود إلى وقوع ولايته بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية. وعلى أية حال فما أن استقر أبو المهاجر في القيراون حتى تواصلت إليه الأخبار عن قيام نوع من التعاون العسكري بين الروم البيزنطيين وكسيلة بن لمزم زعيم قبائل أوربة البرنسية، حيث بدأوا يعدّون العدة للقيام بأعمال مضادة من شأنها الحد من تقدم القوات العربية ومنعها من التوغل في المغرب العربي، ولكي لا يسمح أبو المهاجر دينار لعدوّه بالاستعداد التام، بادر بقيادة القوات العربية سنة

(127) محمد العروسي المطوي: سيرة القيروان، الدار العربية، تونس، 1981م، ص: 17.

(128) ابن الأثير: الكامل: 3/ 466.

55هـ/ 675م وزحف بٱتجاه إقليم تلمسان مواطن قبيلة أوربة وحلفائها لمهاجمتهم في عقر دارهم، فعسكر في مكان قريب من الإقليم سُمّي فيما بعد بعيون[129] أبي المهاجر وبدا يستعد لخوض المعركة الحاسمة[130].

والنصوص التاريخية لا تشير إلى حرب عنيفة بين الطرفين، وإن أشارت إلى انتصار أبي المهاجر دينار على قوات كسيلة[131]، ثم صالحه واتخذه صديقاً[132]، وكسبه وقومه عندما دخلوا الإسلام جميعاً[133]، وأصبحوا قوة مضافة إلى القوات العربية في جهادها ضد الروم.

وقد استغرقت حملته هذه قرابة الثلاث سنوات[134]، ولا نعرف فيما إذا كان أبو المهاجر دينار قد عاد إلى القيروان للراحة وإصلاح الأمور بعد هذه الحملة، أو اتجه من تلمسان مباشرة إلى مدينة قرطاجنة عاصمة الروم البيزنطيين[135].

وعلى كل حال، فالغالب أن حملته على مدينة قرطاجنة كانت مدبرة حتى قبل المسير إلى إقليم تلمسان، إذ عمد إلى إخضاع قبائل أوربة أولاً، ثم يتفرغ بعد ذلك للروم البيزنطيين[136]، فالنصوص التاريخية تشير إلى معارك شديدة بين القوات العربية وقوات الروم سنة 59هـ/ 678م لٱستخلاص مدينة قرطاجنة من أيديهم[137]، في الوقت الذي كانت قوة عربية أخرى

---

(129) أو: آبار أبي المهاجر..

(130) ابن عذاري: 1/ 28 و29.

(131) ابن عذاري: 1/ 19. السلاوي: 1/ 80. وينظر: حسين مؤنس: 173.

(132) المالكي: 1/ 20. الدباغ: 1/ 46.

(133) ابن عذاري: 1/ 29. ابن تغري بردي: 1/ 158.

(134) حسين مؤنس: 173.

(135) حسين مؤنس: 173.

(136) حسين مؤنس: 173.

(137) ابن تغري بردي: 1/ 152.

بقيادة حنش الصنانعي[138] تهاجم جزيرة باشو أو شريك[139]. واستمرت القوات العربية تسدد ضرباتها العنيفة على مدينة قرطاجنة، وتضيّق عليها الحصار، حتى أُجبر الروم البيزنطيون على طلب الصلح، وتوقيع معاهدة تنازلوا بموجبها عن جزيرة شريك، والمناطق القريبة منها، مقابل فكّ الحصار عن مدينة قرطاجنة[140].

وقبل أن يعود أبو المهاجر إلى مقر ولايته، زحف بقواته غرباً فحرر مدينة ميلة[141]، ثم اتخذ طريق العودة إلى القيروان فوصلها من حدود سنة 61هـ/ 680م.

ونلاحظ في أعمال أبي المهاجر دينار أمرين هامّين وكلاهما واضح الدلالة على التطور الذي جدَّ خلال هذه المرحلة.

الأول: كسب قبائل البربر، ودعوتهم إلى الإسلام، والاعتماد عليهم في اجتثاث معاقل الروم البيزنطيين. ولا نزاع في أن إسلام كسيلة بن لمزم زعيم قبيلة أوربة كان حدثاً مهمّاً له معناه وأثره البعيدان: معناه نجاح القوات العربية في تأدية الغرض الأسمى من حملاتها العسكرية وهو نشر الإسلام، وأما تأثيره فكسيلة بن لمزم لم يُسلِم بمفرده وإنما أسلم بإسلامه نَفَر كبير من قومه إذا لم نقل عموم قبائل أوربة.

(138) تَنسِب بعض المراجع قيادة هذه الحملة إلى حسين بن عبد الله الصنهاجي. ينظر: الفتح الإسلامي لشمال أفريقية: محمد زيتون، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، عدد 16 لسنة 1981، ص: 65.

(139) وهي شبه جزيرة تقع بين تونس شمالاً، وسوسة جنوباً، وكانت مدينة باشو قاعدة هذه الجزيرة ومن أكبر مدنها، وكان شريك العبسي أول من دخلها من القادة العرب في حملة عبد الله بن أبي سرح، فسُمّيت باسمه.

(140) ابن تغري بردي: 1/ 152. لقبال موسى: 48 و49.

(141) مدينة ميلة: مدينة أزلية فيها بعض آثار للأول تدل على أنها كانت مدينة كبيرة، وصفها صاحب الاستبصار بقوله: «وهي الآن عامرة آهلة، كثيرة الخصب رخيصة السعر كثيرة الأسواق والمتاجر، عليها سور صخر جليل من بناء الأولين...» الاستبصار: 166. وينظر: البكري: 63 و64. وينظر تعليق حسين مؤنس: 74. وقارن: سالم: 2/ 216 والهامش رقم: (13).

والثاني: لم يعقد أبو المهاجر دينار صلحاً مع الروم على أن ينصرف عن مدينة قرطاجنة لقاء فدية من مال، وإنما طلب إليهم أن يتنازلوا له عن عدد من نقاط الارتكاز المهمة في البلاد ومنها جزيرة باشو أوشريك، وستكون هذه النقاط فيما بعد عوناً للقوات العربية على الروم البيزنطيين(142).

وبوفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة 60هـ/ 679م، تولّى الخلافة ولده يزيد، وطبيعي أن تكون للخليفة يزيد وجهة نظر خاصة في ولاية الأقاليم، وما قد يصلح للعصر السابق، قد لا يكون بالضرورة صالحاً للعهد الجديد، وعلى أساس هذه النظرة، فصل الخليفة يزيد ولاية المغرب العربي عن ولاية مصر، وجعلها ولاية مستقلّة قائمة بذاتها ترتبط ارتباطاً مباشراً بدار الخلافة(143)، وأعاد تعيين عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/ 681م(144) والياً عليها بدلاً من أبي المهاجر دينار(145)، والذي كان في الحقيقة نائباً عن والي مصر مسلمة بن مخلد على ولاية المغرب، وليس والياً بالمعنى الدقيق للولاية(146).

وتفرّغ عقبة بن نافع بعد وصوله بلاد المغرب إلى تنظيم شؤون الولاية وإقرار الأمور في مدينة القيروان. وعندما تمّ له ذلك عزم على القيام بحملته المشهورة في بلاد المغرب، فاستخلف زهير بن قيس البلوي، وعمر بن علي القرشي على مدينة القيروان(147)، وترك فيها حامية عسكرية قدرت بستة آلاف

---

(142) حسين مؤنس: 174 و176. لقبال موسى: 48 و49.

(143) المالكي: 1/ 22. الدباغ: 1/ 47.

(144) يقول سعد زغلول: الأقرب إلى الصحة أن يكون عقبة قد استعاد ولايته بعد وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان مباشرة، وربما حدث ذلك سنة 61هـ.
ينظر: تاريخ المغرب العربي: 1/ 192. وأيضاً: حسين مؤنس: 179. سالم: 2/ 217 وما بعدها.

(145) المالكي: 1/ 22. الدباغ: 1/ 47. ابن الأثير: 4/ 105. ابن عذاري: 1/ 123. ابن أبي دينار: 30.

(146) كانت ولاية المغرب مرتبطة بولاية مصر وتابعة لها.

(147) ابن عبد الحكم: 267. المالكي: 1/ 22. الدباغ: 1/ 48.

مقاتل لحماية المدينة من أي خطر قد يتهددها من جانب الروم البيزنطيين أو قبائل البربر[148]. وخرج سنة 62هـ/ 681م على رأس جيش قواته عشرة آلاف مقاتل[149]، فزحف غرباً حتى وصل مدينة باغية[150]، فهاجم حاميتها الرومية وتمكّن بعد قتال شديد من إبادة معظم مقاتليها، وأُجبرت بقيتهم على الهرب والاعتصام داخل المدينة[151]، مخلّفين في ميدان المعركة غنائم كثيرة خاصة خيول جبال أوراس التي عُرفت بصلابتها وشدة تحملها[152].

ولم يشأ عقبة إنهاك قواته في محاصرة المدينة فتركها، وقصد مدينة المسن[153] والتي كانت على حد قول الرقيق القيرواني «من أعظم مدائن الروم»[154]، تجمّع فيها منهم عدد كبير خرجوا لقتال القوات العربية، وما إن حمِي أوار المعركة حتى ولّوا الإدبار إلى داخل حصونهم[155]، فغادرها إلى بلاد الزّاب، وزحف إلى مدينة أذنة[156] حيث دارت معركة طاحنة انتصرت فيها القوات العربية، وانهزم الروم «وقُتِل فرسانهم، وأهل النكاية والبأس منهم، واستولت الهزيمة على بقيتهم»[157] وفي هذا الانتصار ذهب عز الروم ومُلكهم من بلاد الزّاب، وانكسرت شوكتهم «إلى آخر الدهر»[158].

(148) ابن عبد الحكم: 268.

(149) المالكي: 1/ 22. الدباغ: 1/ 47.

(150) مدينة كبيرة عند أقدام جبال أوراس، عليها سوران من الحجر، كثيرة الأنهار والعيون. الإدريسي: 103. الاستبصار: 163.

(151) الرقيق القيرواني: 41. المالكي: 1/ 23. ابن الأثير: 4/ 105. ابن عذاري: 1/ 24.

(152) الرقيق القيرواني: 42. ابن عذاري: 1/ 24.

(153) كذا عند الرقيق القيرواني. وفي البيان المغرب لابن عذاري: 1/ 24 «مدينة المنستير» وهو خطأ. وفي العبر. لابن خلدون: 6/ 108 حيث الاسم: «مدينة لميس».

(154) تاريخ أفريقية والمغرب: 42.

(155) الرقيق القيرواني: 42. وينظر: ابن عذاري: 1/ 24.

(156) مدينة مشهورة تبعد عن المسيلة بأربعة مراحل، وحولها أكثر من ثلاثمائة قرية كلها عامرة. ينظر: الرقيق القيرواني: 42. الدباغ: 1/ 49.

(157) الدباغ: 1/ 49. وينظر: الرقيق القيرواني: 43.

(158) الرقيق القيرواني: 42. المالكي: 1/ 23.

ويُعتبَر تحرير بلاد الزاب واستخلاصها من الروم البيزنطيين بداية مرحلة جديدة «إذ إن العرب لم يَلقوا حتى ذلك الوقت مقاومة إلاً من جانب الروم، وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل عن طبيعة العلاقة بين الروم والبربر في هذا الوقت؟ والذي يُفهم من النصوص أن تلك العلاقة كانت سلبية، فالروم يعتصمون بالسواحل وبالقلاع في الداخل وإلى جانبهم قلّة قليلة من أهل البلاد الذين انصبغوا بالصبغة الرومانية، واعتنقوا المسيحية... أما جمهرة المغاربة الذين لم يكونوا قد اتصلوا بعد بإخوانهم العرب، فكانوا في الدواخل يقفون موقف المتفرج على الطرفين المتنازعين. وعندما وجد الروم بعد انتصارات عقبة في الزاب ألاّ قِبَلَ لهم بمواجهة العرب فكّروا في الاستعانة بالبربر، ولا نعرف الظروف التي تمّت فيها الاتصالات والاتفاق بين الروم والبربر، ولا ماهية الوعود أو التنازلات التي قدمها الروم، فكل ما يقوله الكتاب هو إن الروم استغاثوا بالبربر.... فأجابوهم ونصروهم[159]».

فعندما زحفت القوات العربية إلى منطقة تاهرت، وجد عقبة نفسه أمام جموع كبيرة من الروم والبربر من قبائل لوَاتة، وهوارة وزواغة، ومطماطة، وزنانة، ومكناسة[160]، واستعدت القوات العربية لخوض غمار المعركة، فقام عقبة خطيباً يحض القوم على الصبر والصمود، وملاقاة الأعداء بقلوب صادقة[161]، والْتقى الطرفان في قتال عنيف وطأته شديدة على القوات العربية، ولكن صمودهم أعجز جموع الروم والبربر واستنفدت طاقة تحملهم[162]، فولّتْ قواتهم منهزمة تريد الاعتصام بالمدينة، ولكن القوات العربية لم تمكّنهم من هدفهم «فأفنوهم وقطعوا آثارهم[163]».

(159) سعد زغلول: 1/ 196 و197. وينظر: ابن الأثير: 4/ 115.

(160) كانت منطقة تاهرت مواطن القبائل المذكورة. وينظر: ابن عذاري: 1/ 25.

(161) نص الخطبة في: تاريخ أفريقية والمغرب. الرقيق القيرواني: 43 و44. الدباغ: 1/ 49 و50.

(162) الرقيق القيرواني: 44. المالكي: 1/ 23. ابن الأثير: 4/ 105 و106.

(163) ابن عذاري: 1/ 25.

وعلى إثر هذه الهزائم التي مُنيَت بها القوات الرومية، لجأ من بقي منهم إلى الحصون والمعاقل، فتركهم دونما اعتراض، وزحف بقواته موغلاً في المناطق الغربية حتى صار بأحواز طنجة(164)، والتي كانت تشمل الأقاليم الواقعة على الساحل وتضم إضافة إلى مدينة طنجة مدينة أخرى هي سبتة(165)، وكان حاكم الإقليم خلال هذه الفترة ملكاً من ملوك قبيلة غمارة اسمه يليان(166)، كان من أشراف قومه ومن ذوي العقل والدهاء فيهم، كاتَبَ عقبة بن نافع وهاداه، وسأل منه المسالمة، والنزول على حكمه(167)، فظهر عقبة بمظهر السياسي القدير فرأى أن يرتبط بهذا الحليف المفيد(168)، فقبل ما عرضه عليه، وتم الاجتماع بينهما، وقدم يليان معلومات قيّمة عن أحوال الأندلس والروم والبربر(169)، ولفت نظر عقبة إلى ترك التفكير بالأندلس في هذه المرحلة، حتى يتم له القضاء على مقاومة الروم البيزنطيين والبربر في بلاد المغرب، وتطهيره من عناصر المقاومة(170).

(164) ابن عذاري: 1/ 26. ويقول حسين مؤنس في كتابه فتح العرب للمغرب: 191: «ولا يُفَسّر انتهاؤه إلى هذه المنطقة رأساً دون أن يمرّ بمدن أخرى من مدن الساحل مثل: باديس، ونكور، وتطوان، إلاّ بأنه اختار الممر الضيّق المحصور بين هضبة الريف، وجبال الأطلس الوسطى، لكي يجنّب نفسه مشقة المرور بالساحل المليء بالمدائن الحصينة التي ربما لقي فيها مثل ما لقي في باغية وتاهرت.».

(165) ينظر: ابن عذاري: 1/ 26.

(166) وهذا ما نرجحه على كثرة الآراء في أصله فقد قِيل إنه أمير من القوط، وقيل من بطارقة الروم وقيل غير ذلك، ورُسِم اسمُه تارة: يوليان وأخرى يليان، وبليان، وأليان. ينظر: حسين مؤنس: 191.

(167) الرقيق القيرواني: 45. ابن عذاري: 1/ 26.

(168) سعد زغلول: 1/ 199.

(169) قال الرقيق القيرواني: 45 فسأله عن بحر الأندلس فقال له: «إنه محفوظ لا يرام، فقال له: دلّني على حال البربر والروم، فقال له: قد تركت الروم خلفك، وما قُدّامك إلاّ البربر وفرسانهم، قال له: وأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين ولم يدخلوا النصرانية، يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم يكفرون بالله عزَّ وجلَّ ولا يعرفونه.» وينظر: ابن الأثير: 4/ 106.

(170) سعد زغلول: 1/ 199، 200.

زحف عقبة من طنجة إلى السوس الأدنى، فدخل بلاد تامسنا موطن قبائل مصمودة، فهزم جموعهم. وبث سراياه في اتجاهات مختلفة لملاحقة المنهزمين[171]، ثم واصل زحفه حتى مدينة وليلي[172]، وفي هذا المكان اصطدم ببربر أطلس الوسطى، فهزمهم ولاحقهم جنوباً عبر تادلا[173]، نحو صحراء وادي درعة[174]. ولكي لا يتوغل كثيراً في المناطق الصحراوية، توجه نحو الشمال الغربي إلى منطقة تافللت، ودار حول جبال أطلس العليا، فدخل مواطن قبائل صنهاجة، ثم أعقبها بدخول منطقة قبائل هسكورة[175]، ثم نزل مدينة أغمات وريكة[176]، ومنها اتجه غرباً إلى مدينة نفيس، فحاصرها حتى استسلمت له[177]، وكان سكانها من الروم والبربر، وأصاب بها عقبة أموالاً كثيرة ومغانم واسعة[178].

وبإستسلام مدينة نفيس انفتح أمام عقبة وادي السوس الأقصى، فقصد قاعدته إيجلي، فدخلها وبنى بها مسجداً، ودعا قبائل المنطقة إلى الإسلام فأسلمت قبائل جزولة وآخرون غيرهم[179]، ومن ايجلي زحف إلى ماسة

---

(171) ابن عذاري: 1/ 26. ابن الأثير: 4/

(172) المدينة التي سينزلها إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة، وكانت ـ حين نزوله فيها ـ موطنَ قبائل أوربة، سكنوها بعد مقتل زعيمهم كسيلة بن لمزم في واقعة ممس في ولاية زهير بن قيس البلوي.

(173) مدينة قديمة فيها آثار للأول، بنى بها المرابطون حصناً قوّياً، والمدينة مشهورة منذ القدم سكنتها قبائل عديدة من قبائل المغرب. الاستبصار: 200.

(174) عرفت مدينة درعة بواديها، والذي هو نهر كبير يجري من المشرق إلى المغرب، ومنبعه من جبل درن وعليه عمارة متصلة نحو أيام، وفيها أسواق مشهورة ومعروفة لدى أهل المغرب. الاستبصار: 206.

(175) ابن عذاري: 1/ 26. وينظر: سعد زغلول: 1/ 200.

(176) مدينة أغمات، مدينتان، هما: أغمات وريكة، وأغمات هيلانة، وبينهما حوالي ثمانية أيام، وأغمات وريكة أشهر حيث كانت محل سكنى الأعيان والثمار.
ينظر: البكري: 153. الاستبصار: 208.

(177) ابن عذاري: 1/ 27.

(178) الاستبصار: 208. البكري: 160.

(179) ابن عذاري: 1/ 27. وينظر: سعد زغلول: 1/ 201. سالم: 2/ 226.

على المحيط الأطلسي[180] فأقحم فرسه في مياه المحيط ونادى بأعلى صوته: «اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبَد أحد من دونك.»[181]

وعندما عزم عقبة على العودة، دار جنوبي مدينة ماسة مارّاً بِإيفران يطوف ثم مضى شمالاً حتى تارنا، ثم إلى موضع شاكر الذي سمي نسبة إلى صاحب عقبة شاكر، الذي أسس رباطاً في هذه المنطقة[182]، وتخلّف فيها يدعو الناس إلى الإسلام ويعلّمهم شرائعه[183]، ومن هذا الموضع نفذ إلى بلاد دكالة[184]، فدعاهم إلى الإسلام ، فأمتنعوا عليه ووقعت بين الطرفين معركة استشهد فيها عدد كبير من مقاتلي القوات العربية، حتى سمي موضع المعركة فيما بعد بمقبرة الشهداء[185] ومن دكالة مضى إلى بلاد هسكورة التي امتنعت هي الأخرى، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى أجبرهم على الهروب أمامه دون نظام[186]. وعَبَر بعدها نهر أُمّ الربيع وتوغّل شرقاً حتى دخل المغرب الأوسط[187]، وعند مدينة طبنة التي تبعد مسيرة ثمانية أيام عن مدينة القيروان[188]، أمر عُقبة معظم القوات بالتوجه فوجاً إثر فوج إلى مدينة

(180) ابن عذاري: 1/ 27.

(181) الدباغ: 1/ 51. وينظر: ابن عبد الحكم: 268. ابن عذاري: 1/ 27.

(182) يقع عند وادي تنسيفت في منتصف المسافة بين الموضع التي ستقوم عليه مدينة مراكش، وموجادرو.

(183) ابن عذاري: 1/ 27. وينظر: سالم: 2/ 221.

(184) يقول سعد زغلول: «. . . وحتى ذلك الوقت لم يجد عُقبةُ. . . مقاومةً جدّية، ولكن النصوص تأخذ في الإشارة إلى ما بدأ يلقاه عقبة من المتاعب. فعندما دخل بلاد دكالة شمال وادي نفيس بين وادي تنسيف ووادي أُمّ الربيع ودعاهم إلى الإسلام امتنعوا إليه، والظاهر أنهم دبّروا الغدر به» تاريخ المغرب العربي: 1/ 202.

(185) نص عبد الله بن صالح: 220. ابن عذاري: 1/ 28.

(186) ابن عذاري: 1/ 28.

(187) سالم: 2/ 226 و227. وينظر: سعد زغلول: 1/ 202.

(188) الاستبصار: 172.

القيروان وظل هو في قوة تقدر بخمسة آلاف مقاتل[189]، ويعلل المؤرخون هذا العمل بجملة أسباب هي:

1 ـ القرب من ثغر أفريقية «القيروان»[190].

2 ـ الثقة بما نال من العدوّ[191].

3 ـ طول المدة التي قضاها المقاتلون في هذه الحملة، فصرف معظمهم للحاق بمنازلهم وعيالهم[192].

4 ـ ما قام به كسيلة بن لمزم بعد هربه من طَمْر آبار المياه على طول الطريق السالكة إلى القيروان[193]، مما دعا عقبة إلى اتخاذ طريق يتميّز بقلة المياه ولا يكفي لإرواء القوات مجتمعة[194].

5 ـ وربما يكون لتفشي الجراح والإصابات بين المقاتلين من بين الأسباب التي دفعت عقبة إلى هذا الإجراء[195].

لهذه الأسباب، مجتمعة قام عقبة بإرسال معظم قواته للّحاق بمدينة القيروان، وانعطف بمن بقي معه من الفرسان لتحرير مدينتي تهوذة[196]،

---

(189) نص عبد الله بن صالح: 220. المالكي: 1/ 26. الدباغ: 1/ 54. ابن الأثير: 4/ 106. ابن عذاري: 1/ 29. وفي الاستقصا: 1/ 84، والخلاصة النقية: 5: «في ثلاثمائة فارس».

(190) ابن عبد الحكم: 267. الدباغ: 1/ 51. ابن الأثير: 4/ 106.

(191) ابن الأثير: 4/ 106.

(192) ابن عذاري: 1/ 28.

(193) قال ابن عبد الحكم: 268 «وخرج ابن الكاهنة البربري ـ يعني كسيلة ـ على إثر عُقْبة كلّما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس ولا يشعر بما صنع البربريّ.».

(194) سلك عقبة في ذهابه من القيروان إلى المحيطِ طريقَ الأطلس التلي، أما رجوعه فعلى شمال الأطلس الصحراوي، ومحذور طريق العودة هو قلّة مياهه. ينظر: محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي: 122.

(195) نتيجة الوقائع الشديدة بين القوات العربية وقبائل بلاد دكالة ومصمودة.

(196) تقع بالقرب من بِسْكَرَة، وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور حصين ولها رياض كبيرة وأرباض كثيرة بِدُورٍ يجمعها خندق، ويمر بها نهر يجري إليها من جبل =

وباديس[197]، وعندما تقدم ناحية تهوذة، طمع فيهم الروم لقلتهم «فأغلقوا باب حصنهم، وجعلوا يشتمونه، ويرمونه بالحجارة والنبل، وهو يدعوهم إلى الله»[198]. وعندما توسط البلاد فوجئ بقوات كسيلة بن لمزم تحيط به من كل جانب، والمصادر التاريخية لا تذكر المكان الذي هرب منه كسيلة للّحاق بأبناء عشيرته وقومه، وإن كانت تشير إلى أن أبا المهاجر دينار نصح عقبة عندما أراد النهوض إلى طنجة بقوله: «ليس بطنجة عدوّ لك، لأن الناس قد أسلموا، وهذا رئيس البلاد ـ يعني كسيلة ـ فأبعث معه والياً، فأبى عقبة إلاَّ أن يخرج بنفسه.»[199] وضيَّق على كسيلة، فأجبره على القيام بأعمال لا تليق بمركزه[200]، مع إجماع الروايات على عدم استحكام الإسلام بقلبه[201]، وخشية أبي المهاجر دينار من أن تؤدي هذه المعاملة إلى نتائج تنتهي بأنقلاب كسيلة عندما حذَّر عقبة ونصحه بقوله: «توثق من الرجل فإني أخاف فتكه.»[202]

وعلى كل حال فقد كان عقبة معذوراً في سياسته اتجاه كسيلة إن صحت مقولة المؤرخين، فكسيلة كان يتصرف كأمير من الأمراء، وربما كان لتصرّفه هذا مبعث استياء قد لا تحمد عقباه في حملة عسكرية، إضافة إلى أن عقبة ربما وقف على أعمال واتصالات لكسيلة تخلّ بأمن الحملة حُسِبت عليه، ولم تسمح الظروف للتوثّق منها، ومعاجلته بما أتى، حتى تمكن من

= أوراس، الاستبصار: 174. البكري: 72.

(197) بادس: مدينة كبيرة لها حِصْنان، وأرباض واسعة، وهي مدينة قديمة فيها آثار للأوّلين. الاستبصار: 175، البكري: 74.

(198) ابن عذاري: 1/ 28. وينظر: ابن الأثير: 40/ 106.

(199) الدباغ: 1/ 53.

(200) من ذلك أنه أجبرَ كسيلة على ذبح الأغنام وسلخها، وتهاون بأمره كثيراً.
ينظر: المالكي: 1/ 26. الدباغ: 1/ 53. ابن عذاري: 1/ 29. ابن خلدون: 6/ 146.

(201) ينظر النص في المالكي: 1/ 26. الدباغ: 1/ 53. ابن خلدون: 6/ 146.

(202) الدباغ: 1/ 53. وينظر: المالكي: 1/ 26. ابن خلدون: 6/ 146.

الهرب فبانت نواياه الشريرة وتوثقت خيانته[203].

وهرب كسيلة بن لمزم من معسكر عقبة، تمّ على الأكثر بعد خروج القوات العربية من منطقة طنجة بٱتجاه السوس الأدنى، وتمكّن بعد هروبه من جمع قوات كبيرة من البربر إضافة إلى الروم هاجمت في البداية مدينة القيروان، ولما لم يتمكن منها[204]، بعث سراياه للعمل خلف خطوط القوات العربية التي كان يقودها عقبة، فطمرت الآبار وغوَّرت المياه[205]، للتضييق على الجيش في طريق عودته، وإجباره على سلك طريق أخرى يمكن مداهمته فيها بعد ذلك[206].

ونجحت خطة كسيلة، ففي الوقت الذي أنهى عقبة بقوة صغيرة من الفرسان إلى مدينة تهوذة كان كسيلة على رأس جيش كبير منهم البربر والروم، وبينما تقطّعت السبل بعُقبة وقوّاته، كانت جموع كسيلة تزداد عدداً بمن ينضم إليها يوماً بعد يوم حتى بلغت الخمسين ألف مقاتل[207].

ولم تُرعِب هذه القوات عُقبة وصحبَه، فلم يفكّر بالانسحاب من المواجهة، لٱختيار ظروف أفضل، بل قاتلوا قتالاً باسلاً حتى استشهدوا عن آخرهم، فيما عدا أنفار منهم وقعوا في الأسر[208] فٱفتداهم صاحب قفصة ٱبن مصاد، وأُلحِقوا بزهير بن قيس في مدينة القيروان وكانت هذه الواقعة أواخر سنة 63هـ/ 683م، أو بداية سنة 64هـ/ 684م[209].

---

(203) ينظر: حسين مؤنس: 197.

(204) ابن عبد الحكم: 267 و268.

(205) ابن عبد الحكم: 268.

(206) حسين مؤنس: 198 و199.

(207) المالكي: 1/ 27. الدباغ: 54. ابن عذاري: 1/ 29.

(208) ابن الأثير: 4/ 108. ابن خلدون: 6/ 147، وكان من بين الأسرى: محمد بن أوس الأنصاري، ويزيد بن خلف العبسي وغيرهما.

(209) تختلف الروايات في تحديد استشهاد عقبة وصحبه فيجعلونها بين سنوات 62 و64 ويجعل بعض الباحثين استشهاده في بداية سنة 65هـ. =

وكان لاستشهاد عقبة بن نافع، وأبي المهاجر دينار وصحبهم أثر عميق في نفوس المسلمين، فعقبة وأبو المهاجر دينار هما أول القادة الذين استشهدوا في بلاد المغرب العربي، دفاعاً عن القِيم والمبادئ وكان لخبر استشهادهما وقع شديد أثّر تأثيراً سلبيّاً على معنويات الجند المرابطين في مدينة القيروان، فافترقت الكلمة، وتعددت الآراء. ورغم جهود زهير بن قيس البلوي الواضحة في معالجة الأوضاع الطارئة وإصراره على الصمود والدفاع عن القيروان، إلاّ أنه اضطر أخيراً إلى إخلاء المدينة والانسحاب إلى مدينة بَرْقة حيث ظل مرابطاً هناك انتظاراً لتعليمات دار الخلافة(210).

أما كسيلة فلم يجد صعوبة تُذكَر في دخول مدينة القيروان في محرم سنة 64 هـ/ 684م فأمّن من بقي فيها من المسلمين(211)، وظل أميراً على القيروان وما يحيط بها فترة تقارب الخمس سنوات(212)، كانت الخلافة خلالها تمرّ بفترة عصيبة شغلتها عن أمور المغرب طوال تلك المدة.

فعندما توفي الخليفة يزيد بن معاوية سنة 64هـ/ 684م أعقبه على الخلافة ولده معاوية الثاني والذي لم يستمر إلاّ أياماً، فأعقبه مروان بن الحكم الذي شُغِل بالقضاء على الفتن القائمة ضده، ونجح في استعادة مصر طريق المغرب إلى سلطة الخلافة، وقضى ولده الخليفة عبد الملك السنوات الأولى من حكمه في استعادة سلطة الخلافة على العراق والمشرق، وعندما بدأت الأمور تسير نحو الاستقرار، قرر الخليفة عبد الملك استعادة القيروان ومواصلة حروب التحرير في المغرب العربي، وعقد لذلك مجلساً من كبار

= ينظر: نهلة شهاب: المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع (رسالة ماجستير، مكتوبة على الآلة الكاتبة) ـ كلية الآداب، جامعة الموصل 1987، ص 138 وما بعدها.

(210) يشير ابن عبد الحكم: 269 إلى قتال وقع بين زهير بن قيس وكسيلة حول القيروان فهُزِم كسيلة وانسحب زهير بقواته إلى (مصر) كذا، والصحيح: بَرْقة.
وينظر، ابن الأثير: 4/ 108. ابن عذاري: 1/ 31. ابن خلدون: 6/ 186.

(211) المالكي: 1/ 27، الدباغ: 1/ 55، ابن الأثير: 4/ 108.

(212) ابن خلدون: 6/ 109 و147.

المستشارين من أهل الخبرة والمعرفة، وانتهى المجلس باختيار زهير بن قيس البلوي والياً على المغرب وقائداً لجيوشها، وأقرّ الخليفة هذا الرأي ووقع عليه مهمة تحرير مدينة القيروان، ومن ثم استئناف حروب التحرير ضد الغزاة البيزنطيين[213].

وأسباب تقديم زهير بن قيس على غيره من القادة مدرجة في كتب التاريخ، فهو صاحب عقبة بن نافع، وأعرف الناس بسيرته وتدبيره، ومن ثم فهو مثله في الدين والتقوى[214]، وإضافة إلى ذلك فزهير بن قيس قضى سنوات عديدة في بلاد المغرب مجاهداً في صفوف القوات العربية، ونائباً عن وُلاتها في أمور كثيرة.

زحف زهير بن قيس من برقة سنة 69هـ/ 688م على رأس جيش كبير وعندما بلغ كسيلة خبر زحف القوات العربية، جمع قوّاتاً فاقت كثيراً قوات زهير[215]، ورغم ذلك فقد أبدى تخوّفاً من موقف مسلمي القيروان نحوه، وخشي أن يثب عليه سكان المدينة من الخلف فيقع بين القوتين[216]، لذلك عزم على مغادرة القيروان، ودعا كبار قواده وأشار إليهم بخطته قائلاً: «إني أردت أن أرحل إلى ممس[217] فأنزِلُها، فإن هذه المدينة ـ يعني القيروان ـ فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد... ونحن نخاف إذا الْتَحم القتال أن يثبوا علينا، ولكن ننزل بممس على ماء كثير يحمل عسكرنا، فإن معنا خلقاً عظيماً، فإن هزمناهم دخلنا معهم إلى طرابلس وقطعنا دابرهم... وتكون لنا أفريقية داراً إلى آخر الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منا قريباً

(213) ابن الأثير: 4/ 108. ابن عذاري: 1/ 31، وينظر: سعد زغلول: 1/ 208.
(214) الرقيق القيرواني: 37. الدباغ: 1/ 57. ابن عذاري: 1/ 31.
(215) الدباغ: 1/ 57. ابن الأثير: 4/ 108. ابن عذاري: 1/ 32.
(216) سالم: 2/ 235.
(217) ممس، أو ممش: مدينة قديمة من ممارس الروم البيزنطيين، على مسيرة يوم واحد من مدينة القيروان.

والشعراء، فنرجو ألا نُهلَك ولا يُفقَد منا إلاَّ القليل، فوافقوه»[218].

فخرج بقوّاته ونزل موضع ممس، في الوقت الذي وصلت فيه القوات العربية مشارف مدينة القيروان، فعسكرت في قرية يُقال لها قرشانة[219]، ومنها خرج زهير بقواته وهو على تعبئة استعداداً للمعركة حتى وصل ممس، وفيها وقعت بين الطرفين معركة حامية الوطيس صبر لها الطرفان وانتهت بتمزيق صفوف قوات كسيلة وقتله أثناء المعركة[220]، وتشتت قواته هاربة تلاحقها القوات العربية حتى أجازوهم وادي ملوية[221].

وتُعتبر موقعة ممس من المواقع الحاسمة في تاريخ المغرب، لأنها أعادت مجد الانتصارات العربية، وأذلّت الروم البيزنطيين، وأخمدت مقاومة البربر[222]، وكسرت شوكة أوربة من بينهم خاصة[223].

وعاد زهير بعد هذا الانتصار، فدخل مدينة القيروان، وأشرف على تنظيم إدارتها، وإقرار السلطة في ربوعها، ولكنه غادرها على عجل عندما وصلته أخبار هجوم الروم البيزنطيين على برقة، فأشرف على القوات الرومية[224]، وهي تستعد للإقلاع في البحر وبين أيديهم أعدادٌ من أسرى المسلمين، ولم يكن الوقت ليسمح بتجميع القوات بأكملها، فدخل معركة غير متكافئة، وفي ميدان لا يسمح باستخدام الخيول أو المناورة فاستشهد زهير، في حين ولّى الروم منسحبين في عمق البحر المتوسط، وذلك سنة 63هـ/ 689م[225].

---

(218) الرقيق القيرواني: 5. وينظر: ابن عذاري: 1/ 32. ابن الأثير: 4/ 108.

(219) المالكي: 1/ 30. وينظر: سالم: 2/ 236، والهامش رقم (3).

(220) الرقيق القيرواني: 51، 52. ابن الأثير: 4/ 109. السلاوي: 1/ 91.

(221) الرقيق القيرواني: 52.

(222) ابن الأثير: 4/ 109. السلاوي: 1/ 91.

(223) ابن خلدون: 6/ 147، والنص: «وَخَدت شوكة أوربة من بينهم واستقر بجمهورهم بديار المغرب الأقصى، فلم يكن بعدها لهم ذكر واستولوا على مدينة وليلي».

(224) ربما كان ذلك في منطقة درنة. ينظر: سعد زغلول: 1/ 213. لقبال موسى: 67.

(225) الرقيق القيرواني: 53، المالكي: 1/ 15. الدباغ: 1/ 59. ابن الأثير: 4/ 109 و110. =

وبٱستشهاد زهير بن قيس، وخُلوّ البلاد من قوة ووالٍ يسوسان أمرها نتيجة انشغال الخلافة الأموية بالقضاء على حركة ٱبن الزبير وغيره، عادت الاضطرابات فعمّت البلاد، وٱفترق أمر البربر، وتعدد سلطانهم في رؤسائهم[226]، وٱستمر الحال حتى سنة 73هـ/ 693م[227] عندما ولّى الخليفةُ عبدُ الملك بنُ مروان[228]، حسَّانَ بنَ النعمان الغساني والياً على المغرب.

وحسَّان بن النعمان الغساني، أحد القادة المشهورين، وأول والٍ من بلاد الشام، لم يسبق له المشاركة في حروب التحرير بالمغرب، وكان الولاة قبله قد تدرّجوا في المناصب الإدارية والعسكرية في مصر أو المغرب، حتى ارتقوا منصب الولاية وقيادة الجيوش العربية فيها.

دخل حسَّان بن النعمان سنة 74هـ/ 693م[229] على رأس جيش، قِيل إنه لم يدخل المغرب قبله جيش بعدده وعدَّته[230]، وتضخّم هذا الجيش بمن ٱنضم إليه من العرب البربر والمتطوِّعة حتى بلغ الأربعين ألف مقاتل[231]، وجعل حسَّانُ على مقدمته محمد بنَ أبي بكير، وهلالا بنَ ثروان اللواتي[232]، ووجود قائد من البربر ـ هلال بن ثروان اللواتي ـ على رأس

= وفيه: «... وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى أفريقية لقتال كسيلة فاغتنموا خلوَّها، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية، وأغاروا على برقة، فأصابوا منها سبياً كثيراً، وقتلوا ونهبوا... أمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ورحل هو ومن معه، وكان الروم خلقاً كثيراً، فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع، وباشر القتال... وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهير، وأصحابه ولم ينجُ منهم أحد.».

(226) السلاوي: 1/ 92.

(227) ابن عبد الحكم: 269. ابن الأثير: 4/ 269. حيث تاريخ حملته في سنة 74هـ. وفي الدباغ: 1/ 60 «سنة 69هـ». وابن عذاري: 1/ 34، ويجعل ولايته سنة 78هـ.

(228) تنظر مقولة الخليفة عبد الملك في حسان بن النعمان في الرقيق القيرواني: 54.

(229) ابن الأثير: 4/ 369.

(230) ابن الأثير: 4/ 369. ابن عذاري: 1/ 34. السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية: 2/ 532.

(231) ابن عذاري: 1/ 34. السلاوي: 1/ 92.

(232) ابن عبد الحكم: 270، ويضيف أيضاً: زهير بن قيس البلوي، خطأ.

هذه القوة الكبيرة، يعني قبل كل شيء رسوخ مبادئ الإسلام والعروبة لدى السكان المحليين الذين بدأوا ومنذ وقت مبكر يشاركون القوات العربية، مشاركة فاعلة في تحرير البلاد من الغزاة البيزنطيين وتدرجوا حتى تسلّم بعضهم المناصب القيادية، والمشاركة في تحمّل المسؤولية.

وكانت خطّةُ حسَّان العسكرية تهدف إلى تحقيق مهمتين أساسيتين.

الأولى: القضاء على قوة الروم، وضرب معاقلهم المهمة.

والثانية: تطويع البربر الذين تجمعوا تحت قيادة الكاهنة ملكة جبال (أوراس).

وأدرك حسَّان بن النعمان أن القضاء على قوة الروم وكسر شوكتهم يتطلب تحرير مدينة قرطاجنة من قبضتهم، تلك المدينة التي طالما تركتها القوات العربية خلف ظهرها دونما استئصال تام لأصل الداء الذي كان يثير في بلاد المغرب بذور الفرقة والانشقاق.

لذا كان قرار حسَّان بن النعمان صائباً عندما قصد أول ما قصد اجتثاث معاقل الروم البيزنطيين، فزحف نحو عاصمتهم ورمز قوتهم مدينة قرطاجنة فهاجمها في سنة 74هـ/ 694م، وحاصرها حصاراً شديداً، أعجز قوات الروم عن الصمود، فدخلها بعد أن هرب معظم قواتها بأتجاه جزر البحر المتوسط[233]، فأمَّن حسان من استسلم من أهلها[234]، ونظم شؤون المدينة وخلف فيها حامية عربية[235]. وأتجه بقوّاته الرئيسية صوب مدينتَيْ صطفورة وبنزرت حيث تجمعت فيهما قوات كبيرة للروم والبربر، وتمكّن حسَّان ـ بعد

(233) هربوا إلى جزيرة صقلية والأندلس.

(234) تختلف الروايات التاريخية في كيفية دخول مدينة قرطاجنة، فقد ذكر أنه دخلها صلحاً وقيل دخلها عنوة، وقيل إن الروم خدعوا حسّان فطلبوا منه الأمان ثم استغلوا الفرصة فهربوا بأموالهم وذويهم بمراكبهم إلى جزر البحر المتوسط. ينظر: البكري: 237. رحلة التجاني: 10. ابن عبد الحكم: 270. الدباغ: 1/ 60. السلاوي: 1/ 92.

(235) البكري: 37.

قتال شديد ـ من الانتصار عليهم وملاحقة فلولهم، فهرب الروم واعتصموا بمدينة باجة[236]، ولجأ البربر إلى إقليم بونة[237]، وأكتفى حسان بما ناله من الروم خلال هذه الحملة، فعاد إلى مدينة القيروان ليستعد للحملة الثانية[238].

وحسب خُطّة حسان بن النعمان فقد وقعت المعركة الثانية بين القوات العربية، وقوات البربر البتر، والذين كانوا تحت زعامة امرأة شهرت بالكاهنة وأسمها: دهيا أو دهيار بنت ماتية[239]، وصفها المؤرخون بأنها ملكة جبال أوراس، وكانت تتمتع بسطوة وسلطان واسعين، حتى قيل لحسان بن النعمان «إن قتلتها دان لك المغرب كله[240]».

وقد استعدت الكاهنة للقاء القوات العربية، وأتخذت مجموعة من الإجراءات بقصد عرقلة تقدمها، وحاولت ـ وبأساليب شتى ـ حرمان الجيش العربي من مصادر التموين والتزود بالأقوات، فخرّبت بعض القرى، ودمّرت حصن باغية[241]، لتمنع حسَّان من الاعتصام به، وتجنب حسان إجراءات الكاهنة، فتقدم بقواته، وعسكر على أحد روافد نهر مسكيانة[242]،

---

(236) الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35. وينظر: السلاوي: 92.

(237) الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35. وينظر: السلاوي: 92.

(238) الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35.

(239) ابن خلدون: 6/ 109. وقد اختلف الباحثون في شأن الكاهنة، بل يميل بعضهم إلى إنكارها أصلاً معتمداً على ما يشوب أخبارها من المسحة الأسطورية، ومن هؤلاء: ليبو الذي زعم أن الكاهنة ما هي إلاّ البطريق يوحنا (الذي دخل مدينة قرطاجنة بعد انتصار الكاهنة على حسّان) مؤكداً أن ذلك الرأي قال به نفر من أوثق العلماء ذكر منهم أوتر، وهذا مذهب لا يقل خيالاً أو خطأ عن الروايات الأخرى، فمن المعروف أن يوحنا بطريق رُومي حَمْلته مذكورة بوضوح في كتب المؤرخين العرب إلى جانب أخبار الكاهنة. وقد أكد فورنل أن ليبو اختلق على أوتر ذلك القول، إذ لم يقل الرجل منه شيئاً. ينظر: حسين مؤنس: 242، سعد زغلول: 1/ 217.

(240) المالكي: 32. ابن عذاري: 1/ 35. وينظر: الدباغ: 1/ 61. وابن عبد الحكم: 270 «يسمّيها ملكة البربر». ابن خلدون: 6/ 170.

(241) الرقيق القيرواني: 255. الدباغ: 1/ 61.

(242) الرقيق القيرواني: 56. الدباغ: 1/ 62. ابن عذاري: 1/ 36.

يسمّيه ابن الأثير، نهر نيني[243]، وزحفت الكاهنة، فعسكرت على قربة منه، ولا نعرف الكثير عن المقدمات التي سبقت القتال، واكتفى المؤرخون بالقول إن قوات حسّان كانت تعسكر في أعلى الوادي[244]، مما يحقق لها موقعاً استراتيجيّاً أفضل[245]، ومع ذلك فقد انتهت المعركة لصالح الكاهنة، واضطر حسان أمام ضغط قواتها إلى الانسحاب المدبر من الميدان بٱتجاه برقة، وعسكر في منطقة سُمّيت بعد ذلك بقصور حسان[246]، لتستحوذ الكاهنة على مقدرات المغرب العربي، ولسنوات خمس[247]، كانت شديدة الوطأة على حسان وقواته التي ظلت تنتظر الإمدادات، وأوامر الخليفة لإعادة الكَرّة على قوات الكاهنة وإعادة السلطان العربي على البلاد.

وبٱنسحاب القوات العربية، فقدت الخلافة، وللمرة الثالثة جميع الأراضي المحررة سابقاً[248]، وأصبح الحكم للكاهنة وقواتها، ولا نعرف الكثير عن أحوال المغرب العربي خلال فترة حُكم الكاهنة، وقصور المصادر في هذا الجانب أمر طبيعي كون الأمور في المغرب لا تعنيهم إلاّ بمقدار فاعلية القوات العربية. «ورغم أنهم لا يشيرون إلى أي علاقة ودّية بينها وبين العرب، فالمفهوم أن الكاهنة ـ مثلها مثل كسيلة ـ كانت لا تكنّ للعرب الحقد أو الضغينة، إن لم نقل إنها كانت تحترمهم وتعرف قدرهم في قرارة نفسها على الأقل»[249] فقد فعلت كما فعل كسيلة عقب انتصاره على عقبة بن

(243) الكامل: 4/ 369 و370. وأطلق عليه بعد المعركة بنهر البلاء أو وادي العذاري نسبة إلى كثرة الشهداء الذين سقطوا في هذه الواقعة. ينظر: ابن عبد الحكم: 270. الرقيق القيرواني: 57.

(244) الرقيق القيرواني: 56. والنص: «. . . وكان هو يشرب من أعلى النهر، وهي من أسفله» ابن عذاري: 1/ 36.

(245) سعد زغلول: 1/ 219.

(246) الرقيق القيرواني: 57. ابن الأثير: 4/ 370.

(247) عند المالكي: 1/ 57؛ والدباغ: 1/ 63. «ثلاث سنين».

(248) فيما عدا انطابلس (برقة) ولوبية ومراقية إلى حد أجدابية. ينظر: ابن عبد الحكم: 270.

(249) سعد زغلول: 1/ 220.

نافع الفهري، فأطلقت أسرى العرب وأعادتهم إلى حسَّان، وكانوا ثمانين أسيراً[250]، واستبقت منهم خالد بن يزيد العبسي فاتّخذته مستشاراً لها بعد أن تبنّته على طريقة البربر في المؤاخاة[251].

وكل ما يُنسَب إلى الكاهنة خلال فترة سيطرتها على المغرب هو أعمال التدمير التي قامت بها في البلاد، فالمصادر التاريخية تشير إلى أنها أمرت أنصارها بتخريب المزارع والحقول، وتهديم المدن والقلاع، كي تمنع القوات العربية من التفكير في العودة إلى البلاد ويُنسب إليها في هذا الصدد، مقولة نصها: «إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي، فما نرى لكم إلاّ خراب أفريقية، حتى ييأسوا منها ويقلّ طمعهم فيها.»[252] وعلى هذا الأساس يُقال إن أنصار الكاهنة دمّروا كل ما صادفوه من طرابلس حتى طنجة[253]. والحقيقة أن في المقولة المنسوبة إلى الكاهنة نظرٌ، فلو صحّت هذه المقولة لخرّبت الكاهنة أول ما خربت مدينة القيروان، رمز التواجد العربي الإسلامي في بلاد المغرب، ثم كيف تعهد إلى تخريب المزروعات والحقول، وأنصارها يعتمدون أساساً على تربية الأغنام والمواشي، وكيف تكون الكاهنة جاهلة بهدف العرب ولديها خالد بن يزيد العبسي؟ ولكننا لا نستبعد قيام الكاهنة بهدم بعض الحصون والقُرى، خصوصاً عندما علمت بزحف حسَّان بن النعمان نحوها وكان ذلك عملاً استثنائيّاً تطلّبته ظروف المرحلة.

---

(250) الرقيق القيرواني: 57. المالكي: 1/ 57. ابن عذاري: 1/ 36. السلاوي: 1/ 93.

(251) عمدت إلى دقيق شعير مفلق، فأمرت به، فَلُتَّ بزيت، ثم دعت خالد بن يزيد وابنين لها فأمرتهم فأكل ثلاثتهم على ثديها وقالت لهم: «أنتم الآن قد صرتم إخوة»، وذلك عند البربر من أعظم العهود. ينظر: المالكي: 1/ 33. الدباغ: 1/ 63. وقد ورد اسم خالد بن يزيد عند الرقيق القيرواني: 58، تارة: يزيد بن خالد، ومثله عند الدباغ: 1/ 63. وتارة أخرى كما هو مثبت.

(252) الرقيق القيرواني: 61. وينظر: ابن الأثير: 4/ 371. ابن عذاري: 1/ 36.

(253) الرقيق القيرواني: 61. ابن عذاري: 1/ 36 ابن خلدون: 6/ 109. السلاوي: 1/ 93.

القضاء على الكاهنة

عندما أكمل حسَّان بن النعمان استعداداته، زحف بقواته سنة 78هـ سالكاً الطريق الساحلي حتى مدينة قابس، وقرب هذه المدينة لقي حسَّان قوات الكاهنة ودارت بين الطرفين معركة انجلت عن ارتداد الكاهنة إلى قلعة بشر، ومنها مضت بفلول قواتها تريد جبال أوراس، وحسّان في أثرها، وفي أوراس كانت المعركة الفاصلة انتهت بتدمير قوات الكاهنة، ومقتلها في مكان أُطلق عليها أسم بئر الكاهنة[254].

وكانت الكاهنة قد أطلقت سراح يزيد بن خالد قبل وقوع المعركة الفاصلة، ووجهته مع ولديها إلى حسان بن النعمان، وطلبت منه أن يأخذ لهما الأمان منه[255]، وقيل في تفسير ذلك إن الكاهنة كانت تتنبأ بمصيرها المحتوم في هذه المعركة[256]، فآثرت سلامة ولديها، وأوصت خالد بن يزيد بهما خيراً، وقد أكرم حسَّان وفادتهما، وتبوّآ لديه مكاناً مرموقاً فعقد لهما على أبناء قومها من البربر الذين أسلموا[257]، وعيِّن أحدهما والياً عليهم، وكان لهما بعد ذلك مشاركة في حروب التحرير العربية في المغرب.

استعادة قرطاجنة من الروم البيزنطيين:

ترك حسان بعد تحرير قرطاجنة سنة 74هـ/ 693م حامية عربية لضبط أمور المدينة، فلما انسحب من المغرب إثر خسارته المعركة مع الكاهنة،

(254) هذه رواية الدباغ: 1/ 65 ـ 67. وينظر: الرقيق القيرواني: 61 و62. ابن الأثير: 4/ 371. ابن عذاري: 1/ 36 و37.
ملخص ما فيها: خرج من قابس. واتخذ الطريق الصحراوي القصير عبْر بلاد الجريد فأخضع قفصة ثم قسطيلية ونفزاوة ثم زحفت إليه الكاهنة ووقع بينهما اللقاء الحاسم.

(255) الرقيق القيرواني: 62 و63. المالكي: 1/ 36. الدباغ: 1/ 66.

(256) الرقيق القيرواني: 62. المالكي: 1/ 36. ابن عذاري: 1/ 37 و38. ابن الأثير: 4/ 371 و372.

(257) الرقيق القيرواني: 64. الدباغ: 1/ 67. ابن عذاري: 1/ 38.

استغل الروم هذا الظرف، وجهزوا حملة بَحْرية قادها البطريق يوحنّا، هاجمت المدينة وأبادت حاميتها الصغيرة والتي فضلت الاستشهاد دفاعاً عن المدينة، على الانسحاب منها، وبذا سقطت قرطاجنة مرة أخرى بيد الروم البيزنطيين(258).

وتطلّب الأمر من حسَّان بعد القضاء على مقاومة الكاهنة المسير نحو مدينة قرطاجنة لطرد الروم منها، ولم تصمد المدينة أمامه طويلاً، فدخلها عنوة بعد أن كبّد القوات الرومية خسائر جسيمة، وبعد أن ولّى الأحياء منهم مدبرين بمراكبهم إلى جزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط الأخرى(259).

وإذا كانت بعض النصوص تشير إلى أن حسَّان بن النعمان عمد إلى تخريب المدينة بعد دخولها، وقطع مصادر المياه عنها ليمنع الروم وغيرهم من العودة إليها(260)، فيبدو أن المقصود تحصينات المدينة وأسوارها، وليست قصبتها، وهذه الإجراءات كانت تُعَدّ من بين الإجراءات الوقائية والضرورية في هذه المرحلة، لحرمان الغزاة الروم من أي ملجأ حصين قد يلتجئون إليه في المستقبل.

وبقضاء حسان على القوتين الكبيرتين في المغرب، الروم في قرطاجنة، والبربر البتر في جبال أوراس، تهيأت له فسحة من الوقت كرّسها لتنظيم شؤون الولاية وإنجاز مهمات عديدة أهمها:

تعمير مدينة القيروان، وتنظيم إدارتها(261)، وأولى حسَّان مسجدها الجامع عناية كبيرة، فزاد في بنائه وزيّنه بساريتين حمراوتين غاية في الروعة نقلت إليه من آثار مكان كان في المنطقة(262).

---

(258) حسين مؤنس: 54. سالم: 2/ 248.

(259) يخلط المؤرخون بين تحرير قرطاجنة الأول سنة 74هـ. وبين استعادتها من الروم في سنة 78هـ. ينظر مثلاً: الدباغ: 1/ 67 و68. ابن عذاري: 1/ 34.

(260) المالكي: 1/ 31. الدباغ: 1/ 60. ابن عذاري: 1/ 35.

(261) الدباغ: 1/ 69.

(262) البكري: 12.

وإليه يعود الفضل باستحداث الدواوين في المغرب[263]، وكانت من ضرورات المرحلة، وإذا كنّا لا نعرف عدد الدواوين التي استحدثت، فالغالب أن ديوان الخراج، والجند، والرسائل كان في مقدمتها، لحاجة الولاية الملحّة إلى هذه الدواوين، خصوصاً بعد إقرار حسَّان للخراج على الروم، ونصارى البربر، وإقرار حنش بن عبد الله الصنعاني على الصدقات يجمعها من المسلمين[264]، وحاجة الوُلاة إلى من يضبط ويحصي الأموال المستحصَلة.

وديوان الجند، له أهميته بعد أن دخلت أعداد كبيرة من العرب البربر في الإسلام، وأنتظم منهم أثنا عشر ألف رجل في صفوف القوات العربية لمقاتلة الروم ومن يكفر من البربر[265]، وقسَّمهم إلى فرقتين، كل فرقة تضم ستة آلاف مقاتل، وجعل على كل فرقة ولداً من أولاد الكاهنة[266]، ولم يكتفِ حسَّان بهذا بل بث بينهم ثلاثة عشر رجلاً من أصحابه يعلّمونهم أصول الشريعة واللغة العربية[267]. ومن هنا بدأت أهمية إنشاء ديوان الجند، لتدوين أسماء المقاتلين وأنسابهم إضافة إلى أعطياتهم وما يتعلق بالشؤون العسكرية من أمور.

ولا تخفى بعد هذا أهمية ديوان الرسائل والكتب بعد أن تمكّن حسَّان من إقرار السلام العربي في المغرب، وثبّت أركان السلطة المركزية في نواحيه.

وأحتفظ حسَّان بدار السكّة التي كانت موجودة في مدينة قرطاجنة، فضرب النقود حسب سياسة الدولة المركزية، وأدخل تعديلات على رسم

(263) الرقيق القيرواني: 64. ابن خلدون: 6/ 110.

(264) الدباغ: 1/ 69.

(265) الرقيق القيرواني: 64. ابن الأثير: 4/ 372. ابن خلدون: 6/ 109.

(266) الرقيق القيرواني: 64. ابن الأثير: 4/ 372. ابن عذاري: 1/ 38.

(267) نص عبيد الله بن صالح: 323.

الطراز الرومي من النقود، فجعل على وجه الدينار صورة الخليفة عبد الملك بن مروان ووَليّ عهده الوليد، بدلاً من صورة القيصر ووليّ عهده، وعبارة: «بسم الله الرحمن الإله الأحد»، وعلى ظهره صورة صولجان بدلاً من الصليب البيزنطي مع عبارات باللاتينية تُعبِّر عن: «وحده لا شريك له، ولا مثيل له» مع ذكر تاريخ الضرب ومكانه(268).

ويُعَدّ بناء تونس(269) سنة 84هـ/ 703م من أجَلّ أعمال حسَّان، فإذا كان لعقبة بن نافع فضل السبق في بناء القيروان، أول مدينة قامت على العروبة والإسلام، فإن لحسان فضل إكمال ذلك العمل المجيد، فالقيروان مدينة برية وقامت مدينة تونس لتكون منفذاً للمغرب على البحر، ولتحلّ محلّ قرطاجنة تكون «قوة وعُدّة للمسلمين إلى آخر الدهر، يُصنع بها المراكب، ويُجاهد الروم في البر والبحر وأن يُغَار فيها على ساحل الروم.»(270)

وقامت مدينة تونس في موضع قرية يُقال لها ترشيش على مسافة اثني عشر ميلاً شرق مدينة قرطاجنة(271)، وفي ترشيش، أسس حسَّان دار صناعة السفن، وجعل رادس (ادس) مرسى(272). واستعان في إنجاز مشاريعه بأعداد كبيرة من البربر لقطع الأخشاب، وبألف عائلة قبطية وصلت إليه من مصر للعمل في دار الصناعة(273).

ولمّا كان موضع تونس غير مفتوح على البحر مثل قرطاجنة «تقع على لسان يكوِّن شبه جزيرة محصورة بين السبخة (سبخة الريانة) شمالاً والبحيرة (بحيرة تونس) جنوباً، بينما تقع تونس إلى الداخل غرب البحيرة التي تتصل

---

(268) سعد زغلول: 1/ 230.
(269) عن أصل التسمية. ينظر: البكري: 38. الاستبصار: 121.
(270) البكري: 38. وينظر: الرقيق القيرواني: 66. رحلة التجاني: 6 و7.
(271) البكري: 28. سالم: 2/ 249.
(272) البكري: 3. حسين مؤنس: 262.
(273) البكري: 38 و39.

بالبحر من جهة الشرق، حيث يقع مرسى رادس. ولما كانت البحيرة ضحلة لا تسمح بسير المراكب الحربية، وَجَب حفر قناة في وسطها تصل ما بين دار الصناعة في تونس والميناء أو المرسى في رادس»[274]. وإلى هذا العمل يشير الدباغ عندما قال إن حسَّان أخرق البحر إليها وجعلها دار صناعة وأخرج إليها الماء فأجراه من البحر إليها[275].

وأهتم حسَّان بعمارة المدينة فأنشأ بها مسجداً جامعاً، وداراً للإمارة ومعسكراً للقوات البرية والبحرية[276]، وقُدِّر لهذه المدينة أن تصبح أعظم ثغور المغرب بعد ذلك بثلاثين سنة، فقد نمت وأتسعت في ولاية عُبيد الله بن الحبحاب، فأهتم بدار صناعة السفن، وبنى بها المسجد الجامع المعروف بالزيتونة[277].

وبهذا استطاع حسَّان بن النعمان تأسيس مدينة ثانية في المغرب، فإذا كانت مدينة القيروان مركزاً للقوات العربية ومحرساً لبلاد الداخل، فقد كانت تونس رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء للمغرب حل مكان مدينة قرطاجنة[278].

وبقيام هذه المدينة حِيل بين الروم وبلاد المغرب، فلم يجازفوا في النزول إلى أرضه، فأَمِن العرب شرَّهم، وقَلَبوا الآية عندما بدأوا من تونس يجهّزون الحملات البحرية المتوالية بأتجاه جزر البحر المتوسط ومواطن الروم الأخرى.

وهكذا كانت أعمال حسَّان العديدة مبعثَ أعتباره المحرِّر الحقيقي لبلاد المغرب[279].

---

(274) سعد زغلول: 1/ 233.

(275) معالم الإيمان: 1/ 68. وينظر: الرقيق القيرواني: 66. ابن أبي الدينار: 21.

(276) المالكي: 1/ 37. وينظر سالم: 2/ 249.

(277) ينظر ولاية ابن الحبحاب.

(278) حسين مؤنس: 262، 263.

(279) سعد زغلول: 1/ 228.

فحسان، قضى على قوة الروم البيزنطيين، وحرر قرطاجنة رمز كيانهم وتواجدهم في البلاد.

وتمكّن وباقتدار عالٍ من القضاء على الكاهنة، وكَسْب أنصارها إلى جانبه عندما دخلوا الإسلام على يديه، وأصبحوا قوة فاعلة في صفوف القوات العربية.

ونقل العرب نقلة نوعية في مجالي الإدارة والتنظيم، فدوّن الدواوين وضرب النقود، وحدد علاقة الولاية مع من بقي من الروم والبربر على النصرانية، ففرض عليهم ما فرضه الإسلام من خراج وجزية، وأقرّ الصدقات على المسلمين، ونَسَب لأخذها التابعيَّ المشهور حنشاً الصنعانيّ[280].

ولكي ينهض باقتصاديات البلاد، فقد أقطع لمن أسلم من قبائل البربر الأرضين[281] لاستغلالها في زراعة الغلال والمحاصيل المختلفة. وبهذا الإجراء حقق حسان هدفين هامين:

الأول: استقرار القبائل في مناطق معلومة للسلطة المركزية، ومرتبطة بها.

والثاني: تنمية الاقتصاد الوطني، عن طريق ما تنتجه هذه الأرضين من غلال ومحاصيل وما يقدمه مستغلّوها إلى خزينة الولاية من صدقة تزيد من مصادر خزينة الولاية المالية.

ولم تكن أهمية هذه النقلة في الترتيبات المذكورة آنفاً، وإنما أهميتها في تمكين الدولة من إحاطة ما تمَّ تحريره، بحدود علاقتها امتداد العروبة والإسلام، بحيث لم نرَ بعد هذا التاريخ ردة تمكّنت من الانقلاب على هذا الواقع.

---

(280) الدباغ: 1/ 68.

(281) المالكي: 1/ 36 والنص: «... ومن ذلك صارت الخطط للبربر في أفريقية فكان - يعني حسّاناً - يُقسّم الفيْءَ بينهم، والأرض، وحَسُنت طاعتهم، فدانت له أفريقية» وينظر: الدباغ: 1/ 67.

عاد حسَّان بن النعمان إلى المشرق سنة 86هـ[282] فلقي الخليفة الوليد بن عبد الملك وأوقفه على ما تمَّ إنجازه في بلاد المغرب، ويبدو أن حساناً كان قد بلغ من العمر ما منعه من العودة إلى ولاية المغرب حتى عُرِف «بألشيخ الأمين»[283] فطلب الاستعفاء من الخليفة[284]، ثم ما لبث أن مات بعد ذلك بقليل[285].

موسى بن نُصير[286]

1 ـ استكمال تحرير المغرب العربي:

خلف حسَّان بنَ النعمان على ولاية المغرب العربي سنة 86هـ/705م[287]. والملاحَظ أن المؤرخين لا يشيرون خلال فترة ولاية موسى بن نصير على المغرب إلاَّ على الأعداد الكبيرة من السّبْيِ والأسرى، وضخامة الأموال التي كانت تدخل مدينة القيروان، رغم أن بعض الحملات العسكرية لم تكن بالأهمية التي تحتمل مثل هذه الغنائم الكبيرة، وإذا كانت التواريخ غير ثابتة أو مجهولة إطلاقاً، فإن مواضع العمليات العسكرية هي الأخرى غير أكيدة بِألمرة[288].

(282) ينظر: حسين مؤنس: 265 و266. سعد زغلول: 236 و237. سالم: 2/ 250.

(283) الرقيق القيرواني: 67. ابن عذاري: 1/ 39.

(284) ينظر سعد زغلول: 1/ 235 و236.

(285) حسين مؤنس: 266.

(286) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي، وُلِد سنة 19هـ في خلافة عمر بن الخطاب (رض) وقد تولى عدة مناصب لبني أمية قبل توليته المغرب.

(287) هذا ما قاله ابن عذاري: 1/ 41. وقد اختلف المؤرخون في سنة توليته فقيل سنة 77هـ، وقيل سنة 78هـ و79هـ و88هـ و89هـ. وأثبت سعد زغلول: 1/ 238 التاريخ المثبت، اعتماداً على ابن الأثير، والحقيقة أن ابن الأثير: 4/ 539 يجعل ولايته سنة 89هـ وليست سنة 86هـ.

(288) سعد زغلول: 1/ 241.

والمعوَّل عليه أن موسى بن نصير، بدأ عملياته العسكرية بالقضاء على القوى المتواجدة في المناطق التي خرجت عن الطاعة، بعد مغادرة حسَّان بن النعمان بلاد المغرب، واستضعافهم لنائبه عليها أبو صالح[289]، ثم أعقبها بحملات أخرى توغلت في المغرب الأقصى لإخضاع القبائل التي لم تخضع بعد للسلطة المركزية، أو تلك التي ٱرتدت عن الطاعة بعد ٱستشهاد عقبة بن نافع الفهري.

وكانت أولى الحملات العسكرية، حملة قادها عبد الملك الخشيني[290] مؤلفة من خمسمائة فارس، بٱتجاه قلعة زغوان[291]، للقضاء على عناصر التمرد والشغب فيها، وتمكّنت هذه القوة من تطويع القلعة وإعدام رئيسهم[292]. وأرسل ٱبنَه عبدَ الله على رأس قوة أخرى من الفرسان جاست نواحي القيروان وقضت على بُؤَر المقاومة فيها[293].

وخرج ابنه الآخر مروان فتمكّن من تطهير بعض المناطق، وإخضاع الخارجين عن الطاعة[294].

وبهذه الحملات ٱستطاع موسى بن نصير أن يجعل من إقليم القيروان وما حوله قاعدة آمنة ينطلق منها للتوغل في المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى. فخرج على رأس حملة كبيرة توغّلت في المغرب الأوسط، فارتدت القبائل أمامه ناحية الغرب[295]، فتبعها عبر السوس الأدنى حتى بلاد

---

(289) الرقيق القيرواني: 68. ابن الأثير: 4/ 539.

(290) قال ابن قتيبة: قادها رجل من خشين اسمه عبد الملك. الإمامة والسياسة: 2/ 63.

(291) على مسيرة يوم واحد من القيروان.

(292) ابن قتيبة: 2/ 63. ابن عذاري: 1/ 40، وفيه «... وبلغ سبيهم عشرة آلاف» وهو رقم مبالغ فيه كثيراً.

(293) ابن الأثير: 4/ 540. ابن عذاري: 1/ 40 وذكر أن سبيها بلغ مائة ألف رأس. وينظر: ابن قتيبة: 2/ 63 حيث قائد الحملة عبد الرحمن بن موسى بن نصير.

(294) ابن عذاري: 1/ 40. ابن الأثير: 4/ 540 «ابنه هارون» بدلاً من مروان وهو تصحيف.

(295) الرقيق القيرواني: 69. ابن عذاري: 1/ 42.

سجلماسة ووادي درعة، ويبدو أن القبائل التي استبد بها الخوف قد اختلطت بعضها ببعض خلال تلك المطاردة، فبينما يذكر عُبيد الله بن صالح أن موسى وجد قبائل كتامة بدرعة وأنه قتل مَلكهم كمامون[296]، يضيف ٱبن عذاري إلى قبائل كتامة، قبائل هوارة وزناتة. وقد تمكّن موسى من إخضاع هذه القبائل، وتركهم بعد أن أخذ منهم الرهائن.

وفي طريق عودته إلى المغرب الأوسط، ٱصطدم مع قبائل صنهاجة ـ فتمكّن بعد قتال شديد ـ من الانتصار عليهم وقتل زعيمهم على وادي ملوية[297].

وإثر هذا الانتصار عَزَم موسى على توسيع دائرة نشاطه، فأرسل ٱبنَه مروان على رأس حملة من خمسة آلاف مقاتل توغّلت في السوس الأقصى وتمكّن بعد عدة وقائع من إخماد حدة مقاومتهم وٱستنزالهم عن معاقلهم[298].

وعقد لقائده زرعة بن أبي مدرك على حملة توغّلت في بلاد المصامدة في طرابلس العليا، فصالحهم دون قتال، كما صالح القبائل المجاورة، وقدّموا رهائن من أشرافهم دليل حُسن طاعتهم[299].

وآخر الحملات الكبيرة التي قادها موسى بن نصير كانت حملته على طَنْجَة فبعد توطيد الأمن في المغرب الأوسط والأقصى من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، قاد قواته إلى إقليم طنجة، وطهّر خلال زحفه جيوب المقاومة لتأمين خطوط مواصلته، وما إن أشرف على مدينة طنجة حتى بث السرايا في اتجاهات مختلفة وتوغلت حتى السوس الأدنى، فأطاعته قبائل المنطقة، وولى عليهم والياً يسوس أمورهم[300]. ثم حاصر

(296) سعد زغلول: 1/ 242، وعن مقتل كمامون، ينظر: ابن عذاري: 1/ 41.

(297) نص عبيد الله بن صالح: 224.

(298) نص عبد الله بن صالح: 224 وينظر: سعد زغلول: 1/ 243.

(299) ابن عذاري: 1/ 43.

(300) ابن عبد الحكم: 276.

مدينة طنجة حصاراً شديداً حتى دخلها[301]، فأسلم أهلها[302] وكانوا قبائل من البتر والبرانس[303].

وعاد موسى إلى القيروان تاركاً طارقاً بنَ زياد عاملاً على طنجة وما والاها[304]، وتحت إمرته اثنا عشر ألف مقاتل جُلّهم من العرب البربر، وترك منهم سبعة وعشرين رجلاً يُعلّمون الناس أصول الشريعة الإسلامية واللغة العربية[305]. وفي طريق العودة، أرسل موسى قوة تمكّنت من دخول مدينة مجانة وإقرار الأمور فيها[306].

2 ـ النشاط البحري وفتح الأندلس:

كان لموسى بن نصير خلال حملاته البرية نشاط واسع في البحر المتوسط، فقد أرسل حملات عديدة طرقت جزر صقلية وسردينية والبليار (ميورقة ومينورقة واليابسة) وقامت جميع هذه الحملات من مدينة تونس والتي أصبحت مهيئة في عهده لمثل هذه الحملات، فقد اهتم موسى بن نصير بعمران المدينة، ووسّع دار صناعة السفن فيها، وشق قناة بطول اثني عشر ميلاً بين الميناء (رادس) وبين المدينة، فأصبحت المدينة وكأنها مشتى للسفن تقيها من العواصف وسوء الأحوال الجوية[307].

---

(301) المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس: 1/ 334. وينظر: الرقيق القيرواني: 69. ابن الأثير: 4/ 555.

(302) المقري: 1/ 334. وينظر ابن عبد الحكم: 276. البلاذري: 232. وفيه: «... وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين.».

(303) ابن عبد الحكم: 276.

(304) البلاذري: 232، الرقيق القيرواني: 69. ابن عذاري: 1/ 42.

(305) الرقيق القيرواني: 69. وينظر: ابن عذاري: 1/ 42.

(306) دخلها بشر بن فلان، وهي على مسيرة خمسة أيام من مدينة القيروان ينظر: ابن الأثير: 4/ 55. ورواية ابن الحكم: 276. والرقيق القيرواني: 70. وقائد الحملة عندهما بسر بن أبي أرطأة.

(307) ابن قتيبة: 2/ 70 و71. وينظر: سعد زغلول: 1/ 246.

ولقد قاد عبد الله بن موسى بن نصير أولى الحملات البحرية المنطلقة من قاعدة تونس، وقد ضمت الحملة مشاهير الرجال حتى عُرِفت «بحملة الأشراف» وانطلق بٱتجاه جزيرة صقلية، فتمكّنت من أهدافها المرسومة لها وعادت سالمة[308].

والحملة الثانية، موسى بن عياش بن أخيل سنة 86هـ/ 706م فعاودت ضرب جزيرة صقلية وعاصمتها سرقوسة، وعادت محمَّلة بالغنائم الوفيرة[309].

وفي سنة 89هـ/ 708م خرج عبد الله بن مرة على رأس حملة بحرية طرقت جزيرة سردينية، فدخل مدناً منها، ونكّل بحامياتها، وعاد بأموال كبيرة[310].

وخرج عبد الله بن موسى بن نصير بقوة بحرية إلى جزر البليار، فٱفتتح جزيرتي ميورقة، ومينورقة، وعادت القوة بسلام سنة 89هـ[311].

وكانت هذه الحملات، بمثابة التدريب العملي للقوات العربية البحرية والتي تمخضت عن أكبر حملة بحرية انتهت بفتح العرب لبلاد الأندلس.

فتح الأندلس[312]

لم يكن فتح العرب لإسبانيا مغامرة حربية ٱرتجالية، بل كان فتحاً منظَّماً، حسب خطة مركزية اشترك في وضعها دار الخلافة وقادة المغرب العربي، فعلى الرغم من معرفة العرب بالوضع المتردي الذي كانت عليه

(308) ابن قتيبة: 2/ 71.
(309) ابن قتيبة: 2/ 71.
(310) ابن قتيبة: 2/ 71.
(311) ينظر: سعد زغلول: 1/ 248.
(312) اعتمدنا في هذا الفصل على كتابنا المرسوم: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ص 24 ـ 42، وسنشير إلى أهم المصادر المذكورة هناك.

إسبانيا، لم تغامر القيادة بأرواح الجنود، دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة والقيام بحملة استكشافية على جنوب إسبانيا، لجسّ النبض ومعرفة مدى مقاومة الأعداء من الجانب الآخر. وقد عُهِد بقيادة هذه الحملة إلى طريف بن مالك المعافري، الذي عَبَر إلى الأندلس سنة 91هـ/ 710م[313] بقوة تتألف من أربعمائة راجل ومائة فارس حيث تمكّن من النزول في مكان يدعى بالوماس على الشاطئ الإسباني (سُمّيت فيما بعد بأسم طريف) وتمكّن طريف من تحقيق أهدافه والعودة إلى المغرب[314].

حملة طارق بن زياد

إن النتائج المرضية التي حققتها حملة طريف شجعت القيادة على تنفيذ خطة الفتح، فأوعزت إلى طارق بن زياد بقيادة حملة مكوّنة من سبعة آلاف مقاتل عُزّزت فيما بعد بخمسة آلاف آخرين[315]، ونزل طارق في مكان كان يسمى جبل كالبي، والذي اتخذ أسم طارق منذ ذلك اليوم فأصبح يُسمّى بجبل طارق وهناك خلاف بشأن الموعد الصحيح للحملة، فيذكر بعض المؤرخين السنة التي حدث فيها الفتح أي سنة 92هـ/ 710م، ويثبت آخرون اليوم والشهر الذي حدث فيها العبور، ومع هذا فإن الأغلبية تعتقد بأن نزول طارق على الشاطئ الإسباني حدث في رجب 92هـ/ نيسان 711م[316]، وهذا وقت مناسب جدّاً لا سيما أنه يقع في موسم الربيع الذي يتميّز باعتدال الجوّ، ولقد أقام طارق عدة أيام في الجبل الذي اتخذه قاعدة لعملياته العسكرية[317] والتي ابتدأت بفتح الجزيرة الخضراء والمناطق المجاورة من

(313) المقري: 1/ 254.

(314) أخبار مجموعة: 6. ابن عذاري: 2/ 5.

(315) أخبار مجموعة: 27. المقري: 1/ 231.

(316) ابن حبيب: 222. ابن الأثير: 4/ 562. ابن عذاري: 2/ 6. المقري: 1/ 25.

(317) وعن خطبة طارق بن زياد، ومسألة إحراق السفن حال وصوله الساحل الإسباني، =

أجل السيطرة على المضيق وحماية خطوطه الخلفية، وتأمين اتصالاته بقواعده في المغرب. وفي الوقت نفسه أرسل كَتِيبة قوية من الجند بقيادة عبد الملك بن عامر المعافري تمكّنت من السيطرة على حصن قرطاجنة الواقع شمال غرب جبل طارق(318).

معركة كورة شذونة

مضى على طارق نحو شهرين ونصف قبل أن تقع المعركة الفاصلة بينه وبين لذريق حاكم القوط في إسبانيا، وتذكر الروايات أنه هوجم في هذه الأثناء من قبل قائد قوطيّ يسمّى تدمير، الذي لم يستطيع إعاقة تقدم جيش طارق فأرسل إلى لذريق يطلب المساعدة(319)، واعتماداً على روايات أخرى، فإن لذريق كان قد أرسل قوات عديدة لإيقاف قوات طارق، كانت إحداها بقيادة اَبن أخ له يدعى بنج، ولكنه قُتل مع رجاله(320)، ولا يتوفر لدينا دليل يمكّننا من أن نقطع برأي جازم في صحة هاتين الروايتين. ولكن يبدو أنه من غير المحتمل أن يقوم لذريق بإرسال قوات من مكان بعيد في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة، حيث كان مشغولاً بالقضاء على اضطرابات كانت في مقاطعة الباسك.

وعلى أية حال فما إن سمع لذريق بنزول طارق حتى رجع نحو الجنوب، وقام بالاستعدادات اللازمة لمواجهة جيش الدولة العربية ومنها أنه توصّل إلى مصالحة أسرة غيطشة وأنصارها للوقوف صفّاً واحداً ضد القوات العربية، وتمكّن من جمع جيشٍ فاق كثيراً جيشَ طارق بن زياد(321).

= ينظر: أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس، دمشق 1972، ص 21 ـ 23. الحجي: التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق 1976، ص 57 ـ 62.

(318) ابن القوطية: 8 و9. ابن عذاري: 2/9، 256.

(319) ابن حبيب: 222. المقري: 1/24.

(320) ابن عذاري: 2/8. وينظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس: 70.

(321) كان جيشه يتراوح بين أربعين ألف إلى مائة ألف، ينظر: ابن حبيب: 222. =

وتقابل الجيشان في كورة شذونة جنوب غرب إسبانيا، ولكن موقع المعركة الدقيق غير معروف، وهناك العديد من الدراسات، بشأن المكان الذي وقعت فيه المعركة الفاصلة بين لذريق وطارق، ومصير لذريق في هذه المعركة، وعلى سبيل المثال، فإن المستشرق الإسباني سافيدرا، يرى حدوث معركتين: الأولى: وقعت قرب مدينة شذونة بين جبل رتين وبحيرة لاخندا، والثانية: عندما هرب لذريق نحو الشمال وحارب جيش الدولة العربية بالقرب من شلمنقة، حيث قُتِل ودفن في منطقة مجاورة.

ويعارض البعض هذه الفكرة ويتفق مع المؤرخين العرب على حدوث معركة واحدة بين القوط والعرب، وقعت بالقرب من ضفاف نهر وادي بكة أو لكة في كورة شذونة، وإن لذريق هُزِم وقُتِل أو فُقِد في هذا المكان[322].

ويذكر بعض المؤرخين أن لذريق هرب من ساحة القتال، وإنه قُتل أو غرق في مكان يدعى وادي الطين، ولكنهم لم يحددوا موقع هذا المكان[323].

وعلى كل حال فالمعارك بين الطرفين استغرقت ثمانية أيام، ومعركة واسعة النطاق كهذه. سُمّيت بعدة أسماء مختلفة، مثل: معركة البحيرة، وادي بكة وادي لكة، وادي البرباط، شويش، أو شمالها[324] ولهذا فمن المحتمل جدّاً أنها حدثت كليّاً أو جزئيّاً في كل هذه المناطق المذكورة التي تقع في كورة شذونة، فهي معركة هذه الكورة بأسرها[325].

ولم يُضيّع طارق بن زياد وقته فاتجه صوب مدينة أستجه حيث تجمّعت فلول القوط المنهزمين، فضَرَب عليها الحصار، وبعد معركة حامية تمكّن

= ابن الأثير: 4/ 562. أخبار مجموعة: 7. المقري: 1/ 258.

(322) ينظر كتابنا: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: 30 والهامش رقم 32 و33.

(323) الرقيق القيرواني: 75. ابن عذاري: 2/ 7.

(324) العبادي: في تاريخ الأندلس والمغرب: 72.

(325) العبادي: 72.

طارق من دخولها، بعد فرار القوات بأتجاهات مختلفة[326]. ولمنع القوط من أية محاولة لتوحيد صفوفهم قرر طارق الزحف نحو العاصمة طُلَيطِلة. وتذكر المصادر أن طارق أرسل عدة حملات بأتجاه المدن الإسبانية المختلفة، فأرسل حملات إلى: مالقة، والبيرة، ومرسية، وقرطبة[327]، ولكن من غير المعقول أن يقوم طارق بتقسيم قواته القليلة العدد في الوقت الذي كان ينوي فيه التوغل بعمق في أرض معادية، ويمكن قبول الرواية التي تشير إلى الحملة المرسَلة إلى قرطبة بسبب وجود الإشارات الكثيرة إلى قائد الحملة مغيث الرومي والذي تمكّن من دخول المدينة بعد حصار قارب الثلاثة أشهر[328].

وواصل طارق طريقه إلى طليطلة عبر الطريق الروماني القديم الذي يمرّ بمدينة جيّان، فعَبَر نهر الوادي الكبير عند منجيبار وتقدم إلى الشمال[329]، وعندما وصل إلى طليطلة وجدها خالية من سكانها، وأن حاكمها قد انسحب إلى مدينة أخرى خلف الجبال، فسار طارق لملاحقة الهاربين مخلفاً وراءه بعض الجنود الذين تَولّوا مسؤولية الدفاع عن المدينة، واتخذ طريق وادي الحجارة، فوصل إلى مدينة المائدة[330]، ويُحتمل أنها قلعة هنارس التي تقع شمال مدينة مدريد. وبعد أن فتح مدينة المائدة ووادي الحجارة، عاد إلى مدينة طليطلة سنة 93هـ/ 711م[331].

حملة موسى بن نصير

بعد أن أكمل طارق بن زياد المرحلة الأولى من فتح الأندلس بنجاح،

(326) ابن القوطية: 29. ابن عذاري: 2/ 18.
(327) أخبار مجموعة: 9 و10. ابن عذاري: 2/ 9.
(328) ابن القوطية: 8. الرقيق القيرواني: 76. أخبار مجموعة: 13 و14.
(329) المغرب: 1/ 261.
(330) ابن القوطية: 9. ابن عذاري: 2/ 12.
(331) أخبار مجموعة: 15. ابن الأثير: 4/ 564. ابن عذاري: 2/ 12.

عَبَر موسى بن نصير بقوات مكوَّنة من ثمانية عشر ألف مقاتل في شهر رمضان سنة 93هـ/ تموز 712م[332]. وقسّم موسى جيشه إلى وحدات عديدة بلغت أكثر من عشرين وحدة، كل وحدة تحت راية، وكان اثنتان من هذه الرايات تحت قيادة موسى المباشرة، وتولّى ابنُه عبد العزيز الراية الثالثة. أما بقية الرايات، فكانت بقيادة قوّاده الآخرين، وعسكرت هذه القوات بالقرب من الجزيرة الخضراء، لعدة أيام من أجل الراحة والاستعدادات العسكرية، وعندما قرر موسى السير استشار قواده بشأن الطريق التي يجب سلوكها. وقد اتفقت الآراء أن يبدأوا بمنطقة إشبيلية، وبقية الأجزاء الغربية الأخرى، التي لم يفتحها بعد طارق بن زياد، وقبل أن يغادر موسى الجزيرة الخضراء، أمر بإرساء الحجر الأساس لبناء مسجد هناك تخليداً لذكرى حملته هذه، سمي بمسجد الرايات[333]. وزحف بقواته شمالاً إلى قرمونة، ونظراً لقوة هذه المدينة وحصانتها كان على موسى أن يستعمل خبرته في فتحها، فأرسل إليها بعض أتباع جوليان، الذين أظهروا لأهل المدينة أنهم أصدقاء جاؤوا فراراً من العرب، فسمح لهم القوط بدخول المدينة. وما إن حلّ الليل، حتى فتح هؤلاء الأبواب للعرب، فهجموا على الحُرّاس، وفتحوا المدينة، وبعد ذلك تقدم موسى إلى قلعة رعواق ففتحها[334]، ثم سار إلى إشبيلية التي قاومت هجوم الجيش العربي لعدة شهور، وفُتحت عنوة بعد فرار حاميتها إلى مدينة باجة. وبعد أن ترك موسى بن نصير قوة للدفاع عن المدينة، سار إلى ماردة، وتذكر بعض الروايات الأخرى، أن موسى لم يذهب إلى ماردة، بل لاحق فلول المنهزمين غرباً إلى لبلة، وأكشوينة، وباجة في جنوب البرتغال[335]. ثم زحف نحو ماردة، فضرب عليها الحصار، ووقعت بين

(332) الرقيق القيرواني: 276، المقري: 1/ 277.

(333) ينظر: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: 35.

(334) أخبار مجموعة: 17 و18. ابن القوطية: 10.

(335) ينظر: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: 36 والهامش رقم (59).

الطرفين معارك عديدة انتهت بٱستسلام المدينة في شوّال سنة 94هـ/ 713م وقد رافق هذا الاستسلام عقد معاهدة بين الطرفين، تعهّد العرب بموجبها بعدم التعرض بالأذى للسكان المحليين الذين يبقون في المدينة، أو يغادرونها إلى أي مكان آخر[336]. كما ضمنت لهم حرياتهم وكنائسهم وأداءهم لطقوسهم الدينية، كما هو معروف عن التسامح العربي مع الشعوب التي يحررونها. ومن جهة أخرى ضمنت هذه المعاهدة للقوات العربية ممتلكات الذين قُتِلوا في الحرب، والهاربين من القوط إلى منطقة جليقية في الشمال الغربي من البلاد. توجَّه موسى بن نصير بعد شهر من فتح ماردة إلى طليطلة فلقيه طارق بن زياد في مكان يُعرف بالمعرض، بين نهر باجة والتيتار قرب مدينة طلبيرة غربي طليطلة[337]. وقد عاتب موسى بن نصير قائده طارقاً بنَ زياد على توغّله عمقاً في البلاد، دون استشارة رئيسه الأعلى، وعلى عدم تنفيذ أوامره بالتوقف لحين وصوله إليه، ولكن طارق برر ما قام به، وأقنع موسى بوجهة نظره في الفتح، وسرعة القضاء على بقايا القوط، من أجل توفير المناخ الملائم للقوات العربية[338]، وعدم السماح لفلول القوط بالتجمع في مدينة طليطلة.

فتوحات موسى وطارق المشتركة في الشمال

مضى القائدان إلى طليطلة، ومنها زحفت القوات نحو الشمال الشرقي، فدخلت مدينة سرقسطة والمناطق المجاورة لها، ثم فتحت مدن طركونة وبرشلونة، ولاردة، ووشقة، وبعد فتح سرقسطة والجزء الأكبر من منطقة الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية[339]، قرر موسى بن نصير فتح مناطق

(336) ينظر: المرجع السابق والهامش رقم (60).

(337) أخبار مجموعة: 18. ابن عذاري: 2/ 12.

(338) طه: الفتح والاستقرار: 181.

(339) ينظر: مؤنس: فجر الأندلس: 104.

قشتالة القديمة؛ فقسَّم جيشه إلى قسمين: أُسندت قيادة الجيش الأول، إلى طارق بن زياد، وظل الثاني تحت إمرته[340]، ومضى طارق بمحاذاة الجهة الشمالية لوادي نهر الأبرة، فهاجم منطقة الباسك، ثم افتتح أماية، واسترقة، وليون.

أما موسى بن نصير فسار بقواته إلى الجنوب من وادي الأبرة، ففتح لُك، وباشر بإرسال حملات صغيرة لافتتاح المناطق المجاورة حتى صخرة بلاي على المحيط الأطلسي[341]. وفي أثناء هذه الفتوحات، كان كلٌّ من موسى وطارق يقومان بتثبيت الحاميات العسكرية في المناطق المفتوحة، وتمكّنا من فتح معظم جلقية وإشتوريش، وتعقّبا فلول القوط، واضطروها إلى الفرار والالتجاء إلى جبال كانتبريا[342].

فتوحات عبد العزيز بن موسى

رافق موسى بن نصير، العديد من أبنائه، ومنهم: عبد العزيز، وعبد الأعلى ومروان، ولقد لعب هؤلاء، وبشكل خاص عبد العزيز، دوراً هامّاً في فتح شبه الجزيرة، وعلى العموم فهناك نقص في المعلومات، وأحياناً تناقض في الروايات التي تتعلق بذكر تواريخ وأماكن حملات عبد العزيز بن موسى. ولقد أرسل موسى ابنيه: عبد العزيز وعبد الأعلى إلى الجنوب وجنوب شرق إسبانيا، وذلك لاستكمال فتح هذه الجهات التي لم يمر بها طارق بن زياد، وكان هذا على الأغلب بعد سقوط إشبيلية، عندما اتجه موسى إلى الغرب، فاستطاع عبد الأعلى، وربما كان ذلك بمساعدة عبد العزيز أيضاً، أن يفتح كُلاً من مالقة، والبيرة[343]، ثم توجّه عبد العزيز

(340) ابن القوطية: 9. المقري: 1/ 265.
(341) ابن الأثير: 4/ 566. المقري: 1/ 276.
(342) ينظر: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: 39.
(343) ابن الخطيب: الإحاطة، تحقيق: عنان، دار المعارف: 1/ 101. المقري: 1/ 275.

بعد ذلك إلى مشرق شبه الجزيرة حيث تركزت المقاومة القوطية في هذه المنطقة في كُورة تَدْمِير، التي أسماها العرب بهذا الاْسم نسبة إلى أميرها الدوق تدمير، والْتَقَى عبد العزيز بحاكم هذه المقاطعة قرب أوريولة، فقاوم لفترة قصيرة، لكنه توصل أخيراً إلى عقد معاهدة صلح معه في رجب سنة 94هـ/ 713م[344]، وبموجب هذه المعاهدة التي ذكر تفاصيلها المؤرخون، حصل «تدمير» على شروط مناسبة للصلح، فقد اعتُرِف به حاكماً على سبع مدن تقع ضمن منطقته، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن، شريطة أن يدفع جزية سنوية، مع كميات معلومة من الحبوب والمواد الغذائية، كالعسل والزيت، ووافق تدمير أيضاً على ألاَّ يقوم أحد من رعيته بتجاهل هذه المعاهدة أو الإخلال بشروطها، ولا يأووا أحداً من أعداء العرب، ولا يكتموا عنهم خبراً يتعلق بأعدائهم، ومُنح تدمير وقومه حرية ممارسة شعائرهم الدينية إضافة إلى احتفاظهم بكنائسهم ودُور عبادتهم[345].

وبعد إقرار الأمور في جنوب شرق شبه الجزيرة، عاد عبد العزيز، إما حسب رغبته، أو لأن والده استدعاه بسبب تمرّد مدينة إشبيلية، ولقد أيدت هذا التمرد عناصر قوطية جاءت من مدينتَيْ لبلة وباجة، فهاجموا الحامية العربية في المدينة، وقتلوا ثمانين رجلاً منهم، واْضطر الباقون إلى الانسحاب، فاْلتحقوا بمعسكر بموسى بن نصير الذي كان محاصِراً لمدينة مَارِدَة ـ وبعد استسلام هذه المدينة، قاد عبد العزيز حملة إلى إشبيلية، وتمكّن من إعادة فتحها بسهولة[346]، ثم سار إلى لبلة وباجة لتقوية حاميتها، وقد عاد عبد العزيز إلى إشبيلية ومن ثم إلى ماردة، حيث تولى القيادة العامة لكل المناطق المفتوحة في هذه المنطقة. وبدأ عبد العزيز بعد ذلك بفتح وسط البرتغال ـ في الوقت الذي كان فيه موسى وطارق يقومان بفتوحاتهما

(344) أخبار مجموعة: 12 و13.

(345) العذري: نصوص عن الأندلس، تحقيق: الأهواني، مدريد 1965 ص: 14 ـ 15.

(346) أخبار مجموعة: 18. ابن عذاري: 2/ 5. المغربي: 1/ 271.

في الشمال ـ ففتح عدة مدن، وعقد معاهدات صلح مع يابرة ولشبونة وقلمرية وشنترين[347].

وصلت إلى دمشق أنباء فتوحات موسى بن نصير، وعزمه على التوغل بعمق في شبه جزيرة إيبرية، فلم يوافق الخليفة الوليد بن عبد الملك على هذا المشروع، وخشي على القوات العربية من العواقب التي يصعب التكهن بها نتيجة لتوغل موسى البعيد في أرض الأعداء، فأَرسل لاستدعاء كلٍّ من موسى وطارق، وحاول موسى التريّث حتى يتمكّن من فتح المناطق الشمالية الغربية، لكن الأوامر صدرت إليه مرة أخرى بالتوقّف والعودة إلى دمشق، وتنفيذاً لأوامر الخليفة، عاد موسى بن نصير يرافقه طارق بن زياد إلى المشرق في ذي الحجة سنة 95هـ/ 714م بعد أن ترك ولده عبد العزيز والياً على البلاد، واختِيرت مدينة إشبيلية عاصمة لها، وعندما وصل دمشق قدّم للخليفة الوليد تقريراً مفصلاً عن أعماله وفتوحاته في بلاد المغرب والأندلس.

وعندما توفي الخليفة الوليد في جمادي الآخرة سنة 96هـ/ 715م وتولى الخلافة سليمان، عزل موسى بن نصير من منصبه، وكانت أسباب عزله تنحصر في مسألتين مهمتين:

الأولى: تصرّف موسى بن نصير بأموال الدولة دون وجه شرعيّ، فقد غمر موسى وجوه الناس وزعماء القبائل على طول الطريق من القيروان إلى الفسطاط إلى فلسطين بالهدايا والعطايا، وتصرّف في ذلك تصرّف الخُلفاء فحاسبه الخليفة سليمان على ذلك ولم يعدم الشهود الذين شهدوا ضد موسى بن نصير، والذين أجمعوا على أنه لم يخرج الخُمُسَ من جميع الأموال التي أتى بها إلى دار الخلافة، مما دعا الخليفة إلى إدخال جميع ما أتى به موسى إلى بيت المال. وأُحصيَت الأموال التي تصرّف بها موسى

(347) ينظر: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: 41.

ومنحها كهدايا وأعطيات فبلغت الثلاثمائة ألف دينار، فأغرمه الخليفة إيّاه[348].

والثانية: خشية الخلافة من نفوذ أولاد موسى بن نصير الذين كانوا يديرون شؤون المغرب والأندلس، فقد كان عبد الله بن موسى في القيروان وعبد الملك في ولاية طنجة وعبد العزيز على الأندلس، ويبدو أن الخليفة سليمان لم يكن راضياً عن سياسة موسى بن نصير، وخشي عاقبة ذلك فقرر عزله عن منصبه[349]. وما دون ذلك من الأسباب التي سطرها المؤرخون فلا أصل لها من الصحة، ولا يمكن الاعتداد بها[350].

---

(348) ينظر: سعد زغلول: 1/ 253.

(349) سعد زغلول: 1/ 356.

(350) وإضافة إلى ذلك فقد سطّر المؤرخون أسباباً أخرى منها: إن سليمان طلب من موسى التريّث قليلاً قبل دخول دمشق ولحين وفاة الخليفة الوليد الذي كان مريضاً جدّاً لتؤول الأموال والغنائم المحمولة إليه، وإن موسى بن نصير رفض هذا الطلب مما أغضب سليمان وتوعده. وقيل أيضاً إن موسى كان من جملة المعارضين على تعيين سليمان ولاية العهد.

ينظر: ابن عذاري: 2/ 20. المغربي: 1/ 280 و281. الرقيق: 91.

الفصل الثاني

سياسة الوُلاة في المغرب العربي

97 ـ 184هـ/ 716 ـ 800م

عصر الولاة: مصطلح يُراد به بالنسبة لكل قطر من الأقطار التي حررها العرب أو فتحوها، الفترة التي بين تمام التحرير أو الفتح وقيام أول الدول المحلية المستقلة في القطر، أو في ناحية منه، وتَوقّف دار الخلافة عن إرسال وُلاتها إلى هذا القطر أو تلك الناحية المستقلة، أي «انقطاع التبعية المباشرة لدولة الخلافة، وبداية الاستقلال وظهور الشخصية المحلية للإقليم في نطاق العالم الإسلامي أيّاً كانت صورة ذلك الاستقلال ودرجته.»[1]

وتلعب ظروف عديدة في إنهاء عصر الولاة، وتختلف من إقليم إلى آخر وغالباً ما كان عصر الولاة، ينتهي بتغلّب شخصية طموحة على زمام الأمور في البلاد البعيدة، فيبدأ بتأسيس كيان له يعتمد بالدرجة الأولى على قدراته الذاتية في تنميته وحمايته. وقد يكون هذا الكيان مستقلاً تام الاستقلال، كما هو الحال بالنسبة للدولة الأموية في الأندلس سنة 138هـ/ 756م، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة 172هـ/ 788م. وقد يكون مرتبطاً بسياسة الدولة المركزية، مع تمتعه باستقلال ذاتيّ واسع، وتخويل

(1) حسين مؤنس: التنظيم الإداري والمالي لأفريقية والمغرب خلال عصر الولاة، بحث منشور في مجلة كلية الأدب، جامعة الكويت، العدد الأول ص: 57.

شامل في إدارة كيانه، كدولة الأغالبة القائمة سنة 184هـ/ 800م[2]، والذي يُعتبَر قيامها نهاية لعصر الولاة في بلاد المغرب[3].

وقد مرت بعصر الولاة جميع الأقاليم التي حررها العرب، خلال القرن الأول الهجري، مع اختلافات لا بدَّ منها في نوع التبعية التي كانت تربط الأقاليم المحرَّرة بالسلطة المركزية، فبلاد الشام مثلاً عَرفت عصر الولاة طوال فترة الخلفاء الراشدين، ثم أصبحت بلاد الشام مركز الدولة العربية، والحجاز إقليم من أقاليم الدولة التابعة له، ولكن ذلك لم يُخرج بلاد الشام عن أن تكون إقليماً من أقاليم الدولة العربية. ثم عاد عصر الولاة إلى الظهور في الشام بقيام الدولة العباسية سنة 132هـ. ومن هنا فإن هناك اختلافاً بين طبيعة عصر الولاة في بلاد الشام، وطبيعته في بلاد مصر مثلاً[4]. «ولكنه في كل بلد من البلاد التي ذكرناها دور طبيعيّ في تاريخ معظم بلاد الإسلام، وهو في العادة عصر الدخول في الإسلام واستعراب، وتَحوُّل المجتمع إلى مجتمع إسلاميّ أو إسلاميّ عربيّ، في روحه وثقافته واتجاهه في الحياة.»[5]

وقد تناوب على حكم المغرب العربي خلال هذه الفترة (97هـ ـ 184م) وعلى مدى الدولتين الأموية والعباسية، وحتى قيام دولة الأغالبة سنة 184هـ ـ 800م) إحدى وعشرون والياً، وكان من أبرز سماته:

1 ـ لا توجد قاعدة ثابتة في تعيين الولاة، فتارة يُعيَّن الوالي من قِبَل الخليفة مباشرة، وتارة أخرى يعيَّن من قِبَل والي مصر، أو قد يصطلح كبار رجال الولاية على تنصيب أحدهم والٍ لفترة معلومة خصوصاً بعد

---

(2) حسين مؤنس: المرجع السابق: 72 ـ 74.

(3) سبقت دولة الأغالبة دولٌ أخرى في الاستقلال عن السلطة المركزية واعتُبِرت خارجة عن حضيرة الطاعة منها مثلاً: دويلة في سجلماسة، ودويلة في تاهرت، ودويلة الأدارسة في وليلي ثم في فاس بعد ذلك.، تنظر الفقرة رقم (5) أدناه، الفصل الثاني.

(4) حسين مؤنس: المرجع السابق: 73.

(5) حسين مؤنس: المرجع السابق: 73.

فترات الاضطراب، أو قد تُغتصَب الولاية اغتصاباً، كما فعل عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة 127هـ.

2 ـ تراوحت سياسة الولاة بين اللين وسيادة العدالة والمساواة إلى سياسة الشدة، والتعسف مع العرب البربر.

3 ـ النشاط الواسع للحملات البحرية بأتجاه جزر البحر المتوسط، صقلية، وسردينيا وكورسيكا وغيرها من الجزر.

4 ـ انتشار الأفكار الخارجية الصفرية والأباضية، وذلك إلى كثرة الفتن والحروب بين دعاة هذه الأفكار والسلطة المركزية المتمثلة بسلطة الولاة.

5 ـ ونتيجة لما سبق فقد ظهرت الكيانات المستقلة، فقامت دولة الصفرية في سجلماسة سنة 140هـ/ 757م، ودولة الأباضية في تاهرت وما حولها سنة 160هـ/ 781م واستغل إدريس الأول بن عبد الله حالة الفوضى والاضطرابات فأسس سنة 172هـ/ 788م دولته في مدينة وليلي أولاً، ثم فاس في المغرب الأقصى.

6 ـ وثمة ظاهرة أخرى استجدت زمن وُلاة الدولة العباسية، تلك هي ظاهرة تمرّد الجند الخراساني، وعدم انضباطهم، ومحاولاتهم لإثارة القلاقل والاضطراب في بلاد المغرب، من خلال مساندتهم للمتمردين على السلطة المركزية.

وأوّل هؤلاء الولاة:

ـ محمد بن يزيد القرشي[6] (97 ـ 100هـ/ 715 ـ 718م):

قدمه الخليفة سليمان، وقد نعمت بلاد المغرب العربي في عهده بالأمن والاستقرار، وسيادة العدالة[7]. وكانت أعماله محصورة في إرسال السرايا

(6) في تاريخ أفريقية والمغرب، الرقيق القيرواني: 93: «سنة 99هـ».

(7) الرقيق القيرواني: 93. ابن عذاري: 1/ 47.

إلى المناطق الداخلية من المغرب الأقصى[8]، ومناطق أخرى فما أصاب من الغنائم قسمه بين المقاتلين[9]، وكانت الأندلس تابعة لولاية المغرب، فلمّا قُتِل عبد العزيز بن موسى بن نصير أواخر سنة 97هـ/ 716م أو بداية سنة 98هـ/ 717م أرسل محمد بن يزيد هذا، الحُرَّ بنَ عبد الرحمن الثقفي والياً عليها[10].

وكان لسياسة ٱبن يزيد وعدالته أثر في دخول أفواج جديدة في الإسلام، وجنوح القبائل العاصية على تأدية فروض الطاعة والولاء[11].

وظل محمد بن يزيد والياً على المغرب حتى وفاة الخليفة سليمان، وتولية الخليفة عمر بن عبد العزيز، فاختار لولايتها تابعيّاً مشهوراً هو:

ـ إسماعيل بن عبد الله حفيد أبي المهاجر دينار[12] (100 ـ 102هـ/ 718 ـ 720م):

وصفه الرقيق القيرواني بقوله: «كان خير والٍ، وخير أمير»[13]، وكان

(8) الرقيق القيرواني: 96. ابن عذاري: 1/ 47.

(9) الرقيق القيرواني: 96، والنص: «فما أصابه خمسة عليهم ثم قسّم الخمس أيضاً» وينظر: ابن عذاري: 1/ 47.

(10) أخبار مجموعة: 22.

(11) سالم: 2/ 289.

(12) تمّ اختيار إسماعيل بن عبد الله لِمَا عرفه الخليفة عمر بن عبد العزيز فيه من التقوى التي تبعث على الشجاعة في تقرير الصدق وقول الحق عند مواجهة أُولي الأمر، فقد جرت العادة عند ورود جبايات الأمصار إلى دمشق، على أن يأتي مع جباية كل بلد وفد من أهله يتكوّن من عشرة رجال من الأعيان وكبار القادة، وكان على هؤلاء أن يُقْسِموا بأن كل دينار وكل درهم من تلك الجباية أُخِذ بحقه. وعلى أيام سليمان بن عبد الملك أتى وفد أفريقية بالخراج، وحلف ثمانية من العشرة بصحة جمع المال، ورفض إسماعيل بن عبد الله، وتبعه السمح بن مالك، وأعجب عمر بن عبد العزيز الذي كان حاضراً بالرجلين، فلما صارت له الخلافة عَيّن إسماعيل على المغرب والسمح على الأندلس. ينظر: أخبار مجموعة 22 و23. سعد زغلول: 1/ 262.

(13) الرقيق القيرواني: 97. وينظر: ابن عبد الحكم: 287. وابن عذاري: 1/ 48.

جُلُّ اهتمامه مُنصبّاً على نشر الإسلام والعروبة بين القبائل التي لم تدخل الإسلام بعد، فأسلمت على يديه قبائل عديدة[14]، وأرسل إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز عشرة من كبار التابعين[15]، انتشروا في مناطق مختلفة لتعليم الداخلين في الإسلام، ما يجب معرفته من اللغة العربية لقراءة القرآن الكريم، وإيقاف المسلمين الجدد على ما حرّم الله عليهم، وأحلّه لهم. فقد كانت الخَمْر «بأفريقية حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعون، فبيّنوا تحريمها»[16].

والحقيقة أن ولايتَيْ محمد بن يزيد القرشي، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، تُعتبَران من سنوات عصر الولاة المتميزة بالهدوء والاستقرار وإعمام العدالة بين سكان المغرب العربي، فقد أُخِذت الجبايات بوجوهها الشرعية الحقة، وعمل الواليان طوال سنوات ولايتهما على نشر الإسلام بين القبائل التي لم تسلم بعد، ورسّخا مبادئه وأصوله بين تلك القبائل التي سبق إسلامها، وعَمِلا جاهدَيْن على تعليم سكان المغرب المسلمين العربية رسماً وقراءة.

ويكاد يُجمِع المؤرخون[17] على أنه بوفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة 101هـ/ 719م. تبدأ سياسة جديدة في المغرب العربي تقوم أساساً على اعتماد الشدة، فعندما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك، عَزَل إسماعيل بن عبد الله عن ولاية المغرب العربي وأقرّ بدلاً منه.

ـ يزيد بن أبي مسلم (102هـ/ 720م):

ويُعَدّ تعيين ابن أبي مسلم انقلاباً في سياسة الدولة الأموية، فقد لُقِنّ

---

(14) ابن عبد الحكم: 287 والنص: «ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم»، الرقيق القيرواني: 97. ابن الأثير: 5/ 23. ابن عذاري: 1/ 48.

(15) ينظر الفصل الخامس بانتشار الإسلام والعروبة.

(16) ابن عذاري: 1/ 48.

(17) ابن الأثير: الكامل: 5/ 268. سعد زغلول: 266. سالم: 2/ 293.

الوالي المذكور خلال فترة خدماته مع الحجاج بن يوسف ـ كان كاتبه وصاحب شرطته ـ على سياسة الشدة والعنف، فحال ما وطأت قدماه مدينة القيروان، بدأ بإجراءات لم يسبق أن اعتمدها والٍ من ولاة المغرب العربي قبله، وقد أصابت تلك الإجراءات عدداً من السكان[18]، وبعض الولاة السابقين[19]. وإضافة إلى ذلك فقد عمد على وشم حرسه بكتابة اسم الرجل في يده اليمنى، وكتابة «حرسي» في يده اليسرى على ما كانت تفعله الروم بحرسها[20]، فأنِفَ الحرس من ذلك، وكان معظمهم من البربر البتر، فدب بعضهم إلى بعض واتفقوا على الخلاص منه، فقتلوه بعد أشهر قليلة من توليته الولاية[21].

واتفق الناس على تولية محمد بن أوس قائد الأسطول لإدارة شؤون الولاية، ولحين ورود قرار دار الخلافة[22].

وقد تنبّه الخليفة يزيد إلى سلبيات سياسة الشدة والعنف، وحاول إصلاح الأمور، فانتدب لولاية المغرب شخصية ذات كفاءة وقدرات عالية في الشؤون الإدارية، لإصلاح ما أفسده يزيد بن أبي مسلم، ولامتصاص نقمة العامة، وإقرار النظام كما يجب، ذلك هو بِشْر بن صفوان الكلبي والي مصر.

ـ بشر بن صفوان (102 ـ 109هـ/ 721 ـ 727م):

عمل بشر جاهداً على تهدئة الخواطر، وإزالة أسباب النقمة على السلطة

(18) ينظر: ابن عبد الحكم: 288. ابن الأثير: 5/ 151.

(19) ومنهم: محمد بن يزيد القرشي، حيث أمر ابن أبي مسلم بسجنه وتصفية أمواله، وعُذِّب عذاباً لا مبرر له. ينظر: ابن عبد الحكم: 288.

(20) ابن عبد الحكم: 289. الرقيق القيرواني: 99. ابن عذاري: 1/ 48.

(21) ابن عبد الحكم: 289. الرقيق القيرواني: 99. ابن الأثير: 5/ 101.

(22) ابن عبد الحكم: 289. الرقيق القيرواني: 100. وفي الكامل لابن الأثير: 5/ 101: «وولّوا على أنفسهم الوالي الذي كان قبل يزيد بن أبي مسلم وهو محمد بن يزيد.».

المركزية، فأصطنع سياسة تقوم على المساواة، وحسن المعاملة، فأثمرت هذه السياسة وسادت البلاد فترة سلام وهدوء[23].

ونزولاً أمام أوامر الخليفة يزيد بن عبد الملك، فقد تتبّع بِشْر قَتَلَةَ الوالي السابق يزيد بن أبي مسلم، وقبض على عبد الله بن موسى بن نصير وجماعة من أنصاره فأودعهم السجن وصادر أموالهم، ثم أمر بإعدام عبد الله بن موسى[24].

ورغم أن المصادر تشير إلى عودة بشر إلى المشرق سنة 105هـ/ 723م[25]، ولا تعطي مبرراً قويّاً لهذه العودة، فعلى الأغلب أن عودته كانت بناءً على أستدعاء من الخليفة يزيد للتداول في أمور المغرب، وللوقوف على أحوالها والأطمئنان على مستقبلها بعد مقتل واليه السابق أبن أبي مسلم، ولكنه وصل دمشق، فوجد الخليفة يزيد قد مات، فلقي خليفتَه هشامَ بنَ عبد الملك الذي أقرّه على الولاية[26].

وكان نشاط بشر بن صفوان في البحر المتوسط واضحاً وجليّاً، فقد كانت الحملات البحرية متواصلة على جزء سردينية، وصقلية، وكورسيكا وأبتداءً من 103هـ/ 741م، عندما قاد يزيد بن مسروق حملة إلى جزيرة سردينية[27]، أعقبتها حملة أخرى سنة 104هـ/ 722م قادها عمرو بن فاتك[28]، وتمكّنت القوات البحرية سنة 106هـ/ 724م من مهاجمة جزيرة كورسيكا والعودة إلى تونس بأمان، وقاد قثم بن عوانة الأسطول سنة 108هـ/ 276م

(23) السلاوي: 1/ 104. سالم: 2/ 295.

(24) ابن عبد الحكم: 290. وفي رواية أنه قُتِل زمن الوالي محمد بن يزيد بأمر من الخليفة سليمان. ينظر: الرقيق: 94. ابن عذاري: 1/ 47.

(25) ابن عبد الحكم: 1/ 291. الرقيق القيرواني: 102. ابن عذاري: 1/ 49.

(26) ابن خياط: 1/ 342. الرقيق القيرواني: 102. ابن عذاري: 1/ 49.

(27) ابن خياط: 1/ 336. ولم يحدد وجهة الحملة.

(28) ابن خياط: 1/ 338.

فهاجم مكامن الروم في جزر البحر المتوسط وعاد سالماً[29]. وكانت آخر الحملات البحرية حملة سنة 109هـ/ 727م قادها الوالي بشر بن صفوان فطرق جزيرة صقلية[30]، وتمكّن من تحقيق أهدافه والعودة إلى تونس رغم الأنواء الجوية الصعبة التي واجهت الحملة في طريق العودة[31]، ولم يطل العهد ببشر بن صفوان فقد أُصيب بمرض أودى بحياته في شوال من سنة 109هـ[32].

ـ **ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي:**

دخل عبيدة بن عبد الرحمن القيروان سنة 110هـ/ 728م والياً على المغرب من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك، ورغم كفاءته الإدارية، ومقدرته العالية على ضبط وإقرار الأمر، إلاّ أنه كان عنيفاً في سياسته، نال منه رجال الوالي السابق كثيراً من النكايات «فحبسهم وأغرمهم وعذّب بعضهم»[33].

وكان من بين من نالهم سوء معاملته، أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، والذي كان كما يقول ابن عذاري: «شريفاً في قومه، مع فصاحة وبراعة، وكان وُلِّيَ في أفريقية ولايات كثيرة في أيام بشر بن صفوان، فعزله عبيدة ونكل به.»[34]

والحقيقة أن عبيدة لم يفرّق بين كبار رجال العهد السابق، وكبار رجال ولايته، فقد أصابت سياسته الشديدة قائد الأسطول المستنير بن الحبحاب

(29) ينظر: سعد زغلول: 1/ 372.

(30) السلاوي: 1/ 104. ويعتقد سعد زغلول: 1/ 273 أن هذه الحملة كانت سنة 107هـ بعد استشهاد والي الأندلس عَنْبسة بنِ سَحِيم.

(31) ابن عبد الحكم: 291.

(32) ابن عبد الحكم: 291.

(33) ابن عذاري: 1/ 50. وينظر: الرقيق القيرواني: 104.

(34) البيان المغرب: 1/ 50. وينظر: الرقيق القيرواني: 105 و106. وقيل إن أبا الخطار كتب شعراً إلى الخليفة يشكو فيها واليه، فأمر الخليفة بعزله عن الولاية.

الحرشي الذي أخطأ الوقت المناسب لعودته من حملة قام بها على جزيرة صقلية سنة 111هـ/ 729م، فعصفت بمراكبه العواصف، وغرق معظمها، وجنح هو مع قلّة منها إلى ساحل طرابلس، فقبض عليه عبيدة وعاقبه بالحبس والتشيهر العلني، والجلد الموجع في كل يوم جمعة[35].

وجرياً على سياسة أسلافه، فقد جهّز عبيدة الأسطول للجهاد في البحر المتوسط، فقامت في سنة 110هـ/ 728م حملة قادها عثمان بن أبي عبيدة[36] الفهري، نزلت جزيرة صقلية، وزحفت على عاصمتها سرقوسة، وتمكّن الفهري بعد معركة شديدة من تدمير معظم القوات الرومية، وٱقتياد قائدهم أسيراً[37].

وبٱستثناء حملة المستنير سنة 111هـ/ 729م والتي لم تحقق النجاح المطلوب فقد كانت هنالك حملة أخرى، في سنة 112هـ/ 730م بقيادة ثابت بن خيثم، نزلت جزيرة صقلية، وتمكّنت من قواتها وتحصيناتها[38]، وحملتان في سنة 114هـ/ 732م: الأولى هدفها جزيرة صقلية[39]، والثانية قادها عبد الله بن زياد الأنصاري، وهدفها جزيرة سردينية[40]، ثم حملة بكر بن سويد سنة 115هـ/ 773م إلى صقلية، ولم تتمكّن الحملة من تحقيق أهدافها نتيجة تعرّض المراكب العربية إلى رشقات من النار الإغريقية[41].

وكان من نتائج هذه الحملات، أن تمكّنت القوات البحرية العربية من شل نشاط الروم، وإلزامهم جانب الدفاع في جميع جزر البحر المتوسط.

---

(35) ابن عبد الحكم: 291، 292.

(36) كانت الحملة حملة صغيرة كما يبدو، فالمقاتلون لم يكونوا أكثر من سبعمائة على حد قول ابن خياط.

(37) ابن خياط: 2/ 354.

(38) ابن خياط: 2/ 357.

(39) قيل إن قائدها عبد الله بن قطن. ينظر: سعد زغلول: 277، والهامش رقم (90).

(40) ابن خياط: 2/ 360.

(41) ينظر: سعد زغلول: 1/ 277.

ٱستمرت ولاية عبيدة بن عبد الرحمن لغاية سنة 115هـ/ 733م فأُعِفي من منصبه[42]، وتولى مكانه:

ـ عُبيد الله بن الحبحاب السلُولي (116 ـ 123هـ/ 734 ـ 741م):

وكان ٱبن الحبحاب[43]، قد تدرج في مناصب الدولة الإدارية، فبدأ عهده كاتباً، ثم عامل خراج مصر سنة 109هـ/ 727م ثم والياً عليها[44]، وقد أهّلته مهارته الكبيرة للفت نظر الخليفة وجذب اهتمامه[45]، فقلده ولاية المغرب سنة 116هـ/ 734م.

تبنّى ٱبن الحبحاب خطة عمل محددة لتحقيق هدفين أساسيين:

الأول: العمل على إخضاع القبائل في المغرب الأقصى، بعد اضطراب أحواله، بسبب تقلّب سياسة الولاة.

والثاني: تنظيم الحملات البحرية، وتهيئة الإمكانات اللازمة لتحقيق أهدافها بفاعلية أكثر من ذي قبل.

ولغرض تحقيق الهدف الأول، فقد جعل ٱبن الحبحاب المغرب الأقصى قسمين:

القسم الأول: السوس الأدنى، وهو طنجة وما يلحق بها من المغرب الأقصى، وعهد بهذا القسم إلى ولده إسماعيل، ثم إلى عمر بن عبد الله المرادي بعده[46].

---

(42) وبناءً على طلبه كما يقر بذلك ابن عبد الحكم: 293. ويُنظَر قول الرقيق القيرواني، وابن عذاري، الهامش رقم (34) أعلاه.

(43) قال عنه الرقيق القيرواني: 107: «كان رئيساً نبيلاً، وأميراً جليلاً، وكاتباً بليغاً، وحافظاً لأيام العرب وأشعارها، ووقائعها وأخبارها، وكان يقول الشعر. وينظر: ابن عذاري: 1/ 51.

(44) الرقيق القيرواني: 107. ابن عذاري: 1/ 51. سعد زغلول: 1/ 278.

(45) سالم: 2/ 298.

(46) الرقيق القيرواني: 108 و109. ابن عذاري: 1/ 51. ابن الأثير: 5/ 191.

والقسم الثاني: السوس الأقصى، وكان خلال هذه المرحلة مضطرباً وخارجاً على السلطة المركزية، لذا بعث ابنُ الحبحاب، حبيباً بنَ أبي عبدة الفهري سنة 116هـ/ 735م على رأس حملة تمكّنت من إخضاع القبائل هناك، وتنظيم شؤون الإقليم، وفقاً للإدارة المركزية[47].

ولتحقيق الهدف الثاني، قام ابن الحبحاب بتعيين المستنير قائد الأسطول في عهد عبيدة بن عبد الرحمن السلمي، والياً على مدينة تونس[48]، وأوعز إليه الإشراف على الأسطول، والاهتمام بدار صناعة السفن[49]، كما اعتنى ابن الحبحاب بإعمار المدينة نفسها، فبنى مسجدها الجامع المعروف بالزّيتونة، ووسّع طرقاتها وأهتم بمرافقها العامة لتكون جديرة بتلبية حاجات ومتطلبات القوات البحرية[50].

استأنف الأسطول حملاته البحرية سنة 116هـ/ 735م، فقاد عثمان بن أبي عبدة الفهري حملة إلى جزيرة صقلية، هاجمت بعض نواحي الجزيرة، وفي طريق العودة اصطدمت مع قوات بحرية للروم البيزنطيين، وانتهى الصدام بانتصار القوة العربية، رغم تمكّن الروم من السيطرة على بعض المراكب وأسرها[51].

وقاد حبيب بن أبي عبدة الفهري حملة سنة 117هـ/ 736م إلى جزيرة سردينية، فنزل على إحدى مدنها، وهزم حاميتها هزيمة منكرة، وعاد محملاً بالغنائم[52].

وفي سنة 118هـ/ 737م قاد قثم بن عوانة حملة إلى جزيرة صقلية.

---

(47) ابن عبد الحكم: 292. الرقيق القيرواني: 108. ابن الأثير: 5/ 191.
(48) ابن عبد الحكم: 292.
(49) سعد زغلول: 1/ 280.
(50) الرقيق القيرواني: 107. ابن عذاري: 1/ 51. وينظر: سعد زغلول: 1/ 280.
(51) ابن خياط: 2/ 362.
(52) ابن خياط: 2/ 362. ابن الأثير: 5/ 191.

ويبدو من كلام ابن خياط أن الحملة لم تتمكن من تحقيق أهدافها[53].

وفي السنة التالية، قاد قثم المذكور حملة أخرى إلى جزيرة سردينية، ورغم تمكّنه من تدمير القلاع التي قصدها إلاّ أنه فقد بعض المراكب خلال رحلة العودة تحت ظروف غامضة[54].

وكانت آخر الحملات المشهورة، حملة سنة 122هـ/ 741م بقيادة حبيب بن أبي عبدة الفهري ومعه ولده عبد الرحمن، حيث تمكّن من التوغل في جزيرة صقلية ومهاجمة عاصمتها سرقوسة، ولم يبرحوها إلاّ بعد أن أجبر أهلها على دفع جزية سنوية[55].

تمرد ميسرة المطغري[56]

يجعل المؤرخون سوء سيرة الولاة وعُمّالهم على رأس الأسباب التي دفعت قبائل المغرب الأقصى على شق عصا الطاعة، وتمردها ضد السلطة المركزية بقيادة زعيم من مطغرة يدعى ميسرة المطغري. فقد نسب إلى عمر بن عبد الله المرادي أعمالاً لَخّصها الرقيق القيرواني وقال: «تعدّى في الصدقات والقِسَم، وأراد أن يخمس البربر، وزعم أنهم فَيْءٌ للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله»[57].

وأضافوا إلى ذلك أن الخلفاء في المشرق وأولادهم كانوا يستحبون

(53) تاريخ ابن خياط: 2/ 363: «فأصاب أولية من صقلية، فأحاطوا به، ثم خلوا عنه».

(54) ابن خياط: 2/ 364. وينظر: سعد زغلول: 1/ 281.

(55) الرقيق القيرواني: 108 و109. السلاوي: 1/ 106.

(56) عن شخصية ميسرة المطغري، ينظر: ابن الأثير: 1/ 191. ويصفه: بميسرة السَّقّاء، وابن عبد الحكم: 292: «ميسرة الفقير. وابن عذاري: 1/ 52: «ميسرة الحقير» وفي ص: 52، يصفه بقوله: «ميسرة المدغري رأس الصفرية أمير الغرب» وابن خياط: 2/ 368 و370، ميسرة الحقير الصفري كان يبيع الماء بالقيروان.

(57) تاريخ أفريقية والمغرب: 109. وينظر: ابن الأثير: 5/ 191. ابن عذاري: 1/ 51 و52. السلاوي: 1/ 106 و108.

طرائف المغرب، ويكلّفون الولاة والعمّال بإرسال السبايا الحِسَان[58]، وجلود الخرفان العَسَلية[59]، أو البِيض على حد قول الطبري[60]، فكان الولاة في المغرب يعمدون إلى قطعان الغنم فيبقرون بطونها بحثاً عن تلك الجلود، مما سبب خسائر كبيرة للسكان[61].

وليس هذا فحسب، بل جعلوا من قادة التمرد وأعوانهم مَثَلَهم في الحرص على المصلحة العامة في البلاد، فلم يبدأوا عصيانهم إلاّ بعد أن يئسوا من العدالة، فالطبري يشير إلى وفد من بضعة عشر شخصاً على رأسه ميسرة المطغري، وصل مدينة دمشق لمقابلة الخليفة هشام، وعرض ما كان يعانيه السكان وطلبوا الإذن بالدخول فصعب عليهم[62]، فأتوا حاجبه الأبرش وقالوا له: «بلّغ أمير المؤمنين، أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نَفَلَهم دوننا وقال: هم أحق به، فقلنا: هذا أخلص لجهادنا لأنّا لم نرده.

وقالوا: إذا حاصرنا مدينة قال: تقدّموا، وأخّر جُندَه، فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم، ثم إنهم عمدوا إلى حاشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال، يطلبون الفِرَاء البِيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك وخلّيناهم وذلك.

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا: لم نجد هذا في كِتَاب ولا سُنّة، ونحن مسلمون، فجئنا أن نعلم رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟[63]»

---

(58) ابن عذاري: 1/ 52. ابن الأثير: 3/ 93.

(59) أخبار مجموعة: 31 و32. السلاوي: 1/ 106.

(60) ينظر نص الطبري أدناه.

(61) أخبار مجموعة: 32. ابن الأثير: 3/ 92. ابن خلدون: 1/ 119. ولم يرد هذا النص في كتاب ابن عبد الحكم، والرقيق القيرواني أو ابن عذاري، وهم أوثق من كتب عن تاريخ المغرب العربي..

(62) الرسل والملوك: 4/ 254. وينظر: ابن الأثير: 3/ 93.

(63) الطبري: 4/ 254 و255. وينظر: ابن الأثير: 3/ 93.

ولبثوا بعد تقديم الشكوى أياماً دون طائل، فقرروا مغادرة دمشق بعد أن رفعوا أسماءهم وأنسابهم إلى الخليفة هشام، وعادوا إلى المغرب(64).

والحقيقة المعوّل عليها هي أن للخارجين على السلطة المركزية أثر فاعل في هذه الأحداث(65)،ولا عبرة بعد ذلك لما حوته الشكوى من حجج ملفّقة تدلّ على بطلانها، فليس من المعقول أن يحال بين الخليفة ووفد قادم من بلاد بعيدة كالمغرب، لتقديم شكوى مضمونها لا يحتمل التأجيل.

ولم نسمع من قبل أن قائداً، أو والياً في بلاد المغرب كان يؤخر جنوده ويقدّم البربر للهجوم، إلاّ في أكاذيب هذه الشكوى. فمثل هذا العمل يدلّ على الدنيّة التي لم تقرّها قِيَمُ المبادئ ولا قيم الرجولة.

وأما بقية الأكاذيب فهي من صنع وترتيب دعاة الخوارج، الذين وُجِدوا في بلاد المغرب ومناطقها البعيدة عن أنظار السلطة المركزية، محطّاً رحباً، وتربة بكراً لنشر بذور مبادئهم الداعية إلى التمرد والعصيان، واختلاق الأسباب لنصب الحجب المعتمة بينهم وبين الولاة مُتخفين بالدعوة إلى مبادئ الإصلاح والمساواة والعمل بكتاب الله وسنّة رسوله، وكما يقول ابن خلدون: «إلباس الحق بالباطل»(66) فانتشر مذهب الخوارج الأباضية في المغرب الأوسط، والأقسام الشمالية من المغرب الأقصى، وانتشر المذهب الصفري في المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درنة(67).

وكان عبد الأعلى بن جريح الأفريقيّ الروميّ الأصل، وغيره ممن وَجَدوا في مذاهب الخوارج غطاءً لإشفاء غِلّهم من العروبة والإسلام، على

(64) الطبري: 4/ 255. وينظر: ابن الأثير: 3/ 93.

(65) قال الرقيق القيرواني: 109: «خرج ميسرة المدغري فقام على عمر... المرادي فقتله وفي المغرب يومئذ قوم فيهم دعوة الخوارج وفيهم عدد كثير وشوكة» وينظر ابن عذاري: 1/ 52.

(66) سعد زغلول: 1/ 286.

(67) سالم: 2/ 301. وينظر: سعد زغلول: 1/ 285 وما بعدها.

اتصال بميسرة المطغري زعيم مطغرة[68]، وتمكّنوا بعد حين من غرس عوامل الخروج على السلطة المركزية في النفوس، وإثارة النعرة القبلية بين معظم القبائل القاطنة في إقليم طنجة وأحوازها. وهكذا كانت الدعوة على العصيان والخروج عن الطاعة تستهوي كلا الطرفين لتحقيق أغراض شتى[69].

ووجد ميسرة المطغري في خروج حبيب بن أبي عبدة على رأس قواته إلى صقلية سنة 122هـ/ 741م فرصة ثمينة لإعلان عصيانه وآزرته قبائلُ المنطقة غمارة وبرغواطة ومكناسة، ودعا إلى نفسه فبايعوه إماماً عليهم[70]. وزحف بقواته، فهاجم عمر بن عبد الله المرادي، وتمكّن من الانتصار عليه وقتله[71]، وهيأ له هذا الانتصار دخول مدينة طنجة، فأستباحوها وقتلوا أهلها قتلاً ذريعاً، ولم ينج من أيديهم إلاّ من تمكّن من الفرار[72]، وغادرها ميسرة المطغري بعد أن وَلّى عليها عبد الأعلى بن جريج الأفريقي الرومي الأصل[73]، وزحف إلى السوس الأدنى، فلقيه إسماعيل بن الحبحاب، فقاتل قواته قتالاً شديداً، ولكنهم تغلّبوا عليه وتمكّنوا من قتله[74].

وقد شجعت هذه الانتصارات ميسرة المطغري على التقدم نحو أفريقية للقضاء على عبد الله بن الحبحاب، والذي بدأ استعداداته لمواجهة المتمردين فأستدعى حبيب بن أبي عبدة الفهري من صقلية[75]، وأرسل قواته المتواجدة في القيروان تحت قيادة خالد بن حبيب الفهري، لوقف زحف المتمردين، وتمكّنت هذه القوات من إصابة المتمردين إصابات بليغة في واقعة قرب

(68) ابن عبد الحكم: 293. ابن عذاري: 1/ 52.
(69) ينظر: سالم: 2/ 301، 302.
(70) ابن عبد الحكم: 293. الرقيق القيرواني: 110. ابن عذاري: 1/ 53. سالم: 2/ 304.
(71) ابن عبد الحكم: 293. الرقيق القيرواني: 109. ابن الأثير: 5/ 191.
(72) ابن خياط: 2/ 376. أخبار مجموعة: 28.
(73) ابن عبد الحكم: 293. ابن عذاري: 1/ 52. السلاوي: 1/ 108.
(74) ابن عبد الحكم: 293.
(75) الرقيق القيرواني: 109. ابن عذاري: 1/ 53.

وادي شلف مما اضطرت ميسرة إلى سحب قواته والتراجع[76]، مما أنكره عليه أصحابه، فأتمروا به وقتلوه، ونصبوا عليهم خالداً بنَ حميد الزناتي[77]، وحاول خالد بن حبيب الفهري استغلال هذه الظروف، فواصل التقدم لاستخلاص مدينة طنجة، ولكنه فوجئ بجموع كثيفة للمتمردين تحت قيادة خالد الزناتي فثبت لهم وقاتلهم قتالاً ضارياً انتهى باستشهاده ومعظم جنده في واقعة أَطلَق عليها المؤرخون اسم واقعة الأشراف[78].

وإزاء هذه التطوّرات، ولكي يمنع ابنُ الحبحاب المتمردين من استثمار انتصاراتهم، فقد سارع بإرسال قوة قادها عبد الرحمن بن المغيرة العبدي، دخلت مدينة تلمسان، وتتبّع عناصر الشغب بها وأقرّ أمورها، ولكنه اضطر إلى مغادرتها أمام سخط سكانها عليه نتيجة تحريض وَالِيها السابق[79].

وخلال هذه الأثناء، وصل حبيب بن أبي عبدة من صقلية، فأمره ابن الحبحاب بالمرابطة على وادي شلف، ويبدو أن أحداث مدينة تلمسان كان من الأهمية، بحيث اضطرّته إلى دخولها، والعمل على توطيد النظام فيها، فقبض على واليها السابق موسى بن أبي خالد، فأنزل به عقوبة المفسدين بعد أن ثَبَت تحريضه وشغبه للخروج على السلطة[80]، ثم عاد مرابطاً على وادي شلف يستطلع أخبار وتحركات المتمردين[81].

ولم يستمر ابن الحبحاب بعد هذه الانتكاسات طويلاً، فقد استدعي من قبل دار الخلافة[82]، فغادر المغرب، واختير بدلاً منه:

---

(76) الرقيق القيرواني: 110. ابن عذاري: 1/ 53. ابن الأثير: 5/ 192. وابن عبد الحكم: 294 وروايته مضطربة الأحداث.

(77) الرقيق القيرواني: 110. ابن الأثير: 5/ 192. وينظر: ابن عبد الحكم: 294.

(78) الرقيق القيرواني: 109، ابن الأثير: 192، ابن عذاري: 1/ 53.

(79) ابن عبد الحكم: 294. ابن خياط: 2/ 369.

(80) ابن عبد الحكم: 294. وينظر: ابن خياط: 2/ 369.

(81) سعد زغلول: 1/ 292.

(82) ابن عبد الحكم: 294. الرقيق القيرواني: 111.

ـ كلثوم بن عياض القشيري سنة 123هـ/ 741م:

ووقع على عاتق كلثوم مهمة استرداد ما فقدته الخلافة، جرّاء تمرّدات الخوارج وغيرهم، ولكي يحقق كلثوم هدفه، فقد استنفرت له قوات كبيرة بلغ تعدادها السبعين ألف مقاتل[83]، ومنحت له صلاحيات واسعة في البلاد، التي مرّ بها[84]، وعَيّن له نائبين: الأول: ٱبن أخيه بلج بن بشر، والثاني: ثعلبة بن سلامة[85]، إضافة إلى عدد من المستشارين والعارفين بأحوال المغرب العربي ومنهم مثلاً: هارون القرني، ومغيث الرومي[86]. ودخلت هذه القوات المغرب العربي في شهر رمضان سنة 123هـ/ تموز 741م، وتجنب دخول القيروان، ونزل في سبيبة على مسافة يوم منها[87].

ولم تكن قيادة هذه الحملة بالمستوى المطلوب من السياسة والمرونة، فبدلاً من تخفيف وطأة الهزيمة المُرّة في واقعة الأشراف، ٱقترف كلثوم ونوّابه أموراً عملت فِعلَها في تصدّع الجبهة الداخلية، فقد طلب نائبه وٱبنُ أخيه بلج بن بشر من أهل المغرب بأن لا يغلقوا أبوابهم حتى يعرف أهلُ الشام منازلهم مع كلام يغيظهم فيه[88]، وسعى في أكثر من موقف إلى إثارة الأحقاد، فبعث حبيب بن أبي عبدة الفهري رسالة قاسية إلى كلثوم يشكو صنيع ٱبن أخيه بأهل البلاد[89]، ورغم اعتذار كلثوم، إلاَّ أنه عاد وشتم حبيباً الفهري واستصغره عند أول لقاء بينهما، وتمادى ٱبن أخيه بلج في الحط

(83) أخبار مجموعة: 31. وينظر: ابن عذاري: 1/ 54 و55. وعن القوات المشاركة في هذا الجيش، ينظر: سعد زغلول: 1/ 293 و294.
(84) الرقيق القيرواني: 112. ابن الأثير: 5/ 192. ابن عذاري: 1/ 54.
(85) أخبار مجموعة: 30 و35.
(86) أخبار مجموعة: 31.
(87) ابن عبد الحكم: 295. الرقيق القيرواني: 112. وينظر تعليل حسين مؤنس لهذا الإجراء في كتابه: فجر الأندلس: 172.
(88) الرقيق القيرواني: 112. ابن عذاري: 1/ 54. ابن الأثير: 5/ 192.
(89) الرقيق القيرواني: 112. ابن الأثير: 5/ 192.

منه[90]، وكاد القتال يقع بين الطرفين، لولا الجهود المضنية التي بُذِلت لتهدئة النفوس[91].

وإذا تمكّن كلثوم من تهدئة الحالة مؤقّتاً، فإنه لم يتمكن من حالة التداعي النفسي التي أصابت المقاتلين، بل لم يتحرر هو نفسه من هذه الحالة عندما ظل حانقاً على حبيب بن أبي عبدة، ورفض خطته التعبوية قبل الشروع في القتال، بٱعتباره خبيراً بقتال المتمردين[92]، ومال إلى رأي ٱبنِ أخيه بلج وخطته العقيمة والخالية من معالجة الاحتمالات المتوقَّعة خلال المعركة، وكأنه حسم المعركة لصالحه منذ البداية[93].

وفي بقدورة الواقعة على نهر سبو وقعت في سنة 123هـ/ 741م معركة شديدة بين الطرفين، وأنشبت سير المعركة فشل الخطة العسكرية وعدم جدواها في مقاتلة قوات المتمردين من الصفرية[94]، فقد تمكّنت هذه القوات من شلّ حركة الفرسان، وعزلها عن القوة الرئيسية، وبدأت قواتهم الكثيفة من المشاة تضغط ضغطاً شديداً على الأجنحة، مما سبب ارتباكاً واضحاً في صفوفها، أعقبه تراجع غير منظّم انتهى بكارثة، وخسارة فادحة لحقت الجيش العربي، بعد استشهاد القائد الأعلى كلثوم، ومعظم قادة الجيش ومنهم: حبيب بن أبي عبدة، ومغيث الرومي، وسليمان بن أبي المهاجر دينار. وهارون القرني[95]. وارتدت قوات المشاة إلى القيروان، في حين تمكّنت قوات الفرسان، وفيهم بلج بن بشر وعبد الرحمن بن حبيب، من

---

(90) ينظر: ابن عبد الحكم: 95. الرقيق القيرواني: 113. ابن الأثير: 5/ 192 و193.

(91) ابن عبد الحكم: 295. الرقيق القيرواني: 112.

(92) ابن عبد الحكم: 295. ابن الأثير: 5/ 193.

(93) أخبار مجموعة: 32.

(94) يشير ابن عبد الحكم: 296 إلى ذلك بقوله: «أرسل - يعني كلثوم - إلى حبيب بن أبي عبدة فقال: إن أمير المؤمنين أمرني أن أُوَلِّيك القتال، وأعقد لك على الناس، فقال حبيب: قد فات الأمر!».

(95) ابن عبد الحكم: 296. أخبار مجموعة: 232. ابن عذاري: 1/ 55.

الالتجاء إلى مدينة سبتة[96]، ثم جوازهم إلى الأندلس واشتراكهم في إخماد التمردات القائمة هناك نتيجة انتصار المتمردين في بلاد المغرب.

وكان رد فعل الخلافة سريعاً، فما إن وصلت أنباء هذه الهزيمة المروِّعة إلى دمشق، حتى أصدر الخليفة هشام مرسوماً خلافيّاً بتعيين حنظلة بن صفوان ـ والي مصر ـ والياً على المغرب، وقائداً عاماً للقوات العسكرية فيه، وأمدّه بجيش كبير، حُدِّدت مهمته بمعالجة حالة التردّي والقضاء على المتمردين والخارجين على السلطة المركزية[97].

ـ ولاية حنظلة بن صفوان:

دخل حنظلة المغرب العربي في ربيع الآخر سنة 124هـ/ 742م واستقر في القيروان، وبدأ يستعد لمواجهة المتمردين الذين انتظموا تحت قيادة زعيمين من زعمائهم هما: عبد الواحد بن يزيد الهواري، وعكاشة بن العرب الفراري، وزحف الاثنان من الزّاب بٱتجاهين مختلفين وهدفهما واحد، وهو دخول مدينة القيروان، فزحف عكاشة على طريق مجانة، فنزل القرن[98]، وأخذ عبد الواحد الهواري على طريق الجبال فنزل موضعاً يعرف بطساس[99]، وكانت جموعهما كبيرة جدّاً، وأمام حراجة الموقف، رأى حنظلة مهاجمة قوات عكاشة قبل اجتماعه مع قوات عبد الواحد الهواري، فزحف إليه وٱلتقوا بِٱلقرن في قتال شديد، انتهى بهزيمة عكاشة وانكسار عسكره بعد أن تكبدوا خسائر فادحة[100]. وعلى إثر هذا الانتصار عاد حنظلة

(96) ابن عبد الحكم: 296. ابن عذاري: 1/ 55.

(97) يبدو غضب الخليفة هشامٍ واضحاً لهذه الهزيمة بمقولة نُسِبت إليه وذكرها صاحب أخبار مجموعة: 36.

(98) الرقيق القيرواني: 116. وينظر: ابن عذاري: 1/ 58.

(99) الرقيق القيرواني: 116. وينظر: ابن الأثير: 5/ 193.

(100) الرقيق القيرواني: 116. ابن عذاري: 1/ 58، ويجعل ابن عبد الحكم: 299. معركة الأصنام قَبل معركة القرن.

إلى مدينة القيروان[101]، فأخرج ما بها من الأسلحة والعدة، وفرَّقه بين المقاتلين والمتطوعين[102]، بعد أن بلغته أخبار عبد الواحد الهواري والجموع الكثيفة التي انضوت تحت لوائه حتى بلغت قواته الثلاثمائة ألف أو تزيد[103]، واستعد الطرفان للواقعة الحاسمة[104]، وفي موضع الأصنام على ثلاث أميال من القيروان دارت رحى معركة شديدة، ثبتت لها قوات حنظلة ثباتاً منقطع النظير، وتمكّنت في النهاية من أنتزاع نصْرٍ صعبٍ كانت نتائجه حاسمة بعد تدمير معظم قوات المتمردين من الصفرية[105]، ومقتل عبد الواحد الهواري وملاحقة فلولهم حتى جلولاء[106]، وتمكّنت بعض سرايا الجيش من القبض على عكاشة وأقتياده إلى حنظلة، حيث أمر بإعدامه[107].

وتفرّغ حنظلة بن صفوان بعد هذه الانتصارات لإصلاح ما أفسده المتمردون، فنظم إدارة البلاد، ووطّد أمنها، ولما كانت الأندلس تجوز فترة من فترات الاضطراب[108]، فقد انتدب حنظلةُ أحدَ مشاهير الرجال وهو أبو الخَطّار الحسام بن ضرار الكلبي وأقرّه والياً عليها سنة 125هـ/ 743م. وبدأ أبو الخطار بإجراءات سريعة وحازمة من شأنها إعادة النظام والاستقرار إلى الأندلس، فتابع الرؤوس المثيرة للشغب، وأبعد الزعماء المتصارعين عن البلاد، وفرّق قواتهم في الأقاليم، وقد أصابت إجراءاته هذه عبد الرحمن بن

(101) وأراد الاعتصام بالمدينة لحين وصول مدد الخلافة لضخامة قوات المتمردين من الصفرية لكنه عَدَل عن رأيه وقرر دخول المعركة الحاسمة. ينظر: الرقيق القيرواني: 116.
(102) الرقيق القيرواني: 118. ابن عذاري: 1/ 51.
(103) الرقيق القيرواني: 118. ابن عذاري: 5/ 194.
(104) تنظر رواية الرقيق: 119 و120.
(105) كانت خسائر المتمردين أكثر من 180 ألف قتيل.
(106) ينفرد الرقيق القيرواني من دون المؤرخين بذكر تفاصيل أخبار المعركة ـ ينظر الصفحات: 119 ـ 122.
(107) الرقيق القيرواني: 122. ابن عذاري: 1/ 59. ابن الأثير: 5/ 194.
(108) ينظر: ابن الأثير: 5/ 251 وما بعدها.

حبيب الذي غادر الأندلس، ونزل مدينة تونس في جمادي الأولى سنة 126هـ/ 744م[109].

ـ سيطرة عبد الرحمن بن حبيب على ولاية المغرب:

دخل اَبن حبيب مدينة تونس، ودعا إلى نفسه، فاَلتَف حوله الكثير من المؤيدين[110]، وقد تهيأت لاَبن حبيب عوامل مكّنته بالتالي من طرد حنظلة بن صفوان والتغلّب على ولاية المغرب، فشهرة الفهريين، وزعامتهم للعرب البلديين. واَطمأن العرب البربر من جبال أوراس لزعامة هذا البيت[111]، إضافة إلى كونه فارساً مشهوراً، ومقاتلاً جريئاً، وخطيباً مفوّهاً[112]، مع استغلال للظروف التي سادت مركز الخلافة الأموية، واَضطراب أحوال المشرق بفعل نشاط الدعوة العباسية، وعجز الإدارة الأموية عن إقرار الأمور في أكثر من ولاية. كل هذه العوامل جعلت عموم أهل المغرب مستعدين لتقبّل هذا الحدث، والذي يُعَدّ في حقيقته انقلاباً على السلطة المركزية في البلاد، ولم يكن أمام حنظلة إلاّ استخدام السياسة لإقناع اَبن حبيب وثنْيه عن هدفه لتجنّب الفتنة والعودة إلى حضيرة الولاء والطاعة، في وقت كانت به قوات المتمردين من العنصرية تتربص لاَستغلال أي فرصة لتنال ثأرها من حنظلة وقواته، فوجّه إليه جماعةً من وجوه أهل أفريقية والقيروان قِيل إنهم خمسون شخصاً[113]، ليدعونه إلى نبذ الخلاف[114]، ولكن اَبن حبيب واجه

---

(109) ابن الأثير: 5/ 311. السلاوي: 1/ 117. وينظر: الرقيق القيرواني: 123. وابن عذاري: 1/ 60، حيث تاريخ نزوله سنة 127هـ.

(110) الرقيق القيرواني: 123.

(111) كانت أُمّة منهم.

(112) ابن الأبار: الحلة السيرة: 2/ 342.

(113) ابن عبد الحكم: 200، ويُفهَم من روايته أن الرسل كانوا على اتفاق مع عبد الرحمن بن حبيب، وأنهم نكثوا عند سماعهم بتولية الخليفة مروان بن محمد، وهم يهمّون بدخول مدينة تونس، فحاولوا العودة إلى القيروان، ولكن ابن حبيب تمكّن من القبض عليهم وإيداعهم السجن. والرواية لا تخلو من اضطراب.

(114) الرقيق القيرواني: 124. ابن الأثير: 5/ 311. ابن عذاري: 60.

عزيمة الوالي بعمل مضاد أفقده بالتالي ورقته الوحيدة في مناورته السياسة، وأضاع منه كُلَّ أمل في الحفاظ على مركزه في البلاد، فقد عمد ٱبن حبيب إلى سجن الرّسُل الذين أرسلهم حنظلة، وأوثقهم في الحديد[115]، وزحف بقواته يريد مدينة القيروان، وعسكر في موضع يقال له سبخة سجوم[116]، ومن هذا المكان أرسل إلى حنظلة بن صفوان كتاباً تضمّن:

1 ـ إخلاء القيروان خلال ثلاثة أيام[117].

2 ـ عدم السماح لحنظلة، بالتصرف في أموال بيت المال، إلاَّ فيما يستحقه من العطاء[118].

3 ـ تهديده بقتل الرهائن من وجوه القوم، إن تعرضت قواته المتقدمة لٱحتلال القيروان، لأي مقاومة مهما كانت ضعيفة، وهدد بقوله: «إن رماني أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم[119].»

4 ـ منع الناس من تشييع الوالي حنظلة عند مغادرته مدينة القيروان[120].

ولم يكن أمام حنظلة إلاَّ الٱستسلام للأمر الواقع، فٱضطر إلى مغادرة مدينة القيروان في جمادى الأخرة سنة 127هـ/ 745م ليدخلها عبد الرحمن بن حبيب معلناً قيام ولايته[121].

ولإسباغ الشرعية على حُكْمه، فقد أرسل بيعته إلى الخليفة مروان بن

---

(115) الرقيق القيرواني: 124. ابن الأثير: 5/ 311.

(116) ينظر الرقيق القيرواني: 123. سعد زغلول: 1/ 314. الهامش رقم «9».

(117) ابن عبد الحكم: 300.

(118) ابن عبد الحكم: 301. وذكر الرقيق 124: أن حنظلة أخذ ألف دينار فقط وأشهد على ذلك القاضي وجماعة من أهل الفضل. وينظر أيضاً: ابن عذاري: 1/ 60.

(119) الرقيق القيرواني: 124. وينظر: ابن الأثير: 5/ 311. ابن عذاري: 1/ 60.

(120) الرقيق القيرواني: 124. ابن عذاري: 1/ 60. السلاوي: 1/ 117.

(121) ابن عبد الحكم: 301. الرقيق القيرواني: 124. وينظر: ابن الأثير: 5/ 312.

محمد، كما أوقف الخليفة على الأسباب الداعية لطرد حنظلة من ولاية المغرب، وهي أسباب وصفها الرقيق بقوله: «وتَقَوّل على حنظلة، ونَسَبَ إليه أهوالاً كَذِب فيها[122]».

وعلى أية حال فقد استطاع ٱبن حبيب من تحقيق أهدافه التي طالما سعى لتحقيقها، وحصل على إقرار الخليفة الرسمي بتوليه المغرب العربي، والحقيقة أن ٱبن حبيب لم يكن بحاجة إلى هذا الإقرار، فقد ٱغتصب الولاية اغتصاباً، وأصبح أميراً مستقلاً عن سلطة الخلافة المركزية[123]، ولكنه كما قلنا أراد أن يسبغ على حكمه شرعية تدعيم سلطانه ومشاريعه في المغرب العربي، ويحفظ بها صلته ويسدَّ البابَ أمام منافسيه الطامعين في الولاية[124].

ـ الأوضاع الداخلية:

فقدت الدولة الأموية في عصر عبد الرحمن بن حبيب جميع مظاهر القوة والنفوذ، ولم يبقَ من نفوذها إلاَّ الولاء المعنوي والدعاء للخليفة في خطبة الجمعة والمناسبات الدينية الأخرى، وقد شجعت هذه الأوضاع القوى المتواجدة في البلاد للنزوع نحو الٱستقلال في مواطن نفوذها، وتوزعت تلك القوة بين أفراد طموحين، طمعوا في حكم مدينة، أو السيطرة على منطقة معيَّنة، إلى جماعات كانت تسعى إلى تأسيس كيان لها حسب مبادئ عملت لأجلها سنوات عديدة، ورسختها لدى جموع كبيرة من الأنصار والمؤيدين.

فبعد فترة وجيزة من تولية عبد الرحمن بن حبيب الولاية، عمّت البلاد حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، وقامت التمردات في مدن عديدة، فقد قام أبو عطاف عمران بن عطاف الأزدي في المناطق الساحلية[125] ما بين

(122) تاريخ أفريقية والمغرب: 129.
(123) سالم: 2/ 323.
(124) دبوز: 2/ 404.
(125) الرقيق القيرواني: 125 و126. ابن عذاري: 1/ 61.

سوسة وسفاقس[126]، وٱتخذ من طيفاس[127] مركزاً لتمرّده. وٱستولى عروة بن الوليد الصدفي على مدينة تونس. وقام ثابت بن وزيدون الصنهاجي بحركة تمرّد واسعة عمّت المناطق الجبلية، وانتهت بتغلّبه على مدينة باجة[128]، مما دفع عبد الله بن سكرديد، أحد رؤساء قبيلة صنهاجة، إلى إعلان العصيان والانضمام إلى حركته[129]. وتمرّد في الأربس محمد بن حميد الغافقي[130]. وفَقَدت معظم المناطق الخاضعة لإقليم طرابلس أَمْنَها واستقرارها، بسبب الدعوة الخارجية وحركات التمرد المتوالية التي كانت تحت قيادة زعمائهم. وكان على ٱبن حبيب الذي لم يتبق له من النفوذ في وقت من الأوقات إلاّ القيروان أن يناضل نضالاً متواصلاً لكبح جماح تلك التحديات الخطيرة على كيانه الفتي[131].

بدأت العمليات العسكرية مبكرة وسريعة، وكانت قواتها من خيرة الفرسان وعلى قيادتها إلياس بن حبيب[132] ـ أخو عبد الرحمن ـ وتعددت ردود الفعل بين استخدام العنف والشدة، إلى اتباع سياسة المداراة والمصانعة لفتِّ وحدة الجموع المتمردة، وعزل الأنصار عن زعمائهم.

وينفرد الرقيق القيرواني بذكر تفصيلات الحملات الأولى والخطط العسكرية التي وضعها عبد الرحمن، ونفذها أخوه إلياس بكل دقة للقضاء على المتمردين في المدن المهمة، مما حقق له نصراً حاسماً في أقصر مدة وأقل جهد، وخططه تقوم في جانب من جوانبها على مبدأ الخدعة ومباغتة

---

(126) سعد زغلول: 1/ 317.

(127) ابن الأثير: 5/ 312. وعند الرقيق: 126. «لمساس».

(128) الرقيق: 126، ابن عذاري: 1/ 261، ابن الأثير: 5/ 312.

(129) ابن خلدون: 6/ 111.

(130) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 343.

(131) سعد زغلول: 1/ 317.

(132) الرقيق القيرواني: 126.

المتمردين حيث يقول: «دعا عبد الرحمن أخاه إلياس فقال له: ٱمضِ في ستمائة فارس حتى تمرَّ بعسكر ٱبن عطاف الأزدي، فإذا تراءت له خَيْلُك فأظهر أنك تزهق عنه إلى تونس حتى إذا انتهيت إلى موضع كذا وكذا فقف، حتى يأتيك جاسوس أدسه في عسكر ٱبن عطاف، فخرج إلياس، ودعا عبد الرحمن برجل فأعطاه أطماراً. . . وكتاباً، وقال له: ٱمْضِ حتى تدخل عسكر ٱبن عطاف فإذا أشرف عليهم إلياس ورأيتهم تداعوا بالسلاح فأقم فيهم، فإذا زهق إلياس عنهم، ووضعوا السلاح. . . تسلَّلْ حتى تأتيَ إلياس في مكان كذا وكذا، فقد أمرته أن يقف لك هنالك، فمضى الرجل حتى دخل عسكر ٱبن عطاف، فلما طلع إلياس عليهم صاحوا بالسلاح، ثم زهق إلياس عنهم، فقالوا: وقد دخل بين لحيي الأسد، نحن من هنا وأهل تونس من هناك، نستريح ونعلف، ثم نزحف إليه على أثره. ونزل القوم عن الخيل، وحطوا السلاح وتضجعوا، وٱنسلّ الرجل إلى إلياس حتى جاءه في المكان الذي أمره عبد الرحمن أن يقف فيه، فدفع إليه الكتاب، فإذا فيه: إن القوم قد أمنوا، فٱنسل إليهم حتى تخرج من كثب وهم في غفلتهم. فتخلل إلياسُ الأشرافَ حتى خرج عليهم، فلم يدرك القومُ لِبْسَ الدروع، وكان همّهم أخذ السيوف، فقُتِلوا وقُتِل ٱبن عطاف[133].

وعندما وصلت أخبار تمكّن إلياس من ٱبن عطاف وعسكره إلى القيروان، كتب إليه عبد الرحمن يأمره بمباغتة عروة بن الزبير المتمرد بمدينة تونس[134]، فمضى إلياس حتى أصبح دون تونس، ولغرض إيهام المتمردين وتشتيت قواتهم، جعل إلياس قواته ثلاث مجاميع، كل مجموعة من مائتي فارس، واتخذت كل مجموعة من هذه المجاميع طريقاً من الطرق المؤدية

---

(133) الرقيق القيرواني: 126 و127.

(134) قال الرقيق: 127: كتب إليه عبد الرحمن «إن عروة بن الزبير، وأهل تونس سيظنّون أنّا نغتنم هذا الفتح، فإذا جاءك كتابي فانزل واسترح واعلف، ثم سر إلى تونس، فإن قدرت أن تصبح عليهم فافعل، فإني لا أشك أنهم في غفلة.».

إلى مدينة تونس: فكانت المجموعة الأولى على طريق الجزيرة، والثانية على طريق باجة، والثالثة ـ وفيها إلياس بن حبيب ـ على طريق القيروان، ورغم تمكّن المتمردين من كشف تقدم المجموعتين الأولى والثانية في وقت مبكر، إلاّ أنهم حسبوها مدداً وعوناً لهم من أهل الجزيرة ومدينة باجة، ولم يتحسسوا الخطر المحدق بهم، إلاّ بعد أن تراءت لهم قوات المجموعة الثالثة المتقدمة على طريق القيروان(135). وقد اقتحمت هذه المجاميع مدينة تونس وأخذت المتمردين على حين غرّة، ونالت منهم منالاً ممضًا، وكان بين القتلى زعيمهم عروة(136).

ولبث إلياس ردحاً من الوقت في مدينة تونس منشغلاً بتنظيم إدارة المدينة، التي أفسدتها الاضطرابات، ومنتظراً لأوامر جديدة(137).

والمصادر لا تسعفنا بالكثير من الأحداث اللاحقة ـ باستثناء أحداث مدينة طرابلس ـ وما يذكره ٱبن الأبّار عن تمرد ثابت الصنهاجي في باجة، ومحمد بن عمرو بن حميد الغافقي في الأربس، وكان خروجهما على السلطة في وقت واحد فحاربهما عبد الرحمن بن حبيب فٱنهزما بين يديه(138)، ولا نعرف عن مصير ثابت الصنهاجي أكثر من هذا، وأما محمد فقد هرب إلى مدينة طنجة، ثم قُبِض عليه، وعلى أخيه سليمان(139)، وأُودِعا سجن القيروان، وظلاّ سجينين حتى أَطلق سراحهما إلياس عند تولّيه أمر المغرب(140).

وإذا تمكّنت قوات ٱبن حبيب من تجاوز مثل هذه التحديات، وبٱقتدار

(135) الرقيق القيرواني: 127.
(136) الرقيق القيرواني: 127 و128.
(137) الرقيق القيرواني: 129.
(138) الحلة السيراء: 2/ 344.
(139) وصفه ابن الأبار في الحلة السيراء: 1/ 82 بقوله: «فارس المغرب العربي، وكان عارفاً بأيام العرب وأخبارها وأشعارها، وخاصمه عبد الرحمن بن حبيب، فسجنه».
(140) ابن الأبار: الحلة السيراء: 1/ 82 و2/ 344.

عالٍ، فإن إقليم طرابلس ظل يناوئ السلطة، ويتحدى قواتها، وبدا خروجهم بشكلٍ يهدد كيان الفهريين عندما قبض إلياس بن حبيب والي طرابلس سنة 129هـ/ 748م على زعيم المتمردين عبد الله بن مسعود التجيبي متهماً إيّاه بإثارة الفِتَن وأعمال الشغب فأعدمه[141]، معتقداً بأن نهاية التمرد في هذا الإقليم مرهونة بقتل زعيمهم المذكور.

ولكن أنصاره جابهوا فِعْلَة إلياس بتحشيد قواتهم واختيار عبد الجبار بن قيس المرادي زعيماً عليهم والحارث بن تليد الخضرمي نائباً ومساعداً له[142]. وحاول عبد الرحمن معالجة سقطة أخيه إلياس بالسياسة، فعزله عن ولاية طرابلس، وعيّن مكانه حميد بن عبد الله العكيّ[143]، وحاول ترضية بعض زعمائهم، وانتدب لهذه المهمة بشر بن حنش القيسي وجماعة من شيوخ طرابلس، لتسوية الأمر سلميّاً، ولكن سياسته هذه باءت بالفشل الذريع، فقد أقدم المتمردون على قتل رسله جميعاً[144]، وكان هذا العمل بداية لسلسلة من أعمال العنف، والحروب الطاحنة بين الطرفين.

وعاجل المتمردون بإشعال نار الحرب، فهاجموا حميد بن عبد الله العكي وحاصروه في إحدى القرى فترة طويلة، حتى ساءت أحوال قواته، وتفشى بينهم مرض الطاعون، مما اضطره إلى مفاوضتهم، فمنحوه وقواته الأمان بشرط الإجلاء عن مدينة طرابلس[145]. وقد كان هذا النصر حافزاً في توسيع دائرة نفوذهم فدخلوا في معارك عديدة مع قوات ابن حبيب[146]،

(141) ابن عبد الحكم: 301. وينظر: الزاوي: وُلاة طرابلس، ط. 1970، ص 39.

(142) ابن عبد الحكم: 301. وينظر الرقيق: 129.

(143) ابن عبد الحكم: 301. الزاوي، ولاة طرابلس: 44. وتاريخ الفتح العربي في ليبيا: 129.

(144) الرقيق القيرواني: 128.

(145) ابن عبد الحكم: 301. وقد قَبَض الأباضية على نصير بن راشد أحد أصحاب حميد العكي وقتلوه ثأراً لزعيمهم عبد الله بن مسعود.

(146) ابن عبد الحكم: 301، 302.

وتمكّنوا من تحقيق تقدم كبير ما بين مناطق سرت وقابس[147]، وباتت وكأن مقدّرات إمارة الفهريين مرهونة بالقضاء على هذه الحركة الانفصالية الواسعة. ولما لم يتمكّن أبن حبيب منهم بقوة السلاح لجأ إلى أسلوب الخديعة، فدس على زعيمهم الحارث بن تليد، ونائبه عبد الجبار بن قيس جماعة من أتباعه في طرابلس قتلوهما في دار الندوة، وجعلوا لكل منهما سيفاً مقبضه إلى جهة الآخر ليوهموا عامة الناس أنهما تقاتلا، فقتل كل منهما صاحبه[148].

وإن كانت بعض المصادر تنكر هذه الرواية وتؤكد على أن الحارث بن تليد، ونائبه عبد الجبار اختلفا في أمر الولاية فأحتكما إلى السيف فقتل كل منهما الآخر[149].

وعلى كل حال فقد هيأت هذه الحادثة، وما أعقبها من اختلاف ظرفاً مناسباً لأبن حبيب، فسارع إلى مهاجمة إسماعيل بن زياد النفوسي خليفة الحارث، وتمكّن من الإجهاز عليه قرب مدينة قابس، ثم أعقب انتصاره هذا بدخول مدينة طرابلس دون مقاومة تذكر[150]. وعاقب المتمردين عقاباً شديداً، ونَكّل بمن تم القبض عليه تنكيلاً كان مثار سخط العديد من فقهاء المغرب ومؤرّخيهم، وعَدُّوه ضرباً من ضروب الانتقام الوحشي[151].

وبالقضاء على هذه الحركة يكون أبن حبيب قد انهى فصلاً من فصول النضال المرير في سبيل تثبيت أركان ولايته.

مما جعل قيادتها تتجه بأنظارها إلى المناطق الغربية من الولاية في

(147) سالم: 2/ 326. دبوز: 25/ 412.

(148) ابن عبد الحكم: 302. الشماخي: سير علماء جبل نفوسة: 125، الذي ينقله سعد زغلول: 1/ 322، الهامش (41).

(149) هذا ما يُفهَم من قول الشماخي.

(150) ابن عبد الحكم: 302.

(151) الرقيق القيرواني: 129.

محاولة لاْستعادة وحدة البلاد، وإيقاف حالة التردي التي أصابت المغرب العربي نتيجة عزوف معظم القبائل عن الرضوخ لأوامر السلطة المركزية، بعد أن عادت سيرتها الأولى في التأقلم والاستقلال ضمن مناطق نفوذها.

ففي سنة 135هـ/ 753م[152] جاست قواته البرية إقليم تلمسان[153]، واْصطدمت مع تجمعات القبائل التي تزعمها الصقر بن أيوب الفزاري، فتمكّنت من قتله، وتشتيت جموع قواته[154].

ثم قصدت التجمعات التي كانت تحت قيادة ستيمان بن ذواق المرعبي، فاجتاحت مناطق نفوذها، وأجبرتها على الارتداد بعيداً[155].

وباْستثناء أخبار الحملتين السابقتين، فلا نكاد نقف إلاَّ على نصوصٍ عامة تومِئ عن حملات أخرى بعثها اْبن حبيب باْتجاهات مختلفة، ويشير الرقيق القيرواني إلى ذلك بقوله: «ودَوَّخ المغرب كلَّه وأذلّ من به من القبائل، ولم يُهزَم له عسكر، ولا رُدّت له راية، وتداخل جميع أهل المغرب خوفه والحذر من سطوته.»[156]

وأما عن نشاط القوات البحرية، فاْبن عذاري يحدثنا عن قيام القوات بعمليات عسكرية ناجحة ضد جزيرتي صقلية وسردينية، وإشارات إلى بعوث قصدت بلاد (الإفرنجة)[157] ورغم قصور رواية اْبن عذاري واْختصارها الشديد، وإسقاط قادتها، فإن جزيرة صقلية وسردينية، كانتا ومنذ تأسيس مدينة تونس هدفاً للأسطول العربي يوجه إليهما الضربات متى ما وجدت القيادة في ذلك ضرورة إلى مثل هذه الضربات.

---

(152) في تاريخ خليفة بن خياط: 2/ 417 في شهر رمضان سنة 130هـ.

(153) الرقيق القيرواني: 130. ابن عذاري: 1/ 65.

(154) ابن خياط: 2/ 417 و418.

(155) ابن خياط: 2/ 418. سعد زغلول: 1/ 325.

(156) تاريخ أفريقية والمغرب: 130. ابن عذاري: 1/ 61. ابن الأثير: 5/ 313.

(157) البيان المغرب: 1/ 61.

ففي سنة 135هـ/ 753م هاجم الأسطول العربي جزيرة صقلية وعادت مراكبه سالمة بعد أن حقق كافة أهدافه[158].

وأما جزيرة سردينية فقد نالها الأسطول بهجمات موجعة، أجبرتها على دفع جزية سنوية[159].

ـ اغتيال عبد الرحمن بن حبيب والصراع على السلطة:

ولم يستمر عبد الرحمن بن حبيب طويلاً في ولايته، فسوء العلاقة بينه وبين الخلافة العباسية، وخلعه الخليفة، أبا جعفر المنصور[160]، وولايته العهد من بعده لأبنه حبيب[161]، إضافة إلى عوامل أخرى[162]، جعلت أبناء الأسرة الواحدة ينقسمون على أنفسهم ويأتمرون للإطاحة ببعضهم حتى انتهت بأغتيال عبد الرحمن سنة 137هـ/ 757م (اغتاله أخواه إلياس وعبد الوارث)[163] وبأغتياله، وتولية إلياس، بدأت صفحة الصراع العنيف التي لفّت أسرة الفهريين في المغرب، وساقت كيانهم إلى حتفه.

ـ ولاية إلياس بن حبيب:

تولى إلياس الإمارة، وبايع الخليفة أبا جعفر المنصور[164]، ولكن الأمور لم تخلص له، فقد تمكّن ولي العهد حبيب بن عبد الرحمن من الهرب والاحتماء بعمّه عمران بن حبيب عامل مدينة تونس، وبدأ يعدّان العدّة لمقاومة قوات إلياس التي باشرت بالزحف نحو تونس، وبدلاً من حسم الأمور بين الطرفين عن طريق القتال، انتهى الأمر بينهما إلى حلّ

(158) ابن عذاري: 1/ 65. ابن الأثير: 5/ 313 و456.
(159) ابن عذاري: 1/ 65. ابن الأثير: 5/ 313.
(160) تنظر التفاصيل لدى الرقيق القيرواني: 133. ابن عذاري: 1/ 67. ابن الأثير: 5/ 314.
(161) الرقيق القيرواني: 134. ابن عذاري: 1/ 67.
(162) ينظر: الرقيق القيرواني: 134، وما بعدها. ابن الأثير: 5/ 314.
(163) الرقيق القيرواني: 135. ابن الأثير: 5/ 314.
(164) الرقيق القيرواني: 139.

قُسّمت بموجبه ولاية المغرب بحيث تكون:

- تونس، وصطفورة، والجزيرة، لعمران بن حبيب.
- قفصة، وقسطيلية، ونفزاوة، لحبيب بن عبد الرحمن.
- وسائر البلاد، لالياس بن حبيب، إضافة إلى احتفاظه بمنصب الولاية(165).

وكان هذا الاتفاق حسب قول ابن الأثير سنة 138هـ/ 758م(166).

ولكن إلياس لم يلتزم طويلاً بهذا الاتفاق، ويبدو أنه قصد من ورائه فض قوات منافسيه أولاً، ثم الانقلاب عليهم، فالمصادر التاريخية تشير إلى أنه دخل مدينة تونس مع أخيه عمران ثم قبض عليه وعلى آخرين من الفهريين فأخرجهم إلى الأندلس، ونَصّب - محمداً بنَ المغيرة عاملاً عليها(167).

كما أجبر حبيباً على مغادرة البلاد، واللحاق بالأندلس، وأرسل حميته أخاه عبد الوارث(168). وتظاهر حبيب بتنفيذ الأمر، وفي ذهنه خطة لاستعادة الولاية من عمّه إلياس، فأرست مراكبه في طبرقة، وقيل إن الرياح أجبرته على ذلك، وعندما علم إلياس بالخبر، أرسل عامل طبرقة سليمان بن زياد الرعيني، ليمنع حبيب ومن معه من النزول إلى البر، ولكن حبيب تمكّن من تطويق عامل المدينة، والقبض عليه وإيداعه السجن(169)، وزحف حبيب بمن

---

(165) الرقيق القيرواني: 137. ابن الأثير: 5/ 314.

(166) الكامل: 5/ 314.

(167) الرقيق القيرواني: 137. ابن عذاري: 1/ 68. وفي الكامل، لابن الأثير: 5/ 314، أن إلياس قتل أخاه عمران واستخلف منه مدينة تونس.

(168) الرقيق القيرواني: 137 و138. والنفي: «وانصرف - يعني إلياس - إلى القيروان فبلغه عن حبيب أخبار كرهها، فأغرى الناس للقيام عليه فيما يتزود به من ضياع أبيه، وأرسل إليه من زيَّن له الخروج إلى الأندلس إرادة الراحة منه، ففعل وجهزه إلياس، فوجّه معه شقيقه عبد الوارث ومن أحب مواليه.» وينظر: ابن عذاري: 1/ 68.

(169) الرقيق القيرواني: 138. ابن عذاري: 1/ 68 و69.

تجمّع حوله من الأنصار والمؤيدين فدخل مدينة الأربس[170]، وحاول إلياس من جانبه إيقاف تقدمه فوقعت بين الطرفين مناوشات خفيفة توقفت عند حلول الليل[171]. فأشعل حبيبٌ نيراناً كثيفةً ليوهم عمّه إلياس بالإقامة ثم سرى تحت جُنُح الظلام نحو جلولاء فسيطر عليها[172]، ومنها نفذ إلى القيروان، فدخلها بعد القضاء على حاميتها[173].

وقد شعر إلياس قبل غيره بفداحة نتائج الخدعة التي خُدِع بها، فما إن تواترت أخبار سيطرة حبيب على مدينة القيروان، حتى بدت عوامل التخاذل واضحة على قوات إلياس، فتسلل قائدَا الميمنة والميسرة: عمرو بن عثمان الفهري، وأبو شريك الجزري، وانفض عنه معظم مؤيّديه[174]، وعندما شارفت قواته مدينة القيروان، كانت معنويات قواته قد هبطت كثيراً ودَبّ بينهم الخلاف وبدت تشكيلات وكأنها متحمسة للقتال، وزاد حبيب الأمر اضطراباً على عمّه إلياس، عندما طلب منه إنهاء النزاع عن طريق المبارزة الشخصية بينهما[175]، ولم يجد إلياس من خيار غير الموافقة، فتبارزا فقَتَل حبيب عمه إلياس في رجب سنة 138هـ/ 758م[176] وعلى إثر ذلك هرب عمه عبد الوارث مع ثلة من الجند إلى ورفجومة، واحتموا بعاصم بن جميل الذي رفض تسليمهم إلى حبيب[177]، فوقع الصدام بين الطرفين وانتهى بالتجاء

(170) الرقيق القيرواني: 138. ابن عذاري: 1/ 69. وعند ابن الأثير: 5/ 315، ملك مدينة تونس.

(171) الرقيق القيرواني: 138. ابن عذاري: 1/ 69.

(172) ابن عذاري: 1/ 69.

(173) الرقيق القيرواني: 138: دخل القيروان وأطلق سراح أخيه عبد السلام وأنصاره ولده عبد الرحمن.

(174) الرقيق القيرواني: 138: وينظر: ابن عذاري: 1/ 69، والنص: «ففسد عليه من كان معه».

(175) وردَّ الرقيقُ القيرواني تفاصيلَ الرواية في كتابه: تاريخ أفريقية والمغرب: 138.

(176) الرقيق القيرواني: 139. ابن عذاري: 1/ 69.

(177) الرقيق القيرواني: 140. وينظر: ابن الأثير: 5/ 315.

حبيب إلى مدينة قابس[178]، وبدلاً من أن يلاحق عاصمُ بنُ جميل حبيباً ويهاجمه في مدينة قابس، تركه خلف ظهره وقصد مدينة القيروان، وتظاهر بالدعوة للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور[179]، ويبدو أن أساس هذه الخطة العسكرية والتظاهر بالدعوة للخلافة العباسية، كانت من اصطناع عبد الوارث بن حبيب، وبقية اللاجئين لدى عاصم بن جميل، وكان وقع هذه الدعوة سيئاً للغاية، فبينما كان أبو كريب جميل قاضي القيروان ونائب حبيب عليها يستعد لمقاومة قوات عاصم بن جميل، ظهرت بين أهل القيروان دعوة لمسالمة زعيم ورفجومة عاصم بن جميل ما دام هدفه من هذه الحركة الدعوة للخلافة العباسية[180]. وظل أبو كريب مع ألف من أصحابه المخلصين من أهل الدين والتقوى وتعاقدوا على الثبات والصمود بوجه القوات الغازية، وكانوا عند عهدهم فقاتلوا قتالاً باسلاً حتى استشهد معظمهم في مكان بظاهر القيروان أَطلق عليه المؤرخون فيما بعد بوادي أبو كريب سنة 139هـ/ 756م[181] ودخلت قوات عاصم بن جميل مدينة القيروان، وبعد أن أراح فترة استخلف عليها عبد الملك بن الجعد[182]، وخرج بقواته لمحاربة حبيب في قابس فدارت بين الطرفين معركة شديدة ارتد على إثرها حبيب وأعتصم بجبال أوراس[183]، حيث تمكّن من إعادة تنظيم قواته، والقيام بهجوم مقابل انتهى بأنتصاره، ومقتل عاصم بن جميل[184]. وعندما زحف يريد استخلاص مدينة القيروان، انكسر أمام قوات عبد الملك بن الجعد،

(178) الرقيق القيرواني: 140. ابن الأثير: 5/ 316. ابن عذاري: 1/ 70.

(179) الرقيق القيرواني: 140. ابن عذاري: 1/ 70.

(180) الرقيق القيرواني: 140. ابن عذاري: 1/ 70. السلاوي: 1/ 122.

(181) الرقيق القيرواني: 140. وينظر: المالكي: 1/ 102 و107.

(182) الرقيق القيرواني: 140. ابن الأثير: 5/ 316. ابن عذاري: 1/ 70.

(183) الرقيق القيرواني: 141. ابن الأثير: 5/ 316. السلاوي: 1/ 122.

(184) الرقيق القيرواني: 141. ابن الأثير: 5/ 316.

وسقط شهيداً في ميدان المعركة في محرم سنة 140هـ/ 757م[185].

وتفردت ورفجومة في حكم القيروان[186]، وأتوا أعمالاً خارجة عن حدود الشرع[187]، فلجأ سكانها إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المتغلب على معظم إقليم طرابلس بعد أن استبطأوا مدد الخلافة العباسية، فخرج أبو الخطّاب بقوات من قبائل هوارة وزناتة، واستولى على مدينة طرابلس بعد أن أخرج واليها عَمْرا بنَ عثمان الفهري[188]، وتوجه يريد القيروان، وفي مكان قريب منها وقعت بينه وبين قبائل ورفجوفة معركة قتل فيها قائدهم أبو الجعد وأُبيدت معظم قواته، وانتهت بدخوله مدينة القيروان سنة 141هـ/ 758م[189].

ـ ولاية محمد بن الأشعث وجهوده في استعادة المغرب:

وإذا كانت المدينة قد تخلّصت من سيطرة قبائل ورفجومة وزعيمهم أبي الجعد، فقد وقعت هذه المرة بأيدي أنصار الخارج على السلطة المركزية أبو الخطاب والذي أسند ولايتها إلى صاحبه عبد الرحمن بن رستم[190]، وخرج هو بقواته إلى مدينة طرابلس استعداداً لمواجهة قوات الخلافة العباسية، التي بدأ محمد بن الأشعث والي مصر يرسلها لمواجهة الخارجين على السلطة، وإعادة المدن التي سقطت بأيديهم.

---

(185) الرقيق القيرواني: 141. ابن الأثير: 50/ 316. ابن عذاري: 1/ 70.

(186) الرقيق القيرواني: 141. ابن عذاري: 1/ 7. ابن الأثير: 5/ 336.

(187) قال الرقيق القيرواني: 141: «... ودخلت ورفجومة القيروان، فاستحلّوا المحارم وارتكبوا العظائم، ونزل عاصم بعسكره في الموضع الذي يُمَسى «مصلّى روح»... وقتلوا من كان بها من قريش وساموهم سوء العذاب، وربطوا دوابهم في المسجد الجامع...» وينظر: ابن الأثير: 1/ 316 و317. ابن عذاري: 1/ 70 و71. السلاوي: 1/ 122.

(188) الرقيق القيرواني: 142. ابن عذاري: 1/ 71. السلاوي: 1/ 123.

(189) ابن عذاري: 1/ 71. ابن خلدون: 6/ 112. السلاوي: 1/ 123.

(190) ابن عذاري: 1/ 71.

وقد تمكّن أبو الخطاب بن السمح من هزيمة قوتين لأبن الأشعث في منطقة سرت سنة 142هـ/ 759م[191]، وأمام الهزائم التي منيت بها القوات العباسية أصدر الخليفة أبو جعفر المنصور مرسوماً خلافيّاً بتعيين محمد بن الأشعث والي مصر، والياً على المغرب وقائداً عامّاً لجيوشها، فخرج على رأس جيش قُدّر بأربعين ألف مقاتل فيهم عدد كبير من القادة المبرزين أمثال[192]: الأغلب بن سالم، والمخارق بن غفار الطائي، وفي الجانب الآخر استعد أبو الخطاب بن السمح استعداداً عالياً، حتى قيل إن عدد القوات التي عُبِئت لدخول المعركة كانت بحدود المائتي ألف مقاتل[193]، بحيث كانت هذه الجموع الهائلة سبباً في تعديل خطة أبن الأشعث فأبطأ في المسير كثيراً، وغرضه خلق الملل في صفوف قوات الطرف المضاد، وتحقق له ما كان يبغيه، فقد نفد صبر هذه الجموع، وتنازعوا بينهم، فقد اتهم الزناتية أبا الخطاب بالمحاباة لبني جلدته من هوارة، فانفصلوا عنه، وعادوا إلى مواطنهم[194]. وعندها جَدّ أبنُ الأشعث في المسير، والتَقى في أوائل سنة 144هـ/ 672م بقوات أبي الخطاب في منطقة سرت في موضع يُعرف بورداسة.. وبعد قتال شديد بين الطرفين، تمكّنت قوات أبن الأشعث من قتل أبي الخطاب وإبادة معظم قواته وارتداد فلول المنهزمين منهم إلى مدينة قابس[195].

---

(191) كانت القوة الأولى بقيادة العزم بن عبد العزيز البجلي، والقوة الثانية بقيادة أبي الأحوص العجلي حيث تمكّن أبو الخطاب من قطع خطوط مواصلاته في منطقة مغمداش وتكبيده خسائر فادحة، واضطر إلى الانسحاب نحو مصر.
ينظر: ابن عذاري: 1/ 71. سعد زغلول: 1/ 343. والهامش رقم (13).

(192) كان عدد القادة ثمانية وعشرين قائداً. ينظر ابن عذاري: 1/ 72. وقارن: ابن الأبار؛ الحلّة السيراء: 1/ 19.

(193) ابن عذاري: 1/ 72.

(194) ابن عذاري: 1/ 72. ابن خلدون: 6/ 112.

(195) ابن عذاري: 1/ 72. وينظر: سعد زغلول: 1/ 345.

وأعقب ابن الأشعث هذا الانتصارَ بانتصار آخر حققه على زناتة[196]، وكانوا تحت لواء أبي هريرة الزناتي[197]. ولم يتمكّن عبد الرحمن بن رستم من القيام بعمل مضاد، فهرب من القيروان، واستقر في منطقة تاهرت في المغرب الأوسط[198]. وأرسل ابن الأشعث سنة 145هـ/ 763م قوة من الفرسان جاست زويلة وودان، وأخمدت ما أثاره المتمردون فيها من الفتن والاضطرابات[199].

ورغم الانتصارات التي حققها ابن الأشعث فإن نفوذ السلطة المركزية لم يكن ليتعدى القيروان، مع اعتصام المتمردين في مناطق امتدت من «طرابلس إلى تامسنا (بلاد برغواطة، في المغرب الأقصى شمالاً، ومن صحراوات فَزّان إلى صحراوات سجلماسة جنوباً، بمعنى أن بلاد القيروان أصحبت أشبه ما تكون بجزيرة وسط بحر من الأعداء...»[200]

وقد دعى ابن الأشعث ذلك، فبدأ بتحصين مدينة القيروان، تحسُّباً لأيّ طارئ قد تتعرض له في المستقبل[201]، ولكن ابن الأشعث لم يتمكّن من إنجاز كافة مهماته في البلاد، فقد انقلب عليه كبار قواده وحاصروه بمدينة القيروان حتى أجبروه على التنازل سنة 148هـ/ 765م[202]، فعاد إلى المشرق وحسمت دار الخلافة تلك المنازعات بتعيين:

---

(196) وقدر ابن عذاري: 1/ 72. قوّتهم بستة عشر ألف مقاتل.

(197) ابن عذاري: 1/ 72.

(198) ابن عذاري: 1/ 72. وتنظر رواية الشماخي، سعد زغلول: 1/ 346، الهامش رقم (24).

(199) ابن عذاري: 1/ 73.

(200) سعد زغلول: 1/ 346.

(201) ابن عذاري: 1/ 73. السلاوي: 1/ 128. «شرع في بنائه في ذي الحجة منه سنة 145هـ وتَمّ في رجب سنة 146هـ.».

(202) تمرّد عليه عيسى بن موسى بن عجلان في جماعة في قواده، فأخرجوه من القيروان في ربيع الأول سنة 148هـ. ينظر: ابن عذاري: 1/ 73. والسلاوي: 1/ 128.

ـ الأغلب بن سالم:

الذي تمكّن بعد جهود مضنية من القضاء على عناصر الشغب، وقرار الأمور، ثم تفرغ بعدها، لأبي قرة المغيلي الصفري وقواته، فتمكّن من هزيمته سنة 150هـ/ 767م[203]. وعندما عزم الأغلب على ملاحقته ومهاجمته في عقر داره في تلمسان وطنجة، امتنعت عليه فصائل كثيرة من قواته ورفضت الاستمرار في التقدم معه، وتسللت مجاميع كبيرة منهم إلى مدينة تونس، في حين عاد بعضهم إلى مدينة القيروان، حيث قبضوا على نائب الأغلب فحبسوه[204]، وبدا وكأن الأمر مدبَّر من قِبَل والي تونس الحسن بن حرب الكندي، الذي أعلن تمرّده، وأثار الاضطراب في البلاد، ووقعت بين الأغلب والمتمردين وقائع عديدة[205]، انتهت بوفاة الأغلب بن سالم متأثراً بجراحه سنة 150هـ/ 767[206] وعمل خليفته المخارق بن غفار الطائيّ على ملاحقة الحسن الكندي، حتى ظفر به، وقتله في نفس السنة[207].

ـ عمر بن حفص المهلبي:

وكان عمر رجلاً شجاعاً وبطلاً مقداماً[208]، عركته الأحداث والنوائب، ولأجل ذلك قدَّمه الخليفة المنصور، ليقر الأمن في المغرب العربي، بعد أن عمت التمردات معظم أقاليمه، وليعيد وحدة القوات العسكرية التي تزعزعت كثيراً في عهد أسلافه.

والظاهر أن ما عُرِف به عمر من الشجاعة والحكمة، إلى جانب الشهرة الواسعة التي كانت تتمتع بها أسرته، كان كافياً لأن يفرض سلطانه على

---

(203) ابن عذاري: 1/ 74. ابن الأثير: 5/ 586. السلاوي: 1/ 128.

(204) ابن عذاري: 1/ 74. ابن الأثير: 5/ 587.

(205) ابن عذاري: 1/ 74 و75، ابن الأثير: 5/ 587.

(206) ابن الأثير: 5/ 587. ابن عذاري: 1/ 75.

(207) ابن عذاري: 1/ 77.

(208) الملقّب بهَزَارمَرْد: «الألف رجل».

الجميع، إذ دخل مدينة القيروان في صفر من سنة 151هـ/ 768م، وتسلم مقاليد الولاية دون حدث يذكر، فاستقامت له البلاد بعدها فترة جاوزت الثلاث سنوات[209]، وكانت هذه المدة كافية لأن تتجمع لديه معلومات وافية عن قيادات التمرد ومراكز نفوذها[210]، وبدأ العمل عندما دخل مدينة طبنة قاعدة إقليم الزاب لتحصينها وجعلها مركزاً للانطلاق بأتجاه محاور المتمردين في المغرب الأوسط، حيث يتواجد عبد الرحمن بن رستم وأتباعه من الإباضية في منطقة تاهرت، والخوارج الصفرية في إقليم تلمسان، والمغرب الأقصى، حيث قامت دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة[211].

وقد تنبّه زعماء التمرد، وفي وقت مبكر، إلى خطط الوالي وأهدافه، فأشعلوا نيران الفتنة في معظم أقاليم البلاد، وتداعوا إلى بعضهم البعض، ففي منطقة تاهرت قام عبد الرحمن بن رستم، وقامت زناتة بقيادة أبي قرة المغيلي في إقليم تلمسان، وتمرد أبو حاتم يعقوب بن حبيب في إقليم طرابلس، وأعلن عاصم السدراتي عصيانه في إقليم القيروان، كما تمرد عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي، وآخرين غيرهم[212].

وحاول حبيب بن حبيب المهلبي نائب الوالي عمر على مدينة القيروان القضاءَ على المتمردين في المناطق القريبة من القيروان، لكنه قُتِل في ميدان المعركة، وارتدت قواته إلى القيروان، ولم يتمكّن والي طرابلس الجُنَيد بن سيّار الأزدي من الصمود أمام جموع أبي حاتم طويلاً، رغم الإمدادات التي وصلته من مدينة طبنة، فأضطر إلى الانسحاب، والاعتصام بمدينة قابس[213] وحاول عمر بن حفص إنقاذ قواته المحصورة في قابس، فسيّر سليمان بن

(209) سعد زغلول: 1/ 351.
(210) ينظر: ابن عذاري: 1/ 75.
(211) سالم: 2/ 351.
(212) ابن عذاري: 1/ 75. وينظر: ابن الأثير: 5/ 598.
(213) ابن عذاري: 1/ 75. ابن الأثير: 5/ 598 و599. السلاوي: 10/ 130.

عباد المهلبي، ولكن سليمان ارتد بقواته إلى القيروان بسبب الضغط الشديد الذي لقيه من قوات أبي حاتم[214].

وكانت لهذه الانتصارات صداها لدى زعماء التمرد، فتعاقدوا فيما بينهم على استئصال سلطان الوالي عمر بن حفص بعد أن استنزفوا معظم قواته، ويكاد يجمع المؤرخون على أنه تجمّع لحصار مدينة طبنة وقوات عمر بن حفص ما يقارب الاثنا عشر جيشاً[215]، ومجموع قواتها أكثر من خمسة وسبعين ألف مقاتل[216]، أما عمر بن حفص فلم تكن قواته لتتجاوز الخمسة عشرَ ألف مقاتل[217]، فأعمل الحيلة على تشتيت هذه القوات، فأغرى بعض القيادات بالمال، فتفرقت معظم قواتهم[218]، وتهيأت له ظروف مناسبة، فهاجم عبد الرحمن بن رستم المرابط بتهوذه، لإمداد قوات المتمردين فهزمه هزيمة نكراء، فهرب إلى تاهرت[219]، وعاد ابن حفص إلى القيروان، فشحنها بالطعام والمؤن استعداداً لحصار طويل الأمد[220].

وعادت قوات المتمردين فأحاطت بمدينة القيروان وحاصرتها حصاراً شديداً وتضمنت قوات المتمردين كثيراً بمن انضم إليها استعداداً لاجتياح المدينة ونهبها حتى بلغ عددهم المائة والثلاثين ألفاً[221]، كانت قوات أبي

---

(214) ينظر سعد زغلول: 1/ 353.

(215) ابن الأثير: 5/ 599. ابن عذاري: 1/ 75.

(216) كان أبو قرة المغيلي في أربعين ألفاً، وعاصم السدراتي في عدد جاوز الستة آلاف، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً، والمسور الزناتي في عشرة آلاف، وابن سكرديد في ألفين، وأبو حاتم في عدد كبير، وآخرون غيرهم. ينظر: ابن عذاري: 1/ 75.

(217) ابن عذاري: 1/ 75.

(218) تفاصيل ذلك في تاريخ أفريقية والمغرب، للرقيق القيرواني: 143. وينظر: ابن عذاري: 1/ 76.

(219) الرقيق القيرواني: 143.

(220) الرقيق القيرواني: 143، ابن عذاري: 1/ 76.

(221) الرقيق القيرواني: 144، ابن عذاري: 1/ 76.

حاتم من بينها من أكثر القوات وطأة على المدينة، واستمر الحصار طويلاً، حتى ضاق الحال بالمحاصرين إضافة إلى قلّة المؤن والطعام، فخرج ابن حفص مع ثلّة من خيرة فرسانه فقاتلوا قتالاً باسلاً حتى استشهدوا في ذي الحجة سنة 155هـ/ 771م[222]، وبايع الناس أخاه لأمّه جميلاً بنَ صخر[223]، وإزاء الأوضاع السيئة وندرة الأقوات، اضطر جميل إلى مفاوضة أبي حاتم، وعُقِد اتفاق بينهما، تعهد بموجبه أن يتم إخلاء مدينة القيروان بشروط منها:

- الاحتفاظ بشعار الدولة المتمثل بالرايات والملابس السوداء، وأن لا يُجبَروا على خلع طاعة الخلافة العباسية.
- الاحتفاظ بأسلحتهم، وأن لا يُكرِهوا أحداً من أهل القيروان على بيع سلاحه أو فرسه.
- اعتبار كل دم أصابه الجند من أنصار أبي حاتم وغيرهم من حلفائه هدراً[224].

وعلى هذه الشروط وغيرها اتفق الطرفان، فانسحبت معظم القوات العربية من القيروان إلى مدينة طبنة[225]، فدخلها أبو حاتم فأحرق أبواب المدينة، وهدم تحصيناتها، وأجلى عدد كبيراً من سكانها[226]، ورغم ذلك فقد كانت البقية الباقية من السكان مبعث جزع لأبي حاتم ونائبه على المدينة عبد العزيز بن السمح المعافري، فما أن تواترت الأنباء بتقدم يزيد بن حاتم المهلبي على رأس جيش حوى أكثر من ستين ألف مقاتل، حتى أصدر

---

(222) خرج ابن حفص عندما بلغه قدوم يزيد بن حاتم على رأس جيش تعداده ستين ألف مقاتل لإنجاده، ورغم أن يزيد أحد قرابته إلاّ أن ابن حفص قال: «لا خير في الحياة بعد أن يقال: يزيد أخرجه من الحصار، إنما هي رقدة وأُبعَث إلى الحساب.» ينظر: الرقيق القيرواني: 146. ابن عذاري: 1/ 76.

(223) الرقيق القيرواني: 146. ابن عذاري: 1/ 76: «ابن حفص» خطأ، وجميل بن صخر أخوه لأمه.

(224) الرقيق القيرواني: 146 و147. ابن الأثير: 5/ 600. ابن عذاري: 1/ 76 و77.

(225) الرقيق القيرواني: 147. ابن عذاري: 1/ 77.

(226) الرقيق القيرواني: 147. ابن عذاري: 1/ 77.

أوامره إلى نائبه المذكور بنزع السلاح من سكان القيروان، وتفريق تجمعاتهم مما أثار غضباً شديداً لديهم وعَدُّوا هذا الإجراء خروجاً سافراً على مبادئ الاتفاق[227]، فمالوا إلى عمرو بن عثمان الفهري فٱختاروه رئيساً لهم[228]. وعلقوا الثورة في المدينة وطردوا منها نائب أبي الحاتم وقواته، بعد قتال شديد[229]. وعاد أبو حاتم أدراجه لٱستعادة القيروان، فدخلها بعد قتال، انسحب على أثره عمرو بن عثمان إلى تونس[230]، فأرسل أبو حاتم في أثره قوة على رأسها قائده حريز بن مسعود المديوني، وفي موضع جيجل من ناحية كتامة، دارت بين الطرفين واقعة انهزمت على إثرها قوات أبي حاتم، بعد أن قُتِل قائدها حريز، وواصل عمرو بن عثمان حتى دخل مدينة تونس، فتحصّن بها في حين تمكّنت القوات العربية التي خرجت من القيروان بقيادة جميل بن صخر من التوجه شرقاً، والٱنضمام إلى قوات يزيد بن حاتم[231].

وبعد أن أصلح أبو حاتم ما فسد عليه في مدينة القيروان عاد كرّة أخرى نحو مدينة طرابلس لمواجهة قوات يزيد بن حاتم، وآثر أن يُعسكِر في منطقة جبلية وعرة، فٱختار جبل نفوسة، وبدات المعارك، وكانت شديدة على الطرفين تبادلا فيها عناصر الصمود والارتداد، وانجلت أخيراً عن انتصار حاسم لقوات يزيد بن حاتم، بعد قتل أبي حاتم الأباضي وعدد من قادته، وآلاف من أنصاره[232]، وانتشر قِلٌّ مِمّن بقي منهم تطاردهم قوات يزيد حتى أفنوا معظمهم[233].

(227) الرقيق القيرواني: 147.

(228) وكان خلال فترة الصراع يميل إلى جانب المتمردين، فانقلب عليهم وتولى قيادة الثائرين على أبي حاتم ونائبه في مدينة القيروان.

(229) الرقيق القيرواني: 148. ابن عذاري: 1/ 277. ابن خلدون: 6/ 113.

(230) الرقيق القيرواني: 148. ابن الأثير: 5/ 601.

(231) الرقيق القيرواني: 148.

(232) قُدِّروا بثلاثين ألفاً، حسب رواية الرقيق.

(233) الرقيق القيرواني: 160 و161. ابن الأثير: 5/ 601.

وهكذا نجح في ربيع الأول من سنة 155هـ/ 772م في القضاء على أخطر أوسع تمرّد شهدته البلاد بعد أن عاش بأمنها سنوات عديدة.

دخل يزيد بن حاتم مدينة القيروان في جمادي الآخرة من السنة المذكورة، وبدأ تتبعه لبعض المتمردين، فأصابت قواته عبد الرحمن بن حبيب المعروف بالصقلبي[234] المتمرد بقلعة جيجل، فحوصر، واضطر إلى الهرب سنة 156هـ/ 773م بعد أن فقد معظم مؤيديه[235].

وتمكّنت قوة أخرى سنة 157هـ/ 774م من القضاء على أيوب الهواري زعيم قبائل ورفجومة في إقليم الزاب[236].

وهاجم عبد الله بن السمط الكندي تجمعات الخارجين على السلطة في طرابلس وانتصر عليهم انتصاراً أعجزهم عن التمرد سنين عديدة[237].

وبهذه الحملات المتواصلة تمكّن يزيد بن حاتم من إقرار السلام في البلاد طيلة فترة ولايته، مما هيأ له التفرغ للأعمال الإدارية والعمرانية وإصلاح ما أفسدته الاضطرابات والفتن.

فعمر مدينة القيروان، وجدد المسجد الجامع بها، وزاد فيه زيادات كبيرة[238]، وأصبحت مدينة القيروان في عهده محط أنظار العلماء والشعراء، واهتم بتنظيم النشاط الاقتصادي، فرتّب أسواقها، وجعل لكلّ حرفة سوقاً جامعة لها، واهتم بالزراعة اهتماماً خاصّاً[239].

توفي يزيد بن حاتم في سنة 170هـ/ 788م، وناب عنه في الولاية ولده داود، الذي قضى فترة نيابته في القضاء على تمردات الإباضية في مدينة

---

(234) هو حفيد عبد الرحمن بن حبيب مؤسس إمارة الفهريين سنة 127هـ.

(235) الرقيق القيرواني: 161. ابن عذاري: 1/ 79. واسم القلعة عنده «حجاب بجبل كتامة».

(236) الرقيق القيرواني: 161. ابن الأثير: 5/ 602 «سنة 164هـ».

(237) ابن عذاري: 1/ 79.

(238) الرقيق القيرواني: 162. ابن عذاري: 1/ 79.

(239) ينظر: سعد زغلول: 1/ 366، 368.

باجة، واستمرت نيابته مدة تسعة أشهر[240]، عندما وصل عمّه روح بن حاتم والياً على المغرب.

ـ روح بن حاتم:

اتبع روح بن حاتم سياسة أخيه يزيد، فحصّن المدن المهمة، وشحنها بالرجال والعدة، ونظم الإدارة، وأشاع الهدوء، وقرَّب العلماء، وأهل الرأي والمشورة[241]، وعمل على مهادنة بعض خصوم الولاية التقليديين فوادع عبد الرحمن بن رستم، حاكم تاهرت، وحسَّن علاقته بالآخرين[242].

ولم يعمّر روح بن حاتم طويلاً فتوفي سنة 173هـ/ 791م، وخلفه في الولاية ولده:

ـ الفضل بن روح[243]:

والذي لم يكن بمستوى سابقيه من الحكمة والدراية، فٱضطربت الأحوال في المدن المهمة، ولم يكن مصدر هذه الاضطرابات هذه المرة من الخوارج أو حلفائهم، وإنما كان مصدرها جند الولاية، وركوب بعض القادة المغامرين موجة هذه الاضطرابات، فالرقيق القيرواني ينص على أن أسباب الاضطراب والتمرد في مدينة تونس يعود إلى سوء سياسة واليها المغيرة بن بشر بن روح ـ ٱبن أخي الفضل ـ فقد كان على حد قوله: «غرّاً لا تجربة له بالأمور، فاستخف بِٱلجِدّ، وسار فيهم بغير سيرة من تقدمهم، ووثق أن عمَّه لا يعزله، هذا على ما في قلوبهم على الفضل من أشياء قد أنكروها

(240) ابن عذاري: 1/ 82.

(241) الرقيق القيرواني: 173.

(242) الرقيق القيرواني: 173.

(243) تولى ابنُ حبيب المُهَلّبي الولاية بعد وفاة رُوْح بن حاتم بعهد غير معلن من هارون الرشيد، في رواية طويلة ذكرها الرقيق القيرواني، ولكنّ الفضلَ راجع الرشيدَ في الأمر فأمّره على المغرب بدلاً من نصر بن حبيب. ينظر: تاريخ أفريقية والمغرب: 182، 183.

أقلها استبداده بداية دونهم، فاجتمعوا، وكتبوا كتاباً إلى الفضل يخبرونه بسوء صنيع المغيرة لهم، وقُبْح سيرته فيهم، فتثاقل الفضل عن جوابهم»[244]، فٱجتمعوا على قائد منهم ٱسمه: عبد الله بن الجارود، وأعلنوا التمرد على الفضل، وسار بجموعهم نحو القيروان، ورغم أن قوات الفضل تمكّنت من ردّهم إلاّ أن ٱبن الجارود أعاد تنظيم قواته فأعاد الكرة وهاجم القيروان ودخلها في جمادى الآخرة سنة 178هـ/ 794م[245]. وأمر ٱبن الجارود بنفي الفضل إلى مدينة قابس ثم أعاده تحسّباً لأي عمل مضاد قد يصدر من جانبه، ثم أمر بقتله للتخلص منه نهائياً[246]، وبمقتل الفضل بن روح، دخلت البلاد في أقوى الصراعات العنيفة بين قوات المتمردين، وقوات السلطة المركزية، التي نازعت قوات المتمردين على مدينة القيروان لتمهد الطريق أمام الوالي الجديد هرثمة بن أعين والذي عسكر بمدينة برقة انتظاراً لنتائج الصراع، وانتهى الصراع بدخول قوات الخلافة مدينة القيروان، بعد أن غادرها ٱبن الجارود، حتى لقي هرثمة بن أعين في إقليم برقة، فوجّهه مخفوراً إلى الخليفة هارون الرشيد[247].

ـ هرثمة بن أعين:

دخل هرثمة بن أعين مدينة القيروان في ربيع الآخر من سنة 179هـ/ 795م، وقام خلال ولايته القصيرة بجملة أعمال أشهرها بناء القصر الكبير «المنستير» سنة 180هـ/ 976م، وبناء سور مدينة طرابلس المواجه للبحر[248]. إضافة إلى إخماد بعض التمردات التي قامت في عهده. والمصادر تشير بعد

(244) تاريخ أفريقية والمغرب: 186.

(245) ابن عذاري: 1/ 88. وينظر: الرقيق القيرواني: 188 وما بعدها.

(246) ابن عذاري: 1/ 88.

(247) لَقِيَه في أجدابية فوجّهه إلى منصور بن زياد إلى برقة، ومن ثُمَّ أُرسِل إلى الخليفة هارون الرشيد. ينظر: الرقيق القيرواني: 202.

(248) الرقيق القيرواني: 203. ابن عذاري: 1/ 89.

ذلك إلى طلبه الاستعفاء من الولاية، فأعفاه الخليفة الرشيد سنة 181هـ/ 797م[249].

ـ محمد بن مقاتل العكي:

كانت ولايته في شهر رمضان من سنة 181هـ/ 797م، ولم يكن ابن مقاتل في مستوى الأحداث، فساءت مسيرته، وَقُبحت أعماله[250]، وتأخر في العطاء وضيّق على جنده[251]، وكادت مأساة الفضل بن روح تتكرر ثانية لولا تدخّل إبراهيم بن الأغلب، وذوده عن الوالي ابن مقاتل حفاظاً على استمرار السلطة المركزية في البلاد[252].

فقد تمرّد عليه مخلد بن حرة الأزدي[253]، ولكن ابن مقاتل تمكّن من القبض عليه وقتله[254]. وتمرّد أبو الجهم تمام بن تميم ـ ابن عم إبراهيم بن الأغلب ـ عامل مدينة تونس في رمضان سنة 183هـ/ 799م فهاجم القيروان، واجتاح تحصيناتها ودخلها وحصر ابن مقاتل في داره، ثم إنه أمَّنه على دمه وأهله وحاله بشرط مغادرة البلاد، فخرج ابن مقاتل إلى مدينة طرابلس، ومكث فيها يراقب الأحداث[255].

وقد أثار هذا الوضعُ القائدَ إبراهيم بن الأغلب عاملَ الزّاب، فجمع قواته وتوجه إلى القيروان، يروم قتال ابن تميم، ولكن الأخير غادرها منسحباً

(249) قال الرقيق القيرواني: 203: «. . . وواتر الكتب إلى هارون الرشيد في الاستعفاء من أفريقية لِمَا رأى من الاختلاف بها وسور طاعة أهلها، فكتب إليه هارون الرشيد بالقُدوم إليه فرجع في أول شهر رمضان سنة 181هـ». وينظر: ابن عذاري: 1/ 89.

(250) قبض على عابد زمانه البهلول بن راشد، فضربه بالسياط ظلماً وحَبَسَه فكان ذلك سبب حيويته، مما أثار حفيظة العامة من السكان. ينظر الرقيق: 204 و205.

(251) الرقيق القيرواني: 205. ابن عذاري: 1/ 89.

(252) سعد زغلول: 1/ 391.

(253) الرقيق القيرواني: 205. ابن عذاري: 1/ 89.

(254) ينظر: سعد زغلول: 1/ 391.

(255) الرقيق القيرواني: 205 و206. ابن عذاري: 1/ 90.

إلى تونس، فدخلها ابن الأغلب، ورد ابن مقاتل العكي إلى ولايته[256]، رغم سخط العامة، وعدم قناعتهم بولايته عليهم[257]، مما شجع تمام بن تميم على العودة مرة أخرى، فهاجم القيروان، ولكنه تراجع أمام قوات ابن الأغلب، الذي لم يترك له خياراً بعد اندحاره، فطارده، وحاصره بتونس، حتى أجبره على طلب الأمان، والاستسلام في محرم سنة 184هـ/ 800م[258] فقبض عليه، وعلى عدد من قواده، وأُرسِلوا تحت حراسة شديدة إلى بغداد[259].

وكانت لأعمال إبراهيم بن الأغلب وخدماته العديدة لدار الخلافة - مع سوء سيرة ابن مقاتل العكي - سبباً في عزل الأخير، وتولية ابن الأغلب ولاية المغرب العربي ليبدأ عصرٌ جديدٌ، وشَدَّ ابن الأغلب إزره برجاحة عقله، وحكمته، وخبرته الطويلة، فأسس دولة ارتبطت بدار الخلافة برباط الولاء والطاعة، وكان لرجالها أعمال جهاد خالدة في جزر البحر المتوسط كما سنفصّل ذلك في موضعه.

---

(256) تنظر خطبة إبراهيم بن الأغلب، ورده لابن مقاتل في: تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني: 206 و207.

(257) تنظر عبارات الاستنكار والاستهجان في كتاب الرقيق القيرواني: 207 و208. ابن عذاري: 1/ 90 و91.

(258) الرقيق القيرواني: 209 و210. ابن عذاري: 1/ 91 و92.

(259) وعن وفاة ابن تميم تنظر رواية الرقيق القيرواني: 210 وما بعدها.

الفصل الثالث

انتشار الإسلام، والإدارة العربية

أ ـ انتشار الإسلام:

بدأ الإسلام في الانتشار في الأراضي المحررة، ومنذ وقت مبكر، فالنصوص التاريخية تشير إلى أن عمرو بن العاص عندما انتهى من تحرير إقليم برقة وطرابلس كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يعلمه بأنه قد «ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأن من قبلُ زويلة وبرقة مسلمٌ كلهم حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقرَّ معاهدهم بالجزية، وإنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عُمّاله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردّوها في الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشُر ونصف العشور ومن أهل الصلح صلحهم.»[1]

وعندما قضى عبد الله بن أبي سرح على قوات جرجير في سبيطلة، كان من نتائج هذه المعركة أن دخل في الإسلام عددٌ من زعماء القبائل البربرية ومنهم وزمان أو وزمار بن صقلاب أمير قبائل مغراوة وسائر زناتة، فيذكر ابن خلدون أن الزعيم المذكور أُسِر في واقعة سبيطلة وأُرسِل إلى الخليفة عثمان بن عفان (رض) ليرى أمره فيه فأسلم على يديه وأمّره على

(1) البلاذري: 226.

قومه للجهاد في سبيل نشر الإسلام وتحرير بلاد المغرب(2).

وتوالت الحملات العسكرية على بلاد المغرب، فكانت هذه الحملات تضم بين فرقها عدداً من الصحابة إضافة إلى التابعين، وكان هؤلاء الصحابة والتابعين من أول الدعاة الذين قاموا بجهد وافر وكبير في سبيل نشر الإسلام، وبرز دورهم واضحاً بعد تأسيس مدينة القيروان، والذين كان من بين أسباب تأسيسها نشر الإسلام وتعميم اللغة العربية في بلاد المغرب، وكان دورها في هذا الشأن كبيراً فقد سكنها العديد من الصحابة والتابعين ، وكان لهؤلاء دور في نشر الإسلام وتعليم البربر أصوله.

وتمكّن أبو المهاجر دينار من كسب قبائل أوربة إلى الإسلام، وكان المكسب ثمرة من ثمرات قيام مدينة القيروان في بلاد المغرب. ولم يكتفِ أبو المهاجر دينار بذلك، بل يسّر للمسلمين سُبُل الاستقرار في مدينة القيروان والمناطق القريبة منها، فعمّر تيكروان لتستوعب المسلمين الجدد.

وفي ولاية عقبة الثانية انتشر الإسلام في مناطق واسعة من بلاد المغرب وكان هذا الانتشار مرافقاً لخط سير حملة عقبة بن نافع الكبرى، فعقبة خلال حملته هذه لم يكتفِ بتحرير البلاد عسكريّاً، وإنما حررها معنويّاً، فدخلت قبائل كثيرة في الإسلام، وقامت المساجد في مدينة درعة، ونفيس، وإيجلي، وماسة(3)، وخلف في بعض الأقاليم جماعة من أصحابه منهم شاكر الذي أقام رباطاً حمل أسمه(4).

وعندما حوصر عقبة بن نافع الفهري في جبل درن من قبل قبائل المصامدة، نهضت قبائل زناتة المسلمة وفكّت الحصار عن عقبة وقاتلوا

(2) ابن خلدون: 2/ 107.

(3) ينظر: نهلة شهاب أحمد: المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع الفهري، رسالة ماجستير مطبوعة على آلة الكاتبة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ص: 150.

(4) ابن عذاري: 1/ 42.

المصامدة حتى أجبروهم على الارتداد أمامهم[5].

ورغم أن حملة عقبة بن نافع انتهت بأستشهاده في حدود سنة 64هـ، فهذا لا يعني أبداً ارتداد القبائل التي دخلت الإسلام، والعودة إلى سيرتها الأولى، وإنما نقف على خلاف ذلك، فسعى أبن مصاد صاحب قفصة على فك أسرى المسلمين الذين كانوا بيد كسيلة وأرسلهم إلى زهير بن قيس البلوي إلى مدينة القيروان[6].

وعندما دخل كسيلة مدينة القيروان، وجد فيها أعداداً كبيرة من المسلمين لم يكونوا من ضعفائهم كما تشير إلى ذلك بعض المصادر التاريخية، وإنما كانوا في معظمهم من السكان المغاربة الذين آثروا البقاء في المدينة بعد انسحاب زهير بن قيس إلى برقة، ومما يؤيد رأينا هذا خوف كسيلة وخشيته من المسلمين القاطنين مدينة القيروان، واضطر عندما سمع بزحف زهير بن قيس البلوي سنة 69هـ/ 688م إلى الخروج منها والمرابطة في ممّس وكانت من بين الأسباب التي دعته إلى ذلك خشيته من وثوب المسلمين عليه فيقع بين قوة زهير بن قيس وقوة المسلمين أهل القيروان[7].

وتُعتبَر أعمال حسان بن النعمان الغساني نقلة نوعية في تاريخ المغرب العربي، فإلى حسان يرجع الفضل في توطيد الأمور في بلاد المغرب، فقد تمكّن من القضاء على القوتين الكبيرتين، وهما: الروم البيزنطيين في قرطاجنة والبربر البتر في جبال أوراس، وعمَّر مدينة القيروان، وأولى مسجدها الجامع عناية كبيرة فزاد في بنائه وتزيينه[8].

وإلى حسّان يعود الفضل في إقرار الإدارة العربية في بلاد المغرب بما يتلاءم وخصوصية العهد الجديد، فدوّن الدواوين وأقرّ الجزية والخراج على

(5) ابن خلدون: 6/ 108.
(6) ابن عذاري: 1/ 29. ابن خلدون: 6/ 147.
(7) الرقيق القيرواني: 5. ابن الأثير: 4/ 108.
(8) البكري: 12.

الروم والنصارى، وأقطع البربر المسلمين الأراضي وجعلهم مسؤولين عنها مسؤولية مباشرة، وحسان أوّل من أدخل البربر في القوات العربية وبشكل منظّم، فقد انتظم في عهده اثنا عشر ألف رجل من قوات الكاهنة لمقاتلة الروم ومن كفر من البربر(9)، وقسّمهم إلى فرقتين كل فرقة كانت تضم ستة آلاف مقاتل، وجعل على كل فرقة ولداً من أولاد الكاهنة(10).

ويُعَدّ بناء مدينة تونس سنة 84هـ/ 703م من أهم الأعمال التي قام بها حسّان في بلاد المغرب، فقد أكملت مدينة تونس مهمّة القيروان في نشر الإسلام، وأمّنت سواحل البلاد ضد هجمات الروم البيزنطيين والأخطار الأخرى(11).

وقد عُمِّرت تونس بالعمائر المهمة، وقامت بها المساجد، وسكنها العديد من المسلمين، ودورها في نشر الإسلام والثقافة العربية لا يقل عن دور مدينة القيروان خلال هذه الفترة.

ولم يكن دور موسى بن نصير في نشر الإسلام بأقل من دور سابقه إن لم يكن قد فاقه في مناطق وأراضي لم تصلها القوات العربية من قبلُ، فقد حرر موسى بن نصير بلاد المغرب الأقصى، ودخل بلاد الأندلس لنشر الإسلام هناك.

ويُنسَب إلى موسى بن نصير إرساله الفقهاء لتعليم البربر أصول الشريعة الإسلامية، فالرقيق القيرواني يشير إلى ذلك بقوله: «استعمل موسى بن نصير على طنجة طارق بن زياد... وتركه بها في سبعة وعشرين رجلاً من العرب، واثني عشر ألف فارس... وكانوا قد دخلوا الإسلام، وحَسُن إسلامهم، وأمر العرب السبعة والعشرين الذين تركهم عند طارق بن زياد أن

(9) الرقيق القيرواني: 64. ابن الأثير: 4/ 172.
(10) الرقيق القيرواني: 64. ابن عذاري: 1/ 38.
(11) البكري: 38. التجاني: الرحلة: 6 و7.

يعلموا البرابرة القرآن وأن يفقّهوهم في الدين»[12].

وكان لجهود محمد بن يزيد أثر واضح في نشر الإسلام بين قبائل البربر ورسوخه في القبائل الأخرى، وقد أكمل إسماعيل بن عبد الله جهود محمد بن يزيد في ذلك، فقد أمدَّ الخليفة عمر بن عبد العزيز إسماعيل المذكور بعشرة من التابعين من أهل العلم والفضل وأمرهم أن يبذلوا جهودهم لتثقيف البربر في علوم الدين حتى يقوم إسلامهم على أساس متين. وكانت هذه البعثة تتكوّن من:

- أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي، المتوفى سنة 100هـ[13].
- وإسماعيل بن عُبَيد الأنصاري المعروف بتاجر الله، المتوفى سنة 107هـ[14].
- وأبي الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي، المتوفّى سنة 113هـ[15].
- وأبي سعيد جعفر بن عاهات بن عمير الرعين الغساني، المتوفى قريباً من سنة 115هـ[16].
- وحبان بن أبي جبلة القرشي، المتوفى سنة 125هـ[17].
- وبكر بن سواد الجذامي، المتوفى سنة 128هـ[18].
- وإسماعيل بن عبيد الله الأعور، المتوفى سنة 132هـ[19].

(12) الرقيق القيرواني: 69 و70. وينظر: ابن عذاري: 1/ 43.
(13) المالكي: 1/ 64. الدباغ: 1/ 180. ابن سعد: طبقات: 7/ 2: 200.
(14) المالكي: 1/ 69. الدباغ: 1/ 191. أبو العرب: 25.
(15) المالكي: 1/ 72. أبو العرب: 20. الدباغ: 1/ 98.
(16) المالكي: 1/ 75. الدباغ: 1/ 202.
(17) المالكي: 1/ 73. أبو العرب: 20. الدباغ: 1/ 209.
(18) المالكي: 1/ 74. الدباغ: 1/ 211.
(19) المالكي: 1/ 82.

- وأبي مسعود سعيد بن مسعود التجيبي[20].
- وموهب بن جنّي المعافري[21].
- وطلق بن جابان[22].

وقام إسماعيل بن عبيد الله بتوزيع هؤلاء التابعين في أنحاء المغرب وبفضل هؤلاء الفقهاء تعلّم أهل المغرب الحلال والحرام، ووقفوا على أصول الشريعة كما يجب أن تكون، ويشير ٱبن عذاري إلى ذلك بقوله «كان الخمر بأفريقيا حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعين فبيّنوا تحريمها»[23].

ونتج عن انتقال البربر إلى الإسلام انتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم. يشير عثمان الكعاك إلى أن تحرير العرب للمغرب يمتاز عن غيره... بأنه فَتْح ثقافيّ فقد حمل المحررون معهم اللغة والدين ممثلَيْن في القرآن الكريم الذي هو قوام دِينٍ ودستور سياسة، وبحر أخلاق، وقاموس لغة وديوان ثقافة، لذلك بُنِيَ التحرير على معطيات الثقافة العربية الإسلامية[24].

وقد قام هؤلاء التابعون بتأسيس عدد من المساجد منها على سبيل المثال: مسجد الرباطي الذي بناه أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري، وجامع الزيتونة بتونس الذي بناه إسماعيل بن عبد الله المعروف بتاجر الله. «ولقد كانت المساجدُ الأولى التي بناها المسلمون مراكزَ علمية هامة، ومعاهدَ للدرس والتحصيل قبل أن تظهر الجامعات والمدارس ففيها كان يسمع التلاميذ على أساتذتهم في الفقه واللغة والحديث والقراءات... وغيرها من الدراسات العلمية، دينية وأدبية ولغوية.»[25]

(20) المالكي: 1/ 66. أبو العرب: 21. الدباغ: 1/ 184.
(21) المالكي: 1/ 73. الدباغ: 1/ 213.
(22) المالكي: 1/ 76. أبو العرب: 20. الدباغ: 1/ 215.
(23) ابن عذاري: 1/ 48.
(24) سالم: 2/ 291.
(25) سالم: 2/ 292.

ونشهد خلال فترة القرن الثاني الهجري ثلاثة ظواهر هامة:

الظاهرة الأولى: إنشاء المساجد في عموم بلاد المغرب العربي ومنها بلاد السوس البعيدة.

الظاهرة الثانية: إرسال البعثات العلمية لتفقيه سُكّانه علوم الدين والشريعة.

الظاهرة الثالثة: الميل إلى تأسيس المساجد الخاصة، بقصد الأعمال الخيرية، ومنها على سبيل المثال مسجد الرباطي أو الحبلي، ومسجد أبي ميسرة، ومسجد محمد بن خيرون الأندلسي، وغيرها من المساجد الأخرى[26].

ولم يقتصر انتشار الإسلام على جهود الولاة، بل كان للشيوخ والفقهاء دورهم الفاعل في ذلك.

فمن المعروف أن الجيش العربي الذي دخل بلاد المغرب كان معظمه من القبائل العربية، وكان من بين رجالاته عدد ليس بالقليل من الصحابة، والتابعين[27]، ولم يكن دور هؤلاء المجاهدين مقصوراً على القتال فحسب، وإنما كانوا دعاة للإسلام، وعلماء في العلوم الشرعية منذ البداية، فقد استقر العديد منهم بأفريقية، وسكنوا القيروان، وعمروا الدُور والمساجد، وقد ذَكَرت كتب التراجم مجموعة منهم:

- الفقيه التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني المتوفى سنة 100هـ.

ولحنش المذكور نشاط جهادي واسع في بلاد المغرب والأندلس، إضافة إلى تأسيسه المساجد في الأراضي المحررة والمفتوحة.

---

(26) سالم: 2/ 293.

(27) تنظر أسماؤهم في: طبقات ابن أبي العرب: 5 وما بعدها. الدباغ: 1/ 33، 71 وما بعدها.

- وأبو يحيى عياض بن عقبة بن نافع الفهري، المتوفى سنة 100هـ[28].
- وأبو ليلى دجين بن عامر الحجري، المتوفى سنة 100هـ، وكان كاتب عقبة بن نافع الفهري[29].
- وأبو أيوب سليمان بن يسار الهلالي، المتوفى سنة 107هـ، وكان أحد الفقهاء وكان عالماً في علم الحديث[30].

ومن رجالات القرن الثاني الهجري:

- أبو منصور مولى سعد بن أبي وقاص[31].
- والمغيرة بن أبي بردة القرشي[32]، وآبنه عبد الله قاضي أفريقية.
- عمارة بن عزاب الغفاري التجيبي[33].
- وزياد بن أنعم[34].

وجميع هؤلاء من التابعين أخذوا عن الصحابة، وكانت لهم جهود مشهورة في نشر العلوم والتعريب في بلاد المغرب العربي.

وشهدت فترة عصر الوُلاة، قدوم جماعات أخرى آستقرت في بلاد المغرب سواء كانت ضمن الإمدادات التي كانت ترسلها دار الخلافة أو بدافع الحماس الديني للقيام بنشر الإسلام أو للتصدر في تدريس العلوم في مساجد البلاد.

فقد دخل خلال هذه الفترة التابعي أبو غطين الهُذلي، سكن مدينة القيروان ورُوِي عنه العلم فيها[35].

---

(28) المالكي: 1/ 79. أبو العرب: 82. الدباغ: 1/ 187.
(29) المالكي: 1/ 84. الدباغ: 1/ 190.
(30) المالكي: 1/ 95.
(31) المالكي: 1/ 94. أبو العرب: 94. الدباغ: 1/ 137.
(32) المالكي: 1/ 85. أبو العرب: 83. الدباغ: 1/ 177.
(33) المالكي: 1/ 80. أبو العرب: 88. الدباغ: 196.
(34) المالكي: 1/ 82. الدباغ: 217.
(35) المالكي: 1/ 83، أبو العرب: 87. الدباغ: 1/ 220.

وعبد الرحمن بن شفيع الشيباني، روى عنه عبد الرحمن بن أنعم وآخرون[36].

وأبو الأشعث ربيعة بن يزيد الأيادي من أهل دمشق، معدود في التابعين، وفد إلى المغرب في جيش كلثوم بن عياض سنة 123هـ، وسكن مدينة القيروان، واشتهر بكثرة الرواية[37].

ومسلم بن يسار الأفريقي عُرِف بالطنبذي سكن القيروان وتوفي بها، أخذ عنه جماعة من أهل أفريقية[38].

وأبو عمران موسى بن الأشعث البلوي، صُنِّف في علماء أفريقية وروى عنه جماعة[39].

وعمر بن راشد بن مسلم الكناني، من فقهاء القرن الثاني، سكن تونس وتوفي بها[40].

وأبو معمر عبّاد بن عبد الصمد التميمي من أهل البصرة، فقيه تابعيّ، سكن القيروان، ومات بقسطيلية، واشتهر بكثرة الرواية[41]. وعكرمة مولى عبد الله بن عباس، سكن القيروان ودرس بجامعها، وكان مشهوراً بعلوم التفسير[42].

ويحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري، دخل المغرب أوائل القرن الثاني للهجرة، وكان عاملاً للخليفة عمر بن عبد العزيز على الصدقات، سمع منه أهل تونس والقيروان ومات سنة 143هـ ببغداد[43].

---

(36) المالكي: 1/ 80. الدباغ: 1/ 210.
(37) المالكي: 1/ 83. الدباغ: 1/ 196.
(38) المالكي: 1/ 84. الدباغ: 1/ 206.
(39) المالكي: 1/ 86. الدباغ: 1/ 234.
(40) المالكي: 1/ 86.
(41) المالكي: 1/ 87.
(42) المالكي: 1/ 88. الدباغ: 1/ 222.
(43) المالكي: 1/ 92.

ومن خلال العرض المختصر السابق يتوضح جليّاً دور الوافدين إلى المغرب من العلماء والفقهاء، فقد كان نفوذهم العلميّ والتربويّ ذا تأثير كبير على البلاد، وبواسطة هؤلاء الروّاد وآخرين غيرهم، انتقل المغرب إلى وضعه الطبيعي، ليشارك الأمة في علومها وآدابها وليرفد الشعوب المجاورة بهذه العلوم، وقد كان للدول القائمة بعد ذلك جهد طيب في تشجيع هذه الحركة.

واتسع انتشار الإسلام أيضاً بدعاية الخوارج من الصفرية، والأباضية، «وهي دعاية انطلقت من المشرق خاصة البصرة، ويُذكَر أن أبا عبيدة مسلم التميمي شيخ الأباضية في البصرة، أرسل أربعة من حَمَلة العلم في أفريقية لِبثّ الدعوة، وكانت الدعوة للمساواة المطلقة التي بَشّروا بها مؤثِرةً، وأدّت إلى التحام جماعات من العرب والبربر في الحركة الخارجية»[44]، ثم ظهور الأفكار الخارجية في سجلماسة، وتاهرت، وكلها كانت تدعو إلى العودة بالإسلام إلى نقائه الأول، وترفض التميز أو الظن مما يتنافى ومبادئه الأصيلة[45].

وقد عمَّ الإسلام بلاد المغرب العربي في الربع الأول من القرن الثاني الهجري فعبد الرحمن بن حبيب كتب إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور يُعْلِمه أن البلاد إسلامية، وقد انقطع السبي منها[46].

واستمر الولاة، ثم حكام الدول القائمة بعدهم، على سياستهم المركزية في ترسيخ مبادئ الشريعة الإسلامية، وإعمام اللغة العربية، بكونها لغة القرآن الكريم ولغة العبادات، حتى أصبحت اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد، ولم تكن أي لهجة من اللهجات البربرية قادرة على التباري مع العربية «في

(44) المالكي: 1/ 93. أبو العرب: 94.

(45) الدوري: التعريب ـ بحث منشور في مجلة المستقبل العربي، العدد 4، سنة 1981، ص 55 ـ 66.

(46) الدوري: المرجع السابق: 56.

المجالات السياسية والإدارية، والعلمية، والحضارية، فلا المغراويون ولا الزناتيون، ولا الزِّيريون، ولا الحَمّاديون، ولا اللَّمْتُونيون ولا غيرهم من الدول البربرية الصميمية فكروا في اتخاذ إحدى اللهجات الأمازيغية بدل العربية كلغة للحكم والثقافة والحضارة.»[47]

ب ـ الإدارة:

نظَّم العربُ البلادَ المحررة تنظيماً إدارياً يتلائم وخصوصية الدولة العربية الإسلامية، فنهض عمرو بن العاص على تنظيم إدارة ما تمَّ تحريره من أقاليم برقة وطرابلس، وعَيّن عقبة بن نافع الفهري نائباً عنه في هذه الأقاليم[48]، وأقرَّ شخصاً يدعى أبن دياس عاملاً على برقة[49]، ولا نجد بعد ذلك أي إشارة تزيل غموض هذه المرحلة، وإن كنا لا نستبعد بقاء عقبة بن نافع بمثابة نائب عن والي مصر أو المغرب على هذه المناطق وحتى قيام مدينة القيروان.

حيث بدأت معالم النظام الإداري بالظهور، وأصبحت مدينة القيروان عاصمة الولاية الجديدة، ومركز الإشعاع الفكري والروحي في بلاد المغرب، وأصبح ولاة المغرب في أغلب الأحيان يرتبطون ارتباطاً مباشراً في سلطانهم عليها خصوصاً عندما يلي مصر أحد أمراء بني أمية أو إحدى الشخصيات المقرَّبة من الخليفة، ونلحظ هذه الظاهرة عند تولية مسلمة بن مخلد ولاية مصر، وعزله لعقبة بن نافع، وتولية أبي المهاجر دينار، والنزاع بين عبد العزيز بن مروان والي مصر وحسَّان بن النعمان الغساني والي المغرب، والذي اضطر إلى مراسلة الخليفة عبد الملك بن مروان ليأمر أخاه عبد العزيز

---

(47) ينظر عبد الرحمن بن حبيب «الفصل السابق وسياسة الولاة».

(48) محمد زبير: دور الثقافة في بناء المغرب الكبير. بحث منشور ضمن كتاب: تطور الوعي القومي في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986، ص: 144.

(49) ابن عبد الحكم: 230.

بتزويد حسّان بألف عائلة قبطية من مصر ليساهموا في بناء السفن بمدينة تونس[50]. وبنهاية ولاية موسى بن نصير، وإتمام تحرير المغرب العربي، ينتهي آخر مظهر من مظاهر تدخل ولاة مصر في شؤون المغرب، إذ اعتُبر بعدها ولاية ذات كيان قائم بذاته يرتبط ارتباطاً مباشراً بمركز الدولة العربية بالمشرق، وتتبع ولايته جميع المناطق المفتوحة كالأندلس مثلاً.

ولم تتهيأ الأسباب لعقبة بن نافع، ولا لزهير بن قيس لتنظيم شؤون المغرب العربي، ووقع ذلك العمل على عاتق حسَّان بن النعمان الغساني والذي أعدّ للمغرب العدة، ليصبح ولاية قائمة بنفسها مستقلة بإدارتها لا تعتمد على مصر في شأن من شؤونها[51].

فقد أشرك حسّان العربَ البربرَ في تحمل مسؤوليات تحرير بلاد المغرب، وكانت ضمن قواته فرقتان منهم كل فرقة ضمّت ستة آلاف مقاتل، ولم يكتفِ بإشراك هؤلاء في العمليات العسكرية، وإعطائهم نصيبهم من الغنائم، وإنما رتّب لهم أعطيات تُصرَف لهم من بيت مال الولاية، وعلى ذلك سار موسى بن نصير بعده. وقسّم حسان المغرب خططاً للبربر، واْختص كلَّ قبيلة بخطة تكون مسؤولة عنها، وتؤدي عليها ما يفرضه الشرع من مال[52]. وهذا يعني أنه اعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة[53]، بينما اعتبر ما كان تحت يد الروم وحلفائهم من الأفارقة مفتوحاً عنوة، واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالياً لهم، يتصرفون في شؤونهم كما يريدون[54].

وحسَّان بن النعمان أول من دَوَّن الدواوين في المغرب العربي، وأقام

(50) ينظر ولاية حسَّان بن النعمان فيما سبق.
(51) مؤنس: 287.
(52) ينظر ولاية حسان بن النعمان فيما سبق.
(53) السلاوي: 1/ 90.
(54) مؤنس: 288.

العُمّال في النواحي، والنوّاب عنه في حالة قيامه بحملة عسكرية، وعند العودة إلى بلاد المشرق.

وهكذا أرسى حسّان قواعد النظام الإداري في بلاد المغرب، وظل الولاة على ذلك سائرين مع تطوير ما يحتاج إلى تطوير، وتعديل ما يحتاج إلى التعديل وحسب متطلبات المرحلة والظروف.

وكان والي المغرب نائباً عن الخليفة في تسيير الإدارة المدنية والعسكرية فهو حاكم الولاة، وقائد جيوشها، وإمام الصلاة، وإضافة إلى منصب الوالي كان هناك منصب عامل، وصاحب الخراج يُعيَّن من قِبَل دار الخلافة، ويُعتَبر من أهم مساعدي الوالي في الشؤون المالية[55]. والقاضي، وما يتبعه من الشهود وغيرهم، وكان يُعيَّن من قبل الخليفة مباشرة، واستمر هذا التقليد حتى ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري على المغرب سنة 127هـ، حيث استقل بتعيين القضاة فترة إمارته واستمر الحال حتى مقتل أبنه حبيب سنة 140هـ، وتمكُّن الدولة العباسية من إعادة السلطة المركزية زمن الوالي محمد بن الأشعث.

ويساعد الوالي في الأمور العسكرية عدد من القادة العسكريين البارزين، وقد ازداد عدد هؤلاء المساعدين زمن الولاة العباسيين، حتى أصبحوا مصدر إزعاج للسلطة المركزية نتيجة التمردات التي كانوا يقومون بها في المدن المهمة من بلاد المغرب[56].

ومن مساعدي الوالي أيضاً: الكاتب، وصاحب الشرطة، وصاحب البريد، إضافة إلى عدد من المستشارين ممن لهم دراية ومعرفة بأحوال البلاد وسكانه.

---

(55) لقبال موسى: 144، وقد تجمع هذه الاختصاصات لوالٍ من الولاة كما هو الحال في ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر دينار.

(56) ينظر: سياسة الولاة في المغرب العربي، الفصل السابق.

وإذا كنا نجهل معظم متوليي هذه المناصب خلال فترة عصر الولاة[57]، فإن سفر القضاة يكاد يكون مكتملاً، فقد تعرّضت كتب التراجم إلى متوليي القضاء في المغرب خلال هذه الفترة، وعدّوا منهم:

- أبا الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي: تولى القضاء في ولاية موسى بن نصير، وتوفي سنة 113هـ[58].
- وأبا المغيرة، عبد الله بن المغيرة: قلّده الخليفة عمر بن عبد العزيز قضاء المغرب في ولاية إسماعيل بن أبي المهاجر دينار[59].
- وأبا كريب، جميل بن كريب: تولى القضاء في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، واستمر قاضياً حتى استشهاده دفاعاً عن القيروان سنة 139هـ[60].
- وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم المتوفى سنة 161هـ: ولاّه الخليفة أبو جعفر المنصور قضاء المغرب، زمن واليها محمد بن الأشعث، واستمر على حاله حتى ولاية يزيد بن حاتم[61].
- ورافع بن عبد الرحمن الرعيني: تولاّه في ولاية يزيد بن حاتم.
- وعبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن الطفيل: تولاّه في ولاية يزيد بن حاتم أيضاً.

---

(57) هناك إشارات عن توليه دُجَيْن بن عامر المتوفى سنة 100هـ الكتابة في ولاية عقبة بن نافع، وتولية حَنَش الصنعاني المتوفى سنة 100هـ أيضاً على الصدقات في ولاية حسّان بن النعمان الغساني، وكان يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري المتوفى سنة 143هـ عاملاً على الصدقات من قِبَل الخليفة عمر بن عبد العزيز، وإشارات لدى الرقيق القيرواني عن متولي الشرطة في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وأخرى عن متولي بعض الترتيبات الإدارية زمن الولاة العباسيين.

(58) المالكي: 1/ 272. الدباغ: 1/ 198.

(59) المالكي: 1/ 81. الدباغ: 1/ 210.

(60) سبق التعريف به في ولاية حبيب بن عبد الرحمن الفهري.

(61) المالكي: 1/ 96. الدباغ: 1/ 230.

- وأبا محمد، عبد الله بن فروخ، المتوفى سنة 175هـ: تولى القضاء في ولاية روح بن حاتم[62]، واستمر عليه حتى قيام دولة الأغالبة واستعفائه سنة 190هـ[63].

وكانت ولاية المغرب العربي في أوج قوة السلطة المركزية مقسّمة إلى أقسام أربعة هي:

1 - برقة وطرابلس.

2 - المغرب الأدنى «أفريقية».

3 - المغرب الأوسط.

4 - المغرب الأقصى[64].

وقد قسِّمت هذه الأقسام الإدارية الكبيرة إلى أقسام إدارية، أصغر، فبأستثناء إقليم برقة والذي كان يتبع والي مصر في أكثر الأحيان، فإن إقليم طرابلس كان يشمل مناطقَ واسعةً، ويضم مدناً مهمة منها: سِرْت، وصبرة، إضافة إلى جبل نفوسة وقصباته، وإقليم فزان، وجزءٍ من كُوَر في الجنوب. وقاعدة هذا الإقليم مدينة طرابلس[65].

أما المغرب الأدنى «أفريقية» فهو إقليم واسع، ويضم هذا الإقليم بداخله أهم المدن المغربية، ومنها العاصمة القيروان، وتونس، والأربس، وسبيبة، وقسطيلية في الجنوب، وإقليم الزّاب بمُدُنه المعروفة[66].

وأما المغرب الأوسط، فقد كانت قاعدته مدينة تلمسان، ويشمل على عددٍ من المدن المهمة، وعندما قام كيان الأباضية، وتمكّن عبد الرحمن بن

---

(62) المالكي: 1/ 113. الدباغ: 238.

(63) المالكي: 1/ 143. الدباغ: 1/ 288.

(64) سبق تحديد هذه الأقسام في الفصل الأول.

(65) حسين مؤنس: التنظيم الإداري: 78.

(66) حسين مؤنس: المرجع السابق: 79 و82.

رستم من مدّ نفوذه على عموم المغرب الأوسط، انتقلت قاعدة الإقليم من تلمسان إلى مدينة تاهرت عاصمة الدولة الرُّستُمية[67].

أما المغرب الأقصى، فقد كانت قاعدته مدينة طنجة، ثم قام عُبَيد الله بن الحبحاب بتقسيم المغرب الأقصى إلى قسمين:

الأول: السوس الأدنى، وهو طنجة وما يلحق بها، وكان عليه ولده إسماعيل ثم عمر بن عبد الله المرادي بعده[68].

والثاني: السوس الأقصى، حيث بُعِث حبيب بن أبي عبيدة الفهري على رأس جيش تمكّن من سنة 116هـ من إخضاع القبائل المتمردة، وتنظيم شؤون هذا القسم وفقاً للإدارة المركزية[69].

وكان على كل قسم من هذه الأقسام، عامل ينوب عن الوالي يُعيَّن من قِبَله مباشرة[70]، ومقرّه قاعدة الأقاليم، وإضافة إلى ذلك فقد أُفردت المدن المهمة بعُمّال آخرين، وكان اختيارهم على الأغلب يتمّ من بين القادة العسكريين المْعروفين. وتحت إمرة العمال حامية عسكرية تتحدد مهامها في ضبط الأمور والدفاع عن الولاية أو المدينة عندما تتطلب الضرورة ذلك.

غير أن التقسيم الآنف الذكر، لم يستقر على حاله، فقد تقلّبت الأحوال ببلاد المغرب، وتقلّصت مناطق نفوذ الوُلاة كثيراً نتيجة الاضطرابات والتمردات، وما نتج عنها من قيام الكيانات المستقلّة حتى أصبحت سلطات الوُلاة لا تتعدى المغرب الأدنى «أفريقية» في أحسن الأحوال، وخُتِم العصر بقيام دولة الأغالبة سنة 184هـ والتي لم يتعدَّ سلطانها في أكثر الأحيان مناطق المغرب الأولى.

(67) حسين مؤنس: 85.

(68) الرقيق القيرواني: 108. ابن الأثير: 5/ 191.

(69) ابن عبد الحكم: 292. الرقيق القيرواني: 108.

(70) ينظر: حسين مؤنس: المرجع السابق: 87.

الباب الثالث

الدول العربية في المغرب العربي

•

الدكتور عبد الواحد ذنون طه

الفصل الأول

الأدارسة، تأسيس دولتهم، أسبابه وأهميته

أصل الدولة:

سُمّيَت دولة الأدارسة بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي جاء إلى المغرب الأقصى في أعقاب فشل إحدى الحركات المناوئة التي اشترك فيها ضد الدولة العباسية في عهد الخليفة الهادي سنة 169هـ/ 786م.

وقاد هذه الحركة التي قام بها الفرع الحَسَنيّ من العلويين، الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي، الذي ثار على عامل العباسيين في المدينة المنوّرة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله، لسوء معاملته لبعض أفراد الأسرة العلوية. وقد تغلب الثوار على عامل المدينة، وبويع الحسين بن علي بالخلافة في مسجد الرسول ﷺ. وأقام الحسين مدة يسيرة في المدينة، ثم انتقل إلى مكة، ولما سمع الخليفة الهادي بخبر هذه الحركة، كتب إلى أحد قادته، محمد بن سليمان بن علي، الذي كان قد قَدِم حاجّاً إلى مكة مع بعض رجاله، يأمره بحرب الحسين بن علي. وعند وصوله إلى قرب مكة، انضم إليه أنصار العباسيين من القواد والموالي الذين جاؤوا للحج.

معركة فخ:

وقد حدثت معركة فاصلة بين الطرفين في مكان يُسمّى فخّاً، وهو وادٍ

في طريق مكة، يبعد عنها نحو ستة أميال، انتهت بهزيمة الحسنيين، ومقتل عدد كبير منهم، وكان إدريس بن عبد الله بن الحسن، وأخوه يحيى، ضمن الأشخاص القلائل الذين استطاعوا النجاة من المعركة، حيث خرجا من الحجاز متخفين بين قوافل الحُجّاج الراجعين بعد انتهاء موسم الحج[1]. وقد اتخذ كلٌّ من الأخوين طريقاً خاصّاً به، فتوجّه يحيى بن عبد الله نحو المشرق، حيث نجح في الحصول على بعض الأنصار المؤيدين له، ولكن الخليفة الرشيد استطاع أن يتخلص منه فيما بعد. أما إدريس بن عبد الله، فقد كان أكثر توفيقاً من أخيه يحيى، فاْستطاع أن يفرّ إلى المغرب الأقصى، حيث نجح في تأسيس دولة جديدة تُعرَف بالأدارسة.

هروب إدريس بن عبد الله إلى المغرب:

هناك روايات متعددة عن كيفية هروب إدريس بن عبد الله إلى المغرب، ولكن الخطوط الرئيسة لهذه الروايات متشابهة، وتختلف فقط في التفاصيل[2]، فقد توجّه إلى مصر بصحبة أحد مواليه، راشد، الذي اتصف بالشجاعة ورجاحة العقل. ويقال إن أصل هذا المولى كان من شمال أفريقيا. وقد نال إدريس وراشد في مصر مساعدة أحد الأشخاص الموالين للعلويين،

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979: 6/ 90 ـ 93. ياقوت: معجم البلدان، بيروت، 1957: 4/ 237. ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، أعادت دار الثقافة نشره في بيروت: 1/ 83. وانظر أيضاً: إسماعيل العربي: دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 54 ـ 57.

(2) انظر: البكري: المغرب في ذلك بلاد أفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857، ص 118 ـ 119. الكامل في التاريخ: 6/ 293. البيان المغرب: 1/ 83. ابن أبي زرع. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، نشر: دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 16 ـ 19. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956. دار الكتاب العربي: 4/ 24.

وهو على الأغلب صاحب بريد مصر واضح، مولى صالح أبن الخليفة المنصور. ويشير الكندي صراحة إلى أن والي مصر العباسي، علي بن سليمان، أيضاً قد ساعد إدريس، وسهّل له عملية الخروج من مصر، وذلك بسبب استيائه من الخليفة العباسي في بغداد، وطموحه في نيل الخلافة لنفسه. وقد كان هذا الموقف السبب في عزله عن الولاية فيما بعد من قِبَل الرشيد[3].

ومهما يكن من أمرٍ، فقد استطاع إدريس وراشد أن يخرجا من مصر بأمان نتيجة تدبيرِ واضح صاحب البريد، الذي حمل إدريس معه في طريق خاصة بالبريد، إلى ما بعد حدود مصر الغربية، بينما سافر راشد في الطريق المألوف إلى الغرب مع إحدى قوافل التجار، حيث اتفق الجميع على اللقاء في برقة[4]. وقد رجع واضح إلى مصر بعد أن اطمأن على سلامة إدريس وراشد، وأمدّهما بما يحتاجان إليه من مال ومتاع، ويبدو أن الطلب على الهاربين كان ما يزال شديداً، لذلك فقد عمد إدريس وراشد إلى التنكّر، حيث تخفّى الأول في زي خشن، وظهر بمظهر غلام يخدم راشداً. ويختلف المؤرخون أيضاً في الاتجاه الذي سلكه هذان الطريدان، فهناك من يشير إلى دخولهما إلى بلاد أفريقية والقيروان، وإقامتهما فيهما مدة من الزمن، ثم اتجها بعد ذلك إلى المغرب الأقصى، فدخلا تلمسان واستراحا بها، ثم غادرا إلى طنجة[5]. أما البكري[6]، فيشير إلى عدم دخولهما إلى بلاد

(3) الكندي، الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص 132 ـ 132.

(4) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 119. البيان المغرب: 1/ 83. روض القرطاس، ص 18.

(5) المصدر نفسه، ص 19. ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص 18.

(6) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 119. وانظر: مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958، ص 194.

أفريقية، وأنهما سارا في طريق جنوبي بٱتجاه الغرب حتى ٱنتهيَا إلى طنجة.

وعلى الرغم من عدم وجود أدلة قوية لتأييد سلوكهما لأيٍّ من هذين الطريقين، يبدو أن طريق الجنوب كان أكثر أماناً لهما، حيث لم تكن هذه المناطق تخضع إلى سلطة أمير القيروان الفعلية، التابع ٱسميّاً للخلافة العباسية. وفضلاً عن أمان هذا الذي يمرّ بالجريد والزّاب، فهو أقصر من الناحية العملية للوصول إلى المغرب الأقصى، لهذا فمن المرجح أنهما سلكاه، ووصلا إلى تلمسان، ثم خرجا إلى ناحية الغرب، فعَبَرا نهر الملويّة، ودخلا بلاد السوس الأدنى، ثم وصلا إلى طنجة، التي كانت قاعدة بلاد المغرب الأقصى، فأقاما بها أياماً، ثم تحوّلا عنها إلى مدينة وليلي، وذلك بعد رحلة طويلة استغرقت نحو سنتين[7].

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن، هو: لماذا ٱتّجه إدريس بن عبد الله إلى المغرب، وهل كان في نيّته أن يؤسس له دولة هناك؟ لا يمكن الجزم بما كان في نيّة إدريس أن يقوم به في المغرب، ولكن يبدو من المؤكد أنه كان على ٱطلاع واسع على مجريات الأحداث في هذه المنطقة النائية من الدولة العربية الإسلامية. وأن مولاه راشداً حدّثه عن الأحوال السياسية والاجتماعية في المغرب الأقصى. ومن المحتمل أن لهذا الأخير دوراً كبيراً في حمل سيّده على الاتّجاه إلى المغرب، وإقناعه أنه المكان الذي يوفّر الحماية، وربما السلطة له، وذلك بسبب بُعده عن قلب الدولة العباسية، وكثرة الحركات المناوئة التي قامت فيه، لا سيما حركات الخوارج. فمن الناحية العملية لم تكن سلطة العباسيين تمتد إلى أكثر من

(7) انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 118. روض القرطاس، ص 19. ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1963: 1/ 54 (رواية أبي بكر محمد الرازي). وقارن: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية: 1989: 2/ 426. العربي، دولة الأدارسة، ص 61 ـ 62.

ولاية أفريقية (وهي منطقة تونس الحالية)، حتى إن سلطتهم في هذه المنطقة كانت مزعزَعة إلى حد كبير.

لقد كانت الأحوال السياسية غير مستقرة في منطقة المغرب العربي منذ أواخر عهد الدولة الأموية، حيث قامت فيها حركات مناوئة عديدة انتهت بالفشل. ومع ذلك فقد ظلت سلطة الدولة المباشرة بعيدة عن هذه المناطق النائية، الأمر الذي دفع الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) إلى التفكير في الاتجاه إلى هذا المكان، نظراً لملاحقته من قِبَل العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق سنة 132هـ/ 749م. ولكن ظروفاً أفضل كانت تنتظر عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس، لهذا فقد ترك المغرب، ونجح في تأسيس إمارة وراثية في الأندلس. أما إدريس بن عبد الله، فلم يفكّر في الأندلس التي استقرت فيها أمور الأمويين، بل ركّز اهتمامه على مناطق المغرب الأقصى، حيث وجد فيها أرضاً خصبة لإقامة دولة مستقلة عن الخلافة العباسية. وقد ساعد على هذا، أن السكان المحليين كانوا يميلون بطبعهم إلى الاستقلال، الذي أَلِفوه منذ القدم. ولهذا فقد استطاع إدريس أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه ثائراً على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية غير المستقرة في المنطقة، فأنضوت الحركة الاستقلالية التي كان ينادي بها هؤلاء تحت لوائه[8].

اختيار مدينة وليلي وبيعة إدريس:

كان السبب في توجّه إدريس إلى مدينة وليلي، أنها تتميز بموقع جيّد بين منطقة فاس ومكناس على طرف جبل زرهون، وهي من المدن الرومانية القديمة، وكانت تدعى فولوبيليس Volubilis، وتمتاز بخصب المنطقة المحيطة بها وكثرة مياهها وزروعها. أما جبل زرهون الذي يقع بالقرب من

(8) قارن: حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1973، ص 407.

مدينة مكناس، فقد كان يمتاز أيضاً بكثرة أشجاره وزروعه ومياهه العذبة المتدفقة، يضاف إلى ذلك، كانت هذه المنطقة موطناً لسكنى قبائل أوربة البرنسية التي تمتاز بالقوة والشجاعة. فأراد إدريس أن ينزل بقربها عسى أن ينال تأييدها لنصرة قضيته، وتأسيس دولته الفتية. وقد صحّ توقُّع إدريس، حيث تمتع بضيافة وكرم زعيم هذه القبيلة المدعو إسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، فأقام عنده بضعة أشهر، أظهر الأخير خلالها تعاطفاً كبيراً مع إدريس، الذي باح له بالتدريج بقضيته وأحقيته في الإمامة. وقد جمع هذا الزعيم قومه وإخوانه، وعَرّفهم بمكانة ومنزلة إدريس وفضله وقرابته من الرسول ﷺ، فرحّبوا به وأعربوا عن استعدادهم للانضمام تحت لوائه، فبايعوه في رمضان سنة 172هـ/ شباط 789م[9].

ويبدو أن وجود إدريس كان فرصة جيّدة لإسحق شخصيّاً، ولقبيلة أوربة بشكل عام، حيث إن نزول أحد العلويين بين ظهرانيهم يُعِلي من شأنهم بين القبائل الأخرى، ويحقق لهم نوعاً من التفوق على زعماء هذه القبائل، لذلك فقد تسارعوا إلى بيعته للقيام بأمرهم، وتولي صلاتهم، وأحكامهم، وغزوهم، ثم فشت دعوة إدريس بين القبائل الأخرى في المنطقة، مثل: زناتة، وزواغة، ولماية، ولواتة، وسدراتة، وغياثة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة، وهوارة وقد جاءته الوفود من المناطق المجاورة تعلن عن استعدادها للانضمام إليه، وتأييد دولته. وقد تجمع لدى إدريس قوة بشرية كبيرة استطاع أن ينظّم منها جيشاً قويّاً لمنازلة المناطق التي لم تخضع لسلطته، أو الأقاليم التي لم ترسخ فيها أقدام الإسلام بعد، والتي عُرِف أهلها بالزيغ والانحراف

(9) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 19 ـ 20. جذوة الاقتباس، ص 19 ـ 20. ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص 190 ـ 191.

عن العقيدة الإسلامية. وهكذا ابتدأ العمل في تأسيس دولة الأدارسة في المغرب[10].

جهود إدريس الأول العسكرية في تثبيت الدولة:

توجهت العمليات العسكرية الأولى لإدريس الأول نحو بلاد تامسنا، التي تقع في البسيط الممتد من وادي أبي رقراق إلى وادي أم الربيع. فأفتتح مدينة شالة، وهي مدينة سلا القديمة، التي تقع قبالة مدينة الرباط الحالية على الضفة الثانية من مصب نهر أبي رقراق[11]. ثم أخضع كل حصون تامسنا التي تميّزت بوجود انحرافات خطيرة، تبنتها قبيلة برغواطة البربرية، التي سكنت في هذا الإقليم[12]. وقد أعقب ذلك بإخضاع مناطق تادلا التي تقع إلى الشرق من أغمات. وكان أكثر سكان هذه البلاد يدينون بالنصرانية واليهودية، والإسلام فيها قليل، فأعتنق عدد كبير منهم الإسلام على يديه[13].

ثم رجع إدريس إلى مدينة وليلي ليريح جيوشه، وذلك في ذي الحجة سنة 172هـ/ أيار 789م، فأقام بها إلى بداية سنة 173هـ/ 789م، ثم خرج مرّة أخرى لقتال السكان المحليين المتحصّنين بالمعاقل المنيعة بالقرب من منطقة فاس، وتطوان، لا سيما حصون فندلاوة، وصدينة، ومديونة، وفازاز. وقد عاد بعد ذلك إلى مقرّه في مدينة وليلي في جمادي الثانية 173هـ/ تشرين الأول 789م[14].

---

(10) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 2/ 430.

(11) انظر: عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، دار الثقافة، بيروت، 1975، ص 61، 140 ـ 142.

(12) عن برغواطة، راجع: البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 134 ـ 141.

(13) روض القرطاس، ص 20، علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967، ص 13.

(14) روض القرطاس، ص 21. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 192.

لم يبقَ إدريس في وليلي فترة طويلة، بل خرج منها بعد نحو شهر واحد تقريباً متجهاً نحو تلمسان في المغرب الأوسط. وكان يسكن في هذه المدينة قبيلتان كبيرتان من زناتة، هما: مغراوة، وبني يفرن، ويبدو أن السيادة كانت للقبيلة الأولى، التي يتزعمها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري. وقد أعلن هذا الزعيم عن رغبته في الانضمام إلى بيعة إدريس، هو ومن معه من قبائل زناتة. فدخل إدريس الأول المدينة صلحاً، وأمّن أهلها، وبنى مسجدها في سنة 174هـ/ 790م، ثم عيَّن محمد بن خزر والياً عليها، ورجع إلى وليلي في شهر صفر 174هـ/ حزيران ـ تموز 790م[15].

نهاية إدريس الأول:

تتفق معظم الروايات على أن نهاية إدريس الأول كانت في سنة 175هـ/ 791 ـ 792م، أي أنه حكم نحو ثلاثة أعوام ونصف[16]. وتزعم هذه الروايات أنه اغتِيل نتيجة لمؤامرة شارك في تدبيرها الخليفة العباسي هارون الرشيد، بالتعاون مع وزيره يحيى البرمكي، حيث خشي الرشيد من ازدياد نفوذ إدريس الأول، وامتداد سلطته إلى حدود تلمسان، التي كانت تُعَدّ باب أفريقية من جهة الغرب. ولمّا كان من الصعب عملياً أن ترسل الدولة العباسية جيشاً إلى المغرب الأقصى لبعد المسافة التي تفصل بين المشرق والمغرب، قرر الرشيد أن يلجأ حسب نصيحة الوزير يحيى إلى الحيلة للتخلص من إدريس. فعهد إلى رجل يُدعى سليمان بن جرير الشماخ بمهمة

(15) روض القرطاس، ص 21. جذوة الاقتباس، ص 21. أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي، كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان (مخطوط) نشر جزء منه ملحقاً لكتاب دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، ص 277 ـ 294، الورقة 117.

(16) انظر: البكري، ص 122. الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 196. الحلة السيراء: 1: 100/. ابن عذاري: 1/ 210. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 194.

السفر إلى المغرب، ومحاولة اغتيال إدريس الأول. وقد تمكّن هذا الرجل من التقرب من إدريس، بعد أن ادعى أنه من المؤيدين لأسرته، وأنه اضطر للفرار من العباسيين لهذا السبب. وكان الشماخ بارعاً في الحديث، وله مقدرة جيّدة على الجدل والإقناع، لهذا فقد أَنِس إليه إدريس، وسكن إلى قوله، واتخذه نديماً، حتى إنه كان لا يتناول الطعام إلاً معه، وظل الشماخ يتربص بإدريس إلى أن تهيأت له الفرصة بغياب راشد، فسَمَّه، ثم هرب، واستطاع أن يفلت بعد ذلك من مطاردة راشد، الذي اكتشف جريمته بعد فوات الأوان[17].

ومن المرجّح أن تكون قصة اغتيال إدريس الأول قد بولغ فيها بهذا الشكل، لأن الروايات تختلف في الطريقة التي دس فيها الشماخ السمّ لإدريس، كذلك تختلف في دور الرشيد ويحيى البرمكي، وتشير إلى وجود شريك آخر هو إبراهيم بن الأغلب[18]. ومن الجائز أن دور ٱبن الأغلب كان كبيراً في هذه المسألة، لا سيما أنه كان قريباً من الأحداث، لأنه كان عاملاً على الزاب. ويُستفاد من إحدى الروايات أنه دَسّ بعض أصحابه لاغتيال إدريس بعدما شعر بخطره، وتقدّمه شرقاً نحو تلمسان. وبعد تنفيذ العملية، أعلم ٱبن الأغلب والي أفريقية بالأمر، فنقل الأخير هذا الخبر إلى الخليفة في بغداد[19]. ويبدو أن إقحام ٱسم الخليفة هارون الرشيد في هذه العملية، ما هو إلاً من قَبِيل التفخيم، وإضفاء هالة أسطورية على شخصيته، بحيث يتمكّن وهو في قصره ببغداد أن يتخلص من معارضيه في أقصى المغرب بأهون الأسباب[20].

(17) البكري، ص 120 ـ 121. الاستبصار، ص 196. الكامل في التاريخ: 6/ 93. ابن عذاري: 1/ 210. روض القرطاس، ص 21 ـ 23. جني زهرة الآس، ص 14 ـ 15. جذوة الاقتباس، ص 22 ـ 23. أعمال الأعلام، ص 192 ـ 195.

(18) الحلة السيراء: 1/ 100. ابن خلدون، العبر: 4/ 25.

(19) الحلة السيراء: 1/ 100.

(20) قارن: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 2/ 436 ـ 437.

إدريس الثاني وتوطيد أركان الدولة:

لم يَترُك إدريس بن عبد الله وريثاً، ولكنه ترك إحدى جواريه حاملاً في الشهر السابع. وقد ولدت هذه الجارية، التي تُسمّى كنزة، طفلاً سُمّي إدريس، تيمّناً بأسم أبيه. وقد تولى راشد، مولى إدريس الأول، الوصاية عليه، ومهمة تأديبه وتعليمه القرآن، والحديث، والفقه، والنحو، والشعر، وسِيَر الملوك وسياساتهم، كما درّبه على ركوب الخيل والقتال، بحيث إنه لم يكد يبلغ الحادية عشرة حتى اتقن كلَّ هذه الأمور التي يحتاجها أبناء الملوك.

وهناك خلاف في التاريخ الذي تمّت فيه بيعة إدريس الثاني بالإمامة على قبائل المغرب الموالية للأدارسة، فيشير بعض المؤرخين إلى أنه بُويع لأول مرّة في جامع وليلي في مستهل ربيع الأول سنة 186هـ/ آذار 802م، وذلك بعد تخطّيه سن الحادية عشرة[21]. بينما يذكر آخرون، إنه بويع سنة 87هـ/ 803م[22]، أو 188هـ/ 804م، وذلك بعد اغتيال راشد بعشرين يوماً[23]. ويبدو أن إعلان راشد عن نيّته في أخذ البيعة لإدريس الثاني قد سبب استياء إبراهيم بن الأغلب، أمير أفريقية آنذاك، الذي شعر بأن راشداً هو المسيّر الحقيقي لدولة الأدارسة، والمدبّر لأمورها، فقرر أن يتخلص منه بواسطة بعض خَدَمه الذين أغراهم بالمال، فقتلوه.

ولكن اغتيال راشد لم يحقق لأبن الأغلب نهاية دولة الأدارسة، فقد عُيِّن وصيٌّ جديدٌ على إدريس، هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي، الذي أخذ البيعة الثانية، أو البيعة الكبرى لإدريس، بعد اغتيال راشد، كما أسلفنا.

(21) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص 16.

(22) البكري، ص 123.

(23) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 27. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 25. ابن خلدون، العبر: 4/ 25.

وهكذا تعاظمت قوة إدريس الثاني، وجاءته الوفود من مناطق مختلفة من شمال أفريقيا، فتمت له البيعة، واستقام مُلكه بالمغرب. وتوطّد وقوي سلطانه، وكثرت جيوشه وأعوانه. وقد استمر في استقبال الوفود، وتوزيع الأموال، وأستمالة الرؤساء والأشياخ حتى نهاية عام 188هـ/ 804م.

كانت بيعة إدريس بن إدريس نقطة تحوّل هامّة في تاريخ الدولة الأدريسية، فلم يعد الإمام ذلك اللاجئ الذي جاء هارباً متخفياً من المشرق، ينشد الأمان بين البربر في البيئة الجديدة، بل أصبح حاكماً دنيويّاً، إضافة إلى مركزه الديني، يتمتع بممارسة سلطانه على عدد كبير من قبائل المغرب. ولم تمضِ سوى سنة واحدة على بيعة إدريس الثاني، حتى كان صيته قد انتشر إلى مناطق بعيدة خارج حدود مملكته، وابتدأت الوفود العربية تَرِدُ عليه من مناطق مختلفة من أفريقية، والأندلس، حتى قِيل إن مجموع ما جاءه من هؤلاء سنة 189هـ/ 805م بلغ نحو خمسمائة فارس من مختلف القبائل العربية، التي تنتمي إلى قيس، والأزد، ومدلج، ويحصب، والصدف، وغيرهم. وقد سُرَّ إدريس بوِفَادة هؤلاء العرب، الذين استفاد منهم في تكوين بطانة عربية خالصة. وهكذا ابتدأت عملية تعريب الدولة بالتدريج. فعهد إلى عمير بن مصعب الأزدي بالوزارة، كما عهد بالقضاء إلى عامر بن محمد بن سعيد القيسي، وأتخذ أبا الحسن عبد الملك بن مالك المالكي الأنصاري للكتابة[24].

ولم يرق هذا النجاح لإبراهيم بن الأغلب ممثّل الدولة العباسية في أفريقية، الذي عاود اتصالاته بالسكان المحليين المحيطين بإدريس الثاني، ونجح في كسب بعضهم، مثل بهلول بن عبد الواحد المدغري، وإسحاق بن محمد الأوربي. ويبدو أن هؤلاء استاؤوا من سياسة إدريس الثانية، وتوجهاته نحو العرب والإكثار من الاعتماد عليهم، فمالؤوا أبن الأغلب لكنهم لم

(24) روض القرطاس، ص 27، 29.

يستطيعوا أن يغيّروا شيئاً في هذه السياسة الجديدة، واكتُشِفت اتصالاتهم المريبة بابن الأغلب، وعُوقِبوا على ذلك من قِبَل إدريس الثاني[25].

وفاة إدريس الثاني وتقسيم الدولة في عهد محمد بن إدريس:

كان عصر إدريس الثاني يمثل دور العظمة بالنسبة إلى تاريخ الدولة الأدريسية، لما تمّ في عهده من إنجازات سياسية وحضارية، كان أهمها إنشاء مدينة فاس، التي سنتحدث عنها فيما بعد. وقد امتد حكم إدريس الثاني من السوس الأقصى إلى وادي شلف. وقبيل وفاته عهد إدريس إلى ابنه محمد بالحكم (حكم من سنة 213 ـ 221هـ/ 828 ـ 836م). ولكن هذا الحاكم لم يلبث أن قسّم البلاد بين إخوته، حسب نصيحة جدته كنزة، أم إدريس الثاني.

تم هذا التوزيع بعناية، مع مراعاة التقسيم الجغرافي للمغرب، وللخصائص الشخصية التي يتمتع بها كل واحد من إخوته. وهناك خلاف بين المؤرخين بشأن التفاصيل الخاصة بهذا التقسيم، ولكنهم يتفقون على السمات العامة، والنقاط الأساسية فيه، وهي كالآتي:

1 ـ القاسم: على سبتة، وطنجة، وقلعة حجر النسر، وبلاد مصمودة، وتطوان، وما يلحق بهذه الأماكن من مناطق وقبائل.

2 ـ عمر: على بلاد صنهاجة وغمارة.

3 ـ داود: على بلاد هوارة، وبعض قبائل مكناسة، وتازا، وتسول، وتامليت، وما بينهما من بلاد وقبائل.

4 ـ عبد الله: على أغمات، ونفيس، وجبال المصامدة، وبلاد لمطة، والسوس الأقصى.

---

(25) انظر: البكري، ص 123. الحلة السيراء: 1/ 55، 111 ـ 112. الكامل في التاريخ: 6/ 156. ابن خلدون، العبر: 4/ 26.

5 ـ يحيى: على ولاية أصيلا، والعرائش، وبلاد زواغة، والبصرة.

6 ـ عيسى: على شالة، وتامسنا، وبرغواطة، وسلا، وأزمور، وما إليها من بلاد وقبائل.

7 ـ أحمد: على مدينة تادلا، ومدينة مكناسة، وما بينهما إلى بلاد فازاز.

8 ـ حمزة: على وليلي، وتلمسان، وأعمالهما.

أما باقي إخوته الاثني عشر، فكانوا صغاراً ظلوا بكفالة جدتهم. وقد احتفظ محمد بن إدريس بمدينة فاس وما حولها[26]. ومن الجدير بالذكر، أن هذا الحكم الجماعي لم يحقق مصلحة الدولة، بل كان فيه ضرر بالغ على وحدة الأسرة الحاكمة، حيث دب الخلاف بين الأخوة، فخرج بعضهم على سلطان الأخ الأكبر، مما أدى إلى قيام حروب أهلية أدت إلى إصابة الدولة بعوارض الضعف الاضمحلال، وهي لم تكد تبلغ العقد الرابع من عمرها.

خلفاء محمد بن إدريس:

جاء بعد محمد بن إدريس، الذي توفي سنة 221هـ/ 836م مجموعة من الأمراء الذين لم تستقر الدولة في عهدهم. وقد ابتدأ دور الضعف في الدولة بعد وفاة علي بن محمد بن إدريس في سنة 234هـ/ 848م. فعلى الرغم من صغر سن هذا الأخير، كانت الأحوال في عهده مرضية إلى حد ما، نظراً لاجتماع الكلمة عليه. لكن الأمور تغيّرت فيما بعد، لا سيما في عهد يحيى بن يحيى بن محمد، الذي أساء السيرة، وانشغل عن إدارة الدولة وسياستها بمسائل ماجنة لا تليق بالحكام. وكانت النتيجة أن انتهى حكمه بفضيحة كلفته عرشه وحياته في نهاية الأمر[27]. ومما زاد في سوء إدارة هذا

(26) البكري، ص 124. ابن عذاري: 1/ 211. روض القرطاس، ص 51. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 202 ـ 205. ابن خلدون، العبر: 4/ 27 ـ 28.

(27) انظر: البكري: ص 124. روض القرطاس، ص 77.

الأمير، أنه قسَّم المملكة في بداية إمارته إلى ثلاثة أقسام إدارية، عهد بها إلى أعمامه وأخواله. وقد انتهز إخوته فرصة تقسيم البلاد وانشغاله عن الاهتمام بأمور الحكم. فملّكوا أنفسهم، واستأثروا بحكم المناطق التي كانت بحوزتهم، وانتهى الأمر فعلاً باستقلالهم عن فاس، حيث قدمهم السكان المحليين على أنفسهم[28].

وقد استطاع علي بن عمر بن إدريس أن يستولي على مدينة فاس، بعد وفاة يحيى بن يحيى، وأن يوحد بلاد المغرب من جديد. ولكن المصادر المتيسرة لا تشير إلى تواريخ هذه الأحداث، وتمر مروراً سريعاً على الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الأدريسية. ويعد يحيى بن إدريس بن عمر 292 ـ 305هـ/ 905 ـ 917م من أشهر أمراء هذه الدولة في الفترة المتأخرة من حياتها، حيث جمع بين علو القدر، وبعد الصيت، وطيب الذكر، وقوة السلطان، كما جمع بين البطولة والشجاعة والإقدام. ويشير ٱبن أبي زرع[29]، إلى أن أحداً من الأدارسة لم يبلغ مبلغه. ولكن الأحوال السياسية في المغرب العربي لم تكن ملائمة في ذلك الوقت، لأن الفاطميين كانوا على وشك القضاء على الدول التي كانت قائمة آنذاك في المغرب لا سيما الأغالبة والأدارسة. وكان يحيى في طليعة القوى التي ناجزت الفاطميين، فقد حاول أن يدفع جيش مصالة بن حبوس المكناسي، قائد عبيد الله (الملقب بالمهدي)، ولكن مصالة هزمه، واضطره على الاعتراف بإمامة عبيد الله في سنة 305هـ/ 917م[30].

وعلى الرغم من بقاء يحيى بن إدريس أميراً على فاس، عيّن مصالة بن حبوس ٱبن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي على بقية المغرب. وقد

---

(28) ابن عذاري: 1/ 211.

(29) روض القرطاس، ص 80.

(30) المصدر نفسه، ص 80. وانظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 210. عبد الحميد، المرجع السابق: 2/ 478. إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 149.

استطاع هذا الأخير أن يوقع بيحيى عند مصالة، حيث عزله وقبض عليه، ثم نفي إلى أصيلا. وأصبحت فاس بعد ذلك تحت إدارة قواد مصالة. وقد اجتاحت البلاد بعد ذلك موجة من الاضطرابات الداخلية. والانتفاضات التي قام بها بعض أعقاب الأدارسة، لا سيما حسن بن محمد الحجام سنة 310هـ/ 922م. ولكن هذه الانتفاضة انتهت بالفشل، وقام موسى بن أبي العافية بنفي الأدارسة من فاس إلى بلاد الريف، حيث أودعهم في حصن عظيم البناء، يدعى بحجر النسر[31].

(31) انظر: ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 211 ـ 213.

جدول بأسماء أمراء الأدارسة[32]

1 ـ إدريس الأول بن عبد الله (172 ـ 177هـ/ 788 ـ 793م).

2 ـ إدريس الثاني بن إدريس الأول (177 ـ 213هـ/ 793 ـ 828م).

3 ـ محمد بن إدريس الثاني (213 ـ 221هـ/ 828 ـ 836م).

4 ـ علي الأول بن محمد (221 ـ 234هـ/ 836 ـ 849م).

5 ـ يحيى الأول بن محمد (234 ـ ؟/ 849 ـ ؟).

6 ـ يحيى الثاني بن يحيى الأول (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).

7 ـ علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).

8 ـ يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).

9 ـ يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (292 ـ 310هـ/ 904 ـ 922م).

10 ـ الحسن الحجام بن محمد (310 ـ 313هـ/ 922 ـ 925م).

11 ـ كنون بن محمد بن القاسم (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).

12 ـ أبو العيش أحمد (337 ـ 343هـ/ 948 ـ 954م).

13 ـ الحسن بن كنون (343 ـ 364هـ/ 954 ـ 974م).

(32) انظر: أحمد سعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف بمصر، 1969: 1/44.

أسباب سقوط دولة الأدارسة

يمكن أن نعزو أسباب انهيار دولة الأدارسة إلى أسباب داخلية وأخرى خارجية.

الأسباب الداخلية:

1 ـ أدى تقسيم المملكة بين أفراد الأسرة الأدريسية في عهد محمد بن إدريس إلى قيام نزاعات كثيرة بين أمراء الأدارسة أنفسهم، وأضعف الحكم المركزي للدولة، حيث فقد الأدارسة نفوذهم على بقية أنحاء المملكة، باستثناء فاس، وبعض المناطق الأخرى، كحجر النسر مثلاً.

2 ـ عدم قدرة الأدارسة على السيطرة على أجزاء مهمة من المغرب، مثل سجلماسة، وتامسنا، بل إنهم لم يستطيعوا السيطرة أحياناً على فاس ذاتها، على الرغم من أنها كانت عاصمة البلاد.

3 ـ عدم تمكنهم من القضاء على بعض المذاهب المتناقضة التي تخالف روح الدين الإسلامي، كالبرغواطيين مثلاً، حيث إنهم لم يواصلوا القضاء عليهم، كما لم ينجحوا في إيقاف نشاط الخوارج الذين هددوا الدولة، وأشاعوا مذاهب كثيرة مناقضة للتعاليم الإسلامية.

4 ـ افتقرت الدولة إلى حكومة وجيش قويين يساعدان على إقرار هيبة الدولة، فتاريخ الأدارسة يدور في معظمه على أشخاص الأمراء أنفسهم. ولم يظهر في عهدهم قواد بارزون، أو وزراء ذوو حنكة

وشخصية عالية. وقد استند أمراء الدولة إلى نفوذهم الروحي، وانتسابهم إلى بيت ٱبن عم الرسول عليه الصَّلاة والسلام. وقد ساعدهم هذا دون شك على اكتساب تأييد السكان المحليين، لكنه لم يغنهم شيئاً في إقرار النفوذ السياسي على البلاد، باستثناء عصر إدريس الأول، والثاني، ومحمد بن إدريس.

الأسباب الخارجية:

1 ـ **تدخل الفاطميين**: استغل الفاطميون وجودهم في المغرب فاعتمدوا على الصنهاجيين، واستعانوا بهم للقضاء على دولة الأدارسة الضعيفة وقد سبقت الإشارة إلى قدوم مصالة بن حبوس إلى المغرب، ومساندة موسى بن أبي العافية له في القضاء على نفوذ الأدارسة. وأعقب هذا قدوم جوهر الصقلي سنة 247هـ/ 958م الذي افتتح سجلماسة، وفاس، ومعظم المغرب، لكنه لم يستطع التعرض للأدارسة الذين كانوا في قلعة حجر النسر بقيادة الحسن بن كنون. وقد اضطر الأخير أن يؤيد الفاطميين للتخلص من خطر خارجي آخر، وهو التدخل الأموي من الأندلس.

2 ـ **تدخل الأمويين**: كانت سياسة الأمويين في الأندلس، هي منع تسرب النفوذ الفاطمي إلى المغرب، ولهذا حاولوا التدخل في المغرب لمجابهة الفاطميين. وقد أدى هذا التدخل إلى إرسال الجيوش للسيطرة على بعض المناطق الاستراتيجية، لا سيما سبتة، وطنجة، ومليلة. وقد تخللت هذه الأحداث معارك عنيفة بن الأمويين، وأنصار الفاطميين، وبقايا الأدارسة، مثل الحسن بن كنون، الذي استسلم نهائياً للحاجب المنصور سنة 375هـ/ 985م. وكانت مدة حكم الأدارسة ما بين أدريس الأول، إلى وفاة الحسن بن كنون 202 سنة وخمسة أشهر. ويشير ٱبن الخطيب إلى حراجة موقف الأدارسة ووقوعهم بين قوتين كبيرتين، هما الأمويين في الأندلس والفاطميين في شمال أفريقيا، وأن سلطانهم إذا قوي امتد إلى تلمسان، وإذا

اضطرب وضعف اقتصر على معتصمهم في حجر النسر[33].

بناء مدينة فاس

تعد مدينة فاس من أهم المدن التي أنشأها الأدارسة، وهي تقع عند ملتقى طرق تجارية رئيسة تؤدي إلى اتجاهات مختلفة، وتربطها مع المناطق التي تقع على البحر المتوسط، والمشرق العربي، وبلدان غرب القارة الأفريقية، وقلبها، وجنوب الصحراء. ويعود الفضل في استحداث هذه المدينة إلى إدريس الثاني، الذي عزم على الانتقال من وليلي بعد أن ضاقت بجيوشه، وبمن وفد عليه من العرب والبربر من أفريقية والأندلس. ويشير معظم الكُتاب والمؤرخين القدامى إلى أن إدريس الثاني هو الذي أسس هذه المدينة على مرحلتين[34]. المرحلة الأولى: أسس فيها فاس عدوة الأندلس عام 192هـ/ 816م، وهي التي اختطت على الضفة اليمنى من وادي فاس. والمرحلة الثانية؛ أسس فيها عدوة القرويين عام 193هـ/ 817م، وهي التي تسمى بفاس الثانية، أو العالية، أو فاس عدوة القرويين، التي أسست على الضفة اليسرى لنهر وادي فاس.

وقد سبق بناء المدينة في هذا الموقع مشروعان، حاول فيهما إدريس بن إدريس، إنجاز البناء عند سفح جبل زالغ، وهو جبل يحاذي فاس من جهة الشمال، ولكن السيول حطمت المباني والمزارع. وكذلك صُرِف النظر عن محاولة ثانية لبناء المدينة عند وادي سبو، حيث خشي عليها أيضاً من

(33) انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 224. وقارن: إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، طبع ونشر دار السلمي، الدار البيضاء، (بدون تاريخ) ص 120 ـ 123.

(34) انظر: روض القرطاس، ص 38. الجزنائي، جني زهرة الآس، ص 24. المقري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968: 1/ 482. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967، ص 45.

السيول. وقد استقر الرأي أخيراً على تكليف الوزير عمير الأزدي بالبحث عن مكان مناسب للمدينة.

توصل الوزير إلى مكان يقع في فحص سايس، وهو بسيط يمتد بين فاس، ومكناس، ويفصل بين سلسلة جبال الأطلس المتوسط عن سلسلة الأطلس الساحلي، وأرضه من أخصب أراضي المغرب وأجودها. وقد وجد في هذا السهل فسحة معتدلة ، كثيرة المياه، حيث تنبعث منه العيون التي تزيد عن ستين عنصراً، تزود نهر مدينة فاس. وتحيط بهذه العيون مجموعة كبيرة من الأشجار المختلفة. وكانت تسكن في هذه المنطقة قبائل من زناتة يعرفون ببني زواغة، وبني يرغثن، فأعجب هذا المكان عميراً، لطيب هوائه، وكثرة مياهه، وانبساط أرضه، وأمر بشرائه من قبائل زناتة، استعداداً لبناء المدينة فيه، فتنازلوا عنه لقاء ستة آلاف درهم[35].

بناء عدوة الأندلس:

انتقل إدريس الثاني إلى هذا الموضع، وأصدر الأمر ببناء المدينة في شهر ربيع الأول سنة 192هـ/ كانون الثاني 808م. ووضع حجر الأساس للجزء الذي سيعرف بعدوة الأندلس، على الضفة الشرقية لنهر فاس، ودعا بأن يجعلها الله دار علم وفقه، يتلى بها كتاب الله، وتُقام بها حدوده، كما دعا لأهلها أنْ يجعلهم الله متمسكين بالسنة والجماعة، طالما بقيت المدينة وقد بُدئ ببناء الأساس، ثم دور الإمام، والمسجد الجامع، الذي سمي بجامع الأشياخ، وذلك بجانب الآبار، على مقربة من المعسكر الذي نزل فيه إدريس. وقد أحيط هذا البناء بسور من خشب، وكان فيه ستة أبواب[36].

(35) روض القرطاس، ص 31. الجزنائي، ص 18، 19. جذوة الاقتباس: 1/ 29 ـ 30.

(36) روض القرطاس، ص 38. الجزنائي، ص 24، 25. جذوة الاقتباس: 1/ 30.

بناء عدوة القرويين:

وبعد عام تقريباً، أي في ربيع الآخر سنة 193هـ/كانون أول 808م. شرع إدريس الثاني في تشييد مدينة جديدة مواجهة للمدينة الأولى، على الضفة المقابلة لنهر فاس. وهذه المدينة، أو الحي الجديد، سوف يُعرف بعدوة القرويين. وهو أشبه ما يكون بقرية رعوية، وكان له أيضاً ستة أبواب. وقد أقيم في داخل الحي المسجد الجامع، الذي عرف فيما بعد بجامع الشرفاء. وكذلك دار الإمارة، التي عُرفت بدار القيطون، أي دار الفسطاط، لأن الإمام ضرب فسطاطه فيها. كما بُنيت في داخل الحي أيضاً القيسارية، وأُقيمت الأسواق، والحوانيت حول الجامع من جميع الجوانب. وقد أمر الناس بالبناء والغرس، وشُجعوا على ذلك، حيث وهبهم إدريس الثاني جميع الأماكن التي أنجزوا بناءها وغرسها قبل إتمام بناء السور. فكثرت العمارة، واستخدم خشب الأشجار الموجود في المنطقة لأعمال البناء، مما سهّل الأمر على الناس[37].

ولما فرغ إدريس الثاني من بناء أسوار المدينتين، وجامعي خطبتيهما أنزل القبائلِ الوافدة عليه فيهما، فأنزل القادمين من الأندلس بالعدوة الشرقية منها، فسميت لذلك بعدوة الأندلسيين. كما أنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية، فسميت بعدوة القرويين. ولم يلبث هذا الإنشاء المزدوج الذي قام به إدريس الثاني، حتى امتلأ بالسكان بسرعة كبيرة. نظراً للتسهيلات الكثيرة التي أعطيت لمن يساهم بالبناء ويقيم فيه[38].

وقسّم إدريس الثاني الأرض المحيطة بالمدينة على قبائل العرب والبربر. ويبدو أن معظم النازحين إلى العدوة الشرقية، أو عدوة الأندلس، كانوا من البربر. كذلك فقد أنزل الأمير جنوده وقواده وما يملكه من خيل

(37) روض القرطاس، ص 38 ـ 39. الجزنائي، ص 25.

(38) روض القرطاس، ص 47. الجزنائي، ص 26.

وإبل وبقر في هذه العدوة. بينما لم ينزل معه في عدوة القرويين سوى مواليه وحشمه، وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقة. وهكذا ظلت مدينة فاس عبارة عن مدينتين مستقلتين مسوَّرتين، كلتاهما في سفح جبل، ويفصل بينهما نهر تمتد عليه جسور. وقد احتفظت كل من العدوتين بكيانها على النمط الذي خططه إدريس الثاني، حتى عهد أمراء زناتة في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، فكان لكل مدينة مساجدها وأسواقها وولاتها، بل وكانت لكل منهما دارها الخاصة لضرب النقود. وقد أصبحت فاس عاصمة الأدارسة، حيث أقام بها إدريس الثاني حتى سنة 197هـ/ 812م[39].

وقد أشار المؤرخون إلى روايات عديدة، معظمها أسطورية بشأن تسمية المدينة، منها أن إدريس الثاني شارك في حفر أسس المدينة بفأس مصنوعة من الذهب والفضة، فسميت باسمها. أو أنها بنيت على موضع مدينة قديمة تسمى «ساف»، فقلب إدريس الثاني اسمها إلى «فاس»[40]. إن اختلاف الروايات في أسباب التسمية لا يؤثر على الحقيقة التاريخية المتمثلة بظهور المدينة بقسميها في أوائل عهد الدولة الأدريسية، وإنها استمرت في تأدية رسالتها الحضارية إلى الوقت الحاضر.

إن مدينة فاس لم تظهر للوجود كمدينة موحدة إلاَّ بعد سيطرة المرابطين عليها سنة 462هـ/ 1069م. وإن بقاءها على شكل مدينتين منفصلتين تحمل كل واحدة منها اسمها الخاص، هو أمر غريب يسترعي الملاحظة. وقد دعا هذا الأمر بعض المستشرقين، لا سيما ليفي بروفنسال، إلى الشك فيما إذا كان بناء عدوتي فاس قد تم في عهد إدريس الثاني. فهو يرى أن المؤسس الحقيقي لمدينة فاس الأولى، أي عدوة الأندلس، هو إدريس الأول، الذي أسس مدينة أو معسكراً، عُرف فيما بعد بعدوة الأندلس،

(39) روض القرطاس، ص 46 ـ 47. وانظر: عبد الحميد، المرجع السابق: 1/ 450. العربي، دولة الأدارسة، ص 86.

(40) روض القرطاس، ص 37. الجزنائي، ص 23 ـ 24.

وذلك سنة 172هـ/ 788م، أو بعد هذا التاريخ بسنوات قليلة. وقد استند في ذلك إلى بعض الروايات الجانبية، وإلى وجود عملة مضروبة في فاس ترجع إلى سنتي 185هـ و191هـ، أي قبل سنة 193هـ، وهو التاريخ الذي أنشئت فيه مدينة فاس في عهد إدريس الثاني[41].

وعلى الرغم من وجاهة رأي بروفنسال، لكنه لا يمكن أن يكون نهائياً، لأنه يبدو من الصعب أن يتمكن إدريس الأول، خلال الفترة القصيرة التي أمضاها في الحكم، أن يفكر ببناء مدينة. كذلك لا يتوفر أي سبب سياسي أو عسكري يمكن أن يحمله على تخطيط مدينة جديدة، لأن وليلي كانت كافية لإيواء جيشه الصغير. وإدارته المتواضعة. ومن ناحية أخرى لا يمكن لإدريس الأول أن يترك قبيلة أوربة، ويذهب إلى مكان آخر محاط بقبائل لا يمكن الاعتماد على ولائها، لا سيما وأنه كان يعيش فترة التكوين الحرجة للدولة[42].

أهمية بناء مدينة فاس:

أشار إدريس الثاني ضمن خطبة له بعد الانتهاء من بناء المدينة. إلى أنه أنشأها «ليعبد فيها الله»[43]. ولكن بالإضافة إلى هذا الدافع الروحي، هناك عوامل أخرى سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وحضارية، كانت وراء فكرة التأسيس.

---

(41) ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب: محمود عبد العزيز سالم، وصلاح الدين حلمي، نهضة مصر، القاهرة، 1956، ص 17.

(42) للإطلاع على المناقشات، والاستزادة من الآراء التي تؤيد نظرية بروفنسال أو تعارضها، انظر: المرجع السابق، ص 12 ـ 50. شارل أندريه جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985. 2/ 56 ـ 57. عبد الحميد، المرجع السابق: 1/ 451. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982، ص 410 ـ 415. العربي، دولة الأدارسة، ص 86 ـ 102.

(43) روض القرطاس، ص 49.

فالاعتبارات السياسية المتمثلة بتطور المرافق الإدارية والعمرانية في العاصمة الأولى، وليلي، أدت إلى ازدياد الحاجة إلى الانتقال إلى مكان آخر أكثر استيعاباً، لا سيما وأن هناك قبائل بربرية أخرى انضمت تحت لواء الدولة الجديدة، بالإضافة إلى أوربة، مثل زناتة، ومكناسة، ومصمودة. فكان من الضروري أن يكون هناك مركز آخر للدولة يمكن أن يستوعب هذه الفئات جميعاً. كذلك فقد أزداد إقبال وفود العرب على إدريس الثاني، لا سيما من القيروان والأندلس، فأراد أن ينظم استقرارهم في مكان آمن.

ويبدو أن وزيره العربي عمير بن مصعب الأزدي، وهو الذي أوحى إليه بفكرة الانتقال من وليلي إلى مدينة أخرى، لأن هذه المدينة لا يمكن أن تستوعب القادمين الجدد، كذلك فإن مصادرها المائية لا تكفي لإرواء عدد كبير من الناس. وقد لاقت هذه الفكرة استحساناً لدى إدريس الثاني، الذي أراد أن يكون له معسكره الخاص به، ليجمع فيه جنوده ومؤيديه. ويدل على ذلك أنه نقل جيشه من البربر إلى عدوة الأندلس، التي ابتناها أولاً، وحصَّنها، وأدار عليها الأسوار.

إن أهمية موقع مدينة فاس تشير إلى عبقرية المكان، حيث إن موقعها الطبيعي لم يتح سوى لعدد قليل من المدن العربية الإسلامية التي كتب لها البقاء، مثل القاهرة وبغداد ودمشق، لأن فاس تقع في أقصى المضيق الجبلي الذي تحرس تازا مدخله الشرقي، وتطل على السهول المترامية الأطراف، والتي تمتد على ساحل المحيط الأطلسي. وإن الميزة الأساسية التي تميّز موقع فاس عن جميع مواقع المدن العربية الإسلامية الأخرى، تتصل بتوفّر المياه الطبيعية فيها بغزارة. وبدلاً من نظام القنوات المعقد الذي كانت تجلب بواسطته المياه إلى المدن الرومانية، والمدن الحديثة أيضاً، والذي هو عرضة للعطب في كل حين، ويحتاج إلى مجهود كبير للصيانة والحراسة، كانت فاس تجد حاجتها من الماء مضمونة كل يوم لجميع السكان. كذلك فإن محاولة أي عناصر معادية، أو جيش محاصر لتخريب نظام ماء وادي فاس

أمر غير ممكن، بسبب التكوين الطبيعي لمجرى النهر، الذي تمده روافد تنبع من جوف الأرض. وهذا النظام هو الذي سمح للمدينة بالصمود عبر العصور أمام من حاول أن يستولي عليها بالقوة(44).

ولو تتبعنا ما يقوله الجغرافيون والرحالة العرب الذين وصفوا المدينة، وأشادوا بموقعها وخصبها ورخص أسعار المواد الغذائية فيها، لتبين لنا فعلاً أهمية موقع المدينة، والدوافع التي كانت وراء اختياره(45). فلقد هيأت الغابات المجاورة للمدينة موادَّ أولية للوقود، وكذلك كانت مأوى لكثير من الحيوانات البرية التي وفرت مجالاً خصباً لرياضة الصيد والقنص، ويُعد قرب المدينة من نهر سبو، حيث لا يبعد عنها سوى ثلاثة كيلومترات، من عوامل الازدهار الاقتصادي للمدينة، لأنه صالح للملاحة، حيث كانت تسير فيه القوارب والسفن الصغيرة حتى المحيط الأطلسي(46).

وأخيراً لا بدَّ من الإشارة إلى أن المدينة تحتل مركزاً تجارياً مرموقاً في الجنوب والشمال، والشرق والغرب، لأنها تقع عند ملتقى طرق القوافل في المغرب كله، وهذه الطرق هي كالآتي:

1 ـ الطريق القادمة من جنوبي تونس في الجريد عبر تلمسان والمتجهة إلى المحيط الأطلسي.

2 ـ الطريق التي تخترق جبال الريف وتتجه إلى سواحل البحر المتوسط والأندلس.

---

(44) انظر: العربي: دولة الأدارسة، ص 109.

(45) راجع: اليعقوبي، كتاب البلدان، نشره دي غوية مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة، ليدن، 1892، ص 358. ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، 1989، ص 89، 100. البكري، ص 116. الشريف الأدريسي، وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أعتنى بتصحيحه، هنري بيرس، الجزائر، 1957، ص 50 ـ 51. معجم البلدان: 4/230.

(46) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص 37.

3 ـ الطريق التي تمر بمضائق سلسلة جبال الأطلس المتوسط، وتتجه إلى سجلماسة، ثم إلى الصحراء الكبرى[47].

مساهمة الأدارسة في تنمية الحضارة العربية:

1 ـ انتشار الإسلام واللغة العربية:

لقد كان دخول الأدارسة إلى المغرب انتصاراً للحضارة العربية، وللدين الإسلامي الحنيف، فعلى الرغم من فتوح موسى بن نصير في شمال أفريقيا في أواخر القرن الأول الهجري، فإن نفوذ العرب الفعلي لم يتعد مناطق السواحل، وبعض المناطق الداخلية القليلة. وظلت أماكن كثيرة في الصحراء بعيدة عن التأثّر بالمعطيات الحضارية والروحية للدين الجديد، لا سيما مناطق استقرار قبائل صنهاجة في جنوب المغرب، حيث إنهم لم يعتنقوا الإسلام إلاّ منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي[48]، وهو القرن الذي نشط فيه الأدارسة للعمل في مجال إخضاع هذه القبائل. ونشر الإسلام بين صفوفها. ولقد كان من أوائل اهتمامات إدريس الأول، محاولة القضاء على الحركات الانفصالية والانحرافات العقائدية لدى بعض القبائل البربرية المتواجدة في المغرب، لا سيما قبائل برغواطة في إقليم تامسنا. كذلك نشر الإسلام بين القبائل الأخرى التي كانت تعيش في منطقة مدينة سلا، وإقليم تادلا في جنوب المغرب[49]. وقد أكمل إدريس الثاني عمل والده في جمع شتات القبائل البربرية، وتأسيس أول دولة عربية في المغرب الأقصى. وعلى الرغم من بقاء مناطق كثيرة في المغرب الأقصى خارج نطاق الدولة الأدريسية، لكن إدريس الثاني، تمكّن من جمع عدد كبير من القبائل البربرية

---

(47) قارن: العربي، دولة الأدارسة، ص 113.

(48) انظر: ابن خلدون، العبر: 6/ 373.

(49) روض القرطاس، ص 20. ابن خلدون، العبر: 7/ 24. وانظر إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، ص 140 ـ 144.

تحت سلطة مركزية عربية إسلامية واحدة، بعد أن كانت هذه القبائل مستقلة الواحدة عن الأخرى، وهذا إنجاز كبير في مجال توحيد هذه القبائل، وتهيأتها لعملية التعريب.

إن نقطة التحول الرئيسة في عمر الدولة الأدريسية تبتدئ بإمامة إدريس الثاني، لأن والده إدريس بن عبد الله كان أشبه ما يكون بلاجئ لدى قبائل البربر بالمغرب الأقصى. وعلى الرغم أنه كان يتمتع بمركز ممتاز لدى هذه القبائل، نظراً لأصله الذي يعود إلى بيت النبوة، وإلى ما كان يتمتع به من صفات، وخصائل جيّدة. لكنه مع ذلك كان وحيداً غريباً، ولم يستقبل من الوافدين العرب إلاّ القليل، أمثال أخيه سليمان وابن عمه داود بن القاسم، الذي لم يستطيعوا أن يحولوا من طبيعة إحساسه بالغربة، والدليل على ذلك أن بعضهم فضل العودة إلى المشرق على البقاء في المغرب، مثل ابن عمه داود بن القاسم[50].

أما إدريس الثاني، فقد ابتدأ بإحاطة نفسه بحاشية عربية، لا سيما بعد أن شب، وتولى ممارسة سلطاته. وقد ساعده على ذلك قدوم الكثير من العرب. فكان ممن وفد عليه نحو خمسمئة فارس من أفريقية والأندلس من القيسية، والأزد، والخزرج، وبني يحصب، والصدف، وغيرهم. وقد سرَّ بهم إدريس الثاني، وأجزل لهم العطاء، وقرَّبهم، ورفع منازلهم، وجعلهم بطانته دون البربر[51] وقد عيّن عدداً كبيراً منهم موظفين مركزيين، وقضاة وجباة، بل اتخذ منهم، كما أسلفنا، وزيره، عمير بن مصعب الأزدي، واتخذ عبد الله بن مالك الخزرجي للكتابة، كما استقضى عامر بن محمد بن سعيد القيسي[52].

(50) انظر: البكري، ص 123. ابن عذاري: 1/ 210. وقارن: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 2/ 441.

(51) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص 18.

(52) انظر: البكري، ص 123. الحلة السيراء: 1/ 55، 111 ـ 112. الكامل في التاريخ: 6/ 156.

لقد كان لهذه العناصر العربية الوافدة قيمة مزدوجة بالنسبة إلى إدريس الثاني، لأنه وجد فيها على الصعيد الشخصي الحلقة المفقودة بين أصله الذي يربطه به الدم، ووضعه الواقعي الذي تربطه به التقاليد واللغة والمحيط، أما على الصعيد السياسي، فقد كان هؤلاء العرب النواة التي يريدها لبناء إدارة عربية منظمة، وذلك للخروج عن وصاية قبيلة أوربة البربرية، ولضمان التوازن المطلوب والاستقلال لدولته الجديدة عن نفوذ القبائل المحلية. وقد نجح إدريس الثاني في هذا المجال نجاحاً كبيراً، وحوَّل الدولة إلى كيان عربي قوي مؤثر في المنطقة. وكان لهؤلاء العرب إسهامات في مجال الإدارة، حيث اهتم كثير منهم بالعمارة في الأقاليم التي عيّنوا فيها، إلى جانب العمل على نشر الإسلام، واللغة العربية.

وكانت لغة الإدارة في دولة الأدارسة هي العربية، بدليل نقوش السكة، وخطبة إدريس الثاني التي ألقاها بعد انتهاء مدينة فاس[53]. ومن الملاحظ أن اللغة العربية انتشرت انتشاراً واسعاً في المناطق التي استقر فيها الأدارسة. وما يزال هذا الأثر العميق يلاحظ في مناطق الريف، والسوس، وهما من مناطق البربر الأصيلة[54].

أما فيما يخص النقود العربية، فقد ضربت دارهم بأسم إدريس الثاني، ترجع إلى تواريخ متعددة، مثل السنوات 181، 183، 185، 189هـ[55]. بل إن النقود العربية بدأ ضربها منذ عهد إدريس الأول سنة 174هـ/ 790م ونقش في أحد وجهيها «لا إله إلاّ الله لا شريك له بأسم الله. ضرب هذا الدرهم بتدغة سنة 174هـ». وفي الوجه الثاني صورة هلال ثم «محمد رسول الله» وتحته: «مما أمر به إدريس بن عبد الله، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل

(53) روض القرطاس، ص 49.
(54) راجع: حركات، المغرب عبر التاريخ: 1/ 127.
(55) انظر: بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 15 ـ 16.

كان زهوقاً»[56]. وتدل هذه النقود على مدى تغلغل اللغة العربية ودخولها بشكل منظم في إدارة البلاد.

ب ـ إنشاء المدن:

إن أعظم إنجاز حضاري حققه الأدارسة في المغرب الأقصى. وهو قيامهم بإنشاء مدن عديدة، أصبحت مراكز مهمة لنشر العلم والثقافة العربية الإسلامية. وتأتي مدينة فاس بطبيعة الحال في مقدمة هذه المدن، وقد أشرنا إلى بنائها، والظروف التي أدت إلى وجودها. إن أهمية فاس لا تقتصر على بناء المدينة بكل ما تضمه من مساجد وأسواق وقصور وغيرها، بل في الرسالة الحضارية التي حملتها، والتي تمثل دور الأدارسة في بلاد المغرب الأقصى. ويجب الانتباه في هذا المجال أن وجه التجديد والابتكار في عمل إدريس الثاني، هو أنه أنشأ عاصمة عربية في بيئة بربرية، تماماً كما فعل عقبة بن نافع الفهري، قبله حينما بنى القيروان في أفريقية بالمغرب الأدنى. فأصبحت فاس كالقيروان بالنسبة للمغرب الأقصى. ولقد تعمد إدريس الثاني أن يبرز الصبغة العربية للمدينة، حيث أنزل معه العرب الوافدين عليه في عدوة القرويين، كما مرّ بنا سابقاً، ولكن العدوة الثانية، أي عدوة الأندلس، لم تلبث هي الأخرى أن تعربت بعد أن وصلها عدد كبير من أهل الأندلس، الذين جاءوا في أعقاب هيجة الربض في عهد الحكم الأول بن هشام في الأندلس سنة 202هـ/817م[57]. وكان هؤلاء يتألفون من نحو ثمانمئة أسرة، نزلوا في عدوة الأندلس، وشرعوا في البناء بها على الطريقة الأندلسية، فعمرت بهم المدينة، وسميت باسمهم، كما أسلفنا[58]. ولا يخفى ما كان لهؤلاء من أثر في نقل الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس إلى المغرب

---

(56) حركات، المرجع السابق، ص 126. العربي، دولة الأدارسة، ص 103.

(57) ابن عذاري: 1/236، 2/77.

(58) انظر: روض القرطاس، ص 47.

الأقصى، والمساعدة في عملية الامتزاج بالسكان المحليين، وتمكين اللغة العربية والحضارة في المنطقة.

ومن المدن الأخرى التي أنشأت في عهد الأدارسة:

مدينة البصرة:

وقد بنيت في أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وأول من تولاها من الأدارسة هو إبراهيم بن القاسم بن إدريس[59]، وهي تقع بين أصيلا والعرائش بعيداً عن البحر. وكانت تعرف أول الأمر ببصرة الكتان نظراً لانتشار تجارته فيها، وكان لها عشرة أبواب، أما جامعها فكان يتألف من سبع بلاطات، ويحيط بها عيون عذبة وآبار كثيرة. وكانت هذه المدينة تشتهر بكثرة مراعيها، وجمال نسائها، حيث يشير البكري إلى ذلك بقوله: «ليس بأرض المغرب أجمل منهن»[60].

مدينة جراوة:

وتقع في الشمال الشرقي من المغرب، وقد بناها أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان سنة 257 أو 259هـ/ 870 أو 872م. وكان لها أربعة أبواب، وجامع يحتوي على خمس بلاطات. وحولها سهول خصبة ومراعي وفيرة، يسكن فيها قبائل عديدة، منهم مدغرة على البحر، وبنو يزناتن، وزواغة، وزناتة، وبنو يفرن، وغيرهم[61].

قلعة حجر النسر:

بنيت هذه القلعة في الجنوب الشرقي من البصرة سنة 317هـ/ 929م على

---

(59) ابن عذاري: 1/ 235.

(60) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 110. وانظر أيضاً: معجم البلدان: 1/ 440.

(61) البكري، المغرب، ص 142. ابن عذاري: 1/ 196.

يد إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس، وفي هذه القلعة حوصر الأدارسة في منطقة الريف، في عهد موسى بن أبي العافية. وقد دافعوا عنها دفاعاً مستميتاً. ومن المرجَّح أن هذه القلعة كانت تقع قريباً من مضارب قبيلة سوماتة حيث لا تزال أنقاضها موجودة هناك[62].

أصيلا:

وتقع في الغرب من طنجة. وكانت هذه المدينة موجودة قبل الإسلام. حيث عرفها القرطاجنيون، ولكنها غمرت بالبحر، ثم جددها البربر والأدارسة، حيث اتخذ موضعها رباطاً يقصد من جهات متعددة، وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة في رمضان، وذي الحجة، والمحرم. وكان الناس يقصدونها في هذه الأوقات للتجارة، ثم بنيت المدينة في هذا الموضع بالتدريج، فقدمها القاسم بن إدريس، وكان أول من ملكها من الأدارسة، فبنى سورها وقصرها، ثم تولاها أبناؤه من بعده. وقد سكن حول هذه المدينة قبائل عديدة، لا سيما لواتة، وهوارة[63].

جـ ـ تشييد الجوامع:

اتبع الأدارسة منذ بداية دولتهم سياسة بناء الجوامع، لما لها من أثر كبير على نشر الإسلام واللغة العربية بين السكان المحليين في المغرب. وتشير المصادر إلى قيام إدريس الأول ببناء جامع في مدينة تلمسان حال وقوعها تحت سيطرته سنة 174هـ/ 790م، وقد نقش على منبر هذا المسجد الجامع العبارات الآتية: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله

(62) انظر: حركات، المرجع السابق: 1/ 134. وقارن: البكري، المغرب، ص 114، 126، 129. ابن عذاري: 1/ 214.

(63) البكري، ص 112 ـ 113. ابن عذاري: 1/ 232 ـ 235.

عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومئة»[64]. وقد أشرنا سابقاً إلى بناء مسجدين جامعين في عدوتي فاس، الأول جامع الأشياخ في عدوة الأندلسيين، والثاني جامع الشرفاء في عدوة القرويين. ولكن مع اتساع المدينة بقسميها. ونشأة الأحياء الجديدة حولها، ازداد اتساع هذين الجامعين القديمين، وظهرت الحاجة إلى بناء مساجد محلية جديدة لتلبية حاجة المصلين الذين كانت أعدادهم تزداد مع ازدياد حجم المدينة، وكثرة الوافدين عليها من كل أنحاء المغرب ومن الأندلس.

بناء جامع القرويين وأثره الحضاري:

يعود الفضل في بناء جامع القرويين إلى إحدى الأسر الفهرية التي جاءت من القيروان إلى فاس، ونزلت في عدوة القرويين. كما يعود إليها الفضل أيضاً في بناء جامع آخر في العدوة الثانية من مدينة فاس، وذلك هو جامع الأندلسيين[65].

وقع الاختيار على مكان جامع القرويين في إحدى الحقول القريبة من المدينة، وقد ابتدأ الحفر في أسس المسجد في اليوم الأول من رمضان سنة 245هـ/ 30 تشرين الثاني 859م. أما مواد البناء المستعملة. فقد استخرجت من المكان نفسه، وحتى الماء استنبط من بئر كانت قائمة هناك. وكان الأمير يحيى بن محمد بن إدريس قد سر بهذه المبادرة الكريمة من هذه الأسرة لبناء المسجدين بالقرب من مقره في فاس، فكان يتفقد البناء بنفسه، هو والعلماء والفقهاء[66].

كان هذا الجامع صغيراً، وهو يتألف من تصميم مربع الشكل تقريباً،

---

(64) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص 27. وقارن. عبد الهادي التازي، جامع القرويين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972: 1/ 44.

(65) روض القرطاس، ص 54 ـ 55. جني زهرة الآس، ص 45.

(66) المصدرين السابقين، والصفحات نفسها: وقارن: التازي، جامع القرويين: 1/ 46 ـ 47.

على غرار بقية الجوامع الإسلامية، تبلغ مساحته نحو 1600متر مربع. ويتألف من أربع بلاطات، أي أروقة أفقية، تمتد من الشرق إلى الغرب موازية لجدار القبلة، وله صحن وأربعة أبواب. وقد بقي هذا الجامع حتى انقضى حكم الأدارسة في فاس. وكان مقتصراً على إقامة الصلوات الخمس فقط. والظاهر أن الناس لم يكونوا قبل هذا الوقت من الكثرة بحيث يضطرون إلى اتخاذ القرويين مسجداً جامعاً. لكن عندما كثرت العمارات واتصل البناء في أرباض المدينة، رأى الناس ضرورة ذلك، واستجاب والي المدينة سنة 307هـ/ 919م لرغبة العلماء والفقهاء في نقل الخطبة من مسجد الشرفاء إلى القرويين. وقد صنع له منبراً من خشب الصنوبر يتألف من ست درجات[67].

وتمت أول زيادة على هذا المسجد الجامع بعد وقوع فاس بيد زناتة، تحت رعاية الأمويين في الأندلس. فقد كتب العامل أحمد بن أبي بكر الزناتي إلى الناصر لدين الله، يستأذن في بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس لذلك، فأذن له، وبعث إليه بمال كثير من أخماس الغنائم، وأمره أن يصرفه فيه، فأصلحه وزاد فيه، فبلغت مساحته نحو أربعة آلاف متر مربع[68]. كما بنيت له صومعة جديدة من الحجر المنحوت. ثم توالت عليه الزيادات في العهود اللاحقة، فبلغت مساحته في عهد المرابطين نحو 5846 متر مربع. وصنع له منبر رائع عوضاً عن المنبر الأموي القديم. ومن الآثار التي تركها الموحدون فيه، الثريا العظيمة التي أبدع الصناع في زخرفتها. أما في عهد بني مرين، فقد صنعت له ساعة مائية عظيمة، وفي عهد السعديين بنيت القبة الغريبة ذات السواري الثمان. وفي أيام العلويين وقع ترميم شامل لمباني القرويين، وبنيت مكاتب الإدارة وقاعة كبيرة للمطالعة، ثم نقلت الأقسام الدراسية من المسجد نفسه إلى بنايات خاصة[69].

(67) انظر: التازي، المرجع السابق: 1/ 47، 49.
(68) جني زهرة الآس، ص 46، 47. وانظر: حركات، المرجع السابق: 1/ 135 ـ 136.
(69) المرجع نفسه: 1/ 37. التازي، جامع القرويين: 1/ 80، 75، 2/ 322.

كانت المواد الدراسية في البداية ترتبط بالدين واللغة العربية من فقه وتفسير وأدب. وعرفت هذه الجامعة نشاطاً عظيماً في مختلف فروع المعرفة في العهود اللاحقة، لا سيما في أيام الموحدين والمرينيين والأشراف. وعاشت القرويين منذ البداية على نظام الوقف الذي اتسعت موارده بعد المرابطين خاصة، أي بعد أن سادت الروح الدينية والعلمية في أوساط أهل فاس. لقد كان العلماء الذين يدرّسون في هذه الجامعة يتطوعون لإلقاء دروسهم فيها، وكانوا يشغلون مناصب خارج الجامعة كالكتابة والقضاء وغيرها. وفي عهد المرينيين بنيت مدارس كثيرة لإيواء الطلاب، وجهزت مكتبات لتعينهم على تحصيل العلم، كما أسست مكتبة عظيمة في القرويين ذاتها. وحصلت تطورات عديدة أخرى على هذه الجامعة في أيام العلويين، واستمر الاهتمام بها إلى العصر الحديث، فقسمت مراحل الدراسة فيها، ثم عيِّن لها سنة 1942م أول مدير درّس على الطريقة العصرية، إلى جانب الطريقة التقليدية، وهو الأستاذ محمد الفاسي، الذي وضع نظاماً دقيقاً للامتحانات والمواد والكتب المقررة[70].

أما جامع الأندلس، فقد ابتدأ البناء فيه أيضاً سنة 245هـ/ 859م. وقد ساعد فيه جملة من الأندلسيين الساكنين في عدوة الأندلس، فسمي ذلك الجامع بهم. وكان البناء يتألف من ست بلاطات، وله صحن صغير. وقد زاد فيه أحد عمال الناصر لدين الله فيما بعد، فبنى له صومعة سنة 345هـ/ 956م. وقد نقلت الخطبة إليه من جامع الأشياخ على يد حامد بن حمدان الهمداني، عامل أبي عبد الله الشيعي، حين تغلب على فاس سنة 321هـ/ 933م[71]. وعلى الرغم من أهمية هذا الجامع الذي هو توأم جامع القرويين، لكن لم يصل في شهرته، إلى ما وصل إليه جامع القرويين، علماً أنه كان

(70) حركات، المرجع السابق: 1/ 136 ـ 137.

(71) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص 92. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، 1/ 78.

أيضاً منبراً للعلم والمعرفة وحلقات الدراسة[72].

د ـ الحياة الفكرية:

لا يمكننا أن نبتعد عن جامع القرويين حينما نتحدث عن الحياة الفكرية في عهد الأدارسة. فقد كان هذا الجامع محور الحياة الفكرية في مدينة فاس، بل في المغرب الأقصى كله. فهو يعد القلب والعصب والروح والبصر لمدينة فاس. لقد كان كل تقدم اقتصادي، وازدهار صناعي، ورقي اجتماعي مرتبطاً بالعلم والثقافة، ولم يكن من مركز يمثّل ذلك العلم، وتلك الثقافة في فاس إلاّ جامع القرويين وإذا أردنا أن نسأل عن الوقت الذي ابتدأت فيه دراسة العلم بالقرويين، يكون جوابنا، أنه الوقت الذي بدأت الصلاة فيه، لأنه لا فرق بين الصلاة والعلم والدراسة في نظر الإسلام، ويعرف ذلك كل من له صلة بدراسة تاريخ المساجد. لأن العادة جرت منذ أيام الإسلام الأولى أن يتخذ المسجد الذي تقام فيه الصلاة مركزاً للتعليم والتثقيف، كما يتخذ مجلساً لمناقشة الشؤون السياسية، ومحاكم لتثبيت الحقوق. ولهذا فإن العلماء الذين وضعوا قبلة القرويين كانوا أول من درَّس فيها، وبثوا العلم والمعرفة لا سيما وأن تأسيس هذا المسجد كان في أيام الأمير يحيى بن محمد، الذي انتشر العمران في فاس على عهده، ورحل إليه الناس من المشرق والقيروان والأندلس. ومن المرجح أن يكون من أوائل الذين عقدوا مجالس علمية حافلة في القيروان، الحافظ الثقة الشاعر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي (ت296هـ/ 908م) الذي ورد على فاس باستدعاء من الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس الذي كان على سابق معرفة به، وتجمعهما رابطة العلم والأدب، وقد عرف بمجالسه سواء في بلده، أو بالقيروان، أو بغداد[73].

---

(72) انظر، جني زهرة الآس، ص 94 ـ 95. التازي، جامع القرويين: 1/ 112.

(73) انظر: البكري، ص 130. البيان المغرب: 1/ 237. التازي، المرجع السابق: =

وكان من جملة الأمراء الأدارسة الذين شجعوا العلم والعلماء والشعراء، الأمير يحيى بن إدريس بن عمر (ت307هـ/ 919م) الذي كان فقيهاً عالماً حافظاً للحديث، يقصده العلماء والشعراء من كل جهات العالم الإسلامي. وقد كان له مجموعة من الوراقين لا شُغل لهم إلاَّ نسخ الكتب. ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا يمارسون دروسهم ومهنتهم هذه في جامع القرويين، الذي لا يبعد إلاَّ مسافة قريبة عن مسكن الأمير يحيى(74). وعلى الرغم من عدم توفر أدلة كثيرة على نشاط الأمراء الأدارسة الآخرين في هذا المجال، وذلك لقلة الموارد المالية المتاحة لديهم، حيث إنهم لم يكونوا ذوي ثروة تساعدهم على تشجيع الحركة العلمية والأدبية إلى الحد الذي يكثر معه الإنتاج، وتنتشر حركة التأليف. لكن نظرة قصيرة على تاريخ الأمويين بالأندلس، والعبيديين في القيروان، تدلنا على مدى الحركة الفكرية الواسعة في كل من أفريقية والأندلس في الوقت نفسه الذي كان فيه الأدارسة في المغرب. فهل كان المغرب في عهدهم خالياً من الحركة الفكرية؟ الجواب لا يمكن أن يكون بالإيجاب نظراً لما رأيناه من دور جامع القيروان، واهتمام بعض أمراء الأدارسة بالحركة الفكرية.

ويعود السبب إلى قلة ما وصلنا عن أخبار الأدارسة، لا سيما الفكرية منها، إلى أن معظم من كتب عنهم من المؤرخين كان متأخراً جداً عن عصرهم. فمن أهم من أشار إليهم أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي المعروف بابن أبي زرع (ت726هـ/ 1325 ـ 1326م). وهو ينقل كثيراً عن كتاب «تاريخ البرنوسي في دولة الأدارسة» الذي ألفه الشيخ أبو عبد الله محمد بن حمادة البرنوسي، وهو من المؤرخين المغاربة الذي عاشوا في

= 1/ 111 ـ 112. رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 120 فما بعدها.

(74) انظر: البكري ص 132. جذوة الاقتباس: 2/ 535. وقارن: التازي، المرجع السابق: 1/ 112.

القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. غير أن كتاب البرنوسي هذا يعد في جملة الكتب المفقودة مع الأسف، ولو عثرنا عليه لأمدنا بمعلومات قيِّمة عن الحركة الفكرية والعملية، فضلاً عن تفصيلات أخرى عن الحالة السياسية في عهد الأدارسة(75). كما كتب محمد بن يوسف الوراق القروي (ت363هـ/ 973م) عن بعض المدن التي عرفت ازدهاراً كبيراً في عهد الأدارسة، لا سيما سجلماسة، ونكور وفاس، والبصرة، وأصيلا، وذلك في كتابه «مسالك أفريقية وممالكها». الذي ألفه للحكم المستنصر في الأندلس(76). وقد فقدت معظم أصول هذا الكتاب كما فقدت أيضاً كتبه الأخرى عن أخبار ملوك شمال أفريقيا وحروبهم باستثناء نقولات قليلة احتفظ لنا بها بعض المؤرخين المتأخرين(77).

وكانت حركة العلوم الدينية مزدهرة في عهد الأدارسة، وابتدأت هذه الحركة بدخول إدريس بن عبد الله إلى المغرب، حيث نشر الموطأ بين المغاربة. وكان يؤثر عنه قوله: نحن أحق باتِّباع مالك بن أنس وقراءة كتابه، وذلك لرواية إدريس للموطأ عن والده عبد الله الكامل. وكذلك فقد ناهض إدريس معتقدات الخوارج في محاولة ناجحة لجمع المغرب كله على كلمة واحدة. ولهذا كان الفضل الأكبر يرجع إلى إدريس الأول الذي استطاع أن يحمل الناس على اتِّباع آراء عالم المدينة، مالك بن أنس، ولم يكن عمل إدريس شاقاً في إقناع المغاربة بهذا الأمر. لأنه ينسجم مع طبيعتهم البسيطة التي تحبذ الأشياء الواضحة التي لا يكتنفها الغموض. ولهذا فقد فتحت القرويين عيونها على تعاليم مالك، وكانت حلقاتها مجالاً واسعاً لدراسة

(75) انظر: عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري المركشي عن شمال أفريقيا من الفتح إلى نهاية عهد المرابطين، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الرابع، المجلد السادس والثلاثين، بغداد، 1985، ص 234 ـ 235.

(76) البيان المغرب: 1/ 176 ـ 180، 232 ـ 235. وقارن: البكري ص 111 ـ 112.

(77) انظر: طه، موارد تاريخ ابن عذاري: ص 248 ـ 251.

آرائه، ومناقشة آراء الفقهاء المسلمين الآخرين[78].

أما الحركة الأدبية، قد عرفت نشاطاً لا بأس به حيث احتفظت لنا المصادر بنُبَذٍ قليلة متفرقة منه. فقد عرف عهد الأدارسة معظم أبواب الأدب التقليدية، غير أن الشعر السياسي كان طاغياً على الأبواب الأخرى، نظراً للصراع القائم بين مختلف الفئات التي كانت موجودة في ذلك العصر. وكان بين أمراء الأدارسة عدد كبير من الأدباء والشعراء، منهم إدريس الثاني[79]، الذي رُوِيَ عنه قوله للشعر في مناسبات عديدة، مما يدل على قابلية شعرية جيّدة، وبلاغة متمكنة[80]. ومن الأمراء الآخرين الذين عُرِف عنهم قول الشعر، إبراهيم بن القاسم بن إدريس، باني قلعة حجر النسر[81].

وقد طرق الشعراء في عهد الأدارسة مختلف صنوف الشعر كالشكوى، والمدح، والوصف. كما اشترك البربر أيضاً في الحركة الأدبية، بفضل اختلاطهم وامتزاجهم بالأدارسة. ومن شعرائهم الذين اشتهروا في هذا المجال، سعيد بن هشام المصمودي، الذي قال قصيدة طويلة بعد إحدى المعارك التي خسرها البربر مع البرغواطيين، والقصيدة تقليد واضح لمعلّقة عمرو بن كلثوم، وزناً وقافية، بالإضافة إلى تقارب المناسبتين، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثّر البربر بالحركة الأدبية العربية عامة في المشرق والمغرب[82].

وظهر الألم العربي في شعر الأدارسة، الذين أحس الأوّلون منهم بحنين إلى مواطن آبائهم الأصلية. ويُؤْثَر عن إدريس الثاني أنه قال شعراً بهذا

---

(78) انظر: التازي، جامع القرويين: 1/ 118 ـ 119.

(79) انظر: جذوة الاقتباس: 1/ 161.

(80) روض القرطاس، ص 26 ـ 27. جني زهرة الآس، ص 16 ـ 17.

(81) حركات، المغرب عبر التاريخ: 1/ 139.

(82) انظر بعض أبيات القصيدة في البيان المغرب: 1: / 226، قارن: حركات، المرجع السابق: 1/ 140.

المعنى، كما نُقِل عن شاعر عربي آخر، سكن بين البربر في منطقة ورغة، فقال في نفسه البيتين الآتيين:[83]

ألاّ هلْ أتى أهل المدينة أنني ... بِوِرْغَةَ بين الأعجمين غريبُ
إذا قلتُ شيئاً، قيل ماذا تريده؟ ... لهم بين أحراز الوجوه قطُوبُ

ومن الشعراء الذين امتازوا بالمدح، الشاعر أبو عبد الرحمن بكر بن حمّاد التاهرتي، الذي قال قصائد كثيرة في أحمد بن القاسم بن إدريس، أحد وُلاة البصرة من الأدارسة[84]. كذلك اشتهر من الشعراء في عهد الأدارسة من طرق أبواب الوصف، وأحسن فيها، كالشاعر أحمد بن فتح المعروف بأبن الجزار التاهرتي، الذي مدح أبا العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم، ووصف جمال نساء أهل بصرة المغرب، ولقد بلغت الرقة بهذا الشاعر أن جمع أربعة أوصاف لجمال المرأة البصرية، مع الدقة في الوصف، وذلك كله في البيت الثاني من البيتين الآتيين:[85]

قَبَح الإله الدهر إلاّ قينة ... بصريَّة في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في ... وجناتها والكشح غير مفاض

هذه نظرة موجزة عن الحياة الفكرية في عهد الأدارسة، وهي على اختصارها وبساطتها تدل على محاولات مشكورة لما قام به هؤلاء، رغم إمكاناتهم القليلة، في دعم العلم وتشجيع الأدب، ونشر الإسلام واللغة العربية في بيئة غريبة واسعة، فأستطاعوا أن يبذروا في المغرب الأقصى بذور الثقافة العربية الإسلامية، التي انتعشت ونمت وآتت أُكُلَها في العصور التي تلت عصر الأدارسة، لا سيما في زمن المُرَابطين والموحّدين والمَرِينيّين.

(83) البيان المغرب: 1/ 236. حركات، المرجع السابق: 1/ 140.
(84) البيان المغرب: 1/ 237.
(85) البكري، ص 110. معجم البلدان: 1/ 440. وقارن حركات، المرجع السابق: 1/ 141.

الفصل الثاني

الأغالبة: تأسيس دولتهم، دوافعه، وأهميته

إن المتتبع لتاريخ المغرب العربي في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، يجد قيام عدّة دول مستقلة. وقد أشرنا فيما سلف إلى دولة الأدارسة في المغرب الأقصى. كما قامت في هذا الجزء أيضاً من المغرب دولة بني مدرار في سجلماسة، ودولة بني صالح بن منصور الحميري في الريف المغربي بنكور، ودولة بني صالح بن طريف البرغواطي في شالة بتامسنا. وقامت في المغرب الأوسط دولة الرستميين في تيهرت. أما المغرب الأدنى، فشهد قيام دولة الأغالبة.

وكان للاستقلال المبكر الذي تمتع به المغرب الأقصى بعد حركات التمرد التي قام بها البربر سنة 122هـ/ 739 ـ 740م أثرٌ في نجاح قيام بعض هذه الدول، لا سيما دولة الأدارسة. أما بالنسبة للمغرب الأدنى، فقد كانت الظروف السياسية التي سادت في ولاية أفريقية في أواخر العهد الأموي وأوائل العصر العباسي، مشجعة على قيام كيان شبه مستقل في هذه المنطقة، التي تميّزت بظهور حركات متعددة للخوارج الصفرية والأباضية بالإضافة إلى حركات التمرد التي قام بها الجند.

وفي المشرق كان وضع الخلافة صعباً لكثرة ما نجم من صعاب واضطرابات في أرمينيا وأذربيجان، وخراسان، واليمن. ولهذا فقد تأثرت خزينة الدولة بشدّة لهذه الأحداث. وٱتخذ الخليفة هارون الرشيد فعلاً

إجراءات مالية شديدة لمقاومة هذه الحالة في سنة 184هـ/ 800م[1]، وهي السنة التي عُيِّن فيها إبراهيم بن الأغلب على أفريقية، فجاءت المساومة التي اقترحها الأخير بشأن عدم أخذ مساعدة من بيت المال، ودفع مبلغ سنويّ إلى بغداد، في وقت مناسب فخفف الوطأة على بيت المال، وأتاح له الامتلاء من جديد، ولهذا لقي طلب إبراهيم في بغداد تأييداً طيّباً.

يضاف إلى ذلك أن سياسة الرشيد العامة في ذلك الوقت كانت الحد من نفوذ البرامكة، الذين لم يكن يتحمّلهم إلاّ على مضض، لممارستهم سلطة هائلة في الدولة، بفضل قدرتهم، ونفوذهم، وأقاربهم، ومواليهم الكثيرين. وكان محمد بن مقاتل العكي، والي القيروان الأخير قبل ابن الأغلب، في حماية البرامكة، حيث كان جعفر بن يحيى البرمكي شديد العناية به، ولا بدَّ أنه حصل على منصبه بمساعدتهم[2]. لذلك فإن عَزْلَه، والتحوير الذي طرأ على ولاية أفريقية، وقيام الأغالبة، يندرج تماماً ضمن السياسة العامة للخليفة، ولا يجوز فصل تأسيس الإمارة الأغلبية عن عقدة متشابكة جدّاً لسياسة الخلافة، حيث لم يتول ابن الأغلب مركزه الجديد في القيروان إلاّ لمزاياه الشخصية، ولم تكن له صلات بالبرامكة، وإنه قدَّم الوعود العديدة للعمل على تخفيف سياسة الرشيد، لا سيما إزاء العلويين[3].

إن قيام دولة الأغالبة، وتوَلّي إبراهيم بن الأغلب إدارة المغرب الأدنى يشير إلى وجود تغيير كبير في الوضع السياسي للمنطقة، حيث ينتهي عصر الولاة في المغرب الأدنى، ويبدأ عصر الاستقلال الذاتي، حيث استقل إبراهيم بن الأغلب بحُكم البلاد، وأورثها أبناءه من بعده، ولم يعد يربط

(1) انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، 1960: 2/ 415. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر: ذي غوية، ليدن، 1879 ـ 1901: 3/ 649.

(2) الحلة السيراء: 1/ 89.

(3) قارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، تعريب، المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 125 ـ 126.

الخلافة بهذه المنطقة سوى الخُطبة والدعاء للخليفة العباسيّ في أيام الجُمَع. أما السلطة الحقيقية، فانحصرت في أسرة آل الأغلب، وقد نجحت هذه الأسرة في إدارة البلاد لمدة تزيد على قرن من الزمن، حتى مجيء الفاطميين سنة 296هـ/ 908م[4].

وهكذا لم يعد للسلطة المركزية دور كبير في التأثير على هذه المنطقة. ومن الملاحظ أن النزعة الاستقلالية في هذه البلاد ظهرت منذ فترة مبكرة حينما حاول عبد الرحمن بن حبيب (127 ـ 137هـ/ 744 ـ 754م) والي أفريقية التخلّص من سلطة الدولة العباسية في بداية تكوينها، وانشغالها بمشكلاتها في المشرق.

ونتيجة لاستمرار حركات التمرد والفتن في أفريقية، وما نجم عنها من فوضى واضطراب، لم تتمكّن السلطة العباسية من السيطرة الفعلية الكاملة عليها. وقد أتاحت هذه الظروف الفرصة لإبراهيم بن الأغلب، عامل الزاب، لإقامة كيان شبه مستقل برعاية الخلافة العباسية، حيث أقنعت الأحداث المتوالية في المغرب الأدنى الخليفة هارون الرشيد بصعوبةِ السيطرة المباشرة على هذه المنطقة. وهذا ما دفعه لقَبُول ما عَرَضه عليه ابن الأغلب باستقلال ولاية أفريقية استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الاسمية، مقابل مبلغ معيَّن من المال يُدفَع إلى الخلافة في كل عام.

ومن الأسباب الأخرى التي شجّعت الرشيد على الاعتراف بالاستقلال الجزئيّ لولاية أفريقية وقيام الدولة الأغلبية، هي قيام دولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة 172هـ. وذلك بعد أن نجح إدريس بن عبد الله بن الحسن في الإفلات من موقعة فخ سنة 169هـ/ 785م، والالتجاء مع مولاه راشد إلى المغرب، حيث بايعه السكان المحليون من قبيلة أوربة بالإمامة،

(4) انظر: حسن علي حسن، تاريخ المغرب العربي (عصر الولاة)، القاهرة، 1977، ص 196.

ثم تبعهم في ذلك قبائل زواغة، وزواوة، وسدراته، وغياثة، ومكناسة، وغمارة. فنجح في تكوين دولة علوية، وتطلّع إلى توحيد المغرب. وكانت فكرةُ توحيد المغرب بالمشرق العربي تحت ظل الدولة الإدريسية أمنيةً تراود تفكيرَ معظم أمراء الأدارسة، الذين كانوا على اتصال وثيق بأهل أفريقية لدرجة أن بعض أمراء الأغالبة فكّر في مبايعتهم بدلاً من العباسيين، أو بمعنى آخر هدد بالانضمام إلى الأدارسة، إذا ما فكّر العباسيون في التأثير على استقلاله الذاتي. فكان من الطبيعي أن يخشى الخلفاء العباسيون من مطامع الأدارسة في أفريقية، وفي مصر أيضاً. فرضي الرشيد بإقامة دولة الأغالبة لتكون حاجزاً بين البلاد التابعة للعباسيين، وبلاد الأدارسة في المغرب الأقصى[5].

أصل الأغالبة:

يرجع الأغالبة في أصلهم إلى الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي[6]، الذي كان من الجند العرب المقيمين في خراسان، وساهم في الثورة العباسية، مع أبي مسلم الخراساني. ثم انتقل بعد قيام الدولة العباسية إلى العراق، وأصبح يعمل ضمن الحرس الخاص للخليفة أبي جعفر المنصور. وقد وجّهه الأخير مع محمد بن الأشعث الخزاعي في سنة 144هـ/861م إلى شمال أفريقيا لتثبيت السلطة العباسية هناك، بعد قيام حركات عديدة مناوئة من قِبَل الخوارج الأباضية والصفرية. وقد أوصى المنصور أن يكون الأغلب هو الأمير بعد محمد بن الأشعث، إن حصل للأخير حادث. وتمكّن محمد بن الأشعث، بمساعدة الأغلب، من الانتصار على القبائل

(5) انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب (المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964، ص 17 هامش (2).

(6) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962، ص 221.

البربرية الخارجية المتمردة، مستفيداً من الانقسامات التي حدثت بين صفوفها، ثم أصبح والياً على القيروان، وعيّن الأغلب على الزاب[7]، فأقام الأخير في طبنة نحو أربع سنوات، ثم ولاّه الخليفة أبو جعفر المنصور على أفريقية بعد أن تمرّد الجند على ابن الأشعث وطردوه من الولاية عام 148هـ/ 765م[8].

استطاع الأغلب أن يعيد الاستقرار إلى الولاية، وقد كتب إليه المنصور «يأمره بالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجند وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها...»[9]. وهذه التوصيات التي أشار إليها الخليفة مطابقة تماماً لوضع التمرّد القائم في أفريقية، حيث كان على الوالي أن يحتاط باستمرار من خطرين متلازمين، الجند من جهة، والبربر الخوارج من جهة أخرى. وقد سقط الأغلب نتيجة لضربات هاتين القوتين[10]، حيث قُتِل بعد إصابته بسهم حينما كان يدافع عن القيروان في أثناء إحدى هجمات المتمردين عليها سنة 150هـ/ 768م، فكانت ولايته سنة واحدة وثمانية أشهر[11].

إبراهيم بن الأغلب ودوره في المغرب قبل الولاية:

كان إبراهيم بن الأغلب في ذلك الوقت صبيّاً يبلغ عمره نحو عشر

---

(7) تشكل بلاد الزاب القسم الجنوبي من ولاية قسنطينة بالجزائر الحالية، وتشغل المساحة الكبيرة الواقعة في جنوب جبال أوراس. ومن أهم قواعد الزاب، مدينة طبنة Tobns، التي اندثرت اليوم، ومدينة بسكرة Biskara، والمسيلة. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زاب، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 66، هامش (2).

(8) انظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1962: 1/ 68 ـ 69.

(9) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان، وإ. ليفي بروفنسال، ليدن، 1948: 1/ 74.

(10) قارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص 85 ـ 86.

(11) انظر ابن الأبار، الحلة السيراء: 1/ 71. ابن عذاري: 1/ 75.

سنين. ويبدو أن أسرة الأغلب انتقلت بعد ذلك إلى مصر حيث يذكر المؤرخون، أن إبراهيم قضى صباه في الدرس والتحصيل بالفسطاط، وإنه كان يحضر مجالس الفقيه الليث بن سعد (ت سنة 179هـ/ 795م)، الذي كان معجباً بإبراهيم، وٱجتهاده، وما تميّز به من الصفات، حتى قال عنه يوماً: «لَيكونَنّ لهذا الفتى شأن»، وزَوّجه بجارية تُدعى جلاجل[12]. وقد دخل إبراهيم بن الأغلب في جند مصر، ولكنه اضطر إلى مغادرة البلاد، بعد فترة من الاضطرابات والانتفاضات التي قام بها الجند، فرحل إلى المغرب، بينما بقي أخوه عبد الله بمصر، وكان غنيّاً جدّاً[13].

ويُفهَم من رواية أحمد بن ناقد مولى بني الأغلب، التي ينقلها البلاذري، أن ٱبن الأغلب كان من وجوه جند مصر، فهاجم مع بعض رجاله بيت المال، وأخذوا مقدار أرزاقهم وهربوا إلى الزاب. وهناك سيطر ٱبن الأغلب على من كان بتلك الناحية من الجند، واكتسب ود أهالي المنطقة، واستطاع بذلك التغلب على الزاب. ثم لاطف هرثمة بن أعين والي أفريقية، وأرسل إليه الهدايا، وٱعتذر عمّا بَدَر منه من أخذ المال بمصر، وأنه لم يقم بذلك عن معصية بل لضرورة دعته إلى الحصول عليه. فرضي عنه هرثمة، وأقرّه رسميّاً على ولاية الزاب[14].

وعلى الرغم من الشوائب الموجودة في هذه الرواية والغموض الذي يكتنف بعض أحداثها، لا سيما الدافع الذي دفع ٱبن الأغلب لسرقة بيت المال وهو من كبار قواد الجند، فإنها تقدّم معلومات مفصَّلة عن بداية حياته في المغرب. في حين تكتفي بقية المصادر بإيجاز خبر وصول ٱبن الأغلب إلى الزاب، وتصفه بأنه قائد كبير تولّى هذه الولاية من قِبَل الخليفة هارون

---

(12) المصدر نفسه: 1/ 92. الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968، ص 212 ـ 213.

(13) المصدر نفسه، ص 213. الحلة السيراء: 1/ 93.

(14) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، مصر، 1959، ص 235.

الرشيد، في عهد والي أفريقية محمد بن مقاتل العكي[15]. ولكن هذه المصادر لا تشير إلى تاريخ، وكيفية رحيل إبراهيم من مصر إلى الزاب. ومن المرجَّح أنه دخل إلى هذه المنطقة منفيّاً قبل نحو عشر سنوات من ارتقائه للإمارة في القيروان، أي في سنة 174هـ/ 790م. ويبدو أن حياته هناك كانت هادئة دون أحداث. فقد اتعظ بنزاعاته في مصر، وأدرك أن أحسن الطرق وأكثرها اختصاراً لبلوغ ما يطمح إليه من الحُكم، هي الطرق الشرعية. فتجنّب الدسائس، وعَقَد الصداقات، وقَوَّى من وضعه حتى فرض نفسه في الوقت المناسب، فكان بمثابة السيّد بين الجند، وأبرز شخصية لديهم، وأصبح في نظر زملائه الضابط المثالي في ولاية الزاب. وقد استغل إبراهيم هذه المكانة، وحاول تبرير سلوكه إزاء الاضطرابات التي حصلت في مصر، فقدَّم شواهدَ على ولائه لبني العباس مدعّمة بالهدايا الضرورية لوالي أفريقية هرثمة بن أعين، الذي عيّنه عاملاً على الزاب سنة 179هـ/ 795م كما أشارت إلى ذلك رواية البلاذري التي أسلفنا ذكرها[16].

ولمّا رجع هرثمة بن أعين إلى بغداد بعد فترة وجيزة من ولايته على القيروان، عيّن الخليفة الرشيد محمد بن مقاتل بن حكيم العكي بدله سنة 181هـ/ 797م. ويبدو أن هذا التغيير في الولاة رافقه تغيير إداري آخر قام به الرشيد بشأن إعادة تنظيم الولايات في المغرب بصورة تستجيب أكثر لسياسة الرشيد، لا سيما بالنسبة للزاب الذي يمكن أن يكون بمثابة جسر متقدم للقيام بعمل واسع النطاق إزاء الأدارسة في المغرب الأقصى. ولهذا فقد أصبح ٱبن الأغلب في منصب والٍ يرجع بالنظر مباشرة إلى بغداد دون القيروان. أي بعبارة أخرى، فإن ولاية الزاب فُصِلت عن القيروان وأُلحِقت مباشرة بالخلافة العباسية، في حين بقيت أفريقية بيد الوالي ٱبن العكي، وهذا

(15) انظر: الرقيق، ص 213. ابن عذاري: 1/ 92. الحلة السيراء: 1/ 93.

(16) فتوح البلدان، ص 235. وقارن: محمد طالبي، الدولة الأغلبية، ص 115.

ما أشار إليه المؤرخون بقولهم: «وكانت ولايته الزاب من قِبَل هارون الرشيد وٱبن العكي على أفريقية»[17].

ولاية ابن الأغلب على أفريقية:

كانت سياسة محمد بن مقاتل العكي غير مرضية بالنسبة لأهل أفريقية، فهو لم يحاول الاستفادة من أخطاء الولاة السابقين، ولم يُدرِك طبيعة الأوضاع في أفريقية، وظروف الجند فيها، فقطع بعض أرزاقهم، مما أدى إلى استيائهم منه. يضاف إلى ذلك أنه أساء إلى أحد كبار المتصوفة في القيروان، وهو البهلول بن راشد، فضربه بالسياط، وحبسه حتى مات، ففقد بذلك حُبَّ الناس ومساندتهم له، وأصبحت البلاد مهيأة للعصيان والتمرد على العكّي[18].

وكان من جملة الذين خرجوا عليه، وَالِيهِ على تونس، تمام بن تميم التميمي، الذي استطاع أن يَدخُل القيروان ويُخرِج منها محمد بن مقاتل العكي. وهنا يأتي دور ٱبن الأغلب الذي كان يرقب الأحداث من إقليم الزاب، ويتحيّن الفرص لتحقيق أهدافه وأغراضه. فوجد أن الاعتداء على والي القيروان وخلعه من ولايته هو عمل غير شرعيّ، لذلك، ومن أجل أن ينال رضا الخلافة أسرع إلى القيروان لإرجاع الوالي السابق، ومحاربة المتمرّد تمام، الذي ما إن سمع بالخبر، حتى تخلّى عن القيروان، وغادرها إلى تونس[19].

ويبدو أن عودة العكّي مرة ثانية إلى ولاية أفريقية لم تلقَ قبولاً لدى الأهالي، فٱنضم بعضهم إلى تمام الذي ابتدأ يتجهّز للقيام بهجوم آخر على

(17) الرقيق، ص 213. وانظر: ابن عذاري 1/92. وابن الأبار، الحلة السيراء: 1/93 اللذان رويا الخبر نفسه ولكن باختلاف قليل في الألفاظ.

(18) انظر: الرقيق، ص 203. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1979. 6/154. أعمال الأعلام، ص 12 ـ 13.

(19) الرقيق، ص 205 ـ 206. الكامل في التاريخ: 6/154 ـ 155. ابن عذاري: 1/90.

والي أفريقية. لكن استطاع إبراهيم بن الأغلب أن يقضي على حركته، وأرسله مع بعض زملائه الخارجين على السلطة، ليُسجَن في بغداد[20].

وهكذا استمر إبراهيم بن الأغلب في سياسته الرامية إلى التقرّب إلى الخلافة، وكسب ودّ الناس الذين كانوا يكرهون ٱبن العكي وسياسته. وقد ساعدت هذه الظروف إبراهيم في تحقيق أهدافه والوصول إلى منصب والي القيروان. فتشير إحدى الروايات إلى أن صاحب بريد القيروان، كتب إلى الخليفة هارون الرشيد يُعْلِمه بما جرى بين ٱبن العكي وتمام وموقف إبراهيم بن الأغلب في إرجاع السلطة الشرعية. فاستشار الرشيد هرثمةَ بنَ أعين، والي أفريقية السابق، الذي أكد له إخلاص إبراهيم للخلافة ورضا الناس وحبهم له، فكان ذلك سبباً في تعيين ٱبن الأغلب على ولاية أفريقية[21]. وتذكر رواية أخرى أن ٱبن الأغلب هو الذي كَاتَب الرشيد بناءً على رغبة أهل البلاد، يطلب منه ولاية أفريقية، وأنه عرض عليه الاستغناء عن المعونة المالية السنوية التي كانت تقدمها الخلافة من مصر إلى القيروان، وتبلغ مائة ألف دينار، وأنه تعهّد على العكس من ذلك بدفع مبلغ أربعين ألف دينار سنوياً إلى بيت المال في بغداد[22].

ويروي لنا البلاذري رواية ثالثة ينقلها عن أحمد بن ناقد مولى بني الأغلب، وهي تشير إلى أن الرشيد هو الذي عرض على ٱبن الأغلب تولّي أفريقية، وذلك عندما علم بحدوث قلاقل في هذه المنطقة، بعد أخذ نصيحة هرثمة بن أعين في الأمر الذي «أشار عليه بٱستصلاح إبراهيم واصطناعه وتوليته الثغر، فكتب إليه الرشيد يُعلمه أنه قد صفح له عن جرحه وأقاله هفوته ورأى توليته بلاد المغرب اصطناعاً ليستقبل به الإحسان ويستقبل به

(20) انظر: الرقيق، ص 207 ـ 211.

(21) المصدر نفسه، ص 220. الكامل في التاريخ: 6/ 155.

(22) المصدر نفسه: 6/ 155. وقارن: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، 1979. 2/ 29 ـ 30.

النصيحة»[23]. إن هذه الرواية التي نقلها أحد موالي الأغالبة، تعكس وجهة النظر الرسمية الأغلبية، وهي لا تتحدّث عن تدخّل أهل أفريقية، أو تدخّل إبراهيم، في ولاية ٱبن العكي، أو مطالبة ٱبن الأغلب بالولاية، الأمر الذي يحرّمه الفقه، ولا شك أن إبراهيم، وهو تلميذ الفقيه الليث بن سعد، كان يعرف ذلك ويعيه جيّداً[24].

وعلى أي حال، فقد تمّ تعيين ٱبن الأغلب على أفريقية، سواء كان ذلك بمبادرة الرشيد نفسه، أم نتيجة لساسة إبراهيم وتدخّله في أفريقية لإعادة السلطة الشرعية، أم مكاتبته الشخصية للرشيد وطلبه الولاية وفق الشروط التي أشرنا إليها. وقد تم عزل ٱبن العكي عن أفريقية وتعيين إبراهيم بن الأغلب في بداية سنة 184هـ/ 800م.

جهود ابن الأغلب في تثبيت أركان الدولة:

1 ـ بناء مدينة العباسية:

ابتدأ إبراهيم بن الأغلب حكمه ببناء مدينة جديدة لتكون مقراً لإدارته وعاصمة لحكمه، فشرع في سنة 184هـ/ 800م[25]، أو 185هـ/ 801م[26] في بناء مدينة القصر الأبيض جنوبي القيروان، وسمّاها المدينة العباسية، لتكون قرينة للهاشمية، وهي أول عاصمة عباسية قبل بغداد، وذلك تعبيراً عن ولائه للعباسيين[27]، وتسمى العباسية أيضاً بٱسم القصر، أو القصر القديم[28].

---

(23) فتوح البلدان، ص 235.

(24) قارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص 122، هامش (202).

(25) البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857. ص 228. الكامل في التاريخ: 6/ 156.

(26) ابن عذاري: 1/ 92.

(27) فتوح البلدان، ص 235.

(28) انظر: الرقيق، ص 222. ابن عذاري: 1/ 93. ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، 1967، ط2، ص 49.

ويبدو أن ابن الأغلب قد أخذ عبرة من دروس الماضي والاضطرابات التي حلّت بالقيروان، فرأى أن يبتعد عنها قليلاً. ويمدنا البكريّ بمعلومات جيّدة عن هذه المدينة وطبيعة بنائها. فقد اشتملت على قصر الأمير وما يلحق به من أبنية الدولة ودواوينها، ودار سكّ النقود، ومساكن الحاشية، والمسجد الجامع، ومعسكرات الحرس، والأسوار التي تحيط بالمدينة، وكان لها خمسة أبواب. وفي وسط المدينة كانت توجد رحبة كبيرة واسعة عُرِفت بٱسم «الميدان» ربما كانت تُستخدَم لعرض الجند. وقد اتسعت هذه المدينة وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة، وفنادقها، وأسواقها، وخَزّانات مياهها التي كانت تزوّد القيروان في أوقات حاجتها إلى الماء[29].

لقد هدف ٱبن الأغلب من إنشاء هذه المدينة إلى تحقيق التحرر من تسلّط الجند، حتى تكون مقرّاً حصيناً له ولحرسه المخلصين الذين ابتدأ بشرائهم من العبيد. وقد أوحى إلى جنده أنه يريد إكرامهم عن حمل سلاحه وخدمته بٱستخدام هؤلاء السُّود الذين بلغ عددهم بمرور الأيام نحو خمسة آلاف رجل، فأسكنهم حوله في مدينته الجديدة[30]. وعندما تم بناء المدينة أخذ ينقل إليها السلاح والعتاد الضروري بالتدريج، ثم غادر القيروان في جنح الظلام حتى لا يشعر به خصومه الذين أدركوا غايته من بناء المدينة، وأنه سيفلت من قبضتهم. فنجح في الانتقال بسلام، وأسكن معه حاشيته وجنده السود، بهذا أصبحت هذه المدينة مقرّاً للأغالبة، ومعسكراً لقواتهم[31].

(29) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 28.

(30) فتوح البلدان، ص 235. الرقيق، ص 222.

(31) المصدر نفسه، ص 222. ابن عذاري: 1/ 93، النويري، نهاية الأرب، نشر: جاسبار راميرو، غرناطة، 1917، ج22، ق 2، ص 64 ـ 65.

2 ـ القضاء على الفتن والثورات الداخلية:

أ ـ ثورة خُرَيْش بن عبد الرحمن الكندي في تونس سنة 186هـ/ 802م:

لم يكن هذا المتمرد من الجند، ولكنه من أبناء العرب الذين دخلوا أفريقية أيام التحرير العربي الإسلامي واستقروا فيها. ويبدو أن حركة خريش هذه كانت موجهة ضد الخلافة العباسية بالدرجة الأولى، لأنه كما يذكر المؤرخون، نَزَع السواد وهو شعار العباسيين، ودعا إبراهيم بن الأغلب إلى الرحيل إلى بغداد. وقد أيّدته جماعات من العرب والبربر[32]. واحتفظ لنا ابن الأبار بنص الرسائل المتبادلة بين الأمير إبراهيم وخريش[33]، وهي الوثائق الوحيدة التي يُمكِن أن تُلقي بعض الضوء على ظروف ودوافع هذه الحركة، حيث إن إشاراته إلى الخليفة علي بن أبي طالب(رض)، تعني أن للحركة لوناً علوياً يستند عليه، وأن خريشاً كان يجمع الناس بالدعوة إلى الحق والعدل.

وقد عجّل الأمير إبراهيم في مقاومة الحركة، فأرسل قائده عمران بن مجالد، الذي تمكّن من القضاء عليها بسهولة، وقام بقتل معظم المشاركين بها. ويبدو أن هذه الحركة قامت على جمع الناس وتحريضهم في الخفاء، وهي تشبه بقية الحركات التي قام بها أنصار العلويين في المشرق، فما إن ترى النور حتى تنتهي بسرعة كبيرة، بحيث لا تقدر على إثبات مبادئها بوضوح. إن الغموض الذي أحاط بهذه الحركة، هو نصيب جميع الأعمال التي نشأت في الخفاء، والتي كان يثيرها بعض الأشخاص الذين يستجيبون لدعوة أحد أفراد ذرية الإمام علي عليه السَّلام، أو أحد أتباعه المستترين[34].

---

(32) الحلة السيراء: 1/ 101 ـ 102. وانظر: الرقيق، ص 224. الكامل في التاريخ: 6/ 156.

(33) الحلة السيراء: 1/ 102 ـ 104.

(34) قارن: محمد الطالبي، ص 158، 159، 160.

ب ـ الاضطرابات في طرابلس:

شكّل أهالي مدينة طرابلس مصدراً آخر للمتاعب والقلق لاّبن الأغلب، فقد استعمل عليهم عدة ولاّة، لكنهم كانوا يشكون منهم، فيعزلهم ويولي غيرهم.

وفي سنة 189هـ/ 805م ازدادت الاضطرابات، حيث قام أهل المدينة على الوالي سفيان بن المضاء، الذي وُلّيَ للمرة الرابعة عليهم، واتفق أهل البلد على طرده وإرجاعه إلى القيروان. فزحفوا إليه، فأخذ سلاحه وقاتلهم، فأخرجوه من داره إلى المسجد الجامع، فقاتلهم فيه، فقتلوا أصحابه، ثم أمّنوه فخرج عنهم ولم يمضِ على ولايته شهر واحد[35]. وقد وقف الجند موقفاً سلبيّاً من هذه الأحداث، ولم يتدخّل لحماية الوالي، لكنه أقام والياً آخر، هو إبراهيم بن سفيان التميمي، ويبدو أن الأمير وافق على هذا الاختيار، لكن اضطرابات لم تنته، فقد وقع خلاف بين جماعات من سكان المدينة، حتى «فسدت طرابلس»، فبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب، فأرسل جمعاً من الجند وأمرهم أن يُحضِروا المتخاصمين إلى القيروان، فوصلوا في ذي الحجة سنة 189هـ/ تشرين الثاني 805م، وطلبوا العفو من الأمير، فعفا عنهم وأذن لهم بالرجوع إلى مدينتهم[36].

جـ ـ عصيان الجند بقيادة عمران بن مجالد:

تُعَدّ حركة العصيان التي تزعّمها عمران بن مجالد، قائد الأمير ووزيره، من أخطر الحركات التي تعرّض لها اّبن الأغلب، وهي أول إنذار جدّيّ هدد دولة الأغالبة سنة 194هـ/ 810م. وقد اشترك مع عمران اّثنان من كبار رجال الدولة، وهما: عامر بن المعمر بن سنان التميمي، صاحب الشرطة ووالي مدينة قسطيلية السابق، وعمرو بن معاوية القيسي، وكان يتولى ناحية

(35) الكامل في التاريخ: 6/ 192 ـ 193. وانظر: ابن خلدون، كتاب العبر: 4/ 420.

(36) الكامل في التاريخ: 6/ 193.

القصرين في أفريقية[37].

لقد كانت حركات الجند وعصيانهم أمراً مألوفاً في أفريقية قبل قيام دولة الأغالبة، ولهذا فقد اتخذ إبراهيم إجراءات كثيرة للاحتماء من هذه الطوارئ. وقد سبقت الإشارة إلى بنائه لمدينة العباسية، وشحنها بالأعتدة والسلاح، واتخاذه العبيد للحراسة الخاصة. كما قام بنفي بعض العناصر المريبة إلى بغداد، لا سيما أولئك القادة المعروفين بكثرة وثوبهم على الولاة في القيروان[38]. ولكن الخطر، ظهر من أصدقاء كان الأمير يَعُدُّهم أوفياء. فما هي يا ترى أسباب استياء عمران بن مجالد وجماعته من القادة الكبار؟ يُرجِع النويري هذه الأسباب إلى مسألة شخصية، مفادها أن عمران بن مجالد خرج مع الأمير يوماً، فجعل يحادثه، وإبراهيم لا ينتبه إليه لأنه كان منصرفاً إلى التفكير في مدينته الجديدة العباسية، فغضب عمران، وتغيّر على أميره منذ ذلك الوقت[39].

ولا يمكن الاقتناع بهذا التفسير القائم على المسائل الشخصية، لأن الأحداث التاريخية تحتاج إلى أسباب وتعليلات مقنعة. وربما كان الأقرب إلى الصحة، أن عمراناً ابتدأ بالتغيّر على صديقه القديم، إبراهيم، نتيجة لعملية بطيئة من الالتباس وعدم الثقة. حيث كان الأمير يزداد بعداً عن جنده، وذلك باتخاذه الحرس الأسود، وبنائه لمقرّه الجديد الذي أثار التباعد والانفصال بينه وبين جيشه. ومن جهة أخرى، فقد كان رفاق الأمير من القادة يرون أنه ارتقى إلى الحكم بفضل مساعدتهم، وأنه لا بدَّ أن يبقى مَدِيناً لهم على الدوام. ولم يكن إبراهيم ليرضى عن هذا الوضع، يضاف إلى ذلك أنه ابتدأ يهمل شؤون الجند، لا سيما ما يتعلق بدفع الرواتب، وهي مسألة حساسة جدّاً وأساسية في نظر المقاتلين. وهكذا ابتدأ الجند المخلصون

(37) انظر: الحلة السيراء: 1/104، 106، 110.

(38) المصدر نفسه: 1/107 ـ 108.

(39) نهارية الأرب: 22/القسم الثاني، ص 65.

للأمير على الأقل حتى سنة 186هـ/ 802م يتململون من سياسته. ويفسّر هذا الموقف حيادهم سنة 189هـ/ 805م في أثناء اضطرابات طرابلس. ومن بعد هذا التاريخ ابتدأت العلائق تسوء بينهم وبين الأمير أكثر فأكثر. وكانت كلما تزايد عدم ثقة الأمير وتأكّد اتجاهه إلى مدينته الجديدة «القصر القديم» وسلّم أمر المحافظة على أمنه إلى حرسه الأسود، تحوَّل الجند تدريجيّاً من الولاء إلى الحياد والتحفّظ، ومن ثم إلى العداء الذي بدأ يتضح بالتدريج. فأنتهى الأمر إلى العصيان الذي فجّره قائد الجند، فتبعه المقاتلون الذين تأخرت أرزاقهم نتيجة للمصاريف العسكرية التي ذهبت للإنفاق على التحصينات في مدينة الأمير الجديدة، وانضم إلى العصيان كذلك جنود الثغر الذين طالبوا أيضاً بأرزاقهم المتأخرة[40].

استطاع عمران بن مجالد أن يكسب كثيراً من الأنصار، لا سيما من أهل القيروان، التي نجح في الاستيلاء عليها في 10 رجب 194هـ/ 19 نيسان 810م. وقد نفّذت قوات عمران ثلاث هجمات على مدينة العباسية، باءت كلّها بالفشل، نتيجة للتحصينات القوية وللاحتياطات التي اتخذها ابن الأغلب[41]. وبعد ذلك أُحيطت المدينة بخندق فأصبحت صعبة المنال، ولعبت الدور الذي كان ينتظره منها الأمير إبراهيم، فحمت الدولة من أول انتفاضة قوية للجند.

ومع هذا فقد استطاع عمران أن يحصل على تأييد معظم أهالي البلاد، حتى إنه تلقب بالأمير[42]. ولكن هذا الانضمام لم يكن صريحاً وكاملاً، لأن فقهاء القيروان الحذرين اختاروا أن يقفوا موقف الحياد بين الجانبين، رغم عدائهم المتزايد لإبراهيم بن الأغلب. وكان من هؤلاء شقيق عمران، المدعو

---

(40) انظر: فتوح البلدان، ص 235. وقارن، محمد الطالبي، ص 167.

(41) الكامل في التاريخ: 6/ 236.

(42) أبو العرب، طبقات علماء أفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، 1968، ص 160.

(أبو نجدة) يزيد بن مجالد[43]. وقد حاول عمران أن يكسبهم إلى جانبه، فطلب من ممثلهم الفقيه أسد بن الفرات، الألتحاق بصفوفه، وحاول أن يُكرهه على ذلك، فرفض وهدد بإعلان رأيه الصريح في الفتنة علانية، وهو: إن مصير جميع المتحاربين بالمعسكرين القاتلين والمقتولين هو نار جهنم، فعدل عمران عن محاولته[44].

وقد استمرت الحركة طوال عام كامل، راحت البلاد خلاله نهباً للفوضى والاضطراب، ولكن الوقت لم يكن لفائدة عمران ومؤيديه من الجند الذين كانت جيوبهم خاوية بعد شهور طويلة من القتال المضني دون أن يحققوا أي نتيجة إيجابية، لهذا فقد كانوا مستعدين لتناسي أحقادهم وخصومتهم لقاء ما يكفيهم من أموال. وجاءت هذه الأموال إلى الأمير في الوقت المناسب من الخليفة في بغداد، وتشير إحدى الروايات أنها أُخِذت من خراج مصر[45]. وقد أرسل ٱبن الأغلب ٱبنه عبد الله إلى طرابلس لأستلام المال، خشية أن يقع بيد خصومه. ثم قام بأستعراض جيشه قرب أسوار القيروان، وأمر مناديه بدعوة كل من له ٱسم في ديوان أمير المؤمنين إلى الحضور لتسلّم عطائه. ونجحت هذه الخطة نجاحاً تامّاً، ففر قادة الجند ليلاً وساروا إلى بلاد الزاب، وأسرع إبراهيم بدخول القيروان، التي عاقبها، فقلع أبوابها، وثلم أسوارها، حتى لا تعود مرة أخرى إلى التمرّد. ثم ازداد اهتمامه بالعباسية، فأقطع أهل بيته ومواليه الإقطاعات داخل أسوارها، فأصبحت العاصمة الرسمية بدلاً من القيروان. وفرض الأمير سلطته في نهاية الأمر، وجعل من مقر إقامته المحصّنة مركزاً سياسيّاً منيعاً للإمارة[46].

---

(43) المصدر نفسه، ص 160.

(44) الكامل في التاريخ: 6/ 236. الحلة السيراء: 1/ 105. ابن خلدون، العبر: 4/ 421.

(45) البلاذري، فتوح البلدان، ص 235.

(46) انظر: النويري، نهاية الأرب: 22/ القسم الثاني، ص 66. وقارن: الكامل في التاريخ: 6/ 156 ـ 157. وانظر أيضاً: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص 171.

وهكذا تخلصت الدولة الفتية من محنة كبيرة بفضل حكمة إبراهيم بن الأغلب وواقعيته، الذي فضّل السياسة على القتال، حتى إنه لم يلاحق المتمردين الذين رحلوا إلى الزاب. وقد توفي إبراهيم في سنة 196هـ/ 812م وله من العمر ست وخمسين سنة، بعد حكم دام أكثر من اثني عشر عاماً. وقد خلفه أبناؤه الذين أفادوا من جهوده في تأسيس الدولة الأغلبية، حيث ترك لهم إبراهيم إمارة متكاملة الأجزاء.

جدول أمراء الأغالبة(47)

سالم بن عقال التميمي الأغلب

1 ـ إبراهيم الأول (184 ـ 196هـ/ 800 ـ 812م)

2 ـ أبو العباس عبد الله الأول (196 ـ 201هـ/ 812 ـ 817م)

3 ـ أبو محمد زيادة الله الأول (201 ـ 223هـ/ 817 ـ 838م)

4 ـ أبو عقال الأغلب (223 ـ 226هـ/ 838 ـ 841م)

5 ـ أبو العباس محمد الأول (226 ـ 242هـ/ 841 ـ 856م)

6 ـ أبو إبراهيم أحمد (242 ـ 249هـ/ 856 ـ 863م)

7 ـ زيادة الله الثاني (الأصغر) (249 ـ 250هـ/ 863 ـ 864م)

8 ـ أبو الغرانيق محمد الثاني (250 ـ 261هـ/ 864 ـ 875م)

9 ـ إبراهيم الثاني (261 ـ 289هـ/ 875 ـ 902م)

10 ـ أبو العباس عبد الله الثاني (289 ـ 290هـ/ 902 ـ 903م)

11 ـ أبو مضر زيادة الله الثالث (290 ـ 296هـ/ 903 ـ 909م)

(47) انظر: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة: 1/ 48.

علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية:

إن التحوّل الذي تم في ولاية أفريقية سنة 184هـ/ 800م كان بمثابة عهد أُبرِم بصورة رسمية بين بغداد والقيروان، واعتُرِف فيه لإبراهيم بن الأغلب بلقب أمير وراثيّ له حق الإشراف الكامل - في حدود إمارته - على الإدارة المدنية والعسكرية، مقابل اعترافه بالسلطة العليا في بغداد. ولم يصحب هذا التحوّل أي تغيير في لقب «الأمير» حيث استمر إبراهيم الأول في التلقّب به، وكذلك أولاده وأحفاده الذين توَلّوا الحكم من بعده.

وقد جرت العادة أن يرسل الخليفة العباسي بعهد البيعة إلى الأمراء الأغالبة حتى يكتسب صفة الشرعية. ولكن انتقال السلطة من أمير إلى آخر في القيروان كان مسألة داخلية بحتة، لم تتدخل فيها الخلافة، ولم يكن لها من الوسائل التي تمكّنها من التدخل لو أرادت. ولهذا فقد كان إرسال عهد البيعة عملاً شكلياً يقوم به الخليفة. فقد أشار ابن عذاري[48]، إلى أن الأمين «أقرّ» حال تسلّمه الخلافةَ إبراهيمَ بنَ الأغلب في منصبه، كذلك قام المأمون بالعمل نفسه إزاء عبد الله الأول. واستمر بقية الخلفاء في توجيه مثل هذا العهد بانتظام إلى القيروان.

ولكن ما هي صلة الأمير بالنسبة للخليفة، وما هي واجباته والتِزاماته؟ لقد سبقت الإشارة إلى المبلغ الذي تعهّد الأمير الأغلبيّ بتقديمه إلى بغداد، ومع هذا فقد تحتّم على الخليفة الأمين أن يقدّم مساعدة مالية سريعة للإمارة في أثناء قيام عصيان عمران بن مجالد[49]. ويبدو أن ما كانت تقدّمه القيروان إلى الخلافة تحوّل بعد فترة وجيزة من الاستقلال إلى نوع من الهبة السخية

(48) البيان المغرب: 1/ 94، 95.

(49) أشار ابن الأثير، وابن خلدون أن الخليفة الرشيد أرسل مالاً إلى إبراهيم، ولكن وفاة الرشيد كانت قبل سنة من حركة عمران، لهذا فمن المحتمل جداً أن الأموال أرسلت في عهد الأمين، انظر: الكامل في التاريخ: 6/ 156. العبر: 421. وقارن محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص 170.

التي هي رمز للولاء أكثر منها مساهمة مالية حقيقية لموازنة بيت مال الخلافة. وليست لدينا معلومات عن مدى انتظام مثل هذه الهبات. وجملة القول، لم يكن هناك خراج منتظم ولا الْتِزامات مالية فعلية[50].

أما بالنسبة للالتزامات العسكرية، فهي أيضاً غامضة، وعلى الرغم من توفّر إشارات في المصادر إلى وجود حشود كبيرة من الجنود الأفارقة في بغداد، وأن هؤلاء قاموا بدور كبير في الحرب الأهلية التي قامت بين الأمين والمأمون[51]، وكذلك عن دور المغاربة في خلع وتنصيب بعض الخلفاء العباسيين[52]، لكن يحتمل أن هؤلاء جُنِّدوا مباشرة من قِبَل الخلافة، وربما اقتصر دور الأغالبة في ذلك على تسهيل عملية التجنيد[53].

وعلى صعيد العلاقات العامة بين الأغالبة والخلافة العباسية، فقد استمرت العلاقات الطيبة التي ابتدأت بين الرشيد وإبراهيم الأول طيلة عهد الأغالبة. فاتخذ الأغالبة اللون الأسود الشعار الرسمي للعباسيين، ودافعوا عن راية الخلافة العباسية، سواء في داخل البلاد، حينما قضوا على الحركات المناوئة للخلافة، كحركة خريش مثلاً، أم في الخارج. فكانوا يقفون دائماً إلى جانب الخلافة في ميدان السياسة الخارجية. فحينما حصل تقارب بين بغداد والدولة الميروفنجية، شارك الأغالبة مشاركة وثيقة في السياسة التي وضعها الرشيد بهذا الخصوص. واتخذوا إزاء الأمويين في الأندلس، والأدارسة، والرستميين، والبيزنطيين، المواقف نفسها التي اتخذها العباسيون. كذلك عملوا بالسياسة الدينية نفسها التي سار عليها خلفاء بغداد، فقد اعتنق أمراؤهم مذهب الاعتزال، الذي أيده الخليفة المأمون، ولكن موقفهم تطور في الاتجاه نفسه وبالسرعة نفسها المعمول بها في الشرق إزاء

(50) انظر: المرجع نفسه، ص 358، 360.
(51) الكامل في التاريخ: 6/ 279 ، 282.
(52) المصدر نفسه: 7/ 168، 173، 174، 229.
(53) قارن، محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 360.

التحوّل عن هذا المذهب[54].

وكانت المراسلات بين الخلافة والأغالبة هي إحدى المظاهر التي تدل على مدى التآلف والانسجام بين الجانبين، فقد كان الرشيد يكاتب إبراهيم الأول بٱستمرار، وكذلك فعل إبراهيم[55]. واستمر الحال على هذا الوضع في عهد الأمراء الذين جاؤوا من بعد إبراهيم. فقد كتب المأمون إلى زيادة الله الأول يشكره على عدم اعترافه بإبراهيم المهدي، الذي ٱدّعى الخلافة في بغداد بعد مقتل الأمين[56]. ويُحتمَل أنّ تبادل الرسائل هذا تناقص مع مرور الأيام، لكنه لم ينقطع أبداً. وكان يزداد توتراً في أوقات الشدة والأزمات، لا سيما عند اقتراب خطر الفاطميين، ومحاولاتهم للقضاء على الأغالبة.

وقدمت بغداد خدمات أخرى للأغالبة، منها أنها كانت ملجأ يرجع إليه أُمراء القيروان في الساعات الحرجة، لنفي أو حبس أعدائهم السياسيين[57]. كما رحل إليها أيضاً بعض أفراد الأسرة الحاكمة مثل، الأغلب بن إبراهيم الأول، الذي تنازع مع أخيه زيادة الله، وفي ذلك بلا شك فائدة كبيرة للدولة في مجال تحقيق الاستقرار الداخلي[58]. وكانت العلائق الطيّبة بين بغداد والقيروان تسمح أيضاً بالتزاور والاتصال، فعلى سبيل المثال، استقر أحد أبناء الخليفة المهتدي (255 ـ 256هـ/ 869 ـ 870م) المسمى عبد الوهاب، في بلاد القيروان، وتزوج من ٱبنة أخي الأمير إبراهيم الثاني[59].

وعندما حدثت الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، وقفت القيروان

(54) المرجع نفسه، ص 386.

(55) انظر. الرقيق، ص 225، 227. المالكي، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1951: 1/ 152.

(56) الحلة السيراء: 1/ 166.

(57) المصدر نفسه: 1/ 107 ـ 108.

(58) ابن عذاري: 1/ 67. وانظر: ابن خلدون، العبر: 4/ 422.

(59) محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص 269.

إلى جانب الأمين، وربما كان لموقف الأخير، الذي بادر رغم مصاعبه إلى إرسال مساعدة مالية لإبراهيم الأول، أثرٌ في تعاطف القيروان معه، ولا ننسى في هذا المجال أيضاً أن الأغالبة كانوا من العرب، وموقفهم هذا ينسجم مع الموقف الطبيعي للعرب في تأييد الأمين. وقد ساعدت القوة الأفريقية التي كانت في بغداد بقيادة محمد بن إبراهيم بن الأغلب، الأمين ووقفت إلى جانبه، كما عرض عليه هؤلاء محاولة الخروج والالتجاء إلى الشام[60]. وعلى الرغم من هذا الموقف، فقد حاول المأمون، بعد توليه الخلافة، أن يسير على سياسة الوفاق مع القيروان، فأرسل كتاباً يُقِرّ فيه عبد الله الأول على الإمارة بعد وفاة والده إبراهيم[61]. كذلك بادر بإرسال اعترافه بإمارة زيادة الله الأول حال توليه الحكم بعد وفاة أخيه عبد الله[62]. وكان هذا الإجراء ضرورياً، لا سيما وأن زيادة الله لم يعترف بإبراهيم المهدي، الذي نُصِّب خليفة في بغداد بعد مقتل الأمين، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل[63].

ويبدو أن المأمون قد حاول بعد ذلك أن يسترجع سلطة الخلافة وهيبتها على الولايات كافة، وذلك بسبب الحرب الأهلية ومخلّفاتها. فكتب في نطاق هذه السياسة إلى زيادة الله أن يدعو في خُطبة الجمعة إلى إضافة ٱسم المأمون بٱسم عبد الله بن طاهر بن الحسين، والي مصر، المشرف من الناحية النظرية على كل ولايات الغرب. فرَدّ زيادة الله ردّاً قاسياً، تميّز بالجرأة والغطرسة، فقابل الرسول الذي جاء بكتاب الخليفة وقال له: «قد علم أمير المؤمنين طاعتي له وطاعة آبائي لآبائه، وتقدم سلفي في دعوتهم، ثم يأمر الآن بالدعاء لعبد خزاعة؟ هذا والله أمر لا يكون أبداً، ثم مد يده إلى كيس إلى جانبه فيه ألف دينار فدفعه إلى الرسول ليوصله إلى المأمون،

(60) انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك: 3/ 911. الكامل في التاريخ: 6/ 282.

(61) ابن عذاري: 1/ 95.

(62) ابن خلدون، العبر: 4/ 422.

(63) انظر: الحلة السيراء: 1/ 166.

وكانت الدنانير مضروبة بأسم إدريس الحسني، ليعلمه ما هو عليه من فتنة المغرب ومناضلة العلويين...»[64].

فذهب الرسول بهذه الرسالة، ولكن زيادة الله ندم بعد ذلك على هذا الرد القاسي، فحاول عبثاً اللحاق بالرسول ثم كتب كتاباً آخر يتلطف فيه، ويعتذر عن لهجة الكتاب الأول. فوصل الكتابان إلى المأمون، فيروى أنه أهمل الكتاب الأول، وأجاب الثاني إجابة لطيفة. ولم يكن بمقدوره أن يفعل أكثر من ذلك، أو أن يبدي رد فعل آخر، إذ لا يمكنه التفكير في القيام بمغامرة في الغرب، وأمور الدولة كما هي عليه بعد الخروج من الفتنة والحرب الأهلية، ولا يمكن لسياسة التصلب أن تؤدي إلاً لزيادة عدد الذين لا يعترفون بشرعية الخلافة العباسية، كالأمويين في الأندلس، والأدارسة في المغرب الأقصى، والرستميين في المغرب الأوسط. لذلك فقد كان بقاء الأغالبة في الفلك الروحي لخلافة بغداد يستحق بعض التنازلات، لأن العمل على إسقاطهم، على فرض إمكان حدوثه، كان يعني النزاع مع أناس خدموا الدولة العباسية منذ قيامها، وكانوا في جملتهم مخلصين لهم، كما أشار الأمير زيادة الله في كتابه إلى المأمون[65].

ويقال بأن الخليفة المعتصم قد راوده في آخر أيامه حُلم العودة إلى المغرب «ليملك البلاد التي لم تدخل في فلك بني العباس لاستيلاء الأمويين عليها...»[66]. ويبدو أن هذا الخبر لا يعدو أن يكون عبارة عن رغبة واضحة من الخلافة لتنفيذ مشروعها في العودة إلى الحدود الواسعة للدولة العربية الإسلامية التي كانت عليها في عهد الخلافة الأموية. وقد انشغلت

---

(64) الحلة السيراء: 1/ 165 ـ 166. وانظر أيضاً: النويري. نهاية الأرب، القسم الثاني: 22/ 73. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 17. ابن خلدون. العبر: 4/ 422.

(65) انظر: محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 375.

(66) السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة، 1964، ص 336 ـ 337.

الخلافة العباسية بعد وفاة المعتصم بمشاكلها الداخلية الخاصة، لا سيما في أثناء تسلط الأتراك على الخلافة. ولكن ظهور خطر الفاطميين، وعجز آخر أمراء الأغالبة، زيادة الله الثالث، أيقظ من جديد حُلم الخلافة في التدخل المباشر. ومع هذا فإن جيوش الخليفة لم تتعد مصر، واقتصرت على إزالة حكم الطولونيين في عام 292هـ/ 905م. وقد اكتفى الخليفة العباسي آخر الأمر بتقديم التأييد الأدبي للأمير الأغلبي، الذي نجح أيضاً في نيل ثقة الخليفة بفضل الهدايا والهبات[67].

علاقة الأغالبة بالإمارة الأموية في الأندلس:

حكمت العلاقات بين الأغالبة والأمويين في الأندلس نفس المبادئ العامة التي وجّهت السياسة الخارجية الأغلبية. أي إنها اندرجت ضمن النزاع الكامن بين العباسيين والأمويين. ونظراً لبعد المسافة بين الأغالبة والأندلس، فقد اقتصرت العلاقات على تحفّظ معادٍ على صعيد السياسة الرسمية[68]. ولكن من جهة أخرى، فقد استغل بعض المتمردين في الأندلس هذه السياسة، وتوجهوا بأنظارهم إلى الأغالبة. فأظهر عمر بن حفصون، أحد كبار المتمردين، الميلَ إلى دعوة العباسيين، وكاتب الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد (إبراهيم الثاني) ولاطفه بالهدايا، وكلّفه بالحصول على ضمان بني العباس للقيام على الأمويين في الأندلس، وقد أجابه الأمير الأغلبي، وكافأه على هداياه، وطمع فيه[69]. ولكن دعم الأغالبة لم يتعد هذه التشجيعات الرخيصة، والتأييد الشفوي، ولم يتحوّل أبداً إلى التدخّل العسكري المباشر،

(67) محمد الطالبي: المرجع السابق، ص 376.

(68) المرجع نفسه، ص 413 ـ 414.

(69) انظر: ابن حيان: المقتبس، نشر: ملشور أنطونية، باريس، 1937، ص 93. وقارن: أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب تونس، 1984، ص 128.

وذلك على الرغم من إصدار المتمردين لعدد من القطع النقدية المنقوش عليها شعار (غ ل ب) أي شعار الأغالبة الذي ميّز عملتهم الرسمية[70].

وعلى الرغم من العداء الرسمي نجد قيام نوع من التعاون بين المقاتلين الأفارقة والأندلسيين في صقلية. حيث يُفهم من الروايات العربية أن الأندلسيين وصلوا في أوائل سنة 215هـ/ 830م إلى صقلية على دفعتين في ثلاثمائة مركب. وأن الدفعة الأولى كانت بقيادة أصبغ بن وكيل المعروف بـ «فَرْغَلُوش»، بينما كانت الدفعة الثانية بقيادة سليمان بن عافية الطرطوشي. وقد اشترك هؤلاء مع الجيش الأغلبي، وساعدوا في فك حصار الجيش في ميناو[71]. ومما يذكر أن هؤلاء الأندلسيين خرجوا من بلادهم يريدون الجهاد في البحر المتوسط، فدفعتهم الريح إلى صقلية، حيث شاركوا إخوانهم الأفارقة الذين كانوا منهمكين في عملية افتتاح صقلية، بقيادة القائد عثمان بن قرهب[72]. وهكذا وحّد الجهاد بين رعايا الدولتين، على الرغم من الخصومة والنزاع الذي كان سائداً بين حُكّامهما.

أما على صعيد العلاقات الاقتصادية والبشرية والثقافية، فلم تكن هناك أية قطيعة بين القيروان وقرطبة، أو غيرهما من عواصم المغرب العربي. وظلت عاصمة الأغالبة بالنسبة لجميع الحواضر المغربية الأخرى التي اختلفت عنها في نظمها السياسية والدينية، المرحلة التي لا بدَّ من المرور بها لغرض التوجه إلى المشرق. فكانت تمرّ عن طريق القيروان منتوجات الصناعة، والفكر، والطلبة، والرحلات العلمية المتبادلة بين الأندلس والمشرق[73].

(70) See: G.C. Miles, The Coimage of the Umayyads of Spain, New-York, 1950, pp. 48, 130-231.

(71) ابن عذاري: 1/ 104. الكامل في التاريخ: 6/ 337.

(72) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1975، ص 429.

(73) انظر: عبد الواحد ذنون طه: أهمية الرحلات العلمية بين المشرق والأندلس. بحث منشور ضمن كتاب: دراسات أندلسية. الموصل، 1986، ص 207.

اهتمام الأغالبة بإنشاء الأسطول ونشاطهم في البحر المتوسط:

كانت ولاية أفريقية تشكّل قوة بَرّية فقط منذ إنشاء مدينة القيروان سنة 50هـ/ 670م. ولكن بعد قيام الوالي الأموي حسان بن النعمان الغساني ببناء مدينة تونس سنة 84هـ/ 703م، أصبحت هذه الولاية قوة بحرية أيضاً، بفضل السفن التي كانت تنتجها دار الصناعة في تونس. فقد اختِير لهذه المدينة مكانٌ حصينٌ جدّاً، فهي تقع على بحيرة تتصل بواسطة برزخ بالبحر المتوسط، فقطع حسان البرزخ، وبنى المدينة بالقرب من البحيرة، ولغرض توفير الأيدي العاملة المتخصصة لبناء السفن طلب حسان من الخليفة عبد الملك بن مروان أن يرسل له عمّالاً أقباطاً من مصر. ولبّى الخليفة طلبه، فوصلت البلاد ألف أسرة قبطية، وبدأت بمهمة بناء الأسطول العربي في أفريقية[74]. وبعد بناء هذه القوة العربية الجديدة، أصبح عرب أفريقية يجوبون البحر المتوسط، ويعترضون سفن البيزنطيين، ويُغِيرون على سواحلهم في جزر البحر، لا سيما صقلية، وسردانية، وكورسيكا. ولكن هذا لا يمنع أن يكون العرب قد قاموا بعمليات بحرية قبل بناء هذه القاعدة، وما معركة ذات الصواري التي انتصر فيها العرب على البيزنطيين عام 34هـ/ 654 ـ 655م شرقي البحر المتوسط، سوى مثال بسيط على ذلك[75].

وقد تطورت بحرية تونس الإفريقية بمرور الزمن، حيث استكملت في عهد الولاة الذين جاؤوا بعد حسان، من أمثال موسى بن نصير، وعُبَيد الله بن الحبحاب، فأصبحت على جانب كبير من القوة[76]. وقامت بعمليات كثيرة

(74) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1920، ص 189 ـ 190. الكندي: الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص 13. الكامل في التاريخ: 2/ 117 ـ 118. الطبري: 1/ 2867 وما بعدها، 2927.

(75) Cf. P. Sebag «Les Travaux maritimes de Hassan Ibn Nu'man», Institut de Belles Letters Arabes, XXXIII, 1970, p. 55.

(76) انظر: محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 422 ـ 424.

على جزر الحوض الغربي من البحر المتوسط، لا سيما صقلية. وقد منحت أفريقية قاعدة جيّدة للعرب، فاْستخدموها استخداماً كاملاً، وقاموا في خلال نصف قرن (من 84هـ/ 703م ـ 135هـ/ 752م) بما لا يقل عن عشرين عملية بحرية ناجحة[77]. ولكن الحملات البحرية توقّفت بعد هذا التاريخ لما يقرب من نصف قرن أيضاً، أي إلى أوائل عهد الأغالبة في تونس، وذلك بسبب انشغال الولاة في المغرب بالفتن والاضطرابات. فَأمن البيزنطيون في صقلية، وقاموا بإعمار الجزيرة من جميع الجهات، وبنوا فيها الحصون والمعاقل، وقاموا بتخصيص مراكب تطوف بالجزيرة تشابه ما يُعرف اليوم بدوريات الحراسة، للدفاع عن السواحل، والاستيلاء على السفن التجارية للمسلمين. وبهذه الوسيلة جمع أسطولهم بين الدفاع عن الجزيرة، وقطع خطوط الملاحة العربية[78].

وفي خلال هذه الحقبة قام العرب في أفريقية بحركة واسعة لإنشاء الربط في السواحل للتخلص من الغارات المفاجئة للبيزنطيين، ويُعد رباط المنستير من أقدم الربط في أفريقية. وقد أُنشِئ بناءً على أمر الوالي العباسي هرثمة بن أعين سنة 180هـ/ 796م، وكان عبارة عن حصن كبير كثير المساجد والمساكن والأبنية العالية المتكوّنة من طبقات يعلو بعضها الآخر، وله ميناء تُشحَن فيه السفن التي تحمل الملح من المناطق المجاورة، كما كان يوجد بالقرب منه خمسة محارس متقنة البناء، معمورة بالصالحين المرابطين من أجل الجهاد[79].

وعندما جاء الأغالبة توسعوا في عملية بناء الربط التي كانت تسمى أيضاً بالقصور والمحارس، ويشير اليعقوبي إلى هذه الأماكن المحصنة بقوله:

(77) الكامل في التاريخ: 5/ 456. وقارن: عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، 2/ 195.

(78) انظر: البكري: ص 37 ـ 39. الرقيق: ص 65 ـ 66. المالكي: 1/ 37. ياقوت: معجم البلدان، بيروت، 1957، 2/ 61 ـ 62.

(79) انظر: البكري: ص 26، 84.

«ومن أسفاقس إلى موضع يُقال له بنزرت مسيرة ثمانية أيام وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العُبّاد والمرابطون»[80]. وقد استفاد الأغالبة من الحصون والأبراج البيزنطية القديمة التي كانت منتشرة على الساحل واستخدموها في أغراضهم الدفاعية. يُضاف إلى ذلك مجموعة الربط أو المحارس التي كانت حول المدن الساحلية الهامة، مثل صفاقس، وسوسة، وبنزرت، والتي ما زالت باقية حتى اليوم. وقد أشار البكري إلى بعض هذه المحارس القريبة من صفاقس، ومنها محرس بطوية، ومحرس الريحانة[81].

وعلى صعيد الحملات البحرية والاهتمام بالأسطول العربي في عهد الأغالبة، ابتدأ خلفاء إبراهيم بن الأغلب القيام بنشاط بحري ملحوظ، حيث شرع عبد الله بن إبراهيم، ومن بعده زيادة الله الأول في بناء أسطول قوي. فبالإضافة إلى دار صناعة السفن في تونس، أُنشِئت دار أخرى في مدينة سوسة، حيث عمل فيها فتيان زيادة الله من السود في بناء السفن اللازمة للأسطول العربي. وقد ضاق المكان في هذه الدار، لا سيما في أثناء التهيُّؤ لأفتتاح صقلية، حتى إن العاملين اضطروا إلى استخدام مقبرة سوسة، وهدموا ما فيها من قبور لتوسيع دار الصناعة، ووضع المراكب التي كانوا يقومون بإنشائها[82].

وتمت عدة حملات بَحْرية في عهد زيادة الله الأول قبل القيام بعملية فتح صقلية. ففي سنة 201هـ/ 816م أرسِلتْ مراكبُ كثيرة إلى جزيرة سردانية، ولكن هذه الحملة لم تنجح تماماً بسبب عطب بعض مراكبها وإصابة قسم من رجالها، مما دعا الأمير إلى مكافأة من رجع منهم سالماً[83]. كما أشار

(80) كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة، ليدن، 1892، ص 250.

(81) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 19 ـ 20. وقارن: أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، 1968، ص 291 ـ 292.

(82) انظر: المالكي: رياض النفوس، 1/ 400.

(83) الكامل في التاريخ: 6/ 329.

ابن الأبّار إلى حملة أخرى أُرسِلت إلى صقلية من قِبَل زيادة الله سنة 204هـ/ 819م بقيادة أحد أقاربه المدعو محمد بن عبد الله بن الأغلب، وذلك قبل افتتاح الجزيرة سنة 212هـ/ 827م بنحو ثمان سنين(84). وأُرسِلت حملة أخرى بعد سنتين، أي في 206هـ/ 821 ـ 822م، وكانت وجهتها سردانية، لكنها لم تُكلَّل بالنجاح الكامل، لغرق سفن عديدة في طريق العودة(85).

وهكذا وبفضل هذه الحملات المتكررة، تَعرّف العرب في أفريقية على جزر البحر المتوسط، مثل: صقلية، وسردانية، وكورسيكا. وأصبحت هذه الجزر الهدف المباشر للقوة البحرية العربية التي نمت وترعرعت، وأصبحت على أشد ما تكون من قوة في عهد الأغالبة، الذين أحسنوا استخدامها في سبيل تعزيز السيادة العربية على البحر المتوسط، ونشر لواء العروبة والإسلام على منطقة الجزر الغربية لهذا البحر. وما فتح صقلية، الذي يعود الفضل فيه إلى الأغالبة، إلاّ ثمرة طيبة ناضجة، لاْهتمامهم بالأسطول، وتنميتهم للقوة البحرية وحمايتهم للسواحل والثغور.

فتح صقلية وأهميته:

توجهت أنظار العرب إلى صقلية بسبب موقعها الجغرافي الممتاز في البحر المتوسط. فهي تربط بين السواحل الأوروبية وسواحل شمال أفريقيا، لا سيما بلاد تونس الحالية. وصقلية هي امتداد جغرافي لشبه جزيرة إيطاليا، التي تمتد من وسط أوروبا جنوباً إلى قلب البحر المتوسط، وهي ولهذا أقرب إلى سواحل إيطاليا الجنوبية، حيث لا يفصلها عنها سوى مضيق مسينة

(84) الحلة السيراء: 1/ 181. وقد اختلف المؤرخون المحدثون بشأن هذه الحملة، فمنهم من يستبعد وقوعها، محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 430. ومنهم من يأخذ بها. انظر: عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1980، ص 12.

(85) الكامل في التاريخ: 6/ 379. ابن عذاري: 1/ 97.

Messina، ولا يتجاوز اتساع هذا المضيق في أضيق جهاته سوى مِيلَيْن، أو ثلاث كيلومترات تقريباً. وقد عرفه العرب أيضاً بأسم مجاز الفارو، أي مجاز المنار، نسبة إلى ضوء نار البركان القريب، الذي كان يُستضاء به في السفر ليلاً في البر والبحر على السواء[86].

أما عن المسافة بين جنوبي صقلية وبين أقرب سواحل أفريقية إليها، وهي شبه جزيرة شريك في شمال تونس، فتصل إلى مائة وعشرين كيلومتراً. وكانت تُقطع، حسبما يقول ياقوت، في مدّة يومين بِالرّيح الطيّبة[87]. وتوجد بين صقلية وبين سواحل أفريقية بعض الجزر الصغيرة، منها جزيرة قوصرة، بين ساحل مدينة المهدية والركن الجنوبي الغربي لصقلية حيث مدينة مازر. وتُعرف قوصرة في الوقت الحاضر بأسم جزيرة بنطلارية، وتبعد عن مازر نحو مائة كيلومتر[88]. وهكذا كانت جزيرة صقلية، بفضل موقعها المتوسط بين إيطاليا وأفريقية، وبفضل الجزر الصغيرة التي تربط بينهما، معبراً طبيعيّاً بين السواحل الأوروبية والسواحل الإفريقية، على مر العصور التاريخية[89].

وقد أدرك العرب أهمية هذا الموقع الجغرافي والعسكري الممتاز للجزيرة في وسط البحر المتوسط، فضلاً عن غناها من حيث الثروة الحيوانية والزراعية والمعدنية. ويشير الجغرافيون والرحالة العرب إلى هذه الأهمية والغنى، فيقول الأصطخري: إن بهذه الجزيرة من الخصب والزروع

(86) ياقوت، معجم البلدان: 3/ 416. ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص 263. ميخائيل أماري: المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، ليبسك، 1857، أعادت طبعها بالأوفست مكتبة المثنى بغداد، ص 78، 82. وانظر أيضاً: المسعودي، التنبيه والإشراف (في المكتبة الصقلية) ص 2.

(87) معجم البلدان: 3/ 416.

(88) المصدر نفسه: 4/ 413. البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب: المسالك والممالك) تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد، بيروت، 1968، ص 226.

(89) انظر: عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي: 2/ 199.

والمواشي والرقيق ما يفضل عن سائر البلاد الإسلامية المتاخمة للبحر[90]. أما ابن حوقل الذي زار الجزيرة بنفسه سنة 362هـ/ 972 ـ 973م، فيذكر أن جميع أرضها مسكونة ومزروعة[91]. وقد رسم الإدريسي خريطتها وبيّن مدنها وقراها، ووصفها بقوله: «إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن، وقديماً دخلها المتجوّلون من سائر الأقطار، والمترددون بين المدن والأمصار، وكلهم أجمعوا على تفضيلها، وشرف مقدارها، وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها...»[92]. أما ابن جبير، فيذكر بأن خصب صقلية أكثر من أن يوصف، وشبهها على أنها ابنة الأندلس في سعة العمران وكثرة الخصب والرفاهية[93]. وقد أشار ياقوت إلى أنها كثيرة المواشي والحيوانات الأليفة والوحشية، وأن بها جميع الفواكه على اختلاف أنواعها، وأن كَلأَها لا ينقطع صيفاً وشتاءً[94].

ونظراً لموقع الجزيرة الجغرافي في منتصف البحر المتوسط، وأنها كانت أشبه بمعبر بين أفريقيا وأوروبا، فقد طرأ على تكوينها البشري الكثير من التغيير والتبديل، فجاء إليها الفينيقيون منذ القدم، وكذلك اليونان، والقرطاجنيون، ثم الرومان، وقبائل الجرمان، والقوط، وأخيراً البيزنطيون، الذين انتزعوها من أيدي القوط في حدود سنة 535م، في عهد الإمبراطور جستنيان Jastinian[95].

أوضاع صقلية في ظل الحكم البيزنطي:

حكم البيزنطيون صقلية مائتين واثنتين وتسعين عاماً، منذ استيلاء القائد

(90) المسالك والممالك، المكتبة الصقلية، ص 3.

(91) صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص 113.

(92) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المكتبة الصقلية، ص 25.

(93) رحلة ابن جبير: ص 266. المكتبة الصقلية: ص 82.

(94) معجم البلدان: 3/ 417.

(95) انظر: إحسان عباس: العرب في صقلية، دار الثقافة، بيروت، 1975، ص 25، وقارن: عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي: 2/ 208.

بلزاريوس عليها سنة 535م، إلى أن افتُتِحت من قِبَل الأغالبة عام 212هـ/ 827م. ولم تكن الأحوال العامة فيها جيدة في ظل الحكم البيزنطي. فقد كره الشعب الصقلي هذا الحكم، ورغب بالخروج عن سلطة الإمبراطورية البيزنطية، لِمَا كانوا يدفعونه من ضرائب باهظة، وما يلاقونه من مصادرات لممتلكاتهم بالقوة، فضلاً عن التعسف الذي كان يلاقيه الصقلّيون من قِبَل حكامهم البيزنطيين[96]، ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية هي المستغل الوحيد لصقلية، بل كانت الكنيسة تشاركها النفوذ والسلطان لكثرة أملاكها في الجزيرة. فكان لكنيسة روما Rome وميلان Milano، ورافنا Ravenna، وغيرها من المدن الإيطالية إقطاعات كثيرة حول مدن سرقوسة وقطانية ومِيلاَص وبَلَرْم. ويعمل في هذه الإقطاعات فلاّحون يُسمّون بالكولونيين Coloni، وهم أشبه ما يكونون بالعبيد من حيث ارتباطهم بالأرض ودفعهم للضرائب، وكان عدد هؤلاء كبيراً جدّاً، ولم تعمل الكنيسة أو البابوات على إصلاح حالهم أو تحريرهم. واستمر الرهبان في تملّك الأراضي والمزارع، حتى يُقال بأنهم كانوا يملكون نحو نصف الجزيرة[97].

لم يكن المجتمع الصقلي في ظل الحكم البيزنطي إذاً سعيداً، بل كانت الجزيرة تضم خليطاً من الأجناس، أهم عناصره الإغريق، والإيطاليّون، إلى جانب جماعات أخرى من اليهود المنكمشين على أنفسهم، ولكنهم لم يكونوا كثيري العدد[98]. وقد أضافت السلطة إلى هذه الأجناس بعض المنفيين، حيث كانت تُعتبرَ صقلية منفى للمذنبين والمجرمين، والجنود

(96) Cambridge Medieval History, Cambridge, 1964, VOL. II,P. 20-21.

(97) Scott: History of the Moorish Impier in Europe. Philadelphia - London, 1904, VOL. II,P. 6. Amari, Storia de Musulmani di Sicilia, VOL, I, P. 124-125, 328.
نقلاً عن: تقي الدين عارف الدوري، صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ص 41 ـ 42.

(98) Amari: Storia de Musulmani di Sicilia, VOL, I, P. 324.
نقلاً عن: إحسان عباس: العرب في صقلية، ص 29.

الخارجين على القانون. وكانت الخرافات تسيطر على حياة تلك الأجناس، حتى مزجها الناس بالدين، فعبدوا القديسين والشهداء. وجملة القول إن صقلية البيزنطية كانت قُبَيل الفتح العربي الإسلامي، قد فقدت شخصيتها ومقومات الحياة العمرانية فيها، كما اختنق فيها كل شعور بالرفعة الإنسانية، وبلغت درجة واطئة جدّاً من الانحطاط في كل مجالات الحياة[99]. ويؤكد الجغرافي العربي ياقوت الحموي هذه الحقيقة[100]، فيشير إلى أن صقلية كانت قليلة العمارة، خاملة قبل الإسلام، فلما حرر العرب المسلمون بلاد المغرب، هرب بعض أهل أفريقية إليها، فأقاموا بها، وحاولوا إعمارها. وأحسنوا في ذلك، حتى افتُتحت أيام الأغالبة. وهذا يدل على الصلة الوثيقة بين أفريقية وصقلية في أثناء دخول العرب إلى المغرب، كما يدل أيضاً على سهولة الانتقال والعبور بين الجانبين.

العلاقات بين صقلية والأغالبة قبل الفتح:

تطلبت ظروف إبراهيم بن الأغلب الداخلية أن يتبع سياسة سلمية مع البيزنطيين، لانشغاله في تثبيت أركان دولته الفتية، ومحاولته لتخليصها من الأخطار الخارجية، وتأمين التجارة العربية في سواحل أفريقية، ودفع خطر الأدارسة في المغرب الأقصى، لا سيما بعد مبايعة إدريس الثاني سنة 187هـ/ 803م، لهذا فقد توصل إلى عقد هدنة مع قسطنطين بطريق صقلية البيزنطي سنة 189هـ/ 805م، أمدها عشر سنوات. ولم تشر المصادر العربية إلى هذه الهدنة التي الْتَزم بها الجانبان، كما لم تُسجَّل أية غارة بينهما حتى وفاة الأمير إبراهيم الأول[101].

(99) انظر: المرجع السابق، ص 31. محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 453.

(100) معجم البلدان: 3/ 417.

(101) انظر: فازيليف: العرب والروم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، مطبعة الاعتماد، مصر، بدون تاريخ، ص 64. أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض =

وقد واصل ابن الأمير إبراهيم وخَلَفه، أبو العباس عبد الله الأول (196 ـ 201هـ/ 812 ـ 817م) نفس سياسة والده إزاء البيزنطيين في صقلية، فجدد الهدنة التي أشرفت على النهاية، مع بطريق صقلية جريجوري، في تاريخ لم يُذكَر في مصادرنا. ويرى الدكتور محمد الطالبي أن هذه الهدنة أُبرِمت في نهاية حكم عبد الله الأول بن إبراهيم، وظلّت نافذة المفعول حتى سنة 212هـ/ 827م[102]. ومن أجل أن يتخلّص الأمير من معارضة الفقهاء في القيروان لهذه المعاهدة، أشركهم في إبرامها، حيث جاء في كتاب الهدنة على لسان أحد هؤلاء الفقهاء، وهو سليمان بن عمران، الذي تولى قضاء القيروان فيما بعد، قال: «كنت حضرت في أيام أبي العباس بن الأغلب في هدنة صقلية، وقد جمع شيوخ القيروان ووجوههم، وكنت فيمن حضر، فكُتِب بين يديه كِتَاب الهدنة، وقُرِئ على جماعة الناس، وكان فيه «أن من دخل إليهم من المسلمين وأراد أن يردّوه إلى المسلمين كان ذلك عليهم[103]».

وكما يبدو، كفلت هذه الهدنة حرية التجارة، حيث أخذت بنظر الاعتبار سلامة التجار العرب في صقلية، والتجار البيزنطيين في أفريقية[104]. ولكن على الرغم من هذه الهدنة، فقد كان للأغالبة دوافع عديدة للتحول عن هذه السياسة، لا سيما وأنهم علموا بخرق البيزنطيين لأحد بنودها، وأنهم

= البحر المتوسط (500 ـ 1100م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، نشر: مكتبة النهضة المصرية مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 165، 176. مورينو: المسلمون في صقلية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1957، ص 7.
Amari: Op. Cit, VOL. I. P. 353.
نقلاً عن: تقي الدوري: صقلية، ص 32.

(102) الدولة الأغلبية: ص 429، 440، وهو يعارض بهذا رأي كل من: Amari، وفازيليف. انظر هامش (268) من المرجع نفسه ص 440.

(103) المالكي: رياض النفوس: 1/ 186.

(104) قارن: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص 12. محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 440. تقي الدوري: صقلية، ص 33.

يحتجزون بعض الأسرى المسلمين في صقلية، الأمر الذي دفعهم إلى التفكير جدياً في القيام بعملية عسكرية غايتها افتتاح الجزيرة وضمها نهائيّاً إلى دولتهم في أفريقية.

أسباب فتح الأغالبة لصقلية:

أ ـ الأسباب الخارجية

1 ـ كان زيادة الله قد قرر انتهاج سياسة بحرية قوية غرضها تضييق الخناق على الأسطول البيزنطي. ولمّا كانت صقلية تمثل أحد مراكز هذا الأسطول، الذي ظل يهدد السواحل العربية لحقبة طويلة من الزمن، لا سيما في أوقات انشغال العرب في مشاكلهم الداخلية، فقد قرر زيادة الله توجيه ضربة قوية لهذا الأسطول بمحاولة السيطرة على قاعدته في صقلية، لأنها اتُّخِذت قاعدة للهجوم على العرب. وكان آخر هجوم تتعرض له السواحل العربية من صقلية قد تمَّ في السنة التي سبقت الفتح (أي سنة 211هـ/ 826م). حيث تعرضت أفريقية لهجمة بحرية قامت بالنهب وأَسْر التجار، وكان يقود هذه الغزوة قائد تدعوه المصادر العربية بأسم فيمي Euphemius، الذي سيكون له دور كبير في عملية فتح الجزيرة فيما بعد[105]. يضاف إلى ذلك فإن السيطرة على الجزيرة كان يعني الهيمنة على القسم الأوسط من البحر المتوسط، وهذا معناه التمكّن من أحد مفاتيح البحر المتوسط المهمة، والتحكم فيه، والسيطرة على مواصلاته، ووقف سيادة البيزنطيين على النشاط التجاري فيه، وإزالة الخطر عن التجارة العربية في موانئ ومدن الساحل المغربي[106].

---

(105) انظر: المرجع السابق، ص 37.

(106) الكامل في التاريخ: 6/ 334

2 ـ ويعزو أحد المستشرقين السبب في انتهاج الأغالبة لهذه السياسة البحرية، والاتجاه إلى افتتاح صقلية، إلى أنهم لم يتمكنوا أن يحرزوا نجاحاً في التقدم شرقاً أو غرباً، أي إنهم لم يستطيعوا السيطرة على برقة ومصر، وبقية المغرب(107). وهذا صحيح، حيث كانت مصر تُحكَم مباشرة من قِبَل الدولة العباسية. أما في الغرب، فلم يستطع الأغالبة أن يحققوا أي تقدم يُذكَر، لسيطرة الرستميين على المغرب الأوسط، والأدارسة على المغرب الأقصى.

3 ـ كانت صقلية ملجأً لأعداء العرب من البيزنطيين الذين هربوا في أثناء التحرير العربي للغرب، واستقروا في الجزيرة، وعملوا على إعمارها، والاستعداد للوثوب منها على أفريقية، وقد ذكرنا إشارة ياقوت الحموي إلى هؤلاء سابقاً. وهذا شجّع الأغالبة على التفكير جديّاً في افتتاح الجزيرة، بعد أن تيسرت لهم القوة البحرية الكافية لذلك.

4 ـ وكان للظروف السياسية التي تمرّ فيها الإمبراطورية البيزنطية أثر في تشجيع الأغالبة على فتح صقلية. فقد حدثت ثورة توماس الصقلي في آسيا الصغرى سنة 206هـ/ 821م. مما اضطر الإمبراطور ميخائيل الثاني (205 ـ 214هـ/ 820 ـ 829م) على سحب جيوشه من صقلية وبقية أطراف الإمبراطورية، لدفع الخطر عن العاصمة. وعلى الرغم من القضاء على هذه الثورة سنة 209هـ/ 824م، لكن البيزنطيين عانوا من نتائجها السلبية على إمبراطوريتهم(108). يضاف إلى ذلك أنهم خسروا

---

(107) Vonderheyden, La Berberie Orientale sous La Dynastie des Benou, L-Arlab, 800 - 909, Paris, 1927, p. 280 - 281.

نقلاً عن: تقي الدوري: المرجع السابق، ص 34.

(108) انظر فازيليف: العرب والروم، ص 66، 70. أومان: الأمبراطورية البيزنطية، تعريب: مصطفى طه بدر، مطبعة الاعتماد، مصر، 1952، ص 162. تقي الدوري: صقلية، ص 39.

في سنة 212هـ/ 827م جزيرة كريت (أقريطش) التي استطاع مهاجرو الأندلس افتتاحها بقيادة أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي. وهؤلاء هم بقايا الربضيين المنفيين من الأندلس، الذين تمردوا على الحَكَم الأوّل بن هشام سنة 202هـ/ 818[109].

وقد أدت هاتان الحادثتان إلى ضعف الدولة البيزنطية، وقلة قدرتها على الدفاع عن صقلية، حيث اغتنم القائد فيمي (أوفيميوس) هذه الظروف وتمرد في صقلية، لأنه كان يرمي إلى الاستقلال عن الإمبراطورية البيزنطية. ومما زاد في ضعف الأسطول البيزنطي في صقلية أيضاً، أن هذا القائد أسلم القسم الذي كان تحت سيطرته للأغالبة بعد فشل تمرّده، مما شجعهم على تنفيذ عملية الفتح[110].

ب ـ الأسباب الداخلية:

1 ـ كان لعامل الجهاد في سبيل الله أثر واضح في التحريض على افتتاح صقلية، حيث كان أهل أفريقية قد تفقهوا في الدين، وأصبح منهم العلماء والفقهاء، لا سيما أولئك الذين كرّسوا حياتهم في الربط على السواحل للجهاد ضد البيزنطيين. ولهذا فإن الخروج في حملة لافتتاح

---

(109) انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد، 1926، ص 51 ـ 52. ابن الخطيب: أعمال الاعلام، القسم الثالث الخاص بالأندلس، نشر: ليفي بروفنسال، بيروت، 1956، ص 16. المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968، 1/ 329. أحمد العدوي: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، 1958، ص 107 ـ 110.

وعن كريت تحت ظل الأندلسيين انظر: د. اسمت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، جدة، 1977. خليل إبراهيم السامرائي: إمارة كريت الأندلسية، مجلة الجامعة، الموصل، أيلول، 1978.

(110) انظر: الكامل في التاريخ: 6/ 334. فازيليف: العرب والروم، ص 70، 72. لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص 170. مورينو: المسلمون في صقلية، ص 8. تقي الدوري: ص 40.

صقلية كان من أعظم ما يتمناه هؤلاء، ومما يؤكد هذا الأمر، اختيار الفقيه أسد بن الفرات، قاضي القيروان، قائداً لهذه الحملة، فهو يعبّر أصدق تعبير عن روح الجهاد التي سيطرت على الفاتحين. فقد وَلاّه زيادة الله «على الجيش وأقرّه على القضاء مع القيادة، فخرج معه أشراف أفريقية من العرب، والجند، والبربر، والأندلسيين، وأهل العلم والبصائر»[111].

يضاف إلى ذلك، أن زيادة الله أراد أن يَظهر أمام أهل أفريقية بمظهر المجاهد في سبيل الله ليكسب قلوبهم ويعزز مكانته في نفوسهم[112]. وكان للمهاجرين الأندلسيين إلى المغرب ـ وهم من بقايا الربضيين الذين أشرنا إليهم قبل قليل، والذين استقروا في أفريقية ـ دورٌ كبيرٌ في فتح صقلية، لأنهم شكّلوا أحد عناصر الجيش الفاتح، حسب ما أشار ابن عذاري إلى ذلك[113]. وربما كان وجودهم في المغرب، واستعدادهم للاشتراك في الفتح والجهاد سبباً في إقدام الأغالبة على التوجه إلى صقلية.

2 ـ وقد أشار عدد كبير من المؤرخين المحدثين إلى أن عدم الاستقرار الذي شهدته معظم ولايات أفريقية بسبب اضطراب جند الأغالبة، يمكن أن يكون من الأسباب التي دعت الأمير زيادة الله إلى توجيه نشاط جُنده ورعاياه إلى الجهاد في سبيل الله لافتتاح صقلية، بدلاً من انشغالهم في الفتن والاضطرابات فيما بينهم[114]. وربما كان هذا الأمر صحيحاً، ولكن لا يمكن الركون إليه كثيراً، لأن عدم الاستقرار كان

---

(111) ابن عذاري: البيان المغرب: 1/ 103.

(112) قارن: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ط2 الإسكندرية، 1982، ص 301.

(113) البيان المغرب: 1/ 103. وقارن: تقي الدوري: المرجع السابق، ص 41.

(114) انظر: جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، 2/ 69. عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 2/ 210. تقي الدوري: صقلية، ص 34 ـ 35. والمراجع المذكورة في هامش (1)، ص 35.

موجوداً أيضاً في الحقبة التي سبقت حكم زيادة الله، ولم يحاول إبراهيم بن الأغلب أن يمتص هذا التوتر بتوجيه الجند إلى فتوحات خارجية، لأن الظروف في عهده لم تكن تسمح بذلك. ولكن الظروف تغيرت في عهد زيادة الله، من حيث ازدياد القوة البحرية العربية نتيجة لتطور صناعة السفن ودور الصناعة في كل من تونس وسوسة، وظهور عوامل خارجية مشجعة، لا سيما التغييرات التي حصلت في السياسة الصقلية بالذات، وتمرد فيمي ـ أو أوفيميوس ـ على بطريق صقلية البيزنطي، واستنجاده بزيادة الله الأغلبي، فكان هذا الحادث هو السبب المباشر للفتح.

السبب المباشر للفتح:

ترجع الروايات البيزنطية السبب في الصراع الذي حدث بين قائد الأسطول أوفيميوس وبطريق الجزيرة قسطنطين إلى قصة مفادها أن أوفيميوس أحب راهبة اسمها هومونيزا Homonisa، وتزوجها على كُرهٍ منها، ومن أهلها. وعندما بلغ ذلك مسامع الإمبراطور ميخائيل الثاني، أمر بالتحقيق في الأمر، ومعاقبة أوفيميوس ـ في حال ثبوت التهمة ـ بجدع أنفه[115]. فثار الأخير بمساندة وحدات الأسطول التابعة له، واحتلّ مدينة سرقوسة Siracusa، وهزم قسطنطين، الذي أُسِر وأُعدِم. واتخذ أوفيميوس نفسه ملكاً، وأعلن الاستقلال عن الإمبراطورية، وعهد إلى أتباعه بحكم ولايات الجزيرة. وكان من هؤلاء قائد أرمني اسمه بلاطة، لم يلبث أن طمع في ملك الجزيرة، فقام على أوفيميوس، وأعلن ولاءه للإمبراطور ميخائيل الثاني، ثم تحالف مع ابن عم له، الذي كان حاكماً على مدينة بلرم، فنجح الاثنان في هزيمة أوفيميوس، وانتزاع العاصمة سرقوسة من بين يديه. وهنا لم يجد

(115) فازيليف: العرب والروم، ص 67 ـ 68. عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص 13. وانظر: تقي الدوري: صقلية، ص 44.

أوفيميوس ملجأ إلاً الاتصال بالأمير الأغلبي زيادة الله للتدخل والمساعدة[116].

ويبدو أن حكاية زواج أوفيميوس الأسطورية هذه، ما هي إلاَّ ذريعة اتخذتها السلطات البيزنطية للتخلص من هذا القائد الطموح، وأن الأسباب الحقيقية لقيامه على السلطة تكمن في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للجزيرة بشكل خاص، والإمبراطورية عامة[117]. ولعل النجاح الذي أحرزه العرب في انتزاع جزيرة كريت (أقريطش) من البيزنطيين، قد أوحى إلى أوفيميوس القيام هو الآخر على الإمبراطور، وانتزاع صقلية لنفسه[118]. وعلى أي حال فقد كان أوفيميوس طموحاً في الميدان السياسي، وكان يمارس قيادة عسكرية هامة قبل أن يقوم بتمرده، فكان كما وصفه ابنُ الأثير، «حازماً شجاعاً»[119]، مارس نفوذاً كبيراً على رجاله، نظراً لانتصاراته، وخبرته القتالية في أفريقية، فأراد أن يجرّب حظه في الانسلاخ عن جسم الإمبراطورية، ورفع راية التمرد عليها، ولكنه لم ينجح بسبب تفكك العصبة التي كان يرأسها بعد النصر، وصار معاونوه القدامى منافسين له، مما أدى إلى هزيمته، واضطراره للفرار.

ولدى وصول أوفيميوس إلى أفريقية، طلب مساعدة الأغالبة، وهوّن على الأمير زيادة الله أمر فتح صقلية[120]، ووعده بملك الجزيرة[121]. ولا تشير المصادر العربية إلى غير هذا الشرط، لكن المصادر الأوروبية ذكرت

---

(116) الكامل في التاريخ: 6/ 334. النويري: نهاية الأرب (المكتبة الصقلية، ص 427). ابن خلدون، العبر (المكتبة الصقلية، ص 466).

(117) انظر: فازيليف: العرب والروم، ص 70. مورينو: المسلمون في صقلية، ص 8.

(118) قارن: عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 13.

(119) الكامل في التاريخ: 6/ 334. وانظر أيضاً: ابن خلدون: العبر (المكتبة الصقلية، ص 466).

(120) معجم البلدان: 3/ 417.

(121) الكامل في التاريخ: 6/ 335.

شروطاً أخرى، مفادها أن يتمّ فتح الجزيرة بجيوش الأغالبة، وأن يحكمها أوفيميوس بلقب إمبراطور، ويدفع جزية للأمير الأغلبي، إذا اعترف الأخير به، وأمدّه بمساعدة عسكرية، أو أن يكون زيادة الله بمثابة إمبراطور للجزيرة وينوب عنه أوفيميوس في حكمها[122].

لقد سبقت الإشارة إلى وجود هدنة نافذة المفعول بين الأغالبة وصقلية، ويتضمن أحد بنودها: على أن من أراد من أسرى المسلمين أن يعود من صقلية فعلى البيزنطيين أن يردّوه. وقد أخبر أوفيميوس زيادة الله بوجود أسرى من المسلمين في صقلية، خلاف نص المعاهدة، وأكد هذا الأمر رُسل بطريق صقلية، الذين جاؤوا إلى أفريقية بعد لجوء أوفيميوس[123]. لذلك فقد جمع زيادة الله وجوه أهل القيروان وفقهاءها للنظر في أمر الصلح المبرم مع صقلية، وإطلاعهم على موضوع أوفيميوس وطلبه لتدخل الأغالبة عسكريّاً في الجزيرة. وقد انقسم الناس إلى فريقين: الأول، أقلية متريثة لا ترى القيام بعمل عسكري، ولا تشير به، وكان القاضي محمد بن عبد الله الكناني المعروف بأبي محرز (ت سنة 214هـ/ 829 ـ 830م)[124]، على رأس هؤلاء، حيث كان من رأيه التأنّي وجمع معلومات أكثر، والتأكد فعلاً من نقض البيزنطيين لمعاهدة الصلح. أما الفريق الثاني، فقد كان متحمساً للقتال والتدخل في صقلية، باعتبار أن هذه فرصة يجب ألاّ تُفَوَّت للجهاد في سبيل الله، وإعزاز دينه. وقد تزعّم القاضي أسد بن الفرات

---

(122) انظر: Scott, History of the Moorish Empire, Vol. II, P. 10.

فازيليف: العرب والروم، ص 71. مورينو: المسلمون في صقلية، ص 8. وانظر أيضاً: عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 13. محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 440. تقي الدوري: صقلية، ص 46 ـ 47.

(123) المالكي: رياض النفوس: 1/ 186.

(124) انظر عنه: أبو العرب: طبقات علماء أفريقية وتونس، ص 166 ـ 167. المالكي، رياض النفوس: 1/ 189 ـ 196.

(ت 213هـ/ 828م)[125] هذا الفريق، وقدّم حلاً لمشكلة المعاهدة، حيث اعتبر أوفيميوس وجماعته بمثابة سفراء يمكن قبول شهادتهم في أمر الأسرى، فقال: «بِٱلرّسل هادنّاهم وبِٱلرُّسل نجعلهم ناقضين»[126]، واستند أيضاً إلى نص الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[127]. فٱقتنع الأمير زيادة الله، وتحلل من الهدنة، وأصدر أمره بالتهيّؤ لعملية الفتح[128].

تنفيذ عملية الفتح:

أسند زيادة الله قيادة الحملة إلى أسد بن الفرات، الذي كان على علمه وفقهه معدوداً بين الشجعان. وقد أقر على القضاء بالإضافة إلى القيادة، وتمت الاستعدادات للحملة، حيث هُيِّئت السفن في دار صناعة سوسة[129]، وجُهزت بكل ما تحتاج إليه، حتى خرجت بعدّة كاملة[130]. وقد نُظّم حفل كبير عند ركوب أسد وجيشه للبحر، حيث أمر زيادة الله جميع وجوه دولته بمصاحبة الحملة من القيروان إلى سوسة في موكب عظيم[131]. وأقلع الأسطول الأغلبي من مرسى سوسة في يوم السبت، النصف من شهر ربيع الأول سنة 212هـ/ 14 حزيران 827م، وكان يتألف من نحو مائة مركب، سوى

(125) انظر: أبو العرب، المصدر السابق، ص 163 ـ 166. المالكي، المصدر السابق: 1/ 186 ـ 187. الحلة السيراء: 2/ 380 ـ 381.

(126) الحلة السيراء: 1/ 186.

(127) سورة محمد، الآية: 35.

(128) المالكي: 1/ 186 ـ 187. وانظر أيضاً: محمد بن محمد الأندلسي: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984: 1/ 734.

(129) المصدر نفسه: 1/ 186 ـ 187.

(130) البكري: جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، ص 320.

(131) المالكي: 1/ 187. ابن عذاري: 1/ 102.

مراكب أوفيميوس. أما رجال الحملة، فقد بلغ عددهم نحو سبعمائة فارس بِخَيْلهم، وعشرة آلاف راجل[132]. وكان هؤلاء يتألفون من عناصر عديدة، أهمهم العرب، الذين أشار إليهم ابن عذاري على أنهم أشراف أفريقية، والجند، الذين يقصد بهم عسكر الأمير وفتيانه من الصقالبة والسود، والبربر وهم من السكان المحليين في شمال أفريقيا، لا سيما من هوارة في طرابلس ونفزاوة، ومن قبائل الزاب، مثل كتامة، وكذلك من الأندلسيين وهم الذين لجأوا إلى شمال أفريقيا بعد هيجة الربض في قرطبة سنة 202هـ/ 818م، ومنهم أيضاً كثير من أهل العلم والبصائر الذين ساهموا في الحملة بقصد الجهاد[133].

وصلت الحملة إلى مازر (مازرة Mazara) بعد ثلاثة أيام من إقلاعها. وقد اختِير هذا الساحل للنزول، لأنه يعد أقرب سواحل الجزيرة إلى أفريقية، وأنه كان بعيداً عن مركز الثقل البيزنطي في الشرق، حيث تتواجد القواعد القوية، مثل: سرقوسة، وقطانيا Catania، وطبرمين Taormina، كما أن مدينة مازر نفسها كانت بعيدة عن الساحل بعدّة أميال[134].

معركة مرج بلاطة Palatea:

بقيت الحملة في مازر ثلاثة أيام، للتعرّف على المنطقة وبث السرايا فيها، ومعرفة أخبار القائد بلاطة، الذي سيطر على الجزيرة بعد طرد أوفيميوس. فعلم أسد بن الفرات عن طريق عيونه، ورجال أوفيميوس، الذي

(132) اختلف المؤرخون في الأعداد التي رافقت الحملة، كما اختلفوا أيضاً في نسبة الفرسان إلى المشاة، انظر: المالكي: 1/ 187. معجم البلدان: 3/ 417. الحلة السيراء: 2/ 381. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 428).

(133) انظر: البيان المغرب: 1/ 102. وقارن: البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص 220، عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي: 2/ 217 ـ 218.

(134) راجع: عبد الحميد، المرجع السابق: 2/ 218.

عسكر بالقرب من الجيش العربي، أن بلاطة قد تحصن في بعض قلاعه بمرج يُدعى بأسمه «مرج بلاطة» في منتصف الطريق بين مازر وبلرم. فسار إليه، ولما بلغ هذا المكان، طلب من أوفيميوس وجنده عدم التدخل في القتال، ورفع شارة مميزة تجنباً لكلّ خطإٍ يمكن أن يحصل في أثناء الالتحام، فوضعوا بعض الحشائش وأغصان الأشجار على رؤوسهم للتمويه[135]. ودارت المعركة بين الطرفين، حيث كانت قوات بلاطة تتفوق من الناحية العددية على المسلمين، لكن استبسال هؤلاء، وموقف أسد القيادي الشجاع وحثّه للجند على القتال، أدى إلى هزيمة بلاطة وفراره إلى معقل قصر يانة Castrogiovanni، ومنه توجّه إلى قلورية Calabra حيث قُتل هناك[136].

وتُعَدّ هذه المعركة التي تمت في 17 ربيع الثاني 212هـ/ 15 تموز 827م على درجة كبيرة من الأهمية العسكرية، إذ فقد فيها العدو البيزنطي عدداً كبيراً من أفراده، بينما حصل العرب على غنائم كثيرة ساعدت على تقوية عزيمتهم في الجزيرة[137]. وقد عدّ الأغالبة هذا الانتصار فتحاً للجزيرة، فكتب الأمير زيادة الله يبشر الخليفة المأمون بأنتصار أسد بن الفرات وافتتاح صقلية على يديه[138].

التوجه نحو سرقوسة:

رجع أسد بن الفرات إلى قاعدة الجيش الأغلبي القتالية في مازر، حيث ولّى عليها أحد قوّاده، وهو أبو زكي الكناني، ثم اتجه إلى سرقوسة عاصمة

(135) المالكي: 1/ 188. معجم البلدان: 3/ 417.

(136) الكامل في التاريخ: 6/ 335. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 428). ابن خلدون: العبر (في المكتبة الصقلية، ص 466).

(137) انظر: ابن عذاري: 1/ 102.

(138) المالكي: 1/ 188.

صقلية من أقرب الطرق وأكثرها أماناً، أي الطريق الرومانية القديمة المحاذية للساحل الجنوبي للجزيرة. وقبل أن يصل إلى العاصمة، اجتمع به بعض ممثلي البيزنطيين من سرقوسة وعرضوا عليه أن يدفعوا الجزية، ولكن كان ذلك حيلة منهم لوقفه عن التقدم ريثما يستكملون استعدادتهم وتحصين المعاقل والقلاع، ونقل كنوز الكنائس إلى أماكن آمنة. وقد أدرك القائد أسد بن الفرات بعد عدة أيام أنهم خدعوه، فعاد إلى الهجوم، وبث السرايا في المنطقة لجمع الغنائم، ثم تهيأ لمحاصرة المدينة[139].

كانت سرقوسة مدينة منيعة جدّاً، وتتمتع بتحصينات قوية. ولم يكن مع أسد بن الفرات سوى ثمانية أو تسعة آلاف رجل، بسبب المعارك التي خاضها، والحاميات التي تركها في المواقع التي سيطر عليها في الطريق. يضاف إلى ذلك، لم تتوفر لديه آلات الحصار ولا المراكب الكبيرة الضرورية التي تساعد في الاستيلاء على هذه المدينة الحصينة. ومن جهة أخرى، عمد أهل المدينة وحاميتها إلى نقل كل المواد الغذائية والمواشي من المنطقة القريبة من تحصيناتهم، مما اضطر الجيش العربي إلى أكل لحوم خُيُوله. وقد تناقضت معنويات الجند حتى طالب أحدهم بترك الحصار والعودة إلى أفريقية، مما اضطر أسد بن الفرات إلى معاقبته بالجلد حتى يعود الهدوء إلى نصابه[140].

ووصلت في هذه الأثناء إمدادات من أفريقية[141]، ومن الأندلس أيضاً[142]. وكان هؤلاء الأندلسيون على الأغلب من المتطوعين القادمين للجهاد من سواحل الأندلس، أو من كريت، ولا علاقة لهم بالموقف

(139) انظر: الكامل في التاريخ: 6/ 335. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 428).
(140) المالكي: 1/ 189.
(141) الكامل في التاريخ: 6/ 335. ابن خلدون: العبر (في المكتبة الصقلية، ص 467).
(142) ابن عذاري: 1/ 103. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 249). وانظر أيضاً: الحميري، الروض المعطار، ص 366.

الرسمي للدولة الأموية في الأندلس، التي لم يكن لها أي دافع لتأييد المشروع الأغلبي في فتح الجزيرة، ناهيك عن المساهمة فيه. كذلك تلقى البيزنطيون المحصورون في سرقوسة تعزيزات بعث بها الإمبراطور ميخائيل الثاني، الذي نجح أيضاً في إقناع رئيس البندقية للمساهمة في أسطوله ضد الحملة العربية في صقلية[143]. ويذكر ٱبن الأثير، أن والي بلرم حاول فك الحصار عن سرقوسة بجيش كبير، فتصدى له المسلمون، واستطاعوا أن يكبدوه خسائر كبيرة[144]. وٱعتدّ أسد بن الفرات ورجاله بهذا النصر، وشددوا الحصار على سرقوسة وأحرقوا الأسطول الذي قدم لنجدتها[145]. ونتيجة للضغط الذي تعرضت له المدينة، ولطول مدة الحصار التي دامت نحواً من عام، طلب أهلها عقد هدنة، والتفاوض من أجل رفع الحصار. وقد مال أسد بن الفرات إلى ذلك، لكن جيشه رفض هذا الأمر وأراد مواصلة القتال[146]. وبات وضع أهل المدينة حرجاً، إلاَّ أنه، لحسن حظهم، تفشى وباء في المعسكر العربي، توفي فيه عدد كبير من المسلمين، من ضمنهم أسد بن الفرات، سنة 213هـ/ 828م[147].

مصير الحملة بعد وفاة أسد بن الفرات:

حُرِمت الحملة من قائد شجاع نزيه، واستمر تفشي الوباء في صفوف الجند، مما هيأ الفرصة للرهائن البيزنطيين في المعسكر للفرار. وقد اجتمع

(143) فازيليف: العرب والروم، ص 78. عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص 15.

(144) الكامل في التاريخ: 6/ 335.

(145) انظر: ابن عذاري: 1/ 103.

(146) النويري (في المكتبة الصقلية، ص 429).

(147) البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص 220: الكامل في التاريخ: 6/ 335 ـ 336. ابن عذاري: 1/ 104. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 429). وهو يشير إلى وفاة القاضي أسد بن الفرات نتيجة المرض.

قادة الجند، وانتخبوا واحداً منهم ليخلف أسداً، وهو محمد بن أبي الجواري[148]. وفي هذه الأثناء وصلت إمدادات جديدة إلى البيزنطيين من القسطنطينية والبندقية[149]، فلما رأى العرب ذلك إضافة إلى اشتداد الوباء بين صفوفهم، عزموا على رفع الحصار عن سرقوسة والرجوع إلى أفريقية، بسبب استحالة انجاز الفتح. ولكن الأسطول البيزنطي حاصرهم أمام مرسى المدينة الكبير، ومنعهم من المرور، فعادوا إلى الساحل، وأحرقوا مراكبهم حتى لا تقع بأيدي الأعداء، وساروا بٱتجاه داخل الجزيرة، ومعهم أوفيميوس، حيث افتتحوا حصن ميناو Mineo الذي يبعد مسافة يوم واحد بٱتجاه الشمال الغربي من سرقوسة[150]، ثم استولوا على حصن آخر يدعى جرجنت Girgenti، وسكنوا فيه. وقد قوّى هذا النصر معنوياتهم، لهذا تركوا حامية ميناو، وتوجهوا مع أوفيميوس إلى قصر يانة، التي تُعرف اليوم بٱسم Enna[151]. وهي من أعظم معاقل الجزيرة التي تتمتع بمناعة طبيعية.

وفي هذه المدينة ٱغتِيل أوفيميوس من قِبَل السكان الذين تظاهروا بخلع طاعة البيزنطيين والاعتراف به إمبراطوراً عليهم، وذلك عندما كان يقوم بالتفاوض معهم بٱسم العرب[152]. ثم تعرض العرب إلى هجمات البطريق البيزنطي ثودط Theodotus خارج أسوار قصر يانة، فصدوه وألجؤوه إلى دخول المدينة التي ضربوا عليها الحصار. وقد توفي في هذه الأثناء القائد محمد بن أبي الجواري (سنة 214هـ/ 829م)، وتمّ اختيار قائد آخر، هو زهير بن غوث. وكان هذا أقل حظّاً من سلفه، حيث هُزم من قبل القائد ثودط، وخسر عدداً كبيراً من رجاله. واضطر العرب إلى حفر خندق حول

(148) ابن عذاري: 1/ 104.
(149) النويري (في المكتبة الصقلية، ص 429). فازيليف: العرب والروم، ص 79.
(150) الكامل في التاريخ: 6/ 336. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 429).
(151) انظر: محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 469.
(152) الكامل في التاريخ: 6/ 336. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 429).

معسكرهم لحماية أنفسهم، ثم قرروا الانسحاب إلى ميناو مرة أخرى، حيث حاصرهم الأعداء، وواجهتهم مجاعة وقلّت عندهم المواد الغذائية، حتى اضطروا إلى أكل لحوم دوابهم. ونظراً لعدم تمكّن حامية جرجنت من عمل شيء للمحصورين في ميناو، فقد هدموا الحصن، وتوجهوا إلى مازر خوفاً من بقائهم وحدهم في الحصن، وهم قلة. وهكذا، وبعد نحو سنتين من نزول الحملة بمازر لم تستطع تسجيل أي نصر حاسم، ولم يبق في أيدي العرب سوى حصنَيْ ميناو ومازر الواقعين في جانبين متقابلين من الجزيرة. وكان الاتصال مقطوعاً بين هاتين القاعدتين بسبب خطورة الطرق ووجود البيزنطيين فيها[153].

وفي هذه الظروف الحرجة التي أصبح فيها فتح الجزيرة مهدداً من الناحية العملية بالفشل، وبات مصير المتبقين من أفراد الحملة هو الهلاك لا محالة، برز عامل مهم لم يكن بالحسبان، يتلخص في وصول إمدادات من أفريقية، ومن الأندلس أيضاً، وذلك في بداية سنة 215هـ/ 830م. وكان الأندلسيون قد خرجوا من ميناء طرطوشة ولم يكونوا من الجند النظامي، بل من المتطوعين المجاهدين الذين اتخذوا عمليات التصدي للسفن المعادية في البحر طريقاً لهم في الحياة. وقد دفعتهم الريح المعاكسة إلى النزول في ميناء طرابنش Trapani[154]. وتشير الروايات العربية إلى أن هؤلاء الأندلسيين وصلوا صقلية على دفعتين في نحو ثلاثمائة مركب، وكانت الدفعة الأولى بقيادة أصبغ بن وكيل الهواري، الملقّب بفرغلوش، بينما كانت الدفعة الثانية بقيادة سليمان بن عافية الطرطوشي[155].

ولما بلغ العرب المحصورين في الجزيرة خبر وصول هؤلاء

---

(153) الكامل في التاريخ: 6/ 337. ابن خلدون: العبر (في المكتبة الصقلية، ص 467 ـ 468).
(154) الحميري: الروض المعطار، ص 429.
(155) انظر: النويري (في المكتبة الصقلية، ص 430). وقارن: الكامل في التاريخ: 6/ 337. ابن عذاري: 1/ 104. ابن خلدون: العبر (في المكتبة الصقلية، ص 468).

الأندلسيين، استغاثوا بهم، فأجابوهم إلى ذلك، وانضموا إلى جيش الأغالبة، على أن يكون أصبغ الهواري قائداً للجميع. وقد سار الأندلسيون إلى ميناو لنجدة المحصورين فيها، فهرب الجيش البيزنطي بقيادة ثودط إلى قصر يانة، وتحصّن فيها. وبعد رفع الحصار عن ميناو، سار الجميع - بعد أن أحرقوا هذا الحصن - إلى بلدة غلوالية أو غَلْيانَة Gagliano، ففتحوها. ثم انتشر الوباء في جيش المسلمين، وتوفي فيه القائد أصبغ الهواري، مما اضطرهم إلى الانسحاب إلى طرابنش، فاْستغل بطريق صقلية ثودط هذه الفرصة، وحاول مهاجمتهم، فكروا عليه وحاربوه، وتمكنوا من قتله والانتصار على جيشه. ويشير اْبن عذاري إلى عودة معظم الأندلسيين إلى بلادهم بعد تعرضهم للوباء وخسارتهم لعدد كبير من الرجال[156]. وقد بقي بعضهم في صقلية، وانضموا إلى عرب أفريقية، حيث وافقوا على الانضواء تحت قيادة القائد الأغلبي عثمان بن قرهب[157].

وسار الجميع إلى مدينة بلرم Palermo التي تقع في الساحل الشمالي للجزيرة، وضربوا عليها الحصار لمدة عام كامل، اضطر حاكمها بعد ذلك إلى طلب الأمان، وتسليم المدينة في 30 رجب سنة 216هـ/ 12 أيلول 831م[158]. وهكذا أصبح للعرب موطئ قدم واسع في الجزيرة، بحيث يمكنهم من المضي في افتتاح بقية أجزائها. وقد اتخذوها عاصمة لهم، واستقروا فيها، ولم يعودوا بحاجة إلى الانحياز إلى المعسكرات أو القلاع الصغيرة. وكانت هذه المدينة تقع في ناحية غنية، ولها ميناء جَيّد يوفّر الاتصال الميسور بالشاطئ الإفريقي، الأمر الذي يضمن للعرب الحصول على المؤن والإمدادات الدائمة من أفريقية. ولذلك فقد اتخذها المسلمون

(156) البيان المغرب: 1/ 104.

(157) الكامل في التاريخ: 3/ 337. الروض المعطار، ص 429.

(158) الكامل في التاريخ: 6/ 337. الروض المعطار، ص 429. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 430 - 431).

قاعدة لهم، وأخذوا يزحفون منها على بقية النواحي الأخرى من صقلية. وأخذت السرايا تخرج كل يوم، فتُغِير على المدن والقلاع المجاورة، وترجع محمّلة بالغنائم والأسرى. ولهذا، فقد ضعفت روح المقاومة عند سكان هذه المدن والقلاع، وطلبوا الأمان من المسلمين[159].

توطيد الفتح في عهد وُلاة الأغالبة:

وَلّى زيادة الله ٱبنَ عمّ له على صقلية، وهو أبو فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب، وذلك بعد نحو خمسة أشهر من افتتاح مدينة بلرم. ويبدو أن هذه التولية جاءت نتيجة لخشية الأغالبة من وقوع الجزيرة بيد المجاهدين الأندلسيين وضمها إلى الدولة الأموية في الأندلس، أو تكوين إمارة مستقلة فيها كما حدث في جزيرة كريت. وقد أراد الأغالبة أيضاً تعزيز ارتباط صقلية بالدولة الأغلبية في أفريقية[160].

أرسل أبو فهر عدة حملات ضد المواقع البيزنطية في الجزيرة، لا سيما قصر يانة، وطبرمين، وسرقوسة. كما قام خلفه في الولاية، أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله (تولى سنة 222هـ/ 837م) بعدة حملات برية وبحرية على المواقع البيزنطية. وكان قد جاء معه بأسطول كبير، استعمله في هذه العمليات. ولكن العرب في صقلية وَهَنُوا، بعد سماعهم بنبأ وفاة الأمير زيادة الله سنة 223هـ/ 838م، وذلك خشية أن يغيّر خلفه، أبو عقال الأغلب (223 ـ 226هـ/ 838 ـ 841م) سياسته في الفتح، غير أنهم ما لبثوا أن استعادوا تماسكهم وضبطهم لأنفسهم، واستأنفوا نشاطهم السابق[161].

---

(159) الكامل في التاريخ: 6/ 449. وقارن: فازيليف: العرب والروم، ص 118. لويس: القوى البحرية، ص 213. إحسان عباس: العرب في صقلية، ص 35. تقي الدوري: صقلية، ص 61.

(160) انظر: عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 17.

(161) الكامل في التاريخ: 6/ 338 ـ 340.

ثم نقلوا هذا النشاط في سنة 228هـ/ 843م إلى شرق الجزيرة، حيث سار الأسطول الأغلبي من بلرم، بقيادة الفضل بن جعفر الهمداني إلى مرسى مسيني، وأحاط به، ثم عقد اتفاقاً مع مدينة نابولي في جنوب إيطاليا، التي طلبت الأمان، وساعدت قواتها العرب في الاستيلاء على مسيني[162]. وكانت هذه المدينة قاعدة بحرية هامة تشرف على المضيق الذي يفصل بين صقلية وجنوب إيطاليا[163]. فأنفتح أمامهم الطريق إلى أوربا، وأصبحوا يسيطرون على مضيق مسيني. ولما كانوا قد سيطروا فعلاً على البحر بين صقلية وأفريقية، لذا أصبح في مقدورهم بعد ذلك الحيلولة دون دخول الأسطول البيزنطي إلى غربي البحر المتوسط. ويعد فتح الأغالبة لمسيني خطوة أساسية في فتح الجزيرة بعد بلرم، إذ ثبّتوا أقدامهم في أهم المواقع السوقية، فقد هيمنوا على غربها أولاً، ثم سيطروا على الميناء الرئيس في شمالها الشرقي[164].

استمر العرب في تثبيت وجودهم في صقلية طيلة ولاية أبي الأغلب إبراهيم بن عبد الله، التي استمرت نحو ست عشرة سنة، حيث توفي في سنة 236هـ/ 851م. وقد اجتمع قواد الجيش بعد وفاته، واختاروا قائداً عسكرياً، هو العباس بن الفضل بن يعقوب، وكتبوا بذلك إلى أمير أفريقية، محمد بن الأغلب (226 ـ 242هـ/ 841 ـ 856م) الذي أقر العباس على ولاية صقلية[165]. وقد استطاع العرب بقيادة هذا الوالي الشجاع أن يحققوا أهدافاً كبيرة في الجزيرة على طريق إنهاء النفوذ البيزنطي، فشنوا سلسلة من الحملات القوية على معقل قصر يانة الحصين، وتمكنوا من السيطرة عليه في

(162) المصدر نفسه: 7/ 5.

(163) لويس: القوى البحرية، ص 214.

(164) قارن: عبد الحميد: تاريخ المغربي العربي: 2/ 243. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 19. تقي الدوري: صقلية، ص 64.

(165) الكامل في التاريخ: 7/ 60. ابن عذاري: 1/ 111.

عام 244هـ/ 858م. وقد أصبحت مدينة قصر يانة من أهم مدن العرب في الجزيرة[166].

وكان ردّ الفعل البيزنطي قويّاً لدى الإمبراطور ميخائيل الثالث، الذي أرسل في السنة التالية أسطولاً كبيراً يتألف من ثلاثمائة مركب في محاولة للتصدي للعرب واسترجاع المدينة. وقد نزل الجيش المحمول على هذا الأسطول في ميناء سرقوسة، ولمّا علم به العباس بن الفضل، سبقه إلى القتال، ومزقه شر ممزّق، كما استولى على مائة مركب من هذا الأسطول. بعد ذلك صرف هذا الوالي جهده لإسكان المسلمين في قصر يانة، وتحصينها، وشحنها بالجنود، لتكون ملجأ لهم مقابل ملجإ البيزنطيين القوي في سرقوسة[167]. وقد اقتصرت ممتلكات البيزنطيين في الجزيرة على الساحل الشرقي فقط حول هذه المدينة، وبعض الجهات الداخلية. واستطاع العرب خلال هذه المرحلة أن يسيطروا على ثلثي الجزيرة[168].

وبعد نحو عشرين سنة من سقوط قصر يانة، نجح العرب في السيطرة على أهم قواعد البيزنطيين في الجزيرة، وهي مدينة سرقوسة. وكان أسد بن الفرات يدرك أهميتها منذ بداية حملته على صقلية، وقد حاول فعلاً أن يستولي عليها، لكنه لم ينجح في ذلك. واستطاع العرب بعد نحو خمسين سنة من محاولة أسد، أن يدخلوا هذه القاعدة الحصينة، وذلك في عهد الوالي جعفر بن محمد الذي تابع الحملات عليها وحاصرها برّاً وبحراً لمدة تسعة أشهر، ثم دخلها عنوة في رمضان سنة 264هـ/ أيار 878م[169]. وبسقوط

(166) الكامل في التاريخ: 7/ 62 ـ 63. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 113 ـ 114. النويري (في المكتبة الصقلية، ص 432 ـ 433).

(167) الكامل في التاريخ: 7/ 63.

(168) لويس: القوى البحرية، ص 217. تقي الدوري: صقلية، ص 67.

(169) الكامل في التاريخ: 7/ 320. ابن عذاري: 1/ 117. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 116.

سرقوسة أوشك الفتح العربي لصقلية على الأكتمال، بأستثناء طبرمين وقطانية، وبعض المناطق الأخرى في شرق الجزيرة.

استكمال فتح الجزيرة في عهد الأمير إبراهيم الثاني:

لم يستطع العرب أن يحققوا تقدماً في الفتح بعد سرقوسة إلاً بعد نحو خمس وعشرين سنة، وذلك بسبب اضطراب الشؤون الداخلية، وكثرة الفتن والتمردات التي واجهها الولاة في الجزيرة(170). ومع هذا فقد حدثت اشتباكات كثيرة بين العرب والبيزنطيين، لكنها لم تؤد إلى نتيجة حاسمة حتى ولاية أبي العباس عبد الله بن الأمير إبراهيم الثاني سنة 287هـ/ 900م، الذي شن حملات عديدة على كل من طرابنش، وطبرمين، وقطانية، وجنوب إيطاليا. وقد بقي في الجزيرة حتى سنة 289هـ/ 902م، حيث استدعاه والده إلى أفريقية، وتنازل له عن الإمارة، وحلّ محلّه في قيادة الفتح في صقلية(171). ويبدو أن الأمير إبراهيم بن أحمد (الثاني) 261 ـ 289هـ/ 875 ـ 902م، قرر الخروج إلى الجزيرة في جهاد واسع النطاق. وقد نجح فعلاً في الاستيلاء على طبرمين في شعبان 289هـ/ آب 902م، ثم انتقل إلى اخضاع بقية الأجزاء الشرقية من الجزيرة في إقليم دمنش Val Demone، كما قام بالعبور إلى مقاطعة قلورية في جنوب إيطاليا. وتوفي هنالك، وهو يحاصر مدينة كُسنَتْه Cosenza(172). وبأفتتاح مدينة طبرمين أصبحت صقلية بأسرها بيد العرب المسلمين. وكان وَقْع هذا الانتصار كبيراً على البيزنطيين، حتى إن الإمبراطور ليون السادس (886 ـ 912م/ 273 ـ 300هـ) حزن عليها حزناً

(170) انظر: ابن عذاري: 1/ 117، 120، 130 ـ 131. أعمال الأعلام، ص 116، 117، 119.

(171) الكامل في التاريخ: 7/ 507. وقارن: محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 570 وما بعدها.

(172) الكامل في التاريخ: 7/ 285 ـ 286. الروض المعطار، ص 385. أعمال الأعلام، ص 119 ـ 120.

عظيماً، وامتنع عن وضع التاج مدة سبعة أيام قائلاً: «لا يلبس التاج محزون»[173].

استغرق افتتاح جزيرة صقلية نحو ثلاثة أرباع القرن، وهذه حقبة طويلة جدّاً إذا ما قورنت بفتح الأندلس مثلاً، حيث استطاع المسلمون أن يبسطوا نفوذهم على شبه الجزيرة الإيبيرية في أقل من خمس سنوات. ويعود السبب في هذا الاختلاف إلى أن العرب لم يواجهوا في الأندلس سوى سلطة محلية لا تعتمد إلاّ على نفسها، هي سلطة قوات بِطْريق الجزيرة المحلية. بالإضافة إلى الدعم البيزنطي المتمثل بالإمدادات والأساطيل التي كانت تأتي إلى الجزيرة بأستمرار. يضاف إلى ذلك، فإن بُعد المسافة بين صقلية والبر الأفريقي ساعد على إطالة أمد الفتح، بسبب صعوبة وصول الإمدادات، بينما كان مضيق جبل طارق الضيّق عاملاً مساعداً على سرعة العبور والفتح العربي للأندلس[174].

ويلاحظ أيضاً أن نشاط عمليات الفتح العربي في صقلية، أو هدوئها كان مرتبطاً إلى حد بعيد بالأحوال الداخلية لكل من الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأغلبية. فتدفق الإمدادات إلى الجيش العربي الفاتح، أو انقطاعها، كان يتوقف على استقرار الأوضاع الداخلية في أفريقية، وقوة أمرائها، أو ضعف شخصياتهم. كذلك فقد كانت الإمدادات البيزنطية تعتمد على شخصيات الأباطرة ومشاكل الإمبراطورية، كالحروب مع: العباسيين في الشرق، والأرمن، والبلغار، والروس، والمدن الإيطالية، والإفرنج. يضاف إلى ذلك، فإن أحوال المسلمين في صقلية من استقرار واضطراب كان له أثر بعيد في سرعة الفتح، أو توقفه. فكلما كان الولاة والقواد المكلّفين بالفتح أقوياء وقادرين على إدارة الأمور في الجزيرة كانت عمليات الفتح تسير

---

(173) الكامل في التاريخ: 7/ 285.

(174) انظر: عبد الواحد ذنون طه: الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، بغداد ـ ميلانو، 1982، ص 162 وما بعدها.

بسرعة، وتحقق نتائج حاسمة. ولكن هذه العمليات كانت تتوقف عندما تضطرب الأحوال، ويسود الضعف في المجتمع العربي نتيجة الفتن والانقسامات والمشاكل بين مختلف عناصر الجيش[175].

نتائج الفتح العربي لصقلية:

حقق الفتح العربي لصقلية نتائج هامة على كافة الأصعدة: السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. فمن الناحية السياسية، أنهى هذا الفتح حكم الإمبراطورية البيزنطية على الجزيرة، فأصبحت جزيرة عربية تابعة للدولة الأغلبية. وكذلك فقد انتهت السيادة البيزنطية على البحر المتوسط، لأن العرب سيطروا على أحد المراكز البحرية الهامة في هذا البحر، وهي جزيرة صقلية[176]. وهذا يعني التحكّم في القسم الأوسط الشمالي من البحر المتوسط، بحكم موقع هذه الجزيرة فيه. وأصبح الأسطول العربي يتخذ من صقلية قاعدة هامة للهجوم على الجزر والمضائق القريبة. لا سيما إيطاليا، مما مهد لهم السيادة على البحر التيراني والإدرياتيك. وهكذا أصبح البحر المتوسط بُحَيرة عربية، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار سيطرة العرب على شواطئ بلاد الشام، ومصر، والمغرب، والأندلس.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد أثر الفتح العربي لصقلية على زيادة التبادل التجاري العالمي في البحر المتوسط، واستطاع العرب أن يسيطروا على التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البحر، سواء المتجهة منها إلى الشرق، أم إلى سواحل شمال أفريقيا، مما أدى إلى انتعاش اقتصادي ساد جميع دول البحر المتوسط الإسلامية، لا سيما مدن صقلية وأفريقية. أما المبادلات التجارية بين الشرق والغرب، فقد استمرت خاصة بين أفريقية

(175) قارن: تقي الدوري: صقلية، ص 78.

(176) لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص 170.

وشبه جزيرة إيطاليا. ومما لا شك فيه فإن المراكز الأغلبية التي أُقيمت في صقلية وجنوب إيطاليا، لم تكن قواعد عسكرية، ورؤوس جسور متقدمة للحرب فقط، بل كانت أيضاً، مستودعاً دوليّاً للتبادل التجاري يجتمع فيها التجّار من أوربا، وصقلية، وشمال أفريقيا[177].

ولقد تمخض الفتح عن نتائج اجتماعية هامة، كان أبرزها استقرار مجموعات كبيرة من العناصر التي يتألف منها الجند في هذه الجزيرة، وتعايشهم مع السكان الأصليين، فأصبح المجتمع الصقلي يضم: المسلمين من عرب وبربر، والنصارى، واليهود، وأقوام من اليونان، واللمبارد، والصقالبة، والسود، وغيرهم. وكان العرب يشكّلون النخبة الحاكمة، يليهم البربر الذين قاموا أيضاً بدور فعال في الفتح. أما النصارى فكانوا يشكلون أكثرية سكان الجزيرة وعاشوا في ظل حُكم المسلمين، وكانوا أحسن حالاً من أولئك الذين كانوا تحت حُكم اللمبارد، أو الفرنجة في إيطاليا. وقد اعتنق كثير منهم الإسلام بمرور الزمن، لا سيما أولئك الموجودون في إقليم مازر (Val di Mazara) في المناطق الغربية من الجزيرة[178].

وعلى الصعيد الفكري والثقافي، أصبحت صقلية مركزاً للآداب والعلوم في البحر المتوسط. وكانت مساجدها مراكز مهمة لهذه النشاطات الفكرية، وفيها كان يُدَّرّس علم النحو واللغة، والعلوم الدينية، كالفقه، والحديث، والقراءات. وكان المعلمون في المحاضر الملحقة بالمساجد في صقلية مُعفُون من المشاركة في الجهاد، ويقومون برحلات علمية إلى شمال أفريقيا، ومصر، والشام، والعراق، والحجاز، والأندلس. كما كان يأتي إلى الجزيرة علماء من شمال أفريقيا، ومن نواحي أخرى من العالم الإسلامي. وقد أبقت حركة العلماء هذه على الجزيرة ضمن المجرى الرئيس للعلوم الإسلامية،

(177) قارن: محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 589. تقي الدوري: صقلية، ص 80.

(178) انظر: عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص 29 ـ 30.

فنبغ فيها علماء في كل المعارف الدينية والدنيوية، وأُلّفت فيها الكتب في شتى المواضيع[179]. وٱستخدم المتعلمون فيها ورقاً أبيض في كتاباتهم، فكان أول ورق عرفته أوربا. وأصبحت هذه الجزيرة، بحكم موقعها، مَعْبراً لنقل الثقافة والحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا. وعندما سيطر عليها النورمان بعد ذلك، لم يملكوا إلاّ أن يسلموا أنفسهم مختارين لسيادة العرب الحضارية في هذه الجزيرة[180].

(179) المرجع نفسه، ص 49 ـ 56.

(180) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980، ص 410، 411، وما بعدها.

الفصل الثالث

المرابطون

1 ـ قيام دولتهم والعوامل المساعدة لذلك.

2 ـ دورهم في نشر الإسلام في أفريقية (السودان الغربي).

3 ـ علاقاتهم بالأندلس ونُصرتهم العرب فيها.

4 ـ ضعف دولتهم وانهيارها.

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

1 ـ المرابطون، قيام دولتهم، والعوامل المساعدة لذلك:

استطاعت دولة العُبَيديّين بعد قيامها في شمالي أفريقية عام 296هـ من القضاء على الكيانات السياسية الموجودة، وهي: الإمارة الأغلبية في تونس، والإمارة الرستمية الخارجية في تاهرت بالجزائر، والإمارة المدرارية الخارجية في سجلماسة جنوبي المغرب الأقصى، وإمارة الأدارسة في فاس. إلاَّ أن نفوذ العُبيديين كان محصوراً بالساحل ولم يتجه نحو قلب قارة أفريقية، وبهذا ظلّت الحياة القبلية مسيطرة في الجنوب، وأزدهرت عند انتقال الفاطميين (العُبيديين) إلى مصر عام 362هـ[1].

بعد هذا الانتقال، ظهرت إمارة بني مَنّاد في تونس، والجزائر، فكانت تونس من نصيب آل زيري، والجزائر، من حصة آل حمّاد[2].

أ ـ قبائل غمارة في الشمال: وكانت تسكن جبال الريف من طنجة وسبتة غرباً إلى وادي نكور شرقاً. وتمتد مساكنهم جنوباً إلى غربي مدينة فاس. وهذه القبائل فرع من قبائل مصمودة، انحرفت عن الإسلام في القرن الرابع الهجري، وظهرت في ربوعها تعاليم مخالفة لمبادئ

(1) المقريزي، اتّعاظ الحنفا، ص 67 ـ 68.

(2) ينظر: عويس: دولة بني حماد، ص 39 وما بعدها.

الإسلام، نشرها بعض المتنبئين[3]. واستمر وجود مثل هذه الضلالات حتى مجيئ المرابطين[4].

ب ـ الإمارات الزناتية: وهي قبائل مكناسة ومغراوة وبني توالي (بني يخفش) وبني يفرن وغيرها. وقد كانت هذه الإمارات الزناتية في نظر بعض المؤرخين، ولا سيما بعد زوال أمر بقايا الأدارسة عام 375هـ/ 985م[5]. هي الشرعية الحاكمة في المغرب الأقصى على اعتبار أنها دول مسلمة[6]. وأهم هذه الإمارات:

1 ـ إمارة بني خزرون في درعة وسجلماسة: سيطر عليها المرابطون عام 554هـ[7].

2 ـ إمارة بني زيري بن عطية الزناتي في فاس: سيطر عليها المرابطون بعد عام 460هـ[8].

3 ـ إمارة بني يفرن في سَلاَ وتادلا: سيطر عليها المرابطون عام 462هـ[9].

4 ـ إمارة بني توالي (بني يخفش) الزناتيون: والتي تقع إمارتهم في بلاد فازاز في منطقة الأطلس الأوسط، وقد عاصر مهدي بن توالي (412 ـ 451هـ) أحداث ظهور المرابطين[10].

---

(3) مؤلِّف مجهول: مفاخر البربر، ص 77. مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 190.

(4) البكري: المغرب، ص 100 ـ 101. ابن خلدون: العبر: 6/ 216.

(5) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 89 وما بعدها. ابن عذاري: البيان المغرب: 2/ 281. السلاوي، الاستقصا: 1/ 203 ـ 204.

(6) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 309.

(7) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 3/ 151. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 76.

(8) مؤلف مجهول: مفاخر البربر، ص 22 وما بعدها. ولد داده: مفهوم الملك في المغرب، ص 80 وما بعدها.

(9) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 3/ 165 ـ 166.

(10) أيضاً، ص 168 ـ 170.

وكان موقع هذه الإمارات الزناتية يشكّل نطاقاً حول إمارة برغواطة، وكان لها دور مشرف في مجاهدة هذه الإمارة المارقة[11].

جـ - إمارة برغواطة: ظهرت هذه الإمارة في إقليم تامسنا (البسيط الخالي)[12] الممتد من منطقة الرباط إلى الدار البيضاء، واتخذت من مدينة شالة عاصمة لها[13]. ومؤسس هذه الإمارة صالح بن طريف البرغواطي الذي جاء بتعاليم مخالفة لمبادئ الإسلام[14]. وكان لدولة الأدارسة والفاطميين، والدولة الأموية في الأندلس، والإمارات الزناتية دور جهادي في مقاومة هذه الإمارة[15]. إلاَّ أنها لم ترجع إلى طريق الصواب، حتى قيام دولة المرابطين التي جاهدتهم جهاداً بطوليّاً فعادوا إلى الإسلام الصحيح وذلك في عام 452هـ على عهد أمير البرغواطيين ألْيَسع بن عمر بن معاذ بن يونس بن إلْياس بن صالح بن طريف[16].

د - إمارة سقوت البرغواطي: تقع هذه الإمارة في سبتة وطنجة، وقد استبد بها سقوت على إثر ضعف دولة بني حمّود[17]، فعاث في الأرض فساداً[18]، إلى أن ظهر المرابطون وعند زحفهم شمالاً سيطروا على سبتة عام 476هـ[19].

(11) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 171 - 172. السلاوي: الاستقصا: 1/ 221.
(12) ينظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص 80 (حاشية 2).
(13) عثمان عثمان إسماعيل: تاريخ شالة الإسلامية، ص 130 وما بعدها.
(14) البكري: المغرب، ص 134 وبعدها. أحمد أمين: ضحى الإسلام: 2/ 98.
(15) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 82. ابن خلدون: العبر: 6/ 132.
(16) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 187. العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 305. عثمان عثمان إسماعيل: تاريخ شالة الإسلامية، ص 230 وما بعدها.
(17) ابن خلدون: العبر: 6/ 221.
(18) مؤلف مجهول: مفاخر البربر، ص 55 - 56.
(19) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 51. القلقشندي: صبح الأعشى: 5/ 160.

هـ ـ البجليون والوثنيون: وهم أقليات متناثرة في أقصى جنوب المغرب في منطقة السوس. فالبجليون (بنو بجلة من القبائل العدنانية)[20] تنسبهم بعض الروايات إلى إسماعيل بن جعفر، وبعضها تنسبهم إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وقد رماهم ابن حزم بالكفر والإلحاد[21].

أما العناصر الوثنية فقد كانت تقيم في جبل وعر بنواحي الأطلس الكبير. وكانوا يعبدون الكبش، ويتسترون عند دخول الأسواق[22].

يتبين لنا من كل ذلك: أن المغرب الأقصى كان يعاني من منازعات عقائدية وسياسية كبيرة، وأنه كان بحاجة إلى قوة تنقذه من هذا الوضع المتدهور، وهنا يأتي دور المرابطين[23].

يعود المرابطون إلى قبائل لمتونة[24] التي سكنت بلاد القبلة[25]، منذ عصور بعيدة قبل الإسلام وتكيّفوا لحياة الصحراء[26]، واتخذوا اللثام ميزة لهم حتى سُمّوا بالمُلَثَّمين[27]. وقد عللت الروايات التاريخية سبب التلثم بتعاليل مختلفة، وكل رواية قدمت سبباً[28].

اعتنق الملثمون الإسلام بعد فتح الأندلس[29]، وكانت رئاستهم في هذه

(20) القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص 171.

(21) ابن حزم: الملل والنحل: 4/ 183.

(22) البكري: المغرب، ص 161. العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 313.

(23) السامرائي: علاقات المرابطين، ص 293.

(24) قبائل لمتونة، بطن من بطون صنهاجة، أعظم قبائل البربر، وصنهاجة فرع من فروع قبيلة البرانس، ينظر: العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 17 ـ 18.

(25) بلاد القبلة، هي المناطق الجنوبية من المغرب الأقصى والتي تسمى بإقليم موريتانية. ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 2/ 137. عنان، دول الطوائف، ص 299.

(26) ابن عذاري: البيان: 4/ 7. ابن أبي دينار، المؤنس، ص 104.

(27) البكري، المغرب، ص 170. ابن خلدون: العبر: 6/ 181.

(28) ينظر: ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص 8. ابن خلكان: وفيات الأعيان: 7/ 129. السلاوي: الاستقصا: 1/ 98. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 49. سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين، ص 13. الجمل: يوسف بن تاشفين، ص 21.

(29) ينظر: ابن خلدون: العبر: 6/ 110 ـ 181.

المرحلة في قبيلة لمتونة، وكان مَلِكهم أيام عبد الرحمن الداخل، (تيولوثان بن تيكلان اللمتوني)[30] الذي توفي عام 222هـ/ 837م بعد أن عمّر طويلاً، فخلفه حفيده (الأثير بن قطر) الذي دام حكمه إلى عام 287هـ/ 899م، فخلفه أبنه تميم الذي قُتِل عام 306هـ/ 920م على يد مشايخ صنهاجة[31].

وافترقت كلمة الملثمين مدة مائة وعشرين عاماً، إلى أن قام بالأمر الأميرُ محمد بن تيفاوت اللمتوني[32] الذي وحّدهم، وقد استشهد هذا الأمير ـ بعد ثلاث سنوات من حُكمه ـ على يد الوثنيين، فقام بالأمر بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[33].

كان الأمير يحيى بن إبراهيم رجلاً مستنيراً، خرج من ديار المُلَثّمين لأداء فريضة الحج تاركاً الحكم لأبنه إبراهيم عام 427هـ/ 1035م[34]. وبعد أداء الفريضة، يَمّم وجهه شطر القيروان وأرتاد مجلس الفقيه أبي عمران الفاسي (توفي عام 430هـ/ 1038م) المالكيّ المذهب[35].

ويبدو لنا من المناقشة التي تمت بين الأمير يحيى، والفقيه الفاسي، بأن قبائل بلاد القبلة كانت بحاجة إلى علماء وفقهاء يُبَصِّرون الناسَ بأحكام الشريعة الإسلامية[36].

وتنفيذاً لرغبة الأمير يحيى، خاطب الشيخ أبو عمران أحدَ أصحابه بمدينة نفيس من أعمال السوس ويدعى (وجاج بن زلوا اللمطي

(30) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 120 ـ 121.
(31) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين، ص 19.
(32) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 121. الجمل: يوسف بن تاشفين، ص 33.
(33) البكري: المغرب، ص 164. السلاوي: الاستقصا: 1/ 99.
(34) السلاوي: الاستقصا: 1/ 99.
(35) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 226.
(36) ينظر: ابن عذاري: البيان: 4/ 7 ـ 8. ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص 9. ابن أبي دينار: المؤنس، ص 105. سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين، ص 20.

الصنهاجي)[37]، وطلب منه مساعدة الأمير يحيى بن إبراهيم، فانتدب الشيخ وجاج رجلاً فاضلاً من تلاميذه يدعى عبد الله بن ياسين الجزولي[38].

دخل عبد الله بن ياسين بلاد المغرب الأقصى مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي عام 430هـ/ 1038م. واستقر في ديار جدالة[39]، فنال إعجاب أهل هذه الديار، وجعلوه قدوة صالحة لهم[40].

لاقى عبد الله بن ياسين الأَمَرّين من سكان الصحراء، الذين رفضوا التخلي عن بعض عاداتهم وتقاليدهم[41]. وتعرض لمؤامرة، كادت تؤدي بحياته، تزعمها بعض المتنفذين هما: (أيار وإينتكوا) يساندهما فقيه محلّي[42]، إلاّ أنه واصل الصمود[43]، وكان عليه أن يقوم بعملين شاقين:

1 ـ جَمْع أتباع مخلصين تقع عليهم مهمة تطهير بلاد القِبْلة من الانحرافات والضلالات.

2 ـ العمل على توحيد بلاد المغرب الأقصى، من أجل القضاء على كل عوامل الفرقة والخصام بين الإمارات الصغيرة المتنازعة[44].

ومن أجل تحقيق هذين الهدفين، رابط عبد الله بن ياسين مع الأمير

(37) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 123. البكري: المغرب، ص 165. ابن عذاري: البيان: 4/ 98.

(38) ينظر: ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص 10. ابن خلدون: العبر: 6/ 182 ـ 183. ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 227. أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص 63. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 318.

(39) السلاوي: الاستقصا: 1/ 100.

(40) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين، ص 22.

(41) كنون: النبوغ المغربي: 1/ 64.

(42) سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين، ص 22.

(43) البكري: المغرب، ص 166. يروي بأن عبد الله بن ياسين عاد إلى أستاذه وجاج الذي حفّزه إلى العودة ثانية إلى ديار الملثّمين للقيام بمهمته الشاقة.

(44) السامرائي: علاقات المرابطين، ص 294.

يحيى بن إبراهيم الجدالي في جزيرة بِحَوْض نهر السنغال[45].

وبدأت المُرابَطة في هذه الجزيرة عام 433هـ/ 1040م بسبعة أشخاص[46]، سمّاهم عبد الله بن ياسين بالمرابطين، وبتوالي الأيام انضم إلى هذا الرباط مئات الأشخاص[47].

شدد عبد الله بن ياسين على أتباعه هؤلاء، بِالْتِزام أحكام الدين، وَعَوَّدهم على الحياة الشاقة[48]، لكي يوجِد منهم قوة تعمل على توحيد البلاد[49].

وازداد إقبال أهالي المنطقة على الانضمام إلى مجموعة المرابطين[50]. وبذلك ظهرت بوادر شيوع الأمن والاستقرار فيها[51].

وبذلك أفلح عبد الله بن ياسين وبعض زعماء جدالة، في وضع الأسس القوية لنواة قوة المرابطين، التي ستتولى مهمة إنقاذ بلاد المغرب الأقصى من التجزئة والفرقة[52]. فتنفس سكان المنطقة الصعداء وتطلعوا بإعجاب إلى هذه القوة الجديدة وتوقّعوا لها النجاح المُطّرد.

وكان لهذا الأمرِ الأثرُ المهم في تاريخ المرابطين، فأخذ سكان المغرب يتطلعون إلى هذه القوة الناشئة لإنقاذهم مما هم فيه من جور وعسف. وقد كسبت هذه السياسة الجديدة لقوة المرابطين عطف الضعفاء من الملثمين

(45) ينظر: ابن عذاري: البيان: 4/ 10 ـ 11. نصر الله: دولة المرابطين، ص 23. الجمل: يوسف بن تاشفين، ص 47.

(46) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 125. السلاوي: الاستقصا: 1/ 100.

(47) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 125.

(48) أيضاً، ص 125. البكري: المغرب، ص 165.

(49) ينظر: حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 21.

(50) المالكي: رياض النفوس، ص 172.

(51) نصر الله: دولة المرابطين، ص 28.

(52) ينظر: ابن خلدون: العبر: 6/ 187. نصر الله: دولة المرابطين، ص 28.

الذين أخذوا يستقبلونهم بالترحاب ويسارعون للانضمام إلى صفوفهم[53].

بعد أن كثر أنصار عبد الله بن ياسين، واستكمل قوّته، أمرهم بالخروج لتحقيق أهدافه وهي توحيد قبيلة صنهاجة. وبدأ عملياته العسكرية بثلاثة آلاف مرابط[54]. فهاجم قبيلة جدالة التي تآمرت عليه، وبعد قتال شديد أذعنت للطاعة عام 434هـ/ 1042م وأسلمت إسلاماً صحيحاً، ثم اتجه إلى قبيلة لَمْتُونة فبايعته على الكِتَاب والسُنّة، وتابع مسيره نحو مسوفة وأخضعها. وهكذا وحّد عبد الله بن ياسين فروع قبيلة صنهاجة، وبذلك دخلت كل بلاد الصحراء في طاعته[55].

وفي عام 440هـ/ 1048م توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، فاختار عبدُ الله بن ياسين ـ بعد مشاورة المرابطين ـ الأميرَ يحيى بنَ عمر اللمتوني 440 ـ 447هـ/ 1048 ـ 1056م، وقد أدى الاختيار إلى تمرّد قبيلة جدالة لخروج الإمارة منها، فجرد عبد الله بن ياسين جيشاً ضد المتمردين وردّهم إلى الطاعة[56].

وفي عام 444هـ/ 1045م بعث فقهاء درعة وسجلماسة بكتبهم إلى عبد الله بن ياسين والأمير يحيى بن عمر اللمتوني، يشكون مما يقع في بلادهم من ضروب الظلم والخروج على أحكام الدين، ويطلبون منهم القدوم لإشاعة العدل[57]. وبعد أن اختبر عبد الله بن ياسين قوّة لمتونة، قرأ رسالة فقهاء درعة، وسجلماسة على أشياخها ورغّبهم في الجهاد[58]، فخرجوا في عام 445هـ إلى مدينة درعة وقتلوا أميرها (مسعود بن محمد بن مسعود بن

(53) نصر الله: دولة المرابطين، ص 30.

(54) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 126.

(55) ينظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 228. ابن أبي دينار: المؤنس، ص 106.

(56) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 126. البكري: المغرب، ص 167. النويري: نهاية الأرب: 2/ 174.

(57) ابن خلدون: العبر: 6/ 190. ابن أبي دينار: المؤنس، ص 106.

(58) ابن عذاري: البيان: 4/ 13. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 127.

وانودين 417 ـ 445هـ)[59]. وتقدّم المرابطون وراء فلول الزناتيين متجهين نحو سجلماسة والتي فتحوها بسهولة، وكان ذلك بداية الفتح المرابطي لمنطقة المغرب الأقصى[60].

وفي عام 447هـ/ 1056م استُشهد الأمير يحيى بن عمر في قتاله ضد قبيلة برغواطة، فقَدَّم عبدُ الله بن ياسين مكانه أخاه الأميرَ أبا بكر بن عمر اللمتوني 448 ـ 453هـ/ 1056 ـ 1061م، وأمره بمتابعة الفتح بٱتجاه الشمال. فغزا بلاد المصامدة والسوس، واستولى على قاعدتها (تارودانت)، كما هاجم منطقة الواحات الواقعة في جنوبي المغرب عام 448هـ/ 1056م، وجعل على مقدمة جيشه ٱبنَ عمّه يوسف بن تاشفين اللمتوني[61]، فٱنتصرت جيوش المرابطين على الوثنيين فأعادت بذلك هذه المناطق إلى مبادئ الإسلام الصحيحة[62].

في هذه المرحلة تألّق نجم يوسف بن تاشفين وبخاصة في معركة الواحات عام 448هـ، فقد كان قائداً لمقدِّمة جيش المرابطين المهاجم. ويمكن تقسيم حياة الأمير يوسف بن تاشفين العسكرية إلى ثلاثة أقسام، في الوقت الذي نوضح فيها توسّع دولة المرابطين.

المرحلة الأولى: مرحلة قيادة الجيش المرابطي 448 ـ 452هـ/ 1056 ـ 1060م

بعد فتح مدينة سجلماسة، عيّنه الأمير أبو بكر والياً عليها فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها. وبعد انتصاره في معركة الواحات عام 448هـ، سار إلى بلاد جزولة وفتح ماسة، ثم سار إلى تارودنت قاعدة بلاد السوس وفتحها،

---

(59) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 151.

(60) ابن عذاري: البيان: 4/ 13. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 194. الجمل: يوسف بن تاشفين، ص 53.

(61) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 128. السلاوي: الاستقصا: 1/ 102. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 218.

(62) ابن خلدون: العبر: 6/ 183. السامرائي: علاقات المرابطين، ص 295 ـ 296.

وقتل بها طائفة من البجليين، وتحولت طائفة منهم إلى الإسلام[63].

وبعد ذلك تلقّى يوسف بن تاشفين التعليمات من الأمير أبي بكر بمهاجمة أغمات[64]، ولما رأى أميرها (لقوط بن يوسف بن علي المغراوي) أن لا جدوى من المقاومة، فرّ إلى بني يفرن أمراء تادلا، فدخل المرابطون مدينة أغمات عام 449هـ/ 1057م[65]. ثم هاجم القائد يوسف تادلا قاعدة بني يفرن فأفتتحها في عام 449هـ، وفي تادلا قبض على لقوط المغراوي وقتله، وتزوج الأمير أبو بكر أرملته زينب النفزاوية التي أشاد المؤرخون بجمالها وذكائها[66]. ونظراً لأهمية أغمات كمدينة متحضرة من جهة، ولقربها من الصحراء من جهة أخرى، فقد اختارها المرابطون عاصمة مؤقّتة لهم، إلى أن تمّ بناء عاصمتهم الجديدة مراكش في عام 462هـ/ 1070م[67].

ثم سارت القوات المرابطية صوب برغواطة وغمارة، فأتجه عبد الله بن ياسين والأمير أبو بكر نحو برغواطة[68]، بينما أتجه القائد يوسف بن تاشفين إلى غمارة. وبالقرب من مدينة الرباط الحالية دارت معركة عنيفة بين المرابطين وأمير برغواطة (أبو حفص بن عبد الله)[69]، أُصيبَ خلالها عبدُ الله بن ياسين بجراح بالغة توفّي على إثرها في 24 جمادي الأولى عام 451هـ/ 1059م، ودُفن بموضع مرتفع يطل على وادي (كريفلة) أحد فروع وادي أبي الرقراق[70]، وما زال مزاره قائماً حتى الآن[71]. اختار المرابطون

(63) نصر الله: دولة المرابطين. ص 39.

(64) ينظر: ابن عذاري: البيان: 4/ 15. سالم: المغرب الكبير، ص 697.

(65) مؤلف مجهول: مفاخر البربر، ص 52. ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 229.

(66) القلقشندي: صبح الأعشى: 5/ 189. ابن عذاري: البيان: 4/ 21.

(67) العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 216.

(68) ابن خلدون: العبر: 6/ 210. ابن أبي دينار: المؤنس، ص 107.

(69) عنان: دول الطوائف، ص 295.

(70) ابن عذاري: البيان: 4/ 16. ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 2/ 230.

(71) عبد الكريم كريم: رباط الفتح، ص 9.

لرئاستهم بعد استشهاد عبد الله بن ياسين، الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني[72]، فكان أول عمل قام به بعد دفن ابن ياسين متابعة الجهاد ضد برغواطة حتى عادت إلى الإسلام[73]. عاد الأمير أبو بكر إلى مدينة أغمات وأقام بها إلى شهر صفر من عام 452هـ/ 1060م، ثم غادرها في قوات ضخمة، فافتتح بلاد فازار ومكناسة وسائر أراضي زناتة، ثم سار إلى مدينة لواتة وانتزعها من أيدي بني يفرن وذلك في ربيع الثاني من عام 452هـ/ 1060م ثم عاد إلى مدينة أغمات[74].

أما القوات المرابطية التي قادها يوسف بن تاشفين إلى بلاد غمارة، فقد تحاشى هذا القائد الاصطدام بالقوات الزناتية، فواصل سيره إلى الشمال نحو بلاد غمارة، فعمل على بناء بعض الحصون والقلاع لاتخاذها مراكز للهجوم مثل حصن (تاودا) وحصن (أمرجو)[75]، فتمكّن من بلادهم وأخضعها لسيطرة المرابطين[76].

المرحلة الثانية: نيابة يوسف بن تاشفين على المغرب 452 ـ 454هـ/ 1060 ـ 1062م

بعد أن ابتعد المرابطون عن موطنهم الأول، فرضت الظروف الجديدة عليهم بأن يكون للصحراء جُندها، وللحضر جُنده، وبخاصة بعد أن ترامت الأخبار باختلال أمر الصحراء، وذلك بسبب الخلاف بين لمتونة وجدالة[77].

(72) يُروَى بأن المرابطين اختاروا خَلَفاً لابن ياسين: (سليمان بن صروا) الذي توفي في نفس العام 451هـ، ولم يخلفه أحد. ينظر: ابن خلدون: العبر: 6/ 182. سالم: المغرب الكبير، ص 697.

(73) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 133. ابن عذاري: البيان: 4/ 17. ولد داده: مفهوم الملك في المغرب، ص 73 ـ 74.

(74) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 169 ـ 170، 231 ـ 232. عنان: دول الطوائف، ص 308.

(75) مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 190.

(76) السامرائي: علاقات المرابطين، ص 297.

(77) ينظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 134. ابن الخطيب: الحلل، ص 12. أعمال

بالإضافة إلى تحرك قبائل السودان ضد المرابطين[78].

اختار الأمير أبو بكر حلاً لهذه المشكلة، فخَصّ نفسه بالمجال الصحراوي، وترك الشمال لابن عمّه يوسف بن تاشفين فأنابه عنه، وأمره بمتابعة الجهاد بعد أن ترك له ثلث الجيش المرابطي[79].

سار القائد (النائب) يوسف لتحقيق المهمة التي ندبه إليها الأمير أبو بكر، ولما وصل إلى وادي ملوية استعرض جيشه البالغ أربعين ألفاً، فقسمه إلى أربعة أقسام، واختار لكل قسم قائداً من أشهر القادة وهم: سير بن أبي بكر اللمتوني، ومحمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني. وعقد لكل منهم على خمسة آلاف وبعث بهم إلى أنحاء المغرب، وتولى يوسف قيادة بقية الجيش[80].

زحف يوسف بن تاشفين نحو الغرب فتغلب على أكثر مناطقه، فهزم مغراوة وزناتة وبني يفرن، وهرعت سائر القبائل إلى الاستسلام والطاعة. وخلال مدة لا تتجاوز بضعة أشهر بسط يوسف سلطانه على المغرب الأوسط والجنوبي، وعاد إلى أغمات عام 454هـ/ 1062م، واقترن بزينب النفزاوية[81].

وبعد أن استقام أمر الصحراء وقضى الأمير أبو بكر بن عمر على الخلاف ودفن الفتنة في مهدها وأصلح شؤون السكان، ترامت إليه انتصارات ابن عمه يوسف، فعاد أبو بكر ليعزله ويولّي غيره، فنزل خارج مدينة أغمات[82].

الأعلام: 3/ 230. ابن خلدون: العبر: 6/ 184. أشباخ: الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص 65. سالم: المغرب الكبير، ص 697.

(78) نصر الله: دولة المرابطين، ص 41.

(79) ينظر: ابن عذاري: البيان: 4/ 21. ابن الخطيب: الحلل، ص 13. السلاوي: الاستقصا: 1/ 106.

(80) ينظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 138. ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 234. السلاوي: الاستقصا: 1/ 106.

(81) ابن عذاري: البيان: 4/ 22.

(82) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 135. نصر الله: دولة المرابطين، ص 42.

شعر يوسف بن تاشفين بحراجة الموقف، إذ لا يمكنه التخلّي بسهولة عمّا في يده من السلطة، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يتمرد على أميره الشرعي. واستطاع يوسف بن تاشفين أن يحافظ على مركزه وسلطته بتدبير من زوجته الجديدة زينب بنت إسحق النفزاوية التي أشارت عليه أن يظهر لأميره الشدة وعظم سلطانه، في الوقت الذي يغدق فيه الهدايا للأمير وأعوانه. وبالفعل نجحت هذه الخطة، وأدرك الأمير بأن يوسف لن يتخلى له عن الأمر بسهولة(83).

جمع الأمير أبو بكر أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة(84). وقد علل الأمير هذا التنازل لابن عمّه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وعدله وورعه وسداد رأيه، وبعد ذلك أوصاه بالعدل والصلاح(85).

انصرف الأمير أبو بكر إلى الصحراء وبقي يجاهد الكفار حتى استشهد في عام 480هـ/ 1087م(86).

المرحلة الثالثة: مرحلة الإمارة 454 ـ 500هـ/ 1062 ـ 1106م

بعد أن أصبح يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بلا منازع، اتجه نحو المغرب الشمالي لانتزاعه من أيدي الزناتيين مستخدماً أسلوب التقري(87)، وهو أسلوب يقوم على توجيه الجيوش إلى بلاد معيّنة للقتال مع جيوشها في معارك فاصلة لا لحصار المدن. وبهذه الطريقة تجهد البلاد المعادية، وفي أثناء ذلك قد تصالحها بعض الحصون(88). وفي هذه الفترة وصل إلى الأمير

(83) ابن عذاري: البيان: 4/ 24 ـ 26. ابن الخطيب: الحلل، ص 17.

(84) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 135. ابن الخطيب: الحلل، ص 13. السلاوي: الاستقصا: 1/ 105.

(85) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 135.

(86) أيضاً: البكري: المغرب، ص 166.

(87) ابن خلدون: العبر: 6/ 184. السلاوي: الاستقصا: 1/ 106.

(88) محمد شعيرة: المرابطون تاريخهم السياسي، ص 88.

يوسف طلب استنجاد من صاحب مكناسة (مهدي الكزنائي)[89] يطلب فيه عونه على عدوّه (معنصر المغراوي) صاحب فاس[90].

لبّى الأمير يوسف الطلب لأنه يتلاءم مع رغبته، ويظهره منقذاً لسكان المغرب من الزناتيين. فهاجم الأمير يوسف قلعة فازاز على عهد أميرها (مهدي بن تولي اليحفشي الزناتي) فقضى عليه. ثم تابع سيره لمساعدة صاحب مكناسة، فاْعترضته قبائل زواغة ولماية ومغيلة ومديونة وبهلولة[91] وغيرهم في عدد كبير. وكانت له معهم حروب شديدة انهزموا فيها وتحصّنوا بمدينة (صدينة)، فحاصرها يوسف ودخلها وهدم أسوارها، ثم ارتحل إلى فاس عاصمة المغرب. وهنا بدأ الصراع بين فرع زناتة الذي يحكم فاس وبين الأمير يوسف[92].

كان أمير فاس معنصر بن المعز المغراوي يعتمد على الحاجب سكوت البرغواطي صاحب سبتة وطنجة، كما كان يعتمد على فروع مغراوية في تازا ونكور. فدارت الحرب بين الطرفين حيث استخدم الأمير يوسف أسلوب التقري، واستخدم صاحب فاس أسلوب الكر والفر. فانهزمت جيوش صاحب فاس، واستولى يوسف على أحوازها وظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله[93]، ثم توجه نحو مدينة (صفروا) ودخلها عنوة وقتل حكامها أولاد مسعود المغراوي، ورجع بعد ذلك إلى حصار مدينة فاس حتى دخلها صلحاً عام 455هـ/ 1063م بعد فرار حاكمها معنصر الذي استبسل في المقاومة[94].

أقام يوسف في فاس عدة أيام، وعَيَّن عليها والياً من لمتونة، ثم ترك

(89) السلاوي: الاستقصا: 1/ 108.
(90) سالم: المغرب الكبير، ص 699.
(91) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 139.
(92) نصر الله: دولة المرابطين، ص 45.
(93) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 139. ابن خلدون: العبر: 6/ 185.
(94) نصر الله: دولة المرابطين، ص 45.

المدينة إلى بلاد غمارة واستولى على حصونها وقلاعها. عندها اغتنم معنصر فرصة خروج يوسف، وهاجم فاس ودخلها وقتل عاملها المرابطي، فهدد هذا الأمر فتوحات يوسف في المغرب الشمالي[95]. على إثر سقوط فاس، طلب الأمير يوسف من حليفه مهدي الكزنائي أن يتجهز لقتال مغراوة، فخرج مهدي وٱتجه نحو فاس، فٱعترضه معنصر ودار قتال شديد بينهما، قتل فيه الكزنائي وتفرق جيشه[96]. عندئذٍ بعث أهل مكناسة إلى يوسف يستصرخونه ويستغيثون به ضد معنصر، وأعطوه بلادهم وبذلوا له الطاعة. تدارك الأميرُ يوسف الأمرَ فأرسل جيشاً إلى فاس فحاصرها حتى ضاق الأمر بأهلها، فٱستبسل معنصر في الدفاع حتى قُتل مع ٱبنه تميم[97].

فتجمعت زناتة حول بيت أبي العافية، وقام بالأمر محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية، الذي جمع قبائل زناتة وخرج لقتال المرابطين، فهزمهم في معركة وادي صيفير وقتل عدداً من فرسانهم واستسلم الكثيرون[98]. وفي هذه الأثناء كان الأمير يوسف يحاصر قلعة فازاز، فعمل على معالجة الأمور بسرعة خاصة وأنّها الهزيمة الثانية التي تصيب المرابطين في مواجهة عسكرية مع زناتة، فترك قسماً من جيشه يحاصر فازاز، وبعث بالآخر إلى فاس، وسار هو نحو بني مراس وقتل أميرهم (يعلي بن يوسف). ثم سار إلى بلاد قندلاوة وفتح جميع تلك الجهات، ثم سار إلى ورغة وفتحها عام 458هـ/ 1065م، وتابع الحرب حتى تمّ له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام 460هـ/ 1067م[99].

بعد أن تمّ ليوسف فتح البلاد المحيطة بمدينة فاس نزل عليها عام

---

(95) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 140. السلاوي: الاستقصا: 1/ 108.

(96) ابن أبي زرع: روض القرطاس: ص 140. ابن خلدون: العبر: 6/ 185.

(97) أيضاً: ص 90. السلاوي: الاستقصا: 1/ 109.

(98) ابن خلدون: العبر: 6/ 185. السلاوي: الاستقصا: 1/ 109.

(99) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 141. ابن خلدون: العبر: 6/ 185. السلاوي: 1/ 109. سالم: المغرب الكبير، ص 699.

462هـ/ 1069م بجيش بلغ مائة ألف جندي وضرب عليها الحصار حتى دخلها عنوة في يوم الخميس 2 جمادي الآخرة من عام 462هـ[100]، وأقام بها إلى صفر من عام 463هـ/ 1070م بعد أن أصلح أمورها، ثم خرج إلى بلاد ملوية وفتحها وٱستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة[101].

ثم تابع الأمير يوسف عملياته العسكرية، فهاجم الدمنة عام 465هـ/ 1072م من بلاد طنجة. وفتح جبل علودان. وفي عام 467هـ/ 1074م سيطر على جبال غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا، وجعلها فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأجلى عن المغرب كل من ظن فيه أنه من أهل الخلاف. وهكذا يُعتبَر عام 467هـ عاماً فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية، إذ بسط الأمير يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى والشمالي بٱستثناء سبتة وطنجة[102].

كانت سبتة وطنجة من أملاك الحمّوديين (يعود نسبهم إلى الأدارسة) الذين بسطوا سيطرتهم على جنوبي الأندلس من عام 407هـ إلى عام 446هـ/ 1016 ـ 1055م. وقد استنابوا على سبتة وطنجة من وثقوا بهم من الصقالبة. وظل الأمر إلى أن استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطي[103]، وأطاعته قبائل غمارة. وبعد أن أخضع الأمير يوسف بن تاشفين سائر بلاد المغرب ووصل إلى حدود إمارة الحاجب سكوت، طلب منه الأمير يوسف الخضوع له ومساندته في محاربة أعداء المرابطين، وكاد الحاجب يقبل بالعرض لولا أن ثناه ٱبنه عن عزمه[104]. عندها جهّز الأمير يوسف الجيوش وأسند قيادتها إلى صالح بن عمران عام 470هـ/ 1077م الذي سار بقوّاته صوب طنجة

(100) ابن عذاري: البيان: 4/ 28. ابن خلدون: العبر: 6/ 185. ابن الخطيب: الحلل، ص 16.

(101) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 141. ابن خلدون: العبر: 6/ 185.

(102) أيضاً: ص 142. أيضاً: ص 185. شعيرة: المرابطون، تاريخهم السياسي، ص 93.

(103) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 142. السلاوي: الاستقصا: 1/ 111.

(104) السلاوي: الاستقصا: 1/ 111.

فحاصرها[105]. فبرز للقوات المرابطية الحاجب سكوت البرغواطي، وهو شيخ يناهز التسعين، وكان معه ابنه ضياء الدولة يحيى، فدارت رحى الحرب في وادي منى من أحواز طنجة قُتِل فيها الحاجب سكوت وانهزم جيشه، والتجأ ابنه يحيى إلى سبتة واعتصم بها، فدخل المرابطون مدينة طنجة وكتب القائد المرابطي بالفتح إلى الأمير يوسف بن تاشفين[106].

بعد فتح طنجة استأنف أمير المرابطين توسّعه نحو الشرق لمطاردة القبائل الزناتية التي لجأت إلى تلمسان، ولكي يقضي على أي تجمّع لها يهدد كيان الدولة المرابطية الفتية[107].

كان يحكم مدينة تلمسان الأمير العباس بن يحيى المغراوي[108]، فأرسل إليه يوسفُ بن تاشفين قائدَه مزدلي في عشرين ألفاً، واستطاع الجيش المرابطي من هزيمة جيش تلمسان وأَسْرِ قائده معلا بن يعلا المغراوي الذي قُتِل بعد ذلك، ثم ضرب الجيش المرابطي تجمّع زناتة، وعاد إلى مراكش دون تمركزه في تلمسان، لأن هدفه ضرب الزناتيين الفارّين ليس إلاّ، وكان ذلك في عام 472هـ/ 1078م[109].

وفي عام 473هـ/ 1079م سار الأمير يوسف بقواته وهاجم منطقة الريف، وفتح أكرسيف ومليلة. وضرب مدينة نكور ولم تعمر بعد ذلك[110]. وكان الدافع إلى ذلك حتى لا تتخذها زناتة حصناً لمقاومة المرابطين، وهكذا

(105) نصر الله: دولة المرابطين، ص 49.

(106) ابن أبي زرع: روض القرطاس: ص 142 ـ 143. ابن خلدون: العبر، 6/ 185. السلاوي: الاستقصا: 1/ 111.

(107) شعيرة: المرابطون، تاريخهم السياسي، ص 95.

(108) ابن عذاري: البيان، 4/ 29.

(109) ينظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 143. ابن عذاري: البيان: 4/ 29. ابن خلدون: العبر: 6/ 186. ابن الخطيب: الحلل، ص 20.

(110) روض القرطاس، ص 143. ابن عذاري: البيان: 4/ 30. ابن خلدون: العبر: 6/ 186.

اندثرت المدينة التي عاشت أربعة قرون[111].

بعد الاستيلاء على الريف سار يوسف بن تاشفين نحو تلمسان من أجل القضاء على تجمّع زناتة هناك. وفي طريقه فتح وِجْدة وبلاد بني يزناسن وما والاها[112]، عام 474هـ/ 1080م. ثم حاصر تلمسان حتى استسلمت فقتل أميرها العباس بن يعلي، وعَيّن عليها (محمد بن تنيغمر)، وأتخذ بالقرب منها مدينة جعلها بمثابة الحصن الأمامي لحماية المرابطين في عاصمة زناتة، وسُمّيت المدينة بأسم تاقررت[113]. ثم تتبع الأمير يوسف زناتة شرقاً فأستولى على وهران، وتنس، وجبال وانشريس، ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر[114]. وتوقف عن حدود مملكة بجاية التي يحكمها بنو حماد وهم فرع من دولة بني مناد الصنهاجية[115].

بعد أن اطمأن الأمير يوسف إلى حدوده الشرقية، وقضى على آخر مقاومة للزناتيين، عاد إلى مراكش عام 475هـ/ 1081م وبذلك حقق وحدة المغرب الأقصى ما عدا سبتة[116].

وفي عام 476هـ/ 1083م وجّه الأمير يوسف بن تاشفين أبنه المعز في جيش إلى سبتة، وكان يحكمها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطي، فحاصرها المعز برّاً وبحراً، ودارت معركة بحرية[117] كانت سجالاً بين الطرفين، إلى أن أرسل المعتمد أمير إشبيلية سفينة ضخمة رَجّحت كفة المعركة لصالح المرابطين. فأنهزم يحيى وحاول الفرار في البحر، إلاّ أن

(111) نصر الله: دولة المرابطين، ص 51.

(112) السلاوي: الاستقصا: 1/ 110.

(113) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص 220 (حاشية 1).

(114) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 143. ابن خلدون: العبر: 6/ 186.

(115) السامرائي: علاقات المرابطين، ص 300.

(116) نصر الله: دولة المرابطين، ص 52.

(117) سالم: المغرب الكبير، ص 716.

المرابطين طاردوه فدخل داراً تُعرَف بدار (تنوير) في مدينة سبتة، وهناك قُبض عليه وأُرسِل إلى المعز بن يوسف فقتله، وكتب بالفتح إلى والده يوسف وذلك في ربيع الآخرة عام 477هـ/ 1084م(118).

2 ـ دور المرابطين في نشر الإسلام في منطقة السودان الغربي:

ارتبطت قبيلة صنهاجة الكبيرة بمنطقة السودان الغربي منذ القدم، وقد هاجرت منها بطون سكنت مناطق متنوعة فيه. فالمجموعة الأولى ضمّت قبائل لمطة ولمتونة والمُلَثّمين المنتمين إلى هوارة، سكنت الواحات الصحراوية شمالي نهر النيجر ويطلق عليها اسم الطوارق. واتجهت المجموعة الثانية نحو الجنوب الغربي واستقرت فيه وأسست مدينة (أود غوشت)، وقد سُمّيت هذه المنطقة بٱسم بلاد الزنوج أو بلاد الزناجة. أما المجموعة الثالثة فقد وجدت في منطقة (كوكيا) جنوبي مدينة (غاو)، التربةَ الخصبةَ والثروةَ السّمَكِية والوسط التجاري المناسب، فأقامت بها وعمرتها(119).

ولم يكن المرابطون الذين قاموا بنشر الإسلام في القرن الخامس الهجري، هم الذين أدخلوا الإسلام إلى منطقة السودان الغربي، بل إن حركتهم أدت إلى ٱزدياد عدد الداخلين في الإسلام. فالصلة الثقافية والتجارية قديمة بين بلاد السودان ومنطقة المغرب العربي. وقد كثرت هجرة المسلمين من العرب والبربر إلى بلاد السودان منذ تحرير العرب لشمالي أفريقيا، وبعد قيام الكيانات السياسية فيها(120).

وتشير بعض المصادر أن عقبة بن نافع انحدر في حملته الثانية إلى السودان من بلاد المغرب ووصل إلى غانة عن طريق وادان وبنى مساجد

(118) السلاوي: الاستقصا: 1/ 111.

(119) ينظر: محمد الغربي: بداية الحكم المغربي، ص 29 ـ 30.

(120) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة، ص 41 ـ 42.

فيها[121]. ويبدو أن حملة عقبة هَدَت أغلب قبائل البربر وبعض قبائل غانة إلى الدين الجديد، بالقدر الذي فتحت أعين حكّام شمالي أفريقية على إمكانيات السودان[122].

ويبدو أن الحملات التي تلت مجيء عقبة بن نافع لم تكن تهتم بأمور الدين، مما سبب رد فعل عكسيّ لدى أهل غانة وصنهاجة. ويبدو أن ذلك كان من الأسباب التي نبهت زعماء غانة إلى ضرورة قيام حكم قوي فيهم للوقوف في وجه الأخطار التي هددتهم من الشمال، ومن أجل إحكام المراقبة على طريق القوافل[123].

ووصل بعض الأشراف الأدارسة إلى بلاد غانة، ونالوا احترام وتأييد السكان[124]. كما تمكّن زعيم الزناتيين موسى بن أبي العافية من دفع جند غانة وقادته الأدارسة نحو الجنوب، وفرض على مدينة (كومبي صالح) المكوس على الذهب والنحاس والملح. إلاَّ أن سلطانه لم يستمر هناك لتصدّي العُبيديين له والقضاء على سلطانه في أطراف السودان[125].

وهناك جهود إمارة (أودغوشت) الإسلامية، والذي بذل ملوكها جهدهم من أجل نشر الإسلام بين الزنوج، وقد بلغت هذه الإمارة عظمتها في القرن الرابع والخامس الهجري، وذلك قبل حركة المرابطين. كما أنها عملت على تنشيط التجارة بين بلاد السودان وشمالي أفريقيا عبر الطرق الصحراوية، وبخاصة تجارة الملح[126]. وأشهرُ ملوكهم تيبوتان (Tibotan) الذي كان شديد التحمّس لنشر الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين له من ناحية

---

(121) ابن عذاري: البيان: 1/ 27.

(122) محمد الغربي: بدايات، ص 32.

(123) ينظر: طرخان: إمبراطورية غانة، ص 21 وما بعدها.

(124) ابن خلدون: العبر: 4/ 221.

(125) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 106 وما بعدها.

(126) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 98.

الجنوب[127]. أما الملك (تين يروتان 350 ـ 360هـ/ 961 ـ 971م) فقد مدّ نفوذه على أكثر من عشرين ملكاً من ملوك السودان[128].

وقبل منتصف القرن الرابع الهجري، نالت حركة أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجي تأييداً من مسلمي النيجر الأوسط وصنهاجة أودغوشت. وأمدّت أودغوشت أبا يزيد بمقاتلين ودوابَّ مكّنته من مدّ سلطانه على بلاد الحمادة وجنوبي تونس والجزائر والمغرب. ولمّا انهزم أمام الفاطميين عاد إلى كوكيا وأعلن نفسه إماماً، وبايعه السودانيون وصنهاجة، وأصبح أمير البربر زيري بن مناد من قواده، إلاّ أن أبا يزيد قُتِل عام 336هـ/ 948م عندما حاول مهاجمة تونس[129].

وفي مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي جاء إسلام ملك التكرور (وارجابي بن رايبس، توفي حوالي عام 432هـ/ 1040) عنصراً هامّاً في ازدياد انتشار الإسلام وهو صاحب الفضل في إسلام أهل (سلي Silia) من أعمال تَكْرُور[130].

وعندما بدأت دولة المرابطين بالظهور، بدأ عهد جديد من العلاقات بين المغرب وبلاد السودان الغربي.

والذي يبدو أن عدد المسلمين في بلاد السودان الغربي كان قليلاً بشكل عام حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، رغم الجهود التي بذلتها الجماعات الإسلامية المارّة الذِّكر.

وبالرغم من إسلام بعض قبائل التَّكْرُور في السنغال بفعل الدعوة

(127) طرخان: إمبراطورية غانة، ص 42. ينظر: دريد عبد القادر نوري: تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، ص 93.

(128) البكري: المغرب، ص 159.

(129) ابن عذاري: البيان: 2/ 212. ابن الأثير: الكامل: 8/ 165 وما بعدها. السامرائي: «إمامة الدفاع الثانية. . .»، ص 103.

(130) طرخان: إمبراطورية غانة، ص 43.

المرابطية وثورتها ضد غانة، إلاّ أن إمبراطورية غانة جمعت قواتها وهاجمت مدينة أودغوشت عاصمة صنهاجة وٱحتلتها بقوة السيف[131]. وتبادل الطرفان الحروب من أجل إحكام السيطرة على هذه المدينة حتى وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم عام 440هـ/ 1048م[132]. وتذكر بعض الروايات أن هذا الأمير توفي خلال معركة مع قوات غانة، وأن أنصاره تقهقروا نحو رباطهم في الجزيرة[133]، وفتح المرابطون أودغوشت عام 446هـ/ 1055م.

توسع المرابطون شمالاً، كما وضّحنا، مُطمئنين إلى وضعهم العام في جنوب الصحراء، وذلك للأسباب التالية:

أ ـ تقلّص قوة غانة بسبب الضربات التي وجهها المرابطون لها، والتي دامت 23 سنة. وقد أنهت قوات المرابطين مهمة الإجهاز على قوة غانة عام 470هـ/ 1077م[134].

ب ـ ولاء قبائل صنهاجة عماد قوة المرابطين.

جـ ـ خضوع قبائل التكرور والصوصو ودخولهما الإسلام وإخلاصهما لأمراء الملثمين، ومواصلة جهادهما على إمارة غانة التي بدأت تنسحب جنوباً.

خلال الأعوام 452 ـ 454هـ/ 1060 ـ 1062م عندما ابتعد المرابطون عن موطنهم الأصلي، اختلّ أمر الصحراء بسبب النزاع بين لمتونة وجدالة، وبسبب تحرّك قبائل السودان ضد المرابطين. فأناب الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني، ٱبنَ عمّه يوسف بن تاشفين بمواصلة الزحف شمالاً بعد أن ترك له ثلث الجيش المرابطي، أما الأمير أبو بكر فعاد إلى الصحراء، وهناك حَلّ

(131) محمد الغربي: بدايات، ص 38.

(132) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 3/ 228.

(133) حركات: المغرب عبر التاريخ: 1/ 170 ـ 171.

(134) محمد الغربي: بدايات، ص 39. طرخان: إمبراطورية غانة، ص 46، 52 ـ 53.

الخلاف بين القبائل، وواصل مجاهدة قبائل السودان[135]. ويبدو بأن هذا الأمير قد أصلح أمر الصحراء وعاد مسرعاً إلى الشمال بعد أن ترامت إليه أخبار انتصارات اْبن عمّه. ولمّا رأى قوة القائد يوسف بن تاشفين أدرك الأمير أن مكانه الطبيعي هو المجال الصحراوي، فترك الإمارة لاْبن عمّه، ورجع إلى الصحراء وبقي هناك يجاهد القبائل الوثنية وينشر الإسلام بين قبائل السودان حتى استشهاده عام 480هـ/ 1087م بسهم مسموم[136].

اعتنق الأمراء الغانيون الإسلام، واْنضووا تحت لواء الدولة المرابطية مع أتباعهم من السراكولي والديولا والمادينغا، وأصبحوا يقومون نيابة عن المرابطين بحملات جهادية لنشر الإسلام بين القبائل الوثنية من قبائل البهل والموسى، وكان ذلك يتم بأمر ومباركة الخليفة العباسي. فمن خلال الرسالة التي بعث بها الخليفة العباسي المستظهر بالله، أو المسترشد (512 ـ 529هـ)[137] إلى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين في عام 512هـ، يتبين لنا أن أمراء المرابطين استمروا في مواصلة الجهاد ضد القبائل الوثنية في منطقة السودان الغربي: «. . . أما ما أنهيته من توفير الأجناد ومثابرتك على الجهاد لدفع أدناس الكفرة مما يليك من البلاد، فإنك وطائفتك من حزب الله. . .»[138].

ونتج عن اْمتداد نفوذ المرابطين إلى بلاد غانة، أن سيطروا على مناجم الذهب بالإضافة إلى مكامن الملح في الصحراء، كما أنهم أبطلوا الضرائب والمكوس، واحتفظوا بالزكاة والأعشار وأخماس الغنائم والجزية تمشياً مع تعاليم الإسلام[139].

(135) محمد الغربي: بدايات، ص 39 ـ 40.
(136) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 135 ـ 136. المرابطين، ص 336.
(137) ينظر: السامرائي، علاقات.
(138) ابن الخطيب: الحلل، ص 73.
(139) عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ الحضارة المغربية: 1/ 107.

ويبدو أن إلغاء الضرائب عن العروض التجارية، كان السبب في النزاع بين القبائل وبخاصة بين لمتونة ومسوفة التي كانت تختص بحمل الملح. فأتى الأمير أبو بكر ووضع حدّاً لهذه الخصومات وأقرّ منطوق الشرع الإسلامي بينهما[140].

ونتيجة لجهود المرابطين في منطقة السودان الغربي فقد انتشرت اللغة العربية ـ بجانب لغات الصوصو والمايدنغ والشلحية ـ بأعتبارها لغة القرآن. وانتشرت بينهم العادات العربية، ومنها لبس العمامة، كما أن بعض أمراء غانة أدّعَوْا النسب العلوي[141].

هذا بالإضافة إلى إدخال طائفة من جند السودان تُسمّى (فرقة الحشم) ضمن الجيش المرابطي، وكان لها دورٌ مشرِّف في الحروب الجهادية بالأندلس، وبخاصة في معركة الزلاّقة المشهورة[142].

وبذلك كان للمرابطين دور كبير في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية في منطقة السودان الغربي، وساهموا في الحفاظ على الوضع الاقتصادي واستقراره بعد إلغاء الضرائب. كما عملوا على تأمين طرق المواصلات الذاهبة إلى الشمال، هذا بالإضافة إلى دور التجارة الحضاري[143].

3 ـ علاقتهم بالأندلس ونصرتهم العرب فيها:

تميز عصر دويلات الطوائف في الأندلس بالحروب المستمرة بين ملوكها، فكلّ منهم يَوَدّ أن يتّسع مُلكُه ويمد سلطانه على حساب جيرانه من الملوك كلما أُتيحَت له الفرصة بذلك[144]. هذا بالإضافة إلى محاولات

(140) ابن الخطيب: الحلل، ص 12. محمد الغربي: بدايات، ص 41.

(141) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص 6. طرخان: إمبراطورية غانة، ص 48 ـ 49.

(142) البكري: المغرب، ص 172 ـ 174. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 397.

(143) ينظر: دريد عبد القادر نوري: تاريخ الإسلام في أفريقيا، ص 129. محمد الغربي: بدايات، ص 43.

(144) السامرائي: علاقات المرابطين، ص 24.

أَلْفُونسو السادس ملك قشتالة التدخل في شؤون دويلات الطوائف بأشكال مختلفة[145]، وكان هدفه إسقاط هذه الدويلات الواحدة بعد الأخرى، وتطلّعه المستمر للسيطرة على مدينة طليطلة قلب الأندلس.

فسيطر عليها عام 478هـ/ 1085م بالتعاون مع جيوش إسبانية وأوربية، واتخذها عاصمة لدولته، ومركزاً يشنّ منها الغارات المتكررة على مدن الأندلس المجاورة[146]. نتيجة سقوط مدينة طليطلة، تزعّم صالحُ العلماء والفقهاء الدعوةَ إلى توحيد الأندلس من أجل ردّ عدوان ألفونسو السادس، ووضع حد لمطامعه التوسعية على حساب الأراضي الأندلسية، إلاّ أن هذه الدعوة لم تأت بالنتيجة المطلوبة أمام الأنهيار النفسي لأكثر ملوك الطوائف[147]. فأتجهت أنظار الشعب وصالح العلماء وبعض الأمراء صوب المغرب الأقصى، بأتجاه القوّة الفتية التي ظهر كيانها السياسي وهي دولة المرابطين[148].

بعد سقوط طليطلة بيد الإسبان عام 478هـ ازداد عبث الإسبان في سائر أنحاء الأندلس[149]، فقرر أمراءُ الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، دعوةَ المرابطين من أجل ردّ خطر الإسبان، فجاءت هذه الدعوة بعد ثلاثة أشهر من سقوط مدينة طليطلة[150].

(145) ينظر: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 260.

(146) ابن بسام: الذخيرة، ق 4، ج ـ 1، ص 130 ـ 132. ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 84 ـ 85. المقري: نفح الطيب: 4/ 447. السامرائي: علاقات المرابطين: ص 96 وما بعدها.

(147) السامرائي: «الدعوة إلى توحيد الأندلس في أيام الطوائف»، ص 82 وما بعدها.

(148) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 248.

(149) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 87 ـ 88. نصر الله: دولة المرابطين، ص 61 وبعدها.

(150) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 245. لين بول: العرب في أسبانيا، ص 165.

إن علاقة المرابطين ببلد الأندلس ونُصرتهم الحُكم المغربي فيها مرّ بالمراحل الآتية:

أ ـ الجهاد المشترك بين المرابطين وأمراء الطوائف ضد الممالك الإسبانية 479 ـ 483هـ.

كانت الخطوة الأولى التي اتخذها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في هذا المجال هي العبور بجيشه إلى الأندلس في ربيع الأول من عام 479هـ/ حزيران 1086م من أجل نصرة أهل الأندلس، والإعداد لإرجاع طليطلة إلى دولة الإسلام[151].

ارتاح ملوك الطوائف لهذه الخطوة، وساهموا بقوّاتهم من أجل الجهاد في سبيل الله، وإنقاذ بلد الأندلس من خطر الإسبان. وبعد أن وحّدوا الجهود سارت القوات المشتركة المرابطية والأندلسية صوب سهل الزلاّقة شمالي بطليوس بروح جهادية صادقة، تُمنّي النفسَ بالنصر أو الاستشهاد في سبيل الله[152].

تَرَكَ ألْفونسو السادس حصار مدينة سرقسطة قاعدة مملكة بني هود، لمّا وصلت إلى مسامعه هذه الاستعدادات العسكرية، وسار بقواته صوب بطليوس بعد أن أرسل صريخه إلى دول أوربا التي سارعت بإمداده بقوّات كبيرة[153]. وبعد استعدادات عسكرية من الطرفين، وقعت معركة الزلاقة في يوم الجمعة 12 رجب من عام 479هـ/ تشرين الأول 1086م، انهزمت فيها جيوش الإسبان والأوروبيين، وطُعِن ألفُونسو السادس وهرب مع ثلة من جنوده صوب طليطلة. وجعل الأندلسيون يوم الزلاّقة نظيرَ القادسية واليرموك[154]، استبشر بها المسلمون في العُدْوَتين، على الرغم من عدم

(151) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 100.

(152) النباهي: المرقبة العليا، ص 97. عنان: دول الطوائف، ص 321.

(153) الطيبي: «واقعة الزلاقة» ص 18 ـ Pidal: The Ccid, P. 217.217 .

(154) نصر الله: دولة المرابطين، ص 95.

استرجاع مدينة طليطلة من سيطرة الإسبان[155].

بعد معركة الزلاّقة رجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن ترك حاميات مرابطية في الأندلس تساعد القوات الأندلسية في التصدي لهجمات الإسبان التي بدأت تشنّ غاراتها على الأندلس انتقاماً لهزيمتها في الزلاقة[156].

بعد سيطرة ألفونسو السادس على طليطلة عام 478هـ اتخذها قاعدة لمهاجمة المدن والحصون الأندلسية المجاورة، وتنفيذاً لهذه السياسة أرسل قوّات إسبانية بقيادة (غرسيه خمينس) عاثت فساداً في المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة. واّتخذ قائد الحملة هناك حصناً منيعاً وشحنه بالمقاتلة والسلاح من أجل الإغارة على أراضي مرسية وألمرية والحصون المجاورة. ويدعى هذا الحصن بـ (حصن أليبط) الذي أثار الرعب في هذه المنطقة[157]. وبعد أن عجزت القوات الأندلسية المتواجدة هناك عن صد هجوم قوات هذا الحصن، كثر صريخهم واستغاثاتهم وتوالت كتبهم ورسُلهم إلى يوسف بن تاشفين في طلب العون والإمداد، فعَبَر إلى الأندلس في ربيع الأول من عام 481هـ/ 1088م وسار صوب حصن أليبط. وبعد أن توافدت إليه جيوش أمراء الأندلس، شدد الحصار على هذا الحصن لمدة أربعة أشهر، إلاً أنه اّنسحب بعد ذلك صوب مدينة لورقة لمناعة الحصن وحلول فصل الشتاء[158]. وخلال هذه الفترة استعان الإسبان المحاصرون في الحصن بمَلِكهم ألفونسو السادس الذي أنجدهم مسرعاً وخلّصهم من الخطر بعد أن دك أسوار

---

(155) ينظر: ابن عذاري: البيان 4/ 130. المراكشي: المعجب، ص 195. ابن الخطيب: الحلل، ص 52 ـ 53. السامرائي: علاقات، ص 144 وما بعدها.

(156) ابن خلكان: وفيات الأعيان: 2/ 268. السلاوي: الاستقصا: 2/ 46. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 290. علي أدهم: المعتمد بن عباد، ص 251.

(157) ابن الأبار: الحلة السيراء 2/ 86 (حاشية). المراكشي: المعجب، ص 192. ابن الخطيب: الحلل، ص 54. السامرائي: علاقات، ص 148.

(158) نصر الله: دولة المرابطين، ص 106 ـ 107.

الحصن، وانسحب صوب طليطلة لأنه كان يخشى أن تتكرر عليه هزيمة الزلاقة[159].

تخلّصت الأندلس من خطر حصن أليبط دون الدخول في معركة حاسمة، ورجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن ترك حاميات مرابطية بالأندلس تتصدى لهجمات الإسبان وبخاصة في الشرق[160].

تبيّن ليوسف بن تاشفين من خلال جهاده في الأندلس مدى الخلافات العميقة بين ملوك الطوائف التي توحّدها ظاهرياً مخاطر الإسبان، إلاّ أنه سرعان ما تعود هذه الخلافات من جديد، بالإضافة إلى التعاون السري بين بعض ملوك الطوائف وألفونسو السادس، فكان على يوسف بن تاشفين أن ينسحب من ميدان المعركة ويترك الأندلس فريسة سهلة للأسبان، أو أن يعتمد على نفسه وقواته فقط لمواصلة الجهاد، ويتطلب الأمر الأخير خلع ملوك الطوائف[161].

ب ـ الأندلس ولاية مرابطية:

قرر يوسف بن تاشفين خلع أمراء الطوائف بعد أن اقتنع بالأسباب التي دعته إلى ذلك[162]، فعزّز أمير المرابطين موقفه هذا من ناحيتين:

الأولى: الحصول على فتاوى فقهاء المشرق الإسلامي أمثال الغزالي والطرطوشي، وأرسل السفارات من أجل ذلك.

الثانية: الحصول على تأييد فقهاء الأندلس وعامة الناس الذين أكثروا من شكواهم إليه بعد العبور الثاني، وكشفوا له عن سوء ومكر ملوك الطوائف وحرّضوه على خلعهم. وكان على رأس هؤلاء الفقهاء (أبو جعفر بن

(159) ابن الخطيب: الحلل، ص 57. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 250.

(160) ابن عذاري: البيان: 4/ 143.

(161) عنان: دول الطوائف، ص 399. السامرائي: علاقات، ص 155.

(162) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 251.

القليعي) قاضي قرطبة الذي عَبَر إلى المغرب وأخبر أمير المرابطين ببعض الأمور التي تتعلق بملوك الطوائف وبخاصة الأمير عبد الله بن بلكين أمير غرناطة[163].

عَبَر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في أوائل عام 483هـ ولم يبدأ بعزل أمراء الطوائف، بل سار صوب مدينة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة وشدد الحصار حولها لكي يقطع أي اتصال بين الإسبان وملوك الطوائف. ثم واصل زحفه إلى مدن الحدود مما يلي شمالي طليطلة، وحاصر مدينة قلعة رباح الواقعة على الطريق المؤدي إلى مملكة قشتالة[164]. وتصدى له ألفونسو السادس، فانسحبت القوات المرابطية دون أن تدخل في معركة حاسمة مع الإسبان، ولم تشترك القوات الأندلسية في هذه الحملة، مما أدى إلى استياء يوسف بن تاشفين، إضافة إلى أن أمراء الطوائف أحسوا بنوايا أمير المرابطين نحوهم فباتوا يترقبون الأمور الجسام[165].

عاد أمير المرابطين بقواته من أحواز طليطلة صوب الجنوب بعد أن قطع الصلة بين أمراء الطوائف والإسبان ليضع بداية النهاية لأمراء الطوائف[166].

ثمة ظاهرتان يمكن ملاحظتهما في موضوع القضاء على ممالك الطوائف من قبل القوات المرابطية:

الأولى: أن أكثر ممالك الطوائف سيطرت عليها القوات المرابطية نتيجة تعاون ملوكها مع الإسبان وموقفهم المضاد للمرابطين، ولهذا سيطرت القوات المرابطية على هذه الممالك تباعاً: فسيطرت على مملكة غرناطة عام

(163) الأمير عبد الله: كتاب التبيان، ص 320، 487. نصر الله: دولة المرابطين، ص 110 وما بعدها.

(164) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 153. أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 93.

(165) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين: ص 303.

(166) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 252.

483هـ/ 1090م، وعلى مملكة إشبيلية عام 483 ـ 484هـ/ 1091م، وعلى مملكة ألمرية عام 484هـ/ 1091م، وعلى مملكة مرسية عام 484هـ/ 1091م، وعلى مملكة بطليوس عام 488هـ/ 1095م، وعلى إمارة ألبونت عام 496هـ/ 1103م، وعلى إمارة شنتمرية الشرق (سهلة بني رزين) عام 497هـ/ 1104م، وعلى مملكة سرقطة عام 503هـ/ 1110م. وقد تمت هذه السيطرة بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية في مقاومة الخطر الإسباني المساند لملوك الطوائف أولاً، وبمقاومة ملوك الطوائف الذين تصدّوا للقوات المرابطية ثانياً[167].

الثانية: أن بعض ممالك الطوائف مثل مملكة بلنسية، ومملكة الجزائر الشرقية (البليار) دخلتها القوات المرابطية لإنقاذها من خطر هجمات الإسبان، أي إن هذه الممالك هي التي طلبت العون من المرابطين. فبعد أن كانت مملكة بلنسية مسرحاً لهجمات الإسبان (479 ـ 495هـ) وبخاصة هجمات القمبيطور (فارس قشتالي مغامر) الذي عاث في المنطقة فساداً وأرهق أهلها، وتصدى للقوات المرابطية خلال هذه الفترة الطويلة. وبعد موته عام 492هـ/ 1099م تعاونت زوجته سيمانة مع ألفونسو السادس من أجل التصدي للقوات المرابطية التي دخلت المدينة عام 495هـ/ 1102م بعد إرهاق شديد فوجدتها أطلالاً دارسة[168]. أما الجزائر الشرقية (البليار) فقد تعرّضت لهجمات الأساطيل الإسبانية والإيطالية في عام 508هـ/ 1114م، وبعد مقاومة شديدة دخلت هذه الأساطيل أهمّ جزرها وهي جزيرة ميورقة وعاثت فيها فساداً، فاّستعان أهل الجزائر الشرقية بالمرابطين الذين أنجدوهم بأسطول بحريّ دخل الجزائر في عام 509هـ/ 1116م، وبذلك تدخل الجزائر الشرقية في حوزة المرابطين[169].

---

(167) السامرائي: علاقات، ص 160 وبعدها. نصر الله: دولة المرابطين، ص 117 وما بعدها.

(168) حسين: الحياة العلمية في مدينة بلنسية، ص 138 ـ 140.

(169) سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 244. محمود علي مكي: «وثائق مرابطية =

جـ ـ القتال بين المرابطين والممالك الإسبانية 483 ـ 542هـ:

1 ـ القتال بين المرابطين ومملكة قشتالة وليون:

مرت المعارك التي دارت بين القوات المرابطية بالأندلس وبين مملكة قشتالة وليون في مرحلتين:

الأولى: من عام 483هـ إلى عام 523هـ، وكان التفوق العسكري في هذه المرحلة للجيوش المرابطية التي بادرت بالهجوم على مدينة طليطلة وأحوازها، فاسترجعت بعض المدن والحصون المحيطة بها، كما انتصرت الجيوش المرابطية على القوات القشتالية في معركة أقليش الواقعة شرقي طليطلة في عام 501هـ/ 1108م حيث انهزمت فيها القوات الإسبانية وقُتِل قائدها الأمير سانشو بنُ ألفونسو السادس(170). وبعد هذا الانتصار كررت القوات المرابطية هجومها على مدينة طليطلة وأوشكت أن تردّها إلى دولة الإسلام وبخاصة في عام 507هـ/ 1114م(171).

الثانية: من عام 523هـ إلى عام 542هـ، بعد خسران القوات المرابطية في معركة القلاعة عام 523هـ أمام القوات الأرغونية (سنذكرها لاحقاً)، بدأت قوات قشتالية تكرر الهجوم على مدن الأندلس بقيادة ملكها ألفونسو السابع (السليطين 520 ـ 552هـ)، ويبدو أن القوات القشتالية اتخذت لها عدة محاور أهمها:

أ ـ محور قرطبة: حيث قامت القوات الإسبانية بمهاجمة قرطبة وحصونها

= جديدة»، ص 185 ـ 186. السامرائي: «الجزائر الشرقية...» ص 179 ـ 182. سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص 268.

(170) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 159 وبعدها. ابن القطان: نظم الجمان، ص 9 ـ 10. ميراندة: وقعة أقليش، ص 117 وما بعدها.

(171) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 90 (حاشية 2). ابن الأثير: الكامل: 10/ 490. ابن الأبار: التكملة: 2/ 915 ـ 916 (رقم 2146). الذهبي: العبر: 4/ 9.

عدة مرات في عام 524هـ/ 1130م، وفي عام 528هـ/ 1133م، وفي عام 536هـ/ 1142م، وفي عام 538هـ/ 1143م[172].

ب ـ محور إشبيلية: قامت القوات القشتالية بمهاجمة إشبيلية والمدن المجاورة لها في عام 526هـ/ 1132م، وفي عام 536هـ/ 1142م، وفي عام 538هـ/ 1143م[173].

جـ ـ محور بطليوس وغربي الأندلس: قامت قوات قشتالية بهجومها في عام 528هـ/ 1134م على هذا المحور، وفي عام 532هـ/ 1137م، وفي عام 536هـ/ 1142م[174].

وكان للقوات المرابطية دور جهاديّ كبير في صدّ هجمات القوات القتشالية على هذه المحاور، وكانت تنتزع في أغلب الأحيان النصر انتزاعاً من القوات القتشالية، وأحياناً تتعرض قوات المرابطين لخسائر كبيرة في الأنفس والأموال. ومما عرقل مساعي المرابطين الجهادية هذه، نشاط الموحّدين في عدوة المغرب وبداية سيطرتهم على أهم المدن والحصون المرابطية. وكذلك بسبب الثورات المتعاقبة التي قامت في بلد الأندلس وتهدف إلى تخليص الأندلس من الحكم المرابطي[175].

2 ـ القتال بين المرابطين ومملكة البرتغال 483 ـ 542هـ:

إن جهاد المرابطين مع هذه المملكة مرّ بمرحلتين:

الأولى: من عام 483هـ وإلى عام 533هـ، وفيها اتخذت القوات المرابطية من مدينة بطليوس قاعدة عسكرية تخرج منها الحملات الجهادية صوب الأراضي البرتغالية. واستطاعت هذه القوات من استرجاع بعض المدن

(172) السامرائي: علاقات، ص 219 وبعدها.
(173) ابن الخطيب: الإحاطة: 1/ 460. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 255.
(174) ابن عذاري: البيان: 4/ 88. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 506 ـ 507.
(175) ينظر: ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 194. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 30 ـ 31.

المهمة من سيطرة الإسبان ومن أهمها: مدن يابرة وأشبونة وشنترين وذلك في عام 505هـ/ 1113م، ومدينة قلمرية في عام 511هـ/ 1117م[176].

والثانية: من عام 533هـ وإلى عام 542هـ، حيث اشتدت هجمات القوات البرتغالية على المدن الأندلسية بقيادة ملك البرتغال ابن الرنك (ألفونسو هنريكيز 522 ـ 553هـ)، وبخاصة بعد صلحه مع ملك قشتالة السليطين في عام 533هـ/ 1139م. فتصدى هذا الملك البرتغالي للقوات المرابطية في غربي الأندلس وانتصر عليها في موقع (أوريك) على ضفة نهر التاجة[177].

كما استغلت مملكة البرتغال ثورة أهل الأندلس على المرابطين، فسيطرت على مدن شنترين وباجة وماردة وأشبونة، أي إنها استرجعت معظم المدن التي استردها المرابطون في المرحلة الأولى[178].

3 ـ القتال بين المرابطين ومملكة برشلونة 483 ـ 542هـ:

واصلت مملكة برشلونة الإسبانية توسعها على حساب أراضي الثغر الأعلى منذ عام 483هـ/ 1090م، حيث سيطرت على مدينة طركونة وفق حملة صليبية باركها البابا أوربان الثاني[179]. وحاولت القوات المرابطية عدة مرات استرجاع ثغر طركونة وبرشلونة، حيث أرسلت قواتها البرية في عام 495هـ/ 1102م وفي عام 508هـ/ 1115م إلى برشلونة وتوغلت في أراضيها، وأحرزت نصراً محدوداً وخسرت القوات المرابطية خيرة رجالها في هذه الحملات[180]. وأُرسِلت حملة مرابطية بحرية في عام 511هـ/ 1117م إلى

(176) المراكشي: المعجب، ص 228 ـ 232. ابن عذاري: البيان: 4/ 64.

(177) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 526 ـ 527.

(178) ابن الأثير: الكامل: 11/ 106.

(179) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 116.

(180) السلاوي: الاستقصا: 2/ 58. مؤنس: الثغر الأعلى، ص 112. ميراندة: علي بن يوسف، ص 94، 114.

منطقة برشلونة وأسرت الكثير من أهلها وبخاصة الربرتير الذي دخل في خدمة المرابطين فيما بعد[181].

وبعد سقوط ألمرية بِيَد الإسبان عام 542هـ شجّعهم الأمر على غزو مدينة طرطوشة التي كان لها أهمية خاصة عند الإسبان باعتبارها أعظم ثغور الشمال الشرقي البحرية، كما كانت مأوى للمقاتلين الذين كثيراً ما كانوا يرابطون في هذا الثغر ويكررون هجماتهم على مملكة برشلونة وأرغون وشواطئ فرنسة، حتى اعتقدت الممالك الإسبانية أن المسلمين بطرطوشة ربما يستطيعون إسقاط مملكة برشلونة ومملكة أرغون، بل ربما يستطيعون إرجاع سرقسطة إلى عهدها العربي الإسلامي[182].

لهذا ركّزت مملكة برشلونة على مدينة طرطوشة، فهاجمتها بقوات إسبانية وأوربية باركها البابا، فسيطرت عليها عام 543هـ/ 1148م[183].

4 ـ القتال بين المرابطين ومملكة أرغون 483 ـ 542هـ:

أعلن ملك أرغون (الراهب راميرو 529 ـ 532هـ) تبعيته لملك قشتالة ألفونسو السابع، وكذلك سار على هذا النهج ملك برشلونة وملك النافار[184]، ولهذا كان لألفونسو السابع (السليطين) نوعٌ من الهيمنة والسيطرة على بقية ملوك الإسبان، ولذا نراه يهاجم قواعد الثغر الأعلى، فقام بمحاولتين في عام 504هـ/ 1111م من أجل السيطرة على سرقسطة ففشل[185].

وازدادت هجمات القوات الإسبانية على مدن الثغر الأعلى بعد سقوط بيت المقدس بيد الأوربيين عام 492هـ/ 1099م، حيث عَبَرت قوات أوروبية

---

(181) ابن عذاري: البيان: 4/ 66. ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 193.

(182) علام: الدولة الموحدية بالمغرب، ص 176.

(183) ابن الخطيب: الإحاطة: 2/ 126. التاريخ الأندلسي، ص 441.

(184) أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 176.

(185) ابن عذاري: البيان: 4/ 54.

إلى إسبانيا لمعاونة ملك أرغون من أجل استرداد أهم المدن الأندلسية، فبدأ ملك أرغون ألفونسو المحارب (499 ـ 529هـ)، بٱحتلال مدينة تطيلة في عام 511هـ/ 1117م، وحاصر سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى لمدة سبعة أشهر تساعده قوات أوروبية، وتمكّن من ٱحتلالها في عام 512هـ/ 1118م، وجعلها عاصمة لمملكة أرغون الإسبانية. وبسقوط سرقسطة أصبحت قواعد الثغر الأعلى مهددة أمام زحف ألفونسو المحارب الذي سيطر في نفس العام (512هـ) على مدينة روطة المنيعة، كما سيطر في عام 513هـ/ 1120م على مدينة طرسونة. ومدينة قلعة أيوب والتي كانت أمنع ما تبقّى من معاقل الثغر الأعلى[186].

شجّعت هذه الانتصارات ألفونسو المحارب على مواصلة عدوانه على مدن الأندلس، ومقاومته للقوات المرابطية فيها. ففي عام 514هـ/ 1120م انتصر على القوات المرابطية في معركة قتندة الواقعة في حيز دروقة من عمل سرقسطة، واستشهد فيها آلاف المسلمين ومن بينهم العديد من الفقهاء والعلماء[187]. كما قام ملك أرغون ألفونسو المحارب بحملته المدمّرة عام 519هـ ـ 520هـ مخترقاً الأندلس من أقصاه إلى أقصاه متحدياً المسلمين فيها، ومتعاوناً مع بعض معاهدي الإسبان الذين سهلوا له هذه المهمة[188]. وكانت هذه الحملة، حملة تحدّي كشفت عن ضعف الدفاع في الأندلس، وأن خطط المرابطين منذ سقوط سرقسطة ومعركة قتندة لم تكن كفيلة بصد العدوان الإسباني[189].

ومن المعارك المهمة التي انتصر فيها ألفونسو المحارب على القوات

(186) ينظر: أرسلان، الحلل السندسية: 1/ 105. التواتي، مأساة انهيار الوجود العربي، ص 605. السامرائي، الثغر الأعلى، ص 72.

(187) ابن الأبار: المعجم، ص 7 (رقم 3). ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة: 6/ 219 (رقم 640). ابن بشكوال: الصلة، ص 144 (رقم 330).

(188) ينظر: ابن القطان: نظم الجمان، ص 109. ابن عذاري: البيان: 4/ 69 ـ 73. ابن الخطيب: الإحاطة: 1/ 108 ـ 114. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 60.

(189) السامرائي: علاقات، ص 257.

المرابطية هي معركة القلاعة عام 523هـ/ 1129م الواقعة شرقي الأندلس، والتي فتحت الأبواب أمام الهجمات الإسبانية الشرسة على مدينة بلنسية وما جاورها من الحصون[190].

وفي عام 527هـ/ 1133م هاجم ملك أرغون ألفونسو المحارب مدينة مكناسة في الثغر الأعلى فسيطر عليها، ثم زحف نحو مدينة إفراغة فتصدت له القوات المرابطية ودارت تحت أسوار هذه المدينة معركة من أعنف المعارك في هذه الفترة انتصر فيها المرابطون لأول مرة ضد ملك أرغون في رمضان من عام 528هـ/ 17 تموز 1134م. وكان لنصر المرابطين في إفراغة صدى عميق في سائر أنحاء الأندلس، حيث أعادت للمرابطين سمعتهم العسكرية نوعاً ما[191].

وبعد هذه المعركة توفّي ألفونسو المحارب في عام 529هـ/ 1134م وتولى الأمر من بعده الراهب راميرو أخاه (529 ـ 533هـ) وفي عهده هاجمت القوات المرابطية مدينة مكناسة واسترجعت بعض الحصون المجاورة لها[192].

أما بقية مدن الثغر الأعلى مثل: لاردة وإفراغة وإقليش فقد سقطت بيد الإسبان عام 544هـ/ 1149م[193]. في عهد ملك برشلونة (رامون برنجير الراهب 525 ـ 557هـ)، الذي أصبح ملكاً لمملكة أرغون بعد أن تنازل الراهب راميرو عن العرش إلى صهره ملك برشلونة، ولذا لُقّب ملك برشلونة هذا: (كونت برشلونة وأمير أرغون)[194].

---

(190) ابن القطان: نظم الجمان، ص 180. عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 541 ـ 542 (باب الوثائق).

(191) ابن القطان: نظم الجمان، ص 223. الحميري: الروض المعطار، ص 25. السامرائي: علاقات، ص 264 وما بعدها.

(192) ابن عذاري: البيان: 4/ 95 ـ 96.

(193) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 259.

(194) السامرائي: علاقات، ص 240. الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 467.

يتبين لنا من خلال استعراض جهاد المرابطين للممالك الإسبانية ما يأتي:

أ ـ وجود الملك الإسباني القويّ الذي يقود المقاومة ضد القوات المرابطية: ألفونسو السادس ملك قشتالة، ألفونسو الأول المحارب ملك أرغون، ألفونسو السابع ملك قشتالة.

ب ـ تميزت المعارك المتبادلة بين القوات المرابطية والقوات الإسبانية بعنفها وقوّتها، وقد عزّز كل جانب معاركه بسمات عسكرية عالية تزعّمها رجال الدين من الطرفين وشاركوا في بعضها.

جـ ـ لم يستطع الجيش المرابطي استرجاع أية مدينة أندلسية مهمة سيطر عليها الإسبان خلال مراحل الصراع، ابتداءً من مدينة طليطلة، مروراً بغربي الأندلس وإلى منطقة الثغر الأعلى، على الرغم من الروح الحربية العالية التي تمتّع بها الجيش المرابطي في الأندلس.

هـ ـ أثقلت هذه الحروب كاهل القوات المرابطية في الأندلس، وفقدت خيرة رجالها وقادتها، مما أضعف هذه القوات. كما أن انشغالها في قمع ثورة أهل الأندلس، وحركة المهدي في عدوة المغرب، شلَّ حركتها مما شجع هذا الأمرُ الإسبانَ على مواصلة التوسع والسيطرة تباعاً على أهم المدن والقواعد الأندلسية[195].

د ـ ضعف دولة المرابطين وانهيارها:

تميّز عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (مرحلة الإمارة 454 ـ 500هـ) بتثبيت أركان دولة المرابطين في المغرب الأقصى، ومن ثم عبور المرابطين إلى الأندلس لنجدتها أولاً، وتحويل الأندلس إلى ولاية مرابطية ثانياً. وبذلك تحملت القوات المرابطية مهمة الجهاد ضد الممالك الإسبانية

(195) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 260.

ممّا أثقل كاهل هذه القوات والتي فقدت خيرة رجالها، في حين تميّز عهد أمير المرابطين علي بن يوسف (500 ـ 537هـ/ 1106 ـ 1142م) والأمراء الثلاثة الذين حكموا بعده (537 ـ 542هـ/ 1142 ـ 1148م)[196] بالاضطراب، متمثلاً في قيام حركة المهدي بن تومرت في عدوة المغرب، وبقيام ثورات أهل الأندلس ضد المرابطين، بالإضافة إلى ضعف الأمراء المتأخرين، فتظافرت الأسباب التي عملت على سقوط دولة المرابطين في المغرب والأندلس.

إن خاتمة سقوط دولة المرابطين مرّت في مرحلتين:

1 ـ **المرحلة الأولى**: مرحلة أبو عبد الله محمد بن تومرت (485 ـ 524هـ) وقد بدأت هذه المرحلة في عام 515هـ، وانتهت بوفاة ابن تومرت عام 524هـ.

2 ـ **المرحلة الثانية**: مرحلة عبد المؤمن بن علي (524 ـ 543هـ) والتي توجت بسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين.

ولما بدأت المتاعب تتكاثر أمام المرابطين في عدوة المغرب، استغل الأندلسيون الأمر فبدأوا بالثورة ضد المرابطين فكانت بداياتها في عام 515هـ، واضطرمت في عام 539هـ.

في هذا الموضوع، سوف نتناول حركات أهل الأندلس ضد المرابطين، في حين نرجئ موضوع قيام دولة الموحدين إلى الفصل الرابع الذي يتناول تكوين دولة الموحدين وتوسّعها.

تخبرنا الروايات عن أول تمرّد أندلسي ضد المرابطين كان في عام 515هـ/ 1121م حيث تمرّد أهل قرطبة على الوالي المرابطي (أبو يحيى بن روادة)، ونهبوا قَصره ودُور المرابطين. وأرجعت هذه الروايات أسباب التمرد إلى عوامل اجتماعية وخلقية، اضطرب الأمر على أثرها، مما دعا ذلك إلى

(196) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 442. السامرائي: علاقات، ص 207. حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص 43.

عبور أمير المرابطين علي بن يوسف إلى الأندلس في نفس العام في قوات كبيرة من القبائل البربرية فأصلح الأمور[197]. وبعد أن أجرى بعض التغييرات الإدارية في الأندلس، عَبَر مسرعاً إلى عدوة المغرب بعد أن وصلته أخبار مزعجة من مراكش تنبئه بقيام حركة محمد بن تومرت في بلاد السوس وٱستفحال أمره[198].

كان الأندلسيون الذين قادوا حركات التمرد ضد المرابطين يرقبون الصراع القائم بين الموحدين والمرابطين في عدوة المغرب. ولما لقي تاشفين بن علي مصرعه في وهران عام 539هـ[199]، اشتعلت نار التمرد في الأندلس ضد المرابطين، وأهم هذه الحركات:

1 ـ تمرد أهل الأندلس في الجنوب الغربي:

تزعّم هذا التمرد في منطقة شلب جنوبي البرتغال أحمد بن الحسين بن قسي المتصوف، وقد ٱدّعى المهدية وتلقّب بالإمام وذلك في عام 539هـ وسمّى أتباعه بالمريدين، وأطلق على حركته ٱسم «ثورة المريدين»[200]. ودخل في طاعته كثير من زعماء غربي الأندلس أمثال محمد بن يحيى (ٱبن القابلة)[201] الذي هاجم حصن ميرتلة وانتزعه من الحامية المرابطية في عام 539هـ/ 1145م. وقد فشل المرابطون في استعادة هذا الحصن، وأصاب بعض القرى الآمنة ضَرَر من تحركات الجيش المرابطي، مما حفّز الناس على قبول دعوة المريدين بحماس[202]. كما أيّد هذه الحركة زعيم شلب الفقيه

(197) الحلل، ص 70 ـ 71. ابن الأثير: الكامل: 10/ 586. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 82 ـ 83.

(198) ابن عذاري: البيان: 4/ 66 ـ 67. الحلل، ص 64. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 85.

(199) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 198. ابن عذاري: البيان: 4/ 104.

(200) علام: الدولة الموحدية، ص 148. وهو في الحقيقة تمرد.

(201) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 198.

(202) المراكشي: المعجب، ص 281. علام: الدولة الموحدية، ص 148.

(محمد بن عمر بن المنذر) و (سيدراي بن وزير) قائد المريدين في يابرة، اللذَيْن انتزعا يابرة وحصن مرجيق (منشيق) من أيدي المرابطين، وعلى إثر ذلك انسحبت القوات المرابطية من مدينة باجة إلى إشبيلية، فعندها سار اٌبن المنذر زعيم شلب واٌبن وزير إلى باجة وسيطرا عليها[203]. كما سيطرت قوات المريدين على مدينة ولبة ولبلة، ووضعت خطتها للسيطرة على إشبيلية، إلاَّ أن القائد المرابطي يحيى بن غانية هاجم اٌبن المنذر قبل أن يدخل إشبيلية، وفتك بكثير من جيش المريدين وفر اٌبن المنذر إلى شلب، وقد مَنَعت حركة (اٌبن حمدين) في قرطبة القائدَ اٌبنَ غانية من متابعة فلول المريدين[204]. وتطلّع اٌبن قسي إلى مدينة قرطبة، إلاَّ أن أهلها استدعوا سيف الدولة بن هود ليكون أميراً عليهم. وبذلك فشلت مساعي اٌبن قسي، إضافة إلى وقوع الخلاف بينه وبين سيدراي بن وزير الذي خلع طاعة اٌبن قسي وضمّ ولاءه إلى القاضي اٌبن حمدين زعيم تمرّد قرطبة[205]، فاٌضطرّ اٌبن قسي إلى الفرار وترامى في أحضان عاهل الموحّدين عبد المؤمن بن علي الذي عفا عنه لِمَا اٌدعاه سابقاً، وذلك في عام 540هـ[206].

واستطاع اٌبن قسي إقناع عاهل الموحدين بضرورة الإسراع إلى إرسال الجيوش لفتح الأندلس، إذ إن فوضى التمرد بالأندلس قد استغلها الإسبان على أوسع مدى مما يُنذِر بسقوط الحُكْم العربي فيها. وبالفعل سارت الحملة الموحدية إلى الأندلس في محرّم من عام 541هـ وكان اٌبن قسي قائد الحملة[207]. وقد أعاده الموحدون إلى ولاية شلب، ولكن أراد اٌستغلال الفرصة مرة ثانية للتمرد، واستعان بملك البرتغال (اٌبن الرنك) فأنكر ذلك

---

(203) ابن خلدون: العبر: 6/ 231. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 74.

(204) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 204 ـ 205. السامرائي: علاقات، ص 272.

(205) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 75.

(206) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 199. ابن الخطيب: الحلل، ص 251.

(207) علام: الدولة الموحدية، ص 181.

عليه أهل شلب وقتلوه، وعَيّنوا مكانه (أبن المنذر الأعمى) على طاعة الموحِّدين وذلك في عام 546هـ[208].

2 ـ تمرّد أهل الأندلس في الوسط والجنوب:

انتهز أهل قرطبة وجود أبن غانية في غربي الأندلس لإخماد حركة المريدين فخلعوه، كما خلعوا الوالي المرابطي أبا عمر اللمتوني، وولّوا أمرهم الفقيه (حمدين بن محمد، الملقّب بأبن حمدين) كما لقّبوه بأمير المسلمين وناصر الدين[209]. ولمّا عَلِم القائد أبن غانية بأمر تمرّد قرطبة، ترك غربي الأندلس ورجع إلى إشبيلية والتي تمردت أيضاً عليه مما اضطر إلى الأحتماء بحصن مرجانة القريب منها[210].

إلاَّ أن أهل قرطبة استدعوا سيف الدولة بن هود ليحلّ محلّ أبن حمدين في إمارة قرطبة، ولم يستطع أبن حمدين العيش في ظل سيف الدولة ففرّ إلى حصن (فرنجولش). وثارت العامة بعد ذلك على أبن هود وقتلوا وزيره (أبن شماخ) واستدعوا أبن حمدين ليحكُم المدينة[211].

استمر أبن حمدين سَنَةً في حُكم قرطبة، ودخل في طاعته أبو الغمر بن عزون صاحب شريش، وأبو جعفر بن أبي جعفر صاحب مرسية، إلاَّ أنّ القائد أبن غانية دخل قرطبة في عام 540هـ بعد معركة حامية، وفرّ أبن حمدين إلى بطليوس، وبعدها طلب العون من ألفونسو السابع ملك قشتالة الذي أرسل له فرقة اسبانية لضرب أبن غانية[212]. ولم تُجْدِ مقاومة أبن غانية لقوات الإسبان الذين دخلوا قرطبة مع حليفهم في ذي الحجة من عام

(208) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 200. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 79.
(209) الضبي: بغية الملتمس، ص 385. علام: الدولة الموحدية، ص 154.
(210) السامرائي: علاقات، ص 274.
(211) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 207. مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 82 ـ 83.
(212) النباهي: المرقبة العليا، ص 103. علام: الدولة الموحدية، ص 156. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 314.

540هـ/ 1145م وحاصروا ٱبن غانية في شرقي المدينة فعاثوا فيها فساداً[213].

بعد أن تواترت الأخبار بقدوم عبد المؤمن إلى الأندلس، دبّ الرعب في قلوب الإسبان، فتفاوض ملك قشتالة مع ٱبن غانية تاركاً قرطبة للمرابطين، واستمر ٱبن غانية على تهادنه مع الإسبان نحو عام[214]. أما ٱبن حمدين فلم يستطع الإقامة في قرطبة فذهب مع ألفونسو السابع وأقام في حصن (فرنجولش)، وبعدها عَبَر إلى عدوة المغرب وقابل عبد المؤمن بن علي عام 541هـ فأحسن استقباله، ثم غادر المغرب إلى الأندلس ونزل في مدينة مالقة عند (ٱبن حسون) الثائر بها، ثم حاول استرجاع مكانته في قرطبة دون جدوى، فٱستقر في مالقة بقية حياته حتى توفي عام 546هـ/ 1151م[215].
أما تمرّد غرناطة فقام في عام 539هـ أيضاً بزعامة القاضي (أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى) الذي اشتبك مع قوات المرابطين داخل غرناطة بقيادة (علي بن أبي بكر، ٱبن أخت علي بن يوسف)[216] هزم المتمردين وشتت شملهم، فٱستنجد ٱبن أضحى، بٱبن حمدين وبٱبن جزي قاضي جِيّان، إلاّ أن هذه النجدة لم تُجْدِ نفعاً، لذا لجأ المتمردون إلى الاستنجاد بسيف الدولة بن هود الذي تغلب على جيّان وغيرها بعد فراره من قرطبة، وقد أثار هذا الاستدعاء غضب ٱبن حمدين الذي كان يطمع في غرناطة[217].

تقدّم ٱبن هود إلى غرناطة في جيش يضمّ جنوداً من الإسبان، وتعاهد مع ٱبن أضحى على مقاومة المرابطين، وقد انهزم المتمردون أمام القوات المرابطية في أواخر عام 539هـ، وتبع الهزيمة موت ٱبن أضحى وتولّى ٱبنه

---

(213) ابن الخطيب: الإحاطة: 2/ 98. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 85.
(214) علاّم: الدولة الموحدية، ص 157.
(215) النباهي: المرقبة العليا: ص 103. الضبي: بغية الملتمس، ص 261. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 86.
(216) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 212.
(217) علاّم: الدولة الموحدية، ص 159.

محمد الأمرَ مع ابن هود[218]. وفي هذه الهزيمة أُصيب الأمير عماد الدولة ابن سيف الدولة بن هود بجرح خطير مات على إثره، مما شَلّ هِمّة سيف الدولة وزهد في قيادة التمرد وفرّ بعد ذلك. وبعدها قدّم أهالي غرناطة طاعتهم للقائد المرابطي ميمون بن بدر بن ورقاء الذي خلف عليّاً بن أبي بكر. وهكذا استعاد المرابطون سيطرتهم على غرناطة[219].

وفي مدينة مالقة تمرّد قاضيها (أبو الحكم بن حسون) على المرابطين، وحاصر المرابطين مدة ستة أشهر حتى أخرجهم منها، ولكن المرابطين في الحصون المجاورة استمروا في مهاجمته حتى اضطر هذا المتمرد أن يستعين بالإسبان وقد دفع لهم أجورهم من الضرائب العالية التي فرضها على الشعب، ممّا ولّد النقمة عليه، فهاجموا قصره. وأمام هذا الخطر انتحر ابن حسون وصُلِبت جثته وذلك في عام 547هـ/ 1152م[220].

وفي مدينة (وادي آش) شمال شرقي غرناطة، تمرّد أحمد بن محمد بن ملحان الطائي، واستولى على قصبة المدينة بعد انتصاره على قوّة المرابطين فيها، وبقي مستقلاً في إمارته حتى هاجمه ابن مردنيش زعيم تمرد شرقي الأندلس وحليف الإسبان، وضمّها إلى مملكته عام 546هـ/ 1151م. فعَبَر ابن ملحان إلى عدوة المغرب ودخل في خدمة الموحّدين إلى أن مات في عام 548هـ[221].

وتمرد في مدينة جيان قاضيها (يوسف بن عبد الرحمن بن جزي) ولكن رئاسته لم تطل، لأن سيف الدولة بن هود استطاع التغلب على جيان قُبَيل سيره إلى قرطبة في أواخر عام 539هـ[222].

(218) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 213.

(219) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 318.

(220) ابن الخطيب: أعمال، ص 255، السامرائي: علاقات، ص 277.

(221) ابن الخطيب: الإحاطة: 2/ 89. علام: الدولة الموحدية، ص 161.

(222) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 321.

وتزعّم تمرّد رندة الأديب (أخيل بن إدريس الرندي) الذي استطاع أن يطرد المرابطين منها وينشئ حكومة مستقلة. إلاّ أن صاحب شريش (ابن عزون) استطاع أن يستولي على رندة، ففرّ قائدها إلى مالقة ومنها إلى المغرب فدخل في خدمة الموحّدين[223].

وفي شريش تمرّد بها أبو الغمر بن السائب بن عزون الذي خلع طاعة المرابطين وبسط نفوذه على رندة. وعندما سيطر عبد المؤمن بن علي على مدينة مراكش، عَبَر ابن عزون إلى المغرب وقدم ولاءه لعاهل الموحدين. ولما عَبَر الموحدون إلى الأندلس دخل أمير شريش وجنده تحت طاعتهم، فكانت شريش أول قاعدة أندلسية دخلت في طاعة الموحدين صلحاً، لهذا سَمّى الموحدون أهل شريش بالسابقين الأولين[224].

وفي قادس تمرّد علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي ووالي المدينة، فخلع طاعة المرابطين عام 540هـ، وعَبَر إلى المغرب وقابل عبد المؤمن ودخل في طاعته، ثم عاد إلى قادس موالياً للموحدين، ثم كان بعد ذلك ممن ثاروا على الموحدين[225].

3 ـ تمرّد أهل الأندلس في الشرق:

كانت العوامل الجغرافية والعسكرية قد شدت من أزر هذه الحركات وضاعفت مقدرتها على المقاومة، وذلك لاتّصال شرقي الأندلس بالبحر الذي يمد المتمردين بوسائل وموارد خاصة، ولوقوعها على مقربة من الممالك الإسبانية ممّا دعاها إلى طلب العون عند حراجة مركزها.

قامت حركة التمرّد في بلنسية وما جاورها من المدن ضد المرابطين إلاّ أن واليها المرابطي (عبد الله بن محمد بن غانية) وقاضيها (مروان بن عبد

(223) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 241 ـ 242.
(224) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 188. السلاوي: الاستقصا: 2/ 113.
(225) المراكشي: المعجب، ص 279. علام: الدولة الموحدية، ص 162.

العزيز) تعاونا من أجل حفظ النظام وضبط المدينة، مذكّرين أهل بَلَنْسية بجهود المرابطين فيها. ولكن حركة التمرد كانت أقوى من هذه الجهود، ففر الوالي المرابطي إلى مدينة شاطبة، وأجمع المتمردون على زعامة القاضي (مروان بن عبد العزيز) الذي عفّ عن الزعامة، فألحّ عليه ٱبن مردنيش وقائد جيوش الثغور عبد الله بن عياض، فقبلها مُكْرَهاً في شوال من عام 539هـ[226]. تجمعت القوات المرابطية في شاطبة لمنازلة المتمردين، بقيادة عبد الله بن غانية، إلاّ أنه لم يستطع الصمود ففر إلى ألمرية ومنها إلى الجزائر الشرقية[227]. واستولى مروان بن عبد العزيز على شاطبة صلحاً إلاّ أن ٱبن عبد العزيز زهد في الرئاسة فٱستقدم المتمردون عبد الله بن عياض قائد الثغور، وهرب ٱبن عبد العزيز إلى ألمرية فقبض عليه محمد بن ميمون قائد الأسطول وأرسله إلى (عبد الله بن محمد المسوفي، ٱبن أخي يحيى بن غانية)، وحمله عبد الله مصفداً إلى ميورقة[228].

وفي عام 539هـ قامت حركة التمرد في مرسية منادية بإسقاط المرابطين، وكانت بزعامة (أبو محمد بن الحاج اللورقي) الذي دعا في حركته لٱبن حمدين صاحب قرطبة، فأعلن بهذا عن ضعف شخصيته مما أطمع سيف الدولة بن هود في مرسية، إذ أرسل إليها قائده (عبد الله بن فتوح الثغري) الذي استطاع أن يطرد ٱبنِ الحاج اللورقي في شوال من نفس العام 539هـ، ودعا لٱبن هود. ولكن المتمردين أجبروه على الفرار من مرسية وقدّموا لزعامتهم الفقيه (محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني) الذي قبل الزعامة مكرهاً[229]. وقدّم هذا القائد الجديد المساعدات إلى متمردي بلنسية وإلى

---

(226) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 219. الدولة الموحدية، ص 166.

(227) عبد المجيد: ابن الأبار، حياته وكتبه، ص 65.

(228) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 230 ـ 231. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 356. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 89.

(229) ابن الأبار: التكملة: 1/ 180 (رقم 634).

متمردي غرناطة، ولكنه قُتِل في إحدى المعارك التي دارت بين متمرِّدي غرناطة وقوّات المرابطين[230]. فقدّم أهالي مرسية (أبا عبد الرحمن بن طاهر) وذلك في ربيع الأول من عام 540هـ، ودَعَا لأبنِ هود، إلاَّ أن أهالي مرسية خاطبوا القاضي عبد الله بن عياض صاحب بلنسية ليتولى أمرهم، فأستجاب لهم وأنتزع إمارة مرسية من أبن طاهر دون إراقة الدماء وذلك في جمادى الأولى من عام 540هـ[231].

وبهذا أصبح أبن عياض والياً على مرسية وبلنسية، وجعل صهره عبد الله بن مردنيش والياً على بلنسية، وسكن هو مرسية بعد أن جعل الدعوة للأمير سيف الدولة بن هود وذلك وفق سياسة حكيمة، وذلك ليتخلّص من دسائس أبن هود أوّلاً، ولكي يتّقي شر الإسبان حلفائه ثانياً[232].

رأى الإسبان أن الوقت قد حان لجني ثمار دسائسهم في دعم حركات التمرد ضد المرابطين، فأخذوا يعتدون على أحواز مدينة شاطبة، فأثار هذا الاعتداء الحماس القوميّ والدينيّ في (عبد الله بن مردنيش) والي بلنسية الذي بادر إلى نجدة أهل شاطبة، ثم تبعه أبن عياض والي مرسية. ورأى سيف الدولة بن هود أن من العار أن يتخلّف عن المعركة في الوقت الذي تدعو فيه مرسية وبلنسية له، ولا سيما أن الإسبان هم البادئون بالعدوان وأنهم لم يرعوا حرمة الصداقة[233]. التقى المسلمون والإسبان مع موضع (اللج) في ظاهر بلدة البسيط على مقربة من (جنجالة) 20 شعبان عام 540هـ/ شباط 1146م وخسر المسلمون وقُتِل في المعركة عبد الله بن مردنيش ولُقّب بصاحب البسيط[234]. وقتل أيضاً سيف الدولة بن هود، ونجا أبن عياض.

(230) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 230. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 95

(231) علاّم: الدولة الموحدية، ص 167.

(232) السامرائي: علاقات، ص 281.

(233) علام: الدولة الموحدية، ص 169.

(234) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 223.

وكانت ضربة شديدة للمسلمين في شرقي الأندلس[235].

وبعد ذلك دخل ٱبن عياض في منازعات أدت إلى مصرعه في معركة ضد الإسبان في عام 542هـ، وأصبح محمد بن سعيد بن مردنيش حاكم شرقي الأندلس[236].

يتبيّن لنا من كل ذلك، أن ولاية الأندلس المرابطية عجت بها حركات التمرد خلال الأعوام 539 ـ 541هـ، وهي سَنَةُ عبور الموحدين إلى الأندلس. ومن الملاحظ أن أكثر متمردي الأندلس ضد المرابطين هم من الفقهاء والقضاة والأدباء، وهذا يعود إلى النفوذ الذي تمتعوا به في ظل دولة المرابطين حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية، فٱستغلوا ضعف سلطان المرابطين فتمردوا من أجل استرداد سلطانهم، إلاَّ أن معظم حركات التمرد تمّ القضاء عليها إما بواسطة القوات المرابطية المتواجدة في الأندلس، أو بٱنضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية الجديدة[237].

وبذلك لما رأى الأندلسيون بداية أفول نجم دولة المرابطين بسبب ما عانته من مشاكل، سواء ضد الإسبان أو في عدوة المغرب، ٱستقلّ كل والٍ وحاكم صغير في منطقته وجمع له ثلة من الأنصار، وتلقّب بالإمارة.. وأصبح في الأندلس من الحكام بعدد ما فيها من المدن كما قيل[238]، إلاَّ أن معظم هذه الزعامات اختفت عند قيام دولة الموحدين. ومما يُؤخَذ على بعض زعماء حركات التمرد في الأندلس ضد الحكم المرابطي تعاونهم مع الممالك الإسبانية، وبذلك أعادوا إلى الأذهان دور الطوائف في هذا المجال.

(235) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 98.

(236) المراكشي: المعجب، ص 278 ـ 279.

(237) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص 39. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 318.

(238) لين بول: العرب في إسبانيا، ص 171.

الفصل الرابع

الموحِّدون

1 ـ الموحدون، المهدي بن تومرت وعقائده

2 ـ تكوين دولة الموحدين وتوسعها

3 ـ علاقاتهم بالأندلس

4 ـ ضعف دولة الموحدين وانهيارها

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

الموحِّدون، المهدي بن تومرت وعقائده:

إن حركة المهدي بن تومرت حركة مغربية مستقلة، وكانت تستند إلى فكرة المهدي المنتظر، كما امتازت بصيغتها المحلية البربرية العميقة، وهي فوق ذلك تمثل معركة قبلية داخلية قامت بين فريقين من القبائل البربرية وهما قبيلة لمتونة (المرابطين) وقبيلة هرغة من مصمودة (الموحدين). إضافة إلى هذا العامل القومي لعب العامل الديني دوراً مهمّاً في النزاع، فقد كان الجهاد في سبيل الله وإحياء السُنّة، ومحاربة البدع من أهم شعارات المرابطين. وكان شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز شعارات الموحدين[1].

زعيم الموحدين الروحي والسياسي الأول محمد بن تومرت[2]، من بلاد السوس، وُلد في عام 485هـ/ 1092م على وجه التقريب، بضيعة (إيجلي آن وارغن)[3]، وهو من قبيلة هرغة، إحدى فروع قبيلة مصمودة، وهو من قوم يُعرَفون بإسم (أسرغين)[4].

---

(1) المراكشي: المعجب، ص 245. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 157.

(2) تومرت كلمة بربرية: آتومرت أي يا فرحتي.

(3) معناها بالبربرية: الواحة الخضراء.

(4) كلمة بربرية معناها الشرفاء.

ولصاحب الدعوة الموحّدية محمد بن تومرت نسبٌ متصلٌ بآلبيت العلوي وجد بخطّه[5]، وأنصاره لا يعارضون هذا النسب لتبرير فكرة المهدوية لديه[6]، بينما المؤرخ آبن أبي زرع يرتاب من هذا النسب العلوي[7]. ويميل بعض المؤرخين المحدثين إلى تجريد محمد بن تومرت من نسبته النبوية، إذ يرونه وقد ادّعى المهدية مضطرّاً لأن ينتحل النسب العلوي، ويؤكدون نسبه البربري المعروف[8].

اتجَهَ محمد بن تومرت إلى الدراسة والعلم من بداية الأمر، فدرس في بلده ثم رحل إلى مراكش ومنها ذهب إلى بلاد الأندلس، ثم رجع ثانية إلى المغرب، ومنه شرع في رحلته المشرقية في عام 506هـ/ 1112 ـ 1113م[9]. وتفاصيل هذه الرحلة موضع شك كبير، فآبن تومرت يقول: إنه وصل إلى بغداد، ولقي أبا حامد الغزالي ودرس عليه، ويبدو أنه لم يلق الغزالي ولا درس عليه، لأن الغزالي ترك بغداد في عام 500هـ/ 1106م، ثم توفي عام 505هـ/ 1111م في طوس، فإذا كان محمد بن تومرت قد غادر المغرب إلى المشرق في عام 506هـ فهو قطعاً لم يلق الغزالي، بل نشك أنه قد بلغ بغداد، وغاية ما نستطيع القطع به، هو أن محمد بن تومرت وصل إلى الإسكندرية ودرس على بعض علمائها ثم عاد إلى المغرب، فدرس في القيروان وبجاية وحصل جانباً لا بأس به من العلم بِالْفقه[10].

وعندما ندرس حياة محمد بن تومرت نرى كيف أنه وضع كل ما

(5) المراكشي: المعجب، ص 245.

(6) البيدق: أخبار المهدي، ص 21.

(7) روض القرطاس، ص 172.

(8) ينظر: علام: الدولة الموحدية، ص 45. الدعوة الموحدية، ص 44 وما بعدها. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 160 وما بعدها.

(9) المراكشي: المعجب، ص 245. يجعل رحلته عام 501هـ، وعمره آنذاك 16 سنة، ولا يجزم لقاءه بالغزالي.

(10) ينظر: المراكشي: المعجب، ص 246. ابن القطان: نظم الجمان، ص 21. =

حصّله من العلم في خدمة أغراضه السياسية. وتمدّنا الروايات التاريخية بمعلومات عن حياته، فتصفه بٱلزهد وٱلتقشف، وأنه كان حصوراً لا يأتي النساء، كما أنه لم يتخذ وهو في أوج سلطانه لقب الخلافة أو السلطنة أو الإمارة، وإنما زعم أنه «المهدي». وفكرة المهدوية هي من أهم عقائد محمد بن تومرت[11]، والتي تمسكت بها دولة الموحدين، ما عدا فترات قليلة[12].

بعد أن ٱستقر محمد بن تومرت بين قومه، أنشأ رباطاً للعبادة، وألّف عقيدته التوحيدية باللسان البربري حتى يسهل فهمها على قومه البربر[13]. وبعدها انهالت عليه القبائل معلنة الولاء له، ولما وثق من قومه أخذ يبشر بفكرة المهدي ويجمع الأحاديث النبوية التي نسبها أصحاب نظرية المهدوية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشرحها للناس، وبعد ذلك بايعه أصحابه على أنه المهدي المنتظر في حفل كبير[14].

وجعل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم عقائده، وبها استطاع تهذيب أخلاق أتباعه، وعلّمهم النظام والطاعة وٱحترام صغيرهم لكبيرهم، ومحبة الوالدين، والجهاد في سبيل الله، والتضحية بالنفس والمال في سبيل الحق. وبذلك أوجد ٱبن تومرت جيلاً من أنصاره يستطيع به أن يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن مُلِئت جوراً، وبذلك تفانوا في طاعته وخدمته. فلمّا استوثق ٱبن تومرت من إخلاص أتباعه، اتخذ منهم دعاة يشتركون معه في القيام بالأمر بٱلمعروف والنهي عن المنكر، وٱجتذاب

= مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 169 وبعدها. علام: الدعوة الموحدية بالمغرب، ص 81 وبعدها. الدولة الموحدية، ص 48 وبعدها. مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 177 ـ 178.

(11) ينظر: مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 205.

(12) عن هذه الفكرة ينظر: مؤنس: معالم، ص 178.

(13) علام: الدولة الموحدية، ص 64.

(14) المراكشي: المعجم، ص 254 ـ 255.

القبائل للانخراط في سلك الدعوة الموحّدية، كما ٱستخدم ٱبن تومرت الرسائل ذات الأسلوب الجذّاب في استمالة رؤساء القبائل لدعوته[15].

وعقيدة التوحيد من عقائد ٱبن تومرت المهمّة، وقد ٱتخذ شعار التوحيد، وذلك يقابل شعار التجسيم الذي قال به المرابطون. والتجسيم معناه إعطاء الله تعالى صورة مادية أو ملموسة[16]. ومجمل القول إن منهج محمد بن تومرت التوحيدي يتألّف من عدة عناصر: فهو معتزلي في تحليل فكرة تنزيه الله تنزيهاً مطلقاً عن أي شائبة، وهو حزمي (مذهب ٱبن حزم الأندلسي) في الوقوف عند نص القرآن والسُّنّة وإجماع المسلمين، وهو معتزلي أشعري في تأويل الآيات المتشابهات في القرآن، وهو إمامي من حيث جعله الإمامة ركناً سادساً للإسلام[17].

وبعد أن تأكد محمد بن تومرت من تكوين جماعة مخلصة له، انتقل بهم إلى موضع في قلب جبال الأطلس قرب منابع وادي نفيس ويُعرَف بـ (تينملل)[18].

وفي نفس الوقت أخذ يرتّب أنصاره طبقات بحسب إخلاصهم له، وحاول الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: تينملل دار الهجرة، وقسّم أصحابه إلى طائفتين كأنهم المهاجرون والأنصار من الصحابة. وأصحاب محمد بن تومرت الأوائل هم طبقة العشرة، وهم أول من بايعه وآمن بأنه المهدي المنتظر[19].

والأنصار هم طبقة الخمسين وهم الطبقة الثانية من أتباعه[20]. ومن ثم

(15) علام: الدعوة الموحدية، ص 119 ـ 120.

(16) ينظر: مؤنس: معالم، ص 180. علام: الدعوة الموحدية، ص 134 وبعدها.

(17) البيذق: أعز ما يُطلَب، ص 240 ـ 241. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 203 ـ 204.

(18) المراكشي: المعجب، ص 254.

(19) ابن القطان: نظم الجمان: ص 30.

(20) علام: الدولة الموحدية، ص 68. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، 231 ـ 232.

طبقة السبعين، وبعدها طبقة الطلبة وطبقة الحفاظ وطبقة أهل الدار، أما الطبقات الأخرى من السابعة إلى الثالثة عشرة، فهي طبقات القبائل، وقد هدف محمد بن تومرت في تنظيم زعماء القبائل في هذه الطبقات لكي يضمن ولاءهم، وبالتالي ولاء قبائلهم، كما هدف إلى نقل ولائهم من القبيلة إلى الطبقة وبالتالي للنظام الموحدي[21].

وهكذا نجد محمد بن تومرت يصبح سيّداً مطاعاً ومرهوب الجانب في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقّاً، وتخاف منه خوفاً شديداً، حتى كان يأمر الرجل من أتباعه بأن يقتل صاحبه أو أخاه أو أباه فينفّذ الأمر دون تردد[22]. وبعد ذلك، وبخاصة بعد اتخاذ محمد بن تومرت لقب المهدي، أمر أحد أتباعه في القيام بعملية تصفية جسدية بشعة، يقضي فيها على كل من يشك في ولائهم أو في تصديقهم بأنه المهدي المعصوم حقّاً. فيرتّب معه خدعة تسمى بالتمييز، أي تمييز الصالح من غيره ـ وكان مصير غير الصالح القتل، فمات في هذا التمييز ألوف من الأبرياء. أحسّ محمد بن تومرت بعد ذلك أن أمر جماعته قد صفا له تماماً، وأنه يستطيع أن يقوم بالخطوة الحاسمة في تحقيق أهدافه السياسية، وكان ذلك في عام 519هـ[23].

تكوين دولة الموحدين وتوسّعها:

بدأت دولة الموحدين بالتوسع والعمل على إسقاط دولة المرابطين خلال مرحلتين، وهما:

المرحلة الأولى: مرحلة محمد بن تومرت 515 ـ 524هـ

بعد أن ترك المهدي بن تومرت مراكش، وبخاصة بعد أن أفحم أمير

---

(21) ينظر: ابن الخطيب: الحلل، ص 89. المراكشي: المعجب، ص 255. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 233 وبعدها. علام: الدولة الموحدية، ص 67 وبعدها.

(22) المراكشي: المعجب، ص 259. مؤنس: معالم، ص 181.

(23) ابن عذاري: البيان، 4/ 68 ـ 69.

المرابطين علي بن يوسف وفقهاءه[24]، ذهب إلى السوس وأقام رباطاً للعبادة في تينملل، وبدأ يبث الدعاية ضد المرابطين، ودعا إلى شق عصا الطاعة ضدهم[25]، ويبدو أن هذا الأمر استغرق الأعوام الثلاثة 515 ـ 518هـ[26].

بعد أن هيّأ ٱبن تومرت أتباعه لمحاربة المرابطين، وصلت أخباره إلى علي بن يوسف الذي أرسل والي ٱلسّوس أبو بكر بن محمد اللمتوني أو غيره[27]، بجيش كبير تمكّن الموحدون من دحره وذلك في شعبان من عام 516هـ/ 1123م وكان النصر العسكري الأول للموحدين ضد المرابطين[28]. أرسل أمير المرابطين علي بن يوسف بعد هذه الهزيمة جَيشَيْن آخرَيْن لقتال المهدي وأتباعه مُنِيَا بالهزيمة أيضاً، وكانت نكبة جديدة للمرابطين[29]. وعندئذٍ بدا لأمير المرابطين أن المسألة ليست فتنة داخلية، بل إن أمر المهدي الموحّدي أخطر من ذلك، وأن محاربة الموحدين أضحت بالنسبة للدولة المرابطية، معركة حياة أو موت[30].

خلال السنوات من 516 ـ 518هـ/ 1122 ـ 1124م بسط المهدي سلطانه على منطقة السوس كلها، وقد أورد البيذق تسع غزوات في هذه الفترة للمهدي ضد المرابطين[31]. وخلال عامي 518 ـ 520هـ وقعت بين الموحدين والمرابطين عدة معارك، هدفَ منها أمير المرابطين علي بن يوسف السيطرةَ

(24) البيذق: أخبار المهدي، ص 67.
(25) علام: الدولة الموحدية، ص 72 وبعدها.
(26) ابن الأثير: الكامل: 8/ 296.
(27) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 245.
(28) ابن الخطيب: أعمال: 3/ 270. ابن خلدون: العبر: 6/ 228.
(29) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 245.
(30) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 179.
(31) أخبار المهدي: ص 73 ـ 78، ص 79 ـ 80. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 248. أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص 50 وبعدها.

على حصن المهدي المنيع تينملل، لكن قوات المرابطين مُنيَت بالفشل[32].

وفي عام 520هـ/ 1126م قاد أبو محمد البشير الونشريشي ـ أحد أصحاب المهدي العشرة والمخلصين له[33] ـ جيشَ الموحدين وهاجم أراضي المرابطين، فانهزمت القوات المرابطية أمامه، ووصل الموحدون إلى أسوار مدينة مراكش، ثم ارتدّ قائدهم أبو محمد البشير عائداً إلى الجبل. وعندها أمر علي بن يوسف الأخذ بكافة الاحتياطات من أجل اتقاء حرب المفاجأة التي درج عليها الموحدون[34]. إزاء هذا الوضع، أصبحت مراكش عاصمة الدولة المرابطية في خطر مستمر أمام هجمات الموحدين، وعليه لا بدَّ للمرابطين إذا أرادوا البقاء والاستمرار في الحكم أن يضعوا حدّاً لمثل هذه الأخطار. فتهيّأ أمير المرابطين علي بن يوسف لدفع الخطر عن مراكش، ومحاولة الانقضاض على الموحدين بتعبئة عسكرية كبيرة أوّلاً، ومراسلة المهدي بن تومرت بالكفّ عن سفك الدماء وإثارة الفتنة ثانياً[35].

لم تلق رسالة أمير المرابطين أُذُناً صاغية لدى المهدي الموحّدي، الذي من جانبه جمع أتباعه وأعوانه وهيأهم إلى معركة حاسمة ضد المرابطين، وذلك في عام 524هـ/ 1130م، فقاد الجيشَ الموحدي أبو محمد البشير وعبد المؤمن بن علي تلميذ المهدي المُخلِص وخليفته.

سار الجيش الموحدي نحو مراكش، وفي الطريق انتصر على الجيش المرابطي بقيادة الأمير الزبير بن علي بن يوسف، ثم واصل زحفه حتى بلغ مراكش ففرض عليها الحصار، وخاطب عبدُ المؤمن خليفةُ المهدي، أميرَ المرابطين علياً بن يوسف يدعوه إلى الطاعة، فردّ عليه أمير المرابطين يحذّره عاقبة مفارقة الجماعة ويذكّره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة[36].

(32) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 184.
(33) ابن أبي دينار: المؤنس، ص 112.
(34) ابن عذاري: البيان: 4/ 75. ابن خلدون: العبر: 6/ 228.
(35) المراكشي: المعجب، ص 260.
(36) أبو رميلة: علاقات، ص 52.

استمر الموحدون على حصار مراكش زهاء أربعين يوماً، طلب خلالها علي بن يوسف النجدة من كافة وُلاته على أنحاء بلاد المغرب، فساروا إليه بقوّاتهم، فقامت معركة البحيرة[37] بين الطرفين خارج مراكش، فحلّت الهزيمة بالموحّدين وسقط أكثرهم قتلى مع قائدهم البشير، فلم ينج منهم إلاّ عدد قليل انسحب بهم عبد المؤمن حين خيّم الظلام وعاد إلى حصن تينملل[38].

وعلى إثرها توفي المهدي بن تومرت في رمضان من عام 524هـ/ 1130م، وتولى الأمر بعده عبد المؤمن بن علي وهو من قبيلة كومية المقيمة بساحل تلمسان[39].

المرحلة الثانية: مرحلة عبد المؤمن بن علي 524 ـ 542هـ:

خلال الأعوام 524 ـ 526هـ اهتمّ عبد المؤمن بن علي بشؤون الموحدين، وجَمَع شملَهم وألّف قلوبهم، وهيأهم لقتال المرابطين[40]. وقد انتهز المرابطون خلال هذه الفترة ارتباك أمر الموحدين فهاجموهم، إلاّ أن الجيش المرابطي مُنيَ بالهزيمة، فشاع خبره في بلاد المصامدة فأخذت الجموع تتوافد على الموحدين وتنضم إليهم[41]. وفي ربيع الأول أو شوال من عام 526هـ/ 1132م سار عبد المؤمن بن علي إلى ناحية تازاكورت وهزم الحامية المرابطية فيها وقتل قائدها[42]. ثم هاجم وادي درعة واستولى عليه

---

(37) البحيرة بلغة المصامدة تعني البستان: مراجع الغناي: قيام، ص 258.

(38) روض القرطاس: ص 178 ـ 179. الحلل، ص 95 ـ 96. الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 4.

(39) أبو رميلة: علاقات، ص 52.

(40) ابن عذاري: البيان: 4/ 84.

(41) أبو رميلة: علاقات، ص 54.

(42) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 226.

بعد أن دحر جيوش المرابطين هناك ودخلت قبائل كثيرة في طاعة الموحّدين[43].

وحاول أمير المرابطين علي بن يوسف التعاون مع بعض قادة الموحدين وهو عبد الله بن ملوية الزناتي، من أجل السيطرة على حصن الموحدين المنيع تينملل، إلاّ أن هذه المحاولة باءت بالفشل[44].

ظل عبد المؤمن بن علي يحارب المرابطين في منطقة السوس فترة طويلة، ولكنها كانت حروباً قَبَلية في أغلب الأحيان لا ترقى إلى مستوى المعارك المنظمة، إذ كانت أقرب شيء إلى حرب العصابات. ويبدو أن الدولة المرابطية لم تكن تنظر إلى حركة الموحدين نظرة جدّية، ولم تدرك أنها خطر يهدد كيانها، ولا سيما بعد أن نزلت بهم هزيمة البحيرة الساحقة[45]. كل هذه الأمور جعلت الدولة المرابطية لا تفكّر بصورة حاسمة في سحق الموحدين دفعة واحدة، فكانت تكتفي بإرسال السرايا الصغيرة لتتعقب عبد المؤمن بن علي في منطقة السوس التي مكث بها إلى عام 534هـ تقريباً لتحد من نشاطه. وهكذا ظل عبد المؤمن بن علي ينشر أمر الموحدين ويراوغ سرايا المرابطين في السوس ثم في الوسط ثم في الشمال حتى قَوِيَ نفوذه[46].

يوجد شيء من الغموض والتناقض حول أعمال عبد المؤمن بن علي وتحركاته خلال الأعوام 528 ـ 533هـ، ولكن يمكن ملاحظة أن الربرتير قائد المرابطين المشهور كان له دور كبير في محاربة الموحدين في هذه الفترة. ومن ناحية أخرى سيطر الموحدون على مدينة تارودانت قاعدة السوس الأدنى، وعلى كثير من القلاع والحصون، ثم دخلت في هذه الفترة قبيلة بني

(43) البيذق: أخبار المهدي، ص 85. ابن أبي دينار: المؤنس، ص 114.
(44) علام: الدولة الموحدية، ص 109 ـ 110.
(45) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 291.
(46) علام: الدولة الموحدية، ص 111.

ييغر ـ من قبائل الأطلس الكبير ذات بأس وشجاعة ـ في طاعة الموَحّدين[47].

وفي عام 533هـ تولى تاشفين بن علي قيادة جيوش المرابطين في المغرب[48]، وقد لحقت به وبقبيلة جزولة هزيمة مُنكِرة، على إثرها دخلت هذه القبيلة في طاعة الموحدين وغيرها من القبائل[49]. وفي عام 534هـ خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم لقتال الموحدين ومعه فرقة من الإسبان يقودها الربرتير، ودارت معارك ضارية بين الطرفين، ارتدّ على إثرها تاشفين إلى مراكش، وعاد الموحدون إلى حصن تينملل[50].

خلال الأعوام 535 ـ 541هـ انصرف عبد المؤمن عن منطقة السوس، وخرج بجيشه من حصن تينملل عام 535هـ/ 1140م وسار إلى أملاك المرابطين بِالمغرب الأقصى والأوسط، وإخضاع القبائل للدعوة الموحّدية طوعاً أو كرهاً بعيداً عن مراكش مركز الجيش المرابطي القوي، وقد أنفق في غزوته هذه حوالي سبع سنوات وأبدى فيها ضروب الحيلة والمهارة الحربية، مما جعل الجيش المرابطي يحلّ به الوهن والإعياء دون أن يكثر من التعرض له في معارك مهمة[51].

خلال هذه الرحلة الطويلة دخلت القوات الموحدية منطقة فازاز، وتوافد إليها سكان المناطق المجاورة يعلنون الطاعة. كما استسلمت قواعد المرابطين في جبال الأطلس الأوسط للقوات الموحّدية، بعد أن عصفت بها الرياح والأمطار[52].

---

(47) ينظر: البيذق: أخبار المهدي، ص 88. علام: الدولة الموحدية، ص 112 وبعدها.

(48) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 228.

(49) أبو رميلة: علاقات، ص 57.

(50) ابن عذاري: البيان: 4/ 98.

(51) علام: الدولة الموحدية، ص 117 وبعدها.

(52) البيذق: أخبار المهدي، ص 89 ـ 90.

كانت القوات المرابطية بقيادة تاشفين والربرتير تلاحق هذه المسيرة الموحدية، ولو أنها عرقلت سير القوات الموحدية أحياناً، إلاّ أن الموحدين وصلوا إلى قلعة باديس الواقعة على ساحل البحر المتوسط، ودخل في طاعتهم أهل تلك الأنحاء، ثم ساروا إلى ثغر المزمة (الحسيمة الحالية)، ومنها إلى جبل تمسامان[53]، بينما عادت الجيوش المرابطية إلى فاس، ورَابطَ الربرتير في تطوان على ساحل البحر المتوسط[54].

وبعد ذلك دخلت القوات الموحدية مدينة مليلة ثم سارت صوب الشرق متوغلة في أرض الجزائر، فدخلت قبيلة كومية ـ التي ينتسب إليها عبد المؤمن ـ وما جاورها من القبائل في طاعة الموحدين[55]. ومن هناك أرسل عبد المؤمن بن علي قوّاته إلى قبائل مدينة وهران ومدينة تلمسان والتي أعلنت خضوعها للموحدين[56].

ويبدو لنا من سير الحوادث هذه، أن عبد المؤمن بن علي أدرك أن بقاءه في أراضي المغرب الأقصى ربما يؤدي بحركته إلى الإبادة، لا سيما وأن القوات المرابطية في فاس ومراكش حالت دون توسعه، كما نرى من خط سيره أنه هدف الوصول إلى أراضي قبيلته ليجد عند أهله وعشيرته العون والمساعدة. وفي هذه الفترة تخدم الظروف مرة أخرى الموحدين، حيث تُنْكَبُ دولة المرابطين بوفاة أميرها علي بن يوسف عام 537هـ/ 1143م[57]. ويتولى الإمارة من بعده أبنه الأمير تاشفين، الذي توزعت جهوده بين رعايته لشؤون الحكم الداخلية، وبين المحافظة على هيبة الدولة المرابطية في الأندلس بالذات، وأن يقيها من هجمات وعدوان الإسبان، وبين وضع

(53) ابن عذاري: البيان: 4/ 100.
(54) علام: الدولة الموحدية، ص 172.
(55) ابن عذاري: البيان: 4/ 100.
(56) البيذق: أخبار المهدي، ص 94. علام: الدولة الموحدية، ص 123.
(57) ابن عذاري: البيان: 4/ 100 ـ 101.

الخطط العسكرية المناسبة للقضاء على حركة الموحدين المتواجدة في أرض الجزائر[58]. وممّا زاد في حراجة مركزه، هجوم النورمان على مدينة سبتة في عام 538هـ، وتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة (علي بن ميمون) وأنزل بِالنُّورمان الهزيمةَ بعد خسارة فادحة في الطرفين[59]. ويمكن القول بأن الموحدين فشلوا في جعل بلاد السوس قاعدة تنطلق منها جيوشهم لضم منطقة المغرب الأقصى، فساروا إلى منطقة المغرب الأوسط، وٱتخذ عبد المؤمن من مضارب قبيلته كومية مقرّاً جديداً لأنطلاق جيوشه من أجل القضاء على دولة المرابطين. لا سيما وأن هذه المنطقة تعج بالكثير من القبائل التي لم تفلح دولة المرابطين من بسط نفوذها عليها، أمثال قبيلة جزولة[60].

وفي الوقت الذي فرض عبد المؤمن سيطرته على قبيلة جزولة وجرّدها من السلاح[61]، استفاد من الانشقاق الذي حصل بين قبيلتَيْ لَمْتونة ومسوفة وهما عماد العصبة المرابطية، حيث أعلن زعماء مسوفة ولاءهم للموحدين[62].

وفي الوقت نفسه، كان الربرتير القائد المرابطي يراقب تحركات الموحدين، وهزمهم عند محلة الصخرتين من أحواز تلمسان[63]، ولكن هذا النصر تبعته هزيمة منكرة للقوات المرابطية وقتل الربرتير في عام 539هـ/ 1144م[64]، وبذلك يُعتبر مقتله الضربة الثانية التي أصابت المرابطين بعد موت الأمير علي بن يوسف، فقد زاد من فداحة العبء الثقيل الملقى على

(58) علام: الدولة الموحدية، ص 125.
(59) ابن عذاري: البيان: 4/ 103.
(60) علام: الدولة الموحدية، ص 126.
(61) البيذق: أخبار المهدي، ص 96.
(62) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 245.
(63) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 93.
(64) ابن عذاري: البيان: 4/ 103.

عاتق الأمير تاشفين[65]. كان عام 539هـ عاماً حاسماً في تاريخ الدولة المرابطية حيث سقطت فيه مدينة وهران بأيدي الموحدين، وعلى إثرها حاول الأمير تاشفين الفرار عن طريق البحر، فسقط به فرسه في هوّة سحيقة وذلك في 27 رمضان من عام 539هـ/ 22 شباط 1145م[66]. وعلى إثر ذلك استسلمت مدينة تلمسان للقوات الموحدية بعد أن فرت عنها الحامية المرابطية إلى فاس[67].

أصبح الطريق مفتوحاً إلى مدينة فاس أمام القوات الموحّدية التي سارت إليها قبل أن يتمكن المرابطون من إحكام تحصين المدينة، واستهدف خليفة الموحدين عبد المؤمن حصار مدينة فاس ومدينة مكناسة في آنٍ واحد، لأن سقوطهما يفتح الطريق أمام الموحدين إلى مراكش[68].

سقطت مدينة فاس بعد حصار عنيف دام تسعة أشهر وذلك في شهر ذي القعدة من عام 540هـ/ نيسان 1146م[69]. وقبيل سقوط فاس سقطت مدينة مكناسة، وافتتح الموحدون مدينة سَلاَ وقصبة الرباط[70]، وفي الوقت نفسه أعلن قائد الأسطول المرابطي (علي بن عيسى بن ميمون) ولاءه للموحدين، كما دخلت مدينة سبتة في طاعتهم[71]. وقبل مسير عبد المؤمن إلى حصار مدينة مراكش، أرسل قواته إلى قبائل برغواطة النازلة حول مدينة أزمور فأخضعها، وبعدها يَمّم الموحدون شطر مراكش فحاصروها في الفاتح من محرم عام 541هـ/ حزيران 1146م، وقد خدمتهم ظروف كثيرة في عملية

(65) علام: الدولة الموحدية، ص 127.
(66) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 194 ـ 195. ابن الخطيب: الإحاطة: 1/ 462.
(67) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 189. علام: الدولة الموحدية، ص 133.
(68) البيذق: أخبار المهدي، ص 99 ـ 100. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 257.
(69) ابن الخطيب: الحلل، ص 112. مراجع الغناي: ص 299.
(70) ابن خلدون: العبر: 2/ 23.
(71) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 259. مراجع الغناي: قيام: ص 4 ـ 3.

الحصار هذه، حيث كان أمير المرابطين (أبو إسحق إبراهيم بن تاشفين) صبيّاً لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وكان الشعور عامّاً بأن مصير الدولة المرابطية أضحى أمراً مقضيّاً(72).

استمر الحصار تسعة أشهر من المحرم إلى أواسط شوال من عام 541هـ ذاقت فيها المدينة الأمرّين، ففي 18 شوال من عام 541هـ/ 24 آذار 1147م دخل الموحدون المدينة، وقتلوا أمير المرابطين وأعوانه(73). وبذلك تنهار الدولة المرابطية بعد أن سجلت صفحات رائعة في إعلاء كلمة الإسلام بالأندلس، وأنشأت دولة كبرى شملت الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط(74).

وبعد أن تمّ للموحدين القضاء على دولة المرابطين والسيطرة على ممتلكاتها، ثم القضاء على القبائل الثائرة والزعماء المتمردين، أخذ خليفة الموحدين عبد المؤمن ورجاله يفكرون في تنفيذ المرحلة الثانية من مخططهم الرامي إلى السيطرة على كل بلاد المغرب العربي. وفي الواقع كانت بلاد الأندلس في هذا الوقت تأخذ حيزاً مهماً من مخطط الموحدين(75).

أمّا التوسع الموحدي في بلاد الأندلس، فقد ابتدأ منذ أن جاء علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي في مياه قادس، وقدّم طاعته للموحدين في عام 540هـ أثناء حصار مدينة فاس. وقد قام هذا القائد بالخطبة في قادس بالأندلس بأسم خليفة الموحدين فكانت أول خطبة للموحدين بالأندلس(76)، ثم بدأت المراحل الأخرى والتي سوف نذكرها.

---

(72) علام: الدولة الموحدية، ص 137. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 260.

(73) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 194. علام: الدولة الموحدية، ص 138 ـ 139. أبو رميلة: علاقات الموحدين، ص 67.

(74) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 265.

(75) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 308.

(76) ابن خلدون: العبر: 6/ 233. أبو رميلة: علاقات الموحدين، ص 84.

وأمّا توسع الموحدين في بلاد المغرب العربي، فقد شمل بالذات مملكة بني مناد الصنهاجية بفرعيها آل حماد في الجزائر وآل زيري في تونس.

وقد بدأ الضعف يدب في جسم هذه المملكة بعد الزحف الهلالي إلى منطقة المغرب العربي خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فأمام هذا الزحف بدأت الإمارة الزيرية في الانهيار، وأنتهى الأمر بالأمير الزيري أن أصبحت سلطته لا تتجاوز أسوار مدينة المهدية[77]، وفي وسط هذا الجو المشحون بالاضطرابات، جاءت أساطيل صقلية النورماندية وسيطرت على الساحل الأفريقي الممتد من طرابلس الغرب شرقاً إلى مدينة بونة غرباً، وسيطروا على المهدية عاصمة آل زيري عام 543هـ/ 1148م، وخرج آخر أمراء بني زيري هارباً بنفسه. وسكت عرب المغرب على مضض، إلاَّ أنهم ثاروا ضد النورمان بعد وفاة روجار ملك صقلية عام 549هـ/ 1154م، ولم يبق بيد النورمان إلاَّ سوسة والمهدية. ولمّا ترامت هذه الأخبار إلى خليفة الموحدين ـ بالإضافة إلى أن مسلمي المغرب الأدنى جاؤوا مستنجدين بالموحدين ـ قرر عبد المؤمن فتح المغرب الأدنى، ويتطلب هذا الأمر المرور خلال أراضي آل حماد في الجزائر، والتي تميزت هذه الإمارة بالفوضى والاضطراب. ففي أوائل عام 546هـ تحرك الجيش الموحدي نحو المغرب الأوسط. وفق خطة عسكرية مدروسة، فباغت مدينة جزائر بني مزغناي (الجزائر حاليّاً) وهرب حاكمها إلى أبيه في العاصمة بجاية، وأخبره سقوط مدينته بأيدي الموحدين، فأسقط في أيدي الأب الذي سلّم المدينة للموحدين، ورضي بالإقامة في منطقة المغرب الأقصى. كما سيطر الموحدون أيضاً على مدينة قلعة حماد بعد معركة حامية قادها عبد الله أبن خليفة الموحدين وذلك في عام 547هـ[78]. وحاول عبد الله هذا والي

(77) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 339.

(78) ينظر: عويس: دولة بني حماد، ص 194 وبعدها.

المغرب الأوسط فتح تونس، إلاَّ أن أميرها تصدى له. فهنا قرر خليفة الموحدين فتح المغرب الأدنى بنفسه، فسار في صفر من عام 554هـ/ 1159م نحو تونس فسلّمت أمرها للموحدين ثم سار الجيش الموحدي إلى المهدية ووصلها في رجب من عام 554هـ/ 1159م وقد تحصن النورمان بداخلها، ففرض عبد المؤمن الحصار عليها، وبعدها جاءت وفود أهل طرابلس الغرب وجبل نفوسة وسوسة وصفاقس، وقدموا طاعتهم للموحدين فقُبِلت منهم. أما المهدية فدخلها الموحدون عام 555هـ/ 1160م، بعد أن نزل النورمانديون المتحصنون فيها على الأمان الذي أعطاهم إياه أمير الموحدين ونقلهم على سفنه إلى صقلية(79). وقد عُرِف عام (555هـ) في تاريخ المغرب بسَنَة الأخماس، وهي سَنَةُ توحيد المغرب كله من المحيط الأطلسي إلى قفصة تحت راية الموحدين(80). كما هي سنة عبور الجيش الموحدي إلى الأندلس وبناء مدينة جبل طارق (حصن جبل الفتح)(81).

علاقاتهم بالأندلس:

تتمثل علاقات الموحدين بالأندلس بالأمور الآتية:

أ ـ عبور الموحدين إلى الأندلس:

أول جيش موحدي عبر إلى الأندلس كان في عام 541هـ، وذلك للإطاحة بسلطان المرابطين فيها أولاً، بالإضافة إلى القضاء على الزعامات المحلية التي برزت بالأندلس في خاتمة عهد المرابطين والتي تمثلت بالحركات المحلية التي ذكرناها سابقاً، والإسلام في الأندلس، مع حماية

(79) ينظر: روض القرطاس، ص 264. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 308 وبعدها، ص 339، 343. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 282. أبو رميلة: علاقات، ص 70، وبعدها. السلاوي: الاستقصا: 2/ 134.

(80) مؤنس، معالم، ص 190.

(81) ابن صاحب الصلاة: المنّ بالإمامة، ص 129 وبعدها. السلاوي: الاستقصا: 2/ 135.

كيان الموحدين في عُدْوَة المغرب من أي هجوم مرابطي محتمل من الأندلس، كانا في مقدمة الأسباب لهذا العبور. وممّا حفّز الموحدين على هذا العبور الدعوات الرسمية والشخصية التي وصلتهم من العلماء والحكام المحليين الذين رحبوا بقدوم الموحدين وفي مقدمتهم علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول في قادس، وزعيم حركة قرطبة اّبن حمدين القاضي، وزعيم حركة مدينة شريش اّبن عزون وغيرهم كثير[82]. نتيجة هذا الأمر، هيأ خليفة الموحدين عبد المؤمن ثلاثة جيوش عبرت إلى الأندلس في عام 541هـ/ 1146م وسيطرت على مدن الجنوب وبخاصة مدينة طَرِيف والجزيرة الخضراء، كما أعلن أهل شريش ولاءهم للموحدين، ولذا سمّاهم الموحدون تقديراً لذلك (السابقون الأولون)[83].

ثم سارت القوات الموحدية إلى غربي الأندلس، ففتحت مدن لبلة وبطليوس وشلب وباجة ويابرة بكل سهولة حيث قدّم حُكّامها الطاعة للموحدين. إلاّ أن المدينة المهمة التي امتنعت على القوات الموحدية في غربي الأندلس، والتي شددت عليها هذه القوات الحصار بحراً وبراً هي مدينة إشبيلية، إلاّ أنها استسلمت للموحدين في شعبان من عام 541هـ/ 1147م بعد أن أُبيدت بعض القوات المرابطية فيها[84]، وفرّ بعضها إلى مدينة قرمونة، وكُتب بهذا الفتح إلى عبد المؤمن[85].

وتزعمت مدينة إشبيلية مدن غربي الأندلس ـ عدا شريش ـ التمرّدَ ضد الحُكم الموحدي الجديد، وطردت القوات الموحدية المتواجدة فيها. ولما وصلت هذه الأخبار إلى عدوة المغرب أرسل الخليفة عبد المؤمن جيشاً

(82) أبو رميلة: علاقات الموحدين، ص 196 وبعدها.

(83) السلاوي: الاستقصا: 2/ 113.

(84) ابن الأثير: الكامل: 11/ 47. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 262.

(85) السلاوي: الاستقصاء: 2/ 113 ـ 114.

جديداً عبر إلى الأندلس وأعاد السيطرة على معظم مدن غربي الأندلس[86]. واستطاع الجيش الموحدي من السيطرة على مدينة قرطبة بعد تعاون وتفاهم مع حاكم قرطبة (يحيى بن غانية المرابطي) الذي فضّل التعاون مع الجيش الموحدي من أجل التخلص من خطر الإسبان وبالذات ملك قشتالة الذي أرهق الحاكم المرابطي[87]، فدخلت القوات الموحدية قرطبة في عام 543هـ/ 1148م[88].

ومن مدينة قرطبة سارت القوات الموحدية فاتحة المدن والحصون المجاورة في وسط الأندلس، ففتحت مدن أبدة وبياسة، وكذلك فتحت حصون شلير وأركش وبرشانة[89]، كما دخلت القوات الموحدية مدينة مالقة في عام 547هـ/ 1152م بعد أن ثار سكان المدينة وقتلوا حاكمهم الذي فضّل التعاون مع الإسبان من أجل ردّ خطر القوات الموحدية[90].

وبقيت مدينة غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس، ممتنعة على القوات الموحدية بزعامة حاكمها المرابطي (ميمون بن بدر اللمتوني) الذي واصل مقاومته وعناده بعدم الاستسلام للموحدين إلى عام 551هـ/ 1156م، وبعدها تنازل عن مدينة غرناطة للموحدين بعد حصوله على الأمان من خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي[91].

بعد أن أحكمت القوات الموحدية سيطرتها على مدن وسط الأندلس، أصرّت هذه القوات على استرجاع مدينة ألمرية المهمة والتي سيطر عليها

(86) ابن خلدون: العبر: 6/ 234. علام: الدولة الموحدية، ص 184.

(87) السلاوي: الاستقصاء: 2/ 114 ـ 115.

(88) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 191.

(89) ابن أبي دينار: المؤنس، ص 111. أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 229.

(90) ابن الخطيب: أعمال، ص 225. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 319.

(91) ابن خلدون: العبر: 6/ 235. السلاوي: الاستقصا: 2/ 115. علام: الدولة الموحدية، ص 187.

الإسبان عام 542هـ/ 1147م، فجهّز الموحدون جيوشهم البرّية والبحرية وحاصروا المدينة بقيادة أبي سعيد بن عبد المؤمن. وبعد حصار دام سبعة أشهر فتح الموحدون المدينة ودخلوها في أواخر عام 552هـ/ 1157م، بعد أن فشلت جهود الممالك الإسبانية وأعوانها من القوات الأوروبية في ٱسترجاع المدينة[92].

ب ـ علاقات الموحدين بالإمارات الأندلسية المستقلة:

1 ـ علاقة الموحدين مع ٱبن مردنيش:

تعاون محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي بالولاء (وهو من المولدين)[93] مع إبراهيم بن أحمد بن همشك، وٱستقلّ بمنطقة شرقي الأندلس، وٱرتمى في أحضان الممالك الإسبانية وبعض الدول الأوربية. ففي عام 543هـ/ 1148م عقد معاهدة صلح مع إمارة جنوة وإمارة بيزة، وتبادل الهدايا مع ملك أنكلترا، وعلى ضوء هذا التعاون لقّبه البابا بصاحب الذّكْر الحميد، وعُرِف أيضاً بٱسم الملك لوبو[94].

كما عقد ٱبن مردنيش محالفات مع ملك قشتالة وملك أرغون وتعهّد بدفع خمسين ألف مثقال ذهب سنوياً إلى كلٍّ منهما، وذلك لتجنّب خطرهما الذي بدأ يهدد بلد الأندلس على ضوء معاهدة تطيلة عام 545هـ/ 1151م بين الملكين الإسبانيين والتي ٱتفقا فيها على تقسيم الأندلس، فكان نصيب ملك أرغون شرقي الأندلس والتي يحكمها بٱسم ملك قشتالة[95].

إزاء تعاون ٱبن مردنيش مع الإسبان ثار عليه أهل شرقي الأندلس،

---

(92) المراكشي: المعجب، ص 280. السلاوي: الاستقصا: 2/ 118. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 263.

(93) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 232 (حاشية 1).

(94) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 109 (حاشية 1).

(95) ابن الخطيب: الإحاطة: 2/ 124. Jeseph A History of Medieval Spain, P. 232 .

وبالذات أهل لورقة وبلنسية، فاستطاع إخماد هذه الثورة، مما أغضب هذا الأمر الدولة الموحدية التي كانت لها علاقة بالثائرين. ولهذا السبب أرسل خليفة الموحدين عبد المؤمن رسالة إلى ابن مردنيش بخصوص هذا الأمر[96]. إلاَّ أن ابن مردنيش تمادى في مهاجمة مدن الأندلس التابعة للموحدين، ففي عام 554هـ/ 1160م سار بقواته من مرسية بالتعاون مع قوات إسبانية، فسيطر على مدينة جيان، ثم واصل سيره إلى مدينة قرطبة ففرض عليها الحصار وقد امتنعت عليه لصمود أهلها وواليها[97]، ثم واصل سيره إلى إشبيلية فحاصرها ثلاثة أيام، ففشل في السيطرة عليها لشدة مقاومتها له[98].

وفي عام 555هـ/ 1160م سار إبراهيم بن همشك - حليف ابن مردنيش - بقواته صوب قرطبة، وشدد عليها الحصار وقتل واليها في كمين دُبّر له، إلاَّ أن المدينة دافعت عن نفسها وأبعدت خطر ابن همشك الذي سار إلى مدينة قرمونة فسيطر عليها[99]، ثم حاول السيطرة على مدينة إشبيلية، إلاَّ أن واليها يوسف بن عبد المؤمن استنجد بوالده، الذي بادر فوراً ببناء قاعدة حربية في جبل طارق عُرِفت باسم مدينة الفتح، أنجز بناءها في شهر ذي القعدة عام 555هـ/ 1160م. وبعد الإنجاز، عَبَر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس وتدارس أمرها مع أعوانه، وقُبَيل رجوعه أمر قُوّاده بمواصلة محاربة ابن مردنيش والقضاء عليه[100].

بدأت القوات الموحدية في الأندلس بمهاجمة ابن مردنيش، واسترجعت منه مدينة قرمونة في مطلع عام 557هـ/ 1161م[101]، كما عزّز

(96) كنون: النبوغ المغربي: 2/ 101 - 103.
(97) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 111.
(98) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 40.
(99) أبو رميلة: علاقات، ص 115.
(100) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 377 وبعدها.
(101) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ، ص 128.

الموحدون قواتهم المرابطة في قرطبة وإشبيلية، فأصبح من العسير السيطرة على هاتين المدينتين من قبل قوات ٱبن مردنيش وحليفه. إلاّ أن الحليف ٱبن همشك سار صوب غرناطة وبالتعاون مع يهود المدينة سيطر عليها، فتحصنت القوات الموحدية في قصبة المدينة واستمرت في المقاومة. وفي الوقت نفسه بعثوا صريخهم إلى الخليفة عبد المؤمن، وكذلك استعان ٱبن همشك بحليفه ٱبن مردنيش. سارت قوات الطرفين صوب غرناطة فكان اللقاء في مرج الرقاد (في ظاهر غرناطة) فانهزمت الجيوش الموحدية وذلك في عام 557هـ، ونكّل ٱبن همشك بأهل غرناطة وبأسرى الموحدين أبشع تنكيل[102]. ولما ترامت أخبار معركة مرج الرقاد إلى عدوة المغرب بادر خليفة الموحدين عبد المؤمن بإرسال جيش كبير عَبَر إلى الأندلس وقاده ٱبنه أبو يوسف يعقوب، وٱتجه هذا الجيش صوب غرناطة من أجل استرجاعها. وفي الوقت نفسه سار ٱبن مردنيش بعد أن وصلت إليه أنباء عبور الجيش الموحدي صوب غرناطة لنجدة حليفه ٱبن همشك تُعاونه ثُلّة من القوات الإسبانية، فعسكر قبالة غرناطة يفصله نهر حدرة عن حليفه. وبعد أن ٱستعد الموحدون هاجموا غرناطة في رجب من عام 557هـ/ 1162م انهزم على إثرها ٱبن همشك وقُتِل الكثير من قواته، فدخلت القوات الموحدية المدينة منتصرة، ولم يستطع ٱبن مردنيش تقديم المساعدات لحليفه وكان يرى هزيمة حليفه الذي لاحقته القوات الموحدية فأوقعت بجيشه الخسائر الكبيرة[103].

قرر الموحدون القضاء على حركة ٱبن مردنيش، فبدأوا بنقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة، كما حصّنوا مدينة غرناطة، وعلى إثرها عَبَر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس في ربيع الأول من عام 558هـ/ 1163م. ولكن

---

(102) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ، ص 188 وبعدها. ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 50. ابن الخطيب: الإحاطة: 1/ 300 ـ 301.

(103) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 199 وبعدها. ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 52 ـ 53. علام: الدولة الموحدية، ص 196.

هذه الأمور تعثرت بوفاة خليفة الموحدين فجأة في جمادى الآخرة عام 558هـ، ودبّ الخلاف بين أولاده حول أمر الخلافة، ولم ينته هذا الخلاف حتى عام 563هـ، فاستفاد ابن مردنيش من هذه الظروف، وسار بقواته صوب غرناطة، إلاّ أن القوات الموحدية تصدت له، فرجع ابن مردنيش منسحباً إلى بلاده(104).

عَبَرت الإمدادات المغربية إلى الأندلس، فسارت قوات الموحدين صوب بلاد ابن مردنيش في عام 560هـ/ 1165م فوصلت إلى مشارف مدينة لورقة، فتصدى لهذه القوات ابن مردنيش تساعده قوة إسبانية، فانسحب الموحدون وساروا صوب مرسية، فلاحقهم ابن مردنيش، وتمّ اللقاء بين الطرفين في ذي الحجة من عام 560هـ/ تشرين الأول 1165م في موقعة فحص الجلاب، انهزم فيها ابن مردنيش وانسحب صوب مرسية وقد لاحقته القوات الموحدية وشددت عليه الحصار، إلاّ أن هذه القوات انسحبت دون أن تقدم لنا الروايات تعليلاً لذلك(105).

وفي عام 562هـ/ 1167م قام والي غرناطة الموحدي بالسيطرة على بعض حصون ابن مردنيش، كما ألحق هزائمَ متكررةً بقوات ابن مردنيش وحلفائه الإسبان(106).

بدأ الضعف يدب في إمارة ابن مردنيش، وذلك بسبب سوء العلاقات بين ابن مردنيش وبين صهره يوسف بن هلان وحليفه إبراهيم بن همشاك، حيث قامت الحروب فيما بينهم، وكان من نتائجها انضمام ابن همشك لطاعة الموحدين، بالإضافة إلى تذمر الرعية التي أثقل كاهلها ابن مردنيش

(104) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 205، 269 ـ 270. مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين، ص 136 ـ 137.

(105) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 63 ـ 65. ابن صاحب الصلاة: المن: ص 275 ـ 280.

(106) أبو رميلة: علاقات، ص 126 ـ 127.

بالضرائب من أجل إشباع نهم القوات الإسبانية التي اعتمد عليها، فجلب له هذا الأمر أيضاً كُرهَ كبار قواده له[107].

استغاث ٱبن همشك بالموحدين وذلك لرد كيد عدوان ٱبن مردنيش عليه، فعبر ٱبن همشك إلى عدوة المغرب يطلب العون، فأعانه الموحّدون بقوات كبيرة عبرت إلى الأندلس لقتال ٱبن مردنيش وذلك في عام 566هـ/1171م، ولما استقرت هذه القوات في قرطبة، واصلت سيرها إلى ٱبن مردنيش فقصدت مرسية بعد أن دخلت مدينة لورقة التي استنجدت بالموحّدين، وجزيرة شقر كذلك، كما خرجت ألمرية عن طاعة ٱبن مردنيش وأعلنت ولاءها للموحدين[108]. وخلال هذه الفترة كانت القوات الموحدية محاصرة لمدينة مرسية وأرهقت ٱبن مردنيش. ولمّا عبر الخليفة الموحّدي أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في عام 566هـ/1170م ونزل بإشبيلية، ذهب إليه أخوه أبو حفص قائد القوات الموحدية المحاصرة لاٌبن مردنيش مقدّماً إليه الأعوان والولاة الذين أعلنوا ولاءهم للموحدين. وعندها انتهز ٱبن مردنيش هذا الأمر فهاجم جزيرة شقر محاولاً استرجاعها، إلاّ أنه فشل أمام صمود واليها الموحدي، فرجع إلى مرسية يعاني من مرضه الذي مات فيه عام 567هـ[109]. وتولّى الأمر من بعده ٱبنه أبو القمر هلال الذي دخل في طاعة الموحدين بعد أن رأى بأن لا فائدة من استمرار الخلاف والعصيان[110].

2 ـ علاقة الموحدين مع بني غانية:

بنو غانية حكّام الجزائر الشرقية (البليار) من قبيلة مسوفة الصنهاجية، وبرز منهم يحيى ومحمد ٱبنيْ علي المسوفي، من رجالات يوسف بن

(107) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 83. أبو رميلة: علاقات، ص 127 وبعدها.

(108) المن بالإمامة: ص 406 ـ 407.

(109) ينظر: ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/268. المراكشي: المعجب، ص 323. ابن الخطيب: الإمامة: 2/127.

(110) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 95. أبو رميلة: علاقات، ص 139 وبعدها.

تاشفين أمير المرابطين. وقد سُمّوا بهذا الاسم نسبة إلى أُمّهم غانية، وهو تقليد مرابطي معروف(111).

بدأ أمر محمد بن غانية عندما أرسله أمير المرابطين علي بن يوسف إلى الجزائر الشرقية لإصلاح ما فسد من أمورها على يد الوالي المرابطي وأنور بن أبي بكر اللمتوني، وذلك في عام 520هـ/ 1126م(112).

ولمّا بدأ نجم المرابطين بالأفول في عدوة المغرب والأندلس، وقيام دولة الموحدين التي ورثت المرابطين في حكم بلاد العدوتين، عزز ابن غانية (محمد) حكمه في هذه الجزائر النائية، واستمر ولاؤه للمرابطين وللدولة العباسية، وأصبحت هذه الجزائر ملجأً للفارين من فُلول لمتونة والمرابطين الذين لقوا الترحاب والرعاية في ظل حكم هذه الأسرة واستمر محمد بن غانية في حكمه إلى عام 550هـ/ 155م(113). ترك محمد بن غانية أربعة أولاد، هم: عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة، واستطاع إسحاق من حكم الجزائر الشرقية بعد منازعات مع إخوته، وسار على سياسة أبيه في استقبال الوافدين عليه من فلول لمتونة(114). كما اعتمد إسحاق بن غانية على أسطول قوي أخاف به الممالك الإسبانية والجمهوريات الإيطالية التي دفعت الأموال الكبيرة إلى هذا الأمير وعقدت معه المعاهدات لضمان تحرك أساطيلها بأمان في مياه البحر المتوسط، وذلك في عام 572هـ/ 1177م(115).

خلال فترة الصراع بين الموحدين وابن مردنيش كان بنو غانية يشعرون بالأمان في جزائرهم، ولكن بعد وفاة ابن مردنيش وسيطرة الموحدين على

(111) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 331.

(112) المراكشي: المعجب، ص 342. ابن خلدون: العبر: 6/ 242.

(113) أيضاً: ص 344. مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 172. عصر المرابطين والموحدين، ص 145.

(114) أبو رميلة: علاقات، ص 145 ـ 146.

(115) المراكشي: المعجب، ص 344. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 146 ـ 147. سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص 326، ص 332 وبعدها.

شرقي الأندلس عام 567هـ/ 1172م، شعر إسحاق بن غانية بالخطر، فأخذ يهادن الموحدين ويتودد إليهم بالهدايا الثمينة[116]، ولكنه لم يدخل في طاعتهم بالرغم من جهود الموحدين في ذلك، حتى استشهد في عام 579هـ/ 1184م. فخلفه في الحكم أبنه علي الذي استغل الظروف السيئة التي مرت بها دولة الموحدين في هذه الفترة[117]، فأستمر في تمرده على دولة الموحدين، بل قرر مهاجمة مدينة بجاية قاعدة الحكم في المغرب الأوسط[118]، فسيطر عليها في عام 580 ـ 581هـ/ 1184 ـ 1185م بكل سهولة لِخُلوّها من وسائل الدفاع، وأنهزم والي المدينة (أبو الربيع سليمان) إلى تلمسان فتحصّن بها تحسّباً للظروف[119]. كما سيطر علي بن إسحق على مدن مختلفة في المغرب الأوسط، وقطع الدعوة للموحدين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575 ـ 622هـ) في بغداد[120].

وضع الخليفة الموحدي المنصور (580 ـ 595هـ) خطة حربية من أجل التصدي لبني غانية، فسيّر القوات البرية التي ساندها الأسطول البحري، فأسترجع الجيش الموحّدي المدنَ التي استولى عليها أبن غانية تباعاً، كما دمّر الأسطول البحري لأبن غانية وذلك في عام 581هـ/ 1185م، فهرب علي بن إسحق وأخوه يحيى وأعوانهما إلى جوف الصحراء، فعجز الموحدون عن اللحاق بهم[121].

اتخذ بنو غانية منطقة الواحات ببلاد الجريد مقرّاً لهم، وهناك عملوا

---

(116) المعجب، ص 344. أبو رميلة: علاقات، ص 147.

(117) ينظر: السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 269.

(118) الحميري: الروض المعطار، ص 190. ابن خلدون: العبر: 6/ 243. مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 177.

(119) ابن الأثير: الكامل: 11/ 206. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 270.

(120) المراكشي: المعجب، ص 347. أبو رميلة: علاقات، ص 152 وبعدها. سيسالم: جزر الأندلس، ص 357 وبعدها.

(121) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 181. أبو رميلة: علاقات، ص 155.

على كسب ودّ القبائل العربية وتعاونها معهم، كما تحالف علي بن إسحق مع شرف الدين قراقوش من رجالات صلاح الدين الأيوبي في مصر الذي نزل بقواته في بلد الحامة من جهة طرابلس وذلك في عام 581هـ/ 1185م، على اقتسام منطقة المغرب العربي بينهما ورفع راية بني العباس فيها، وجعلوا منطقة بونة فاصلاً لتحركاتهم[122]، ونجحت قواتهم في السيطرة على مدن متعددة في منطقة المغرب العربي، ولقوا بعض المقاومة من القوات الموحدية. فدخلت منطقة طرابلس وجبل نفوسة ومنطقة تونس (عدا المهدية ومدينة تونس) تحت طاعة هذه القوات المشتركة. وبعدها تُلقِّب علي بن غانية بلقب أمير المسلمين وأقام الدعوة للخلافة العباسية في مناطق نفوذه، وأتبع ذلك سفارة أبنه وكاتبه عبد البر إلى بغداد، فلقيا الترحاب من الخليفة الناصر الذي طلب بدوره من صلاح الدين الأيوبي أن يناصر بني غانية في أعمالهم المغربية[123].

أراد المنصور الموحدي التصدي لبني غانية وحليفهم قراقوش، فسار بقواته صوب تونس عام 582هـ/ 1186م، إلاّ أن قواته مُنيَت بهزيمة منكرة أمام هجمات بني غانية وحليفهم وذلك في عام 583هـ/ 1187م في معركة سهل عَمْرة[124]. على إثر هزيمة الموحدين هذه، قرر المنصور الموحدي وضع حدٍّ لخطر بني غانية وحليفهم قراقوش، فسار أمير الموحدين بقواته صوب الجنوب قاصداً منطقة الحامّة وذلك في عام 583هـ/ 1187م. ودارت رحى الحرب بين الطرفين انتصر فيها الموحدون. فدخلوا قابس ومنها إلى توزر ومنها إلى قفصة، ثم رجع أمير الموحدين إلى تونس بعد أن سيطر على

---

(122) العبر: ص 6/ 191 ـ 243. A Bell: les Benou Chanya, P. 56-57.

(123) سعد زغلول: «العلاقة بين صلاح الدين والمنصور الموحدي»، ص 95 ـ 96. مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية: ج ـ 6 ـ 7 (1952 ـ 1953).

(124) المراكشي: المعجب، ص 348 ـ 78، 77.

ذخائر وأمتعة قراقوش ورجاله فأرسلها جميعاً إلى مراكش[125].

بعد هذا النصر نظّم المنصور الموحدي أمور تونس، بعد أن ضرب بعض القبائل التي أمدت العون لابن غانية، كما أنه نال طاعة قراقوش الذي دخل في حلف مع الموحدين بعد خذلانه لبني غانية، وبعدها عاد أمير الموحدين إلى مراكش في عام 584هـ/ 1188م[126].

وفي نفس العام 584هـ توفي علي بن إسحق بن غانية، وتولى الأمر بعده أخوه يحيى بن إسحق بن غانية الذي بدأ عهده بمحاربة قراقوش فهزمه في موضع محسن بالقرب من طرابلس، كما سيطر يحيى على مدينة طرابلس أيضاً بعد أن وصلته إمدادات عسكرية من أخيه عبد الله حاكم ميورقة، ثم سار يحيى بن غانية صوب قابس فدخلها عنوة في عام 591هـ/ 1195م[127].

خلال عصر الأمير الموحدي محمد الناصر (595 ـ 610هـ) تجددت الحروب بين الموحدين وابن غانية في أفريقية خلال عام 595 ـ 597هـ بعد أن سيطر ابن غانية على أكثر بلاد أفريقية، حيث سار أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن بقواته لملاقاة ابن غانية، فانهزم الجيش الموحدي بالقرب من مدينة قسنطينة، ورجع أبو الحسن إلى بجاية وهو في حالة سيّئة[128].

شجع هذا النصر ابن غانية بأن يفرض نفوذه على جميع مدن أفريقية بما فيها تونس والمهدية بالإضافة إلى منطقة جبل نفوسة وذلك في عام 599هـ/ 1303م وبذلك أصبح ابن غانية سيّد أفريقية بلا منازع وخطب فيها لبني العباس في بغداد[129].

---

(125) ابن الأثير: الكامل: 11/ 213. العبر: 6/ 244. محمد المرزوقي: قابس، ص 183. الاستقصا: 2/ 147. Bell: Op. Cit. P. 82.

(126) جوليان: تاريخ أفريقية الشمالية: 3/ 149. أبو رميلة: علاقات، ص 163.

(127) العبر: 6/ 194. محمد المرزوقي: قابس، ص 189، 192. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 273.

(128) المراكشي: المعجب، ص 393.

(129) ابن خلدون: العبر: 6/ 195، 248. الوزير السراج: الحلل السندسية، ص 255 ـ 256.

وخلال حروب بني غانية في بلاد أفريقية حصلت أمور في الجزائر الشرقية غيّرت موازين القوى فيها، ففي عام 581هـ/ 1186م تمردت جزيرة ميورقة على حكم أسرة بني غانية، وتزعّم هذا التمرد علي بن الربرتير (سفير الأمير الموحدي إلى بني غانية لدعوتهم للطاعة، فاْعتقلوه فيها)، وحاكم الجزيرة السابق المخلوع محمد بن إسحق بن غانية، بمساعدة بعض الجنود المرتزقة الذين كانوا في خدمة بني غانية والراغبين في العودة إلى بلادهم[130].

تولى أمر الجزيرة محمد بن إسحق بن غانية باْسم الموحدين، ورجع علي بن الربرتير إلى مراكش بعد أن سرّح الجند المرتزقة وأعادهم إلى بلادهم حسب الاْتفاق[131]، على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما عَلِم بنو غانية في أفريقية بأخبار هذا الاْنقلاب، فسارع الأمير عبد الله بن غانية بالرجوع إلى جزيرة ميورقة عن طريق صقلية، فسيطر على الجزيرة، وفرّ أخوه محمد إلى الأندلس حيث ولاّه الموحّدون أمر مدينة دانية[132]. وفي الوقت نفسه حاول خليفة الموحدين المنصور إرسال أسطول من أجل إنقاذ جزيرة ميورقة، إلاّ أن زمام الأمور كان قد أفلت من يده، وبخاصة وأن أسطول ملك أرغون الإسباني بِدْرُو الثاني تدخل لصالح أهل ميورقة[133].

بقيت جزيرة ميورقة خارج طاعة الموحدين، في الوقت الذي فرض الموحدون سيطرتهم على جزيرتَيْ يابسة ومنورقة في عام 583هـ/ 1187م

---

(130) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: ص 274. سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص 367 وبعدها.

(131) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 315. العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 360.

(132) أبو رميلة: علاقات، ص 175.

(133) العبادي: المرجع السابق، ص 361.

وحاول عبد الله بن غانية استرجاع هاتين الجزيرتين ففشل[134]. أدرك حاكم الموحدين الناصر (595 ـ 610هـ) أن استقرار نفوذ الموحدين بأفريقية لن يستتب إلاّ إذا استولى على جزيرة ميورقة قاعدة بني غانية، لأن هذه الجزيرة هي المورد الذي يغذّي بني غانية في أفريقية بالمال والرجال والعتاد، ولهذا صمم السيطرة عليها[135]. ففي عام 599هـ/ 1203م خرجت الأساطيل الموحدية من ميناء دانية فنزلت جزيرة يابسة، ومنها هاجمت جزيرة ميورقة. فسيطرت عليها، وقُتِل عبد الله بن غانية على يد رجل من الأكراد يُعرَف بٱسم عمر المقدم[136]، وبذلك دخلت الجزائر الشرقية كلها في طاعة الموحدين[137]. بعد ذلك تفرغ الخليفة الموحدي لقتال بني غانية في بلاد أفريقية، فسيّر إليهم الجيوش في عام 601هـ/ 1204م والتي قادها بنفسه بمساعدة الأسطول البحري، وخلال الأعوام من 601هـ إلى عام 631هـ(وهي السنة التي مات فيها يحيى بن إسحق بن غانية) بدأت رياح المعارك تهبّ في غير صالح بني غانية في بلاد أفريقية، فٱستطاعت الجيوش الموحدية من استرجاع مدن أفريقية تباعاً من أيدي بني غانية بعد أن ألحقت بهم الهزائم المتكررة[138].

3 ـ علاقة الموحدين مع محمد بن هود بالأندلس:

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي سليل أسرة بني هود أصحاب مملكة سرقسطة في الثغر الأعلى، فقد لمع ٱسمه منذ عام 614هـ/

(134) أبو رميلة: علاقات، ص 177. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 158.

(135) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 367. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 274 ـ 275.

(136) المراكشي: المعجب، ص 394.

(137) أبو رميلة: علاقات، ص 179 ـ 180. ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 240.

(138) ينظر: الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 14 وبعدها. ابن خلدون: العبر: 6/ 197. السلاوي: الاستقصا: 2/ 207 وبعدها. أبو رميلة: علاقات، ص 181 وبعدها. البيان الموحدي، ص 243 وبعدها.

1217م بعد استرجاعه حصن شنفيرة من الإسبان في شرقي الأندلس[139].

وقد عزز محمد بن هود حركته ببعض الخرافات التي سمعها من البعض لتبرير التمرد ضد الموحدين[140]. وبدأ بحركته في رجب من عام 625هـ/ 1228م متخذاً من حصن الصخور ـ الصخيرات ـ مقرّاً له[141]. وٱنضمّ إليه طوائف من الجند وبعض عصابات اللصوص، ومَنّى نفسه وأتباعه بأنه سيملك كل الأندلس، وأنه سيعيد الدعوة للخلافة العباسية[142].

بدأ محمد بن هود (المتوكل على الله) أوّل أعماله بالسيطرة على مدينة مرسية وقبض على واليها الموحدي، فخطب لنفسه وللخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله (623 ـ 640هـ)[143] رافعاً الأعلام السود شعار العباسيين[144]. أدرك الموحدون خطورة محمد بن هود ودعوته، فسار إليه والي بلنسية الموحدي، ولكن لحقت به الهزيمة فعاد إلى شاطبة ومنها بعث بصريخه إلى خليفة الموحدين المأمون (621 ـ 629هـ) الموجود في إشبيلية يطلب منه العون، فسار المأمون بقواته صوب مرسية وألحق الهزيمة بٱبن هود، ثم رجع المأمون إلى إشبيلية في أوائل عام 626هـ/ 1229م وعجّل بالعبور إلى مراكش لٱضطراب أمرها، وترك أمر ٱبن هود يزداد قوة[145].

أعلنت مدن شرقي الأندلس ولاءها لمحمد بن هود، كما أعلنت مدينة إشبيلية طاعتها له[146]، وبعدها سار محمد بن هود وراء الخليفة المأمون

(139) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 248 ـ 252. الحميري: الروض المعطار، ص 348.

(140) ابن الخطيب: أعمال، ص 279.

(141) يقع هذا الحصن على نهر شقورة بالقرب من مرسية.

(142) ابن الخطيب: الإحاطة 2/ 129. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 276.

(143) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 309. ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 278.

(144) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص 271.

(145) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 278. ابن الخطيب: الإحاطة: 2/ 130. السلاوي: الاستقصا: 2/ 227. أبو رميلة: علاقات، ص 196.

(146) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 288 ـ 289. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 251.

متتبعاً أثره، فلحقه في جزيرة طريف يهمّ بالعبور إلى المغرب، فقامت بينهما معركة في رمضان من عام 626هـ/ 1229م عُرِفت بمعركة طَرِيف، انهزم فيها المأمون ونجا بعبوره إلى المغرب، فاْستولى اْبن هود على جبل الفتح والجزيرة الخضراء(147).

نتيجة هذا الأمر، دخلت معظم قواعد الأندلس في طاعة محمد بن هود، ولم يبق في الأندلس خارج طاعته سوى مدينتي بلنسية ومرسية(148)، كما أعلنت بعض المدن في عدوة المغرب ولاءها لمحمد بن هود أمثال مدينة سبتة ومدينة رباط الفتح، كما وصلت رسائل طوائف من عرب الخلط في المغرب ومراكش تعلن ولاءها له، وذلك في عام 629هـ/ 1232م في بداية عهد الخليفة الموحدي الرشيد (629 ـ 640هـ)(149).

وعزّز محمد بن هود هذا الأمر بالتقليد العباسي لشرعية حكمه، فوصله في عام 629هـ أو في عام 631هـ/ 1234م كتاب من الخليفة العباسي المستنصر بالله يحمله إلى الأندلس حسن الكردي المُلقّب بِاْلكمال، فقُرِئت رسالة الخليفة على الناس في غرناطة حيث كان محمد بن هود موجوداً(150).

عزز هذا الكتاب أمر محمد بن هود في الأندلس حتى إن المتمردين عليه رجعوا إلى طاعته بعد وصول هذه الرسالة العباسية، فقد رجع إلى طاعته محمد بن يوسف بن نصر الذي ثار على اْبن هود عام 629هـ/ 1232م واْستقلّ في مدينة جيان ودعا للأمير أبي زكريا الحفصي أمير أفريقية(151).

في بداية أمر محمد بن هود قام بصد هجمات الممالك الإسبانية على

(147) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 303 (حاشية 1). ابن الخطيب: أعمال، ص 280 ـ 432.

(148) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 296. أبو رميلة: علاقات، ص 200.

(149) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 299. ابن الخطيب: أعمال، ص 279 ـ 280. ابن خلدون: العبر: 6/ 254. السلاوي: الاستقصا: 2/ 232.

(150) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 294 ـ 295. عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 441 ـ 413.

(151) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 296. ابن خلدون: العبر: 6/ 170.

قواعد الأندلس، إلاَّ أنه عندما انهزم عام 627هـ/ 1230م أمام قوات ألفونسو السابع ملك ليون، تكالبت عليه بقية الممالك الإسبانية، فرأى محمد بن هود أن لا قَبِلَ له بمجاهدة الإسبان، فقرر عقد معاهدات صلح مع ملوك ليون وقشتالة[152]. إلاَّ أن هذه المعاهدات لم تمنع ملك قشتالة أن يستولي على مدينة قرطبة في عام 633هـ/ 1236م، ولم يستطع محمد بن هود الدفاع عنها[153].

توفي محمد بن هود عام 635هـ/ 1237م فخلفه في الحُكم ٱبنه الواثق بالله الذي خلع طاعة العباسيين وخطب للحفصيين بأفريقية[154].

4 ـ علاقة الموحدين بأبي جميل زيان:

هو من سلالة يوسف بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس في أواخر العهد المرابطي وبداية العهد الموحدي، وقد استخدم الموحدون أبناء آل مردنيش في حكم الولايات وقيادة الأساطيل بعد سيطرتهم على الأندلس[155].

ثار أبو جميل زيان وسيطر على مدينة بلنسية وطرد حاكمها الموحدي أبا زيد عبد الرحمن من سلالة عبد المؤمن، نتيجة خضوعه لملك قشتالة فرناندو الثالث، ولملك أرغون خايمة الأول أصحاب الأطماع الواسعة في منطقة بلنسية[156].

كما سيطر أبو جميل على مدينة دانية وجنجالة في عام 626هـ/ 1229م، وٱعترف بطاعته أبناءُ عمومته في جزيرة شقر وشاطبة، إلاَّ أنهم خلعوا طاعته وبايعوا محمد بن هود[157]، وهذا يدل على استفحال الخلاف بين أبي جميل

(152) أبو رميلة: علاقات، ص 205.

(153) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 276.

(154) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 343. أبو رميلة: علاقات، ص 206.

(155) ابن الخطيب: أعمال، ص 272.

(156) أبو رميلة: علاقات، ص 207 ـ 209. تاريخ العرب وحضارتهم، ص 278.

(157) ابن الخطيب: أعمال، ص 280.

زيان ومحمد بن هود[158]. أما أبو زيد الموحدي فقد طلب العون من حليفه ملك أرغون الإسباني من أجل آسترجاع بلنسية ومرسية، والذي أرسل معه ثُلّة من الجيش الإسباني، وقد فشل في استرجاع هاتين المدينتين، فآرتمى أبو زيد الموحدي في أحضان ملك أرغون الذي أعطاه بعض الحصون. وتذكر بعض الروايات بأن أبا زيد آعتنق المسيحية هناك[159]. خلال الأعوام 631 ـ 636هـ/ 1233 ـ 1238م شدد ملك أرغون خايمة الأول حِصَاره على مدينة بلنسية تساعده قوات أوروبية، ولم يستطع أبو جميل زيان الصمود أمام هذا الهجوم الإسباني، على الرغم من وصول الإمدادات الحفصية البحرية إليه من تونس، فسقطت بلنسية بيد الإسبان عام 636هـ، وتَرَكَ أبو جميل زيان المدينةَ ورحل إلى جزيرة شقر واتخذها مركزاً لحُكمه، وبعدها قطع الخطبة للخلافة العباسية، وخطب للحفصيين في أفريقية[160].

لم يلبث أبو جميل زيان طويلاً في شقر، حيث تركها إلى مدينة دانية أمام ضغط ملك أرغون الإسباني. وفي عام 636هـ/ 1239م سار أبو جميل إلى مرسية وسيطر عليها وحَكَمها بآسم الحفصيين أمراء أفريقية[161].

قلد الحفصيون الأمير زيان ولاية شرقي الأندلس، إلاّ أنه لم يستمر طويلاً فيها لأن الواثق بالله بن هود طرده منها في أواخر عام 637هـ/ 1230م وأعلن ولاءه للحفصيين[162].

إلاّ أن الواثق بالله بن هود لم يستطع الصمود أمام أطماع ملك قشتالة،

(158) عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص 395.

(159) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 304. ابن خلدون: العبر: 4/ 167. عنان: المرجع السابق، ص 398.

(160) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 348 ـ 349. أبو رميلة: علاقات، ص 221 ـ 212.

(161) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 310. العبر: 4/ 170، 6/ 285. عنان: المرجع السابق، ص 457.

(162) ابن خلدون: العبر: 6/ 285.

فأعلن تبعيته لهذا الملك الإسباني واعترف بأنه يحكم مرسية بصفته تابعاً لملك قشتالة[163].

5 ـ علاقة الموحدين بأبن نصر:

هو محمد بن يوسف بن الأحمر الأنصاري سليل بيت سعد بن عبادة سيد الخزرج، وقد اشتهرت أسرته بقيادة الجند في ناحية أرجونة من أعمال جيان[164].

وقد تطلع السكان إلى قيادة محمد بن يوسف بن الأحمر وٱعتبروه القائد المنتظر والمنقذ الذي سيخلّص البلاد من خطر الإسبان الذين عاثوا فساداً في قواعد المسلمين، في الوقت الذي عجز فيه محمد بن هود عن صدّ هذا العدوان[165].

أعلن ٱبن نصر حركته في عام 629هـ/ 1232م في حصن أرجونة، ودخلت في طاعته قرمونة وقرطبة وجيان وشريش ووادي آش وغيرها. وتَسمّى ٱبن نصر على إثر ذلك بأمير المسلمين، وخطب للخلافة العباسية منافساً في ذلك محمّد بن هود[166].

وعلى إثر ذلك قامت الحروب المستمرة بين ٱبن نصر وٱبن هود المتزاحمين في حكم البلاد، وقد حلّت الهزيمة بٱبن هود ثلاث مرّات آخرها في عام 634هـ/ 1237م[167].

بدأت إمارة ٱبن نصر بالاتّساع على إثر وفاة ٱبن هود في عام 635هـ/ 1238م، وكانت مدينة غرناطة أول المدن المهمة التي دخلت في طاعة ٱبن

(163) Altamirs: A history of spain, P. 173.

(164) الحميري: الروض المعطار، ص 12. المقري: أزهار الرياض: 1/ 167.

(165) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 280.

(166) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 296. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 275. ابن الخطيب: الإحاطة: 2/ 94 ـ 95.

(167) ابن الخطيب: أعمال، ص 270.

نصر في هذا العام[168]. كما دخلت في طاعته مدينة ألمرية في هذا العام أيضاً، وأعلنت مدينة مالقة الولاء لأبن نصر في عام 636هـ/ 1239م[169].

وفي عام 637هـ/ 1240م قطع أبن نصر الخطبة للعباسيين وخطب للموحدين على عهد الرشيد الموحدي (629 ـ 640هـ)، وبعدها خطب للحفصيين في أفريقية على إثر وفاة الرشيد الموحدي[170]. واستمر أبن نصر يدعو للحفصيين حتى عام 647هـ/ 1249م فقطعها عنهم، وهي سنة وفاة الأمير الحفصي أبي زكريا، وبعدها تسمى أبن نصر بأمير المسلمين[171].

لم يستطع أبن نصر ردّ غزوات الإسبان على أراضيه، فعقد الصلح مع ملك قشتالة فرناندو الثالث في عام 643هـ/ 1246م، تنازل بموجبه لملك قشتالة عن مدينة جيان وأحوازها، ويدفع له مبالغ طائلة، ويعاونه في حروبه ضدّ أعدائه، كما يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي بصفته من الأمراء التابعين للملك الإسباني[172].

حـ ـ الحروب بين الموحدين والممالك الإسبانية:

ورث الموحدون دولة المرابطين في مجاهدة الممالك الإسبانية في الشمال، وأشهرها: مملكة قشتالة، ومملكة البرتغال، ومملكة أرغون وبرشلونة (مملكة واحدة)[173].

استغلّ ملك البرتغال (أبن الرنك 522 ـ 553هـ/ 1128 ـ 1158م) اضطراب الأوضاع العامة للمرابطين في الأندلس، فتعاون في عام 542هـ/

(168) ابن الخطيب: الإحاطة: 2/ 98 ـ 99.

(169) أبو رميلة: علاقات، ص 216.

(170) عنان: المرجع السابق، ص 432.

(171) ابن الخطيب: اللمعة البدرية، ص 36. الإحاطة: 2/ 99.

(172) أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 430 ـ 434. عنان: المرجع السابق، ص 433 ـ Altamira, op.cit, P. 173.

(173) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 257، 281 ـ 282.

1147م مع قوات أوروبية، فٱستولوا على مدينة لشبونة. وفي عام 555هـ/ 1160م استولى هذا الملك على قصر أبي دانس (قصر الفتح)[174]، وفي الوقت نفسه قام مغامر برتغالي يدعى (جرانده الجليقي) فسيطر على بعض مدن غربي الأندلس[175].

ومن أجل أن يكون رد الموحدين حاسماً وقويّاً لغارات الممالك الإسبانية، ٱبتنى عبد المؤمن بن علي (توفي عام 558هـ) مدينة الفتح على سفح جبل طارق وقد كمل بناؤها في عام 555هـ/ 1160م لكي تكون معسكراً موحديّاً في الأندلس تنطلق منه الجيوش لمجاهدة الإسبان[176].

وبدأ عبد المؤمن بن علي يهيِّئ الجيوش لرد عدوان الممالك الإسبانية، إلاَّ أن موته في عام 558هـ عرقل مسيرها. ولكن أمير الموحدين أبا يعقوب يوسف (558 ـ 580هـ) أعاد تنظيم هذه الجيوش، فأرسل في عام 560هـ حملة عسكرية موحدية إلى الأندلس لتعزيز دفاعات بعض المدن ضدّ هجمات الممالك الإسبانية، بالإضافة إلى وضع حدّ لخلاف محمد بن سعد بن مردنيش في مرسية، والذي كانت له صلات قوية وودية مع عدد من ملوك الإسبان، وقد ٱلْتَقى الطرفان في معركة فحص الجلاب على بعد 12كم جنوبي مرسية كان النصر فيها للموحدين، ومات ٱبن مردنيش على إثر ذلك[177].

عَبَر أبو يعقوب إلى الأندلس في عام 566هـ وبقي فيها زهاء خمسة أعوام إلى سنة 571هـ محارباً للممالك الإسبانية، إلاَّ أنه لم يَجْن ثماراً طيّبة، ولم يحرز النصر الحاسم. ويبدو أن الموحدين في هذه الفترة عقدوا معاهدة

---

(174) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 272. الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 461.

(175) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 374 وبعدها.

(176) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 129 وبعدها.

(177) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 258 ـ 260. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 275 وبعدها.

صلح مع فراندة الثاني (الببوج)[178] ملك ليون (552 ـ 584هـ/ 1157 ـ 1188م)، إلاً أن هذا الملك خرق هذه المعاهدة وهاجم قواعد الأندلس في عام 570هـ/ 1174م، فردت القوات الموحدية والأندلسية على هذا الأمر بأن هاجمت مدينة لزريق الليوني وتسميها الرواية العربية بٱسم (السبطاط)[179].

عندما رجع أمير الموحدين إلى مراكش، جدد الإسبان هجومهم على مدن الأندلس، فقام ملك قشتالة ألْفونسو الثامن - النبيل (553 ـ 611هـ/ 1158 ـ 1214م) بمهاجمة الأراضي الأندلسية، فتصدت له القوات الموحدية قرب طلبيرة عام 578هـ[180]. وبعدها عَبَر أمير الموحدين إلى الأندلس في عام 580هـ، وٱتجه صوب مدينة شنترين ونازلها في عدة معارك، إلاً أن أمير الموحدين أبا يعقوب أمر بالانسحاب فجأة قبل افتتاحها، ثم أُصيبَ في المعركة وتوفي بعد قليل في ربيع الآخر من عام 580هـ/ تموز 1184م[181].

تولّى المنصور أمر الموحدين (580 ـ 595هـ) فنظّم أمور الدولة، وبعدها عبر إلى الأندلس في عام 586هـ، وذلك لردّ ٱعتداءات ملك البرتغال الجديد شانجة الأول (581 ـ 608هـ/ 1185 ـ 1211م) الذي سيطر على مدينة شلب بمعاونة قوات صليبية في عام 585هـ/ 1189م[182]. وٱستطاع أمير الموحدين بعد معارك جهادية عنيفة من استرجاع مدينة شلب وقصر أبي دانس (قصر الفتح) وذلك في عام 587هـ/ 1191م ورجع بعدها إلى عدوة المغرب[183].

وإزاء عبث ملك قشتالة ألْفونسو الثامن بالأراضي الأندلسية، وبخاصة

---

(178) الببوج: تعني كثير اللعاب أو الأحمق.

(179) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 283.

(180) عنان: المرجع السابق: 2/ 93 ـ 100.

(181) ينظر: المراكشي: المعجب، ص 330 وبعدها. ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 158 وبعدها.

(182) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 462 ـ 463.

(183) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 272 ـ 273. ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة: 5/ 191. ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 210 وبعدها.

بعد نقض المعاهدة التي عقدها مع الموحدين (586 ـ 591هـ)[184]، عَبَر المنصور الموحدي إلى الأندلس وتصدى لقوات هذا الملك الإسباني قرب حصن الأرَك عند قلعة رباح في عام 591هـ/ 1195م فكان النصر للموحدين[185]. وبعد هذه المعركة عُقِدت هدنة بين الطرفين ٱبتداءً من عام 594هـ/ 1198م ولمدة عشر سنوات أو أكثر[186].

وفي عام 606هـ/ 1209م ـ وقبل انتهاء مدة الهدنة ـ قام ألفونسو الثامن بمهاجمة الأراضي الأندلسية، بمعاونة بطرة الثاني ملك أرغون (593 ـ 610هـ/ 1196 ـ 1213م)، فٱستنجد أهل الأندلس بالأمير الموحدي الجديد الناصر (595 ـ 610هـ) الذي عبر إلى الأندلس في عام 607هـ/ 1211م، فكانت وقعة حصن العُقَاب عام 609هـ/ 1212م، حيث مُنيَت القوات الموحدية بهزيمة منكرة[187]. وعاد الأمير الموحدي الناصر إلى مراكش حيث توفي عام 610هـ، ربما كمداً من هذه الهزيمة التي عُدّت نذيراً ببداية ضعف الدولة الموحدية[188].

عقد الأمير الموحدي الجديد المستنصر (610 ـ 620هـ) معاهدة سلم مع ملك قشتالة فرانده الثالث (611 ـ 650هـ)، إلاّ أن الخطر جاء هذه المرة من قِبَل إمارة البرتغال، حيث سيطر ملكها ألْفونسو الثاني (608 ـ 620هـ)، بمساعدة أساطيل ألمانية، على قصر أبي دانس في عام 614هـ[189].

(184) وفيات الأعيان: 7/ 4. الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 463.

(185) المراكشي: المعجب، ص 358 وبعدها. الحميري: الروض المعطار، ص 12 ـ 13. المقري: نفح الطيب: 4/ 381.

(186) المراكشي: المعجب، ص 360. عنان: المرجع السابق: 2/ 234، ص 288.

(187) المراكشي: المعجب، ص 401 ـ 402. الحميري: الروض المعطار، ص 137. ابن الخطيب: الإحاطة: 1/ 383.

(188) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 464.

(189) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 273، 295. التكملة: 2/ 596 (رقم 1577) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 285.

ونتيجة وفاة المستنصر فجأة في عام 620هـ، حصل تبدل سريع خلال الأعوام من 620هـ إلى عام 640هـ في تنصيب أمراء الموحدين[190]، مما أدى إلى عبث ملوك الإسبان في الأراضي الأندلسية، وسيطرتهم على كثير من المدن والحصون، بالإضافة إلى ظهور زعامات محلية في منطقة المغرب وأهمها:

1 - في المغرب الأقصى: ظهرت دولة بني مرين وكان المؤسس لها عبد الحق بن محيو (توفي عام 614هـ) وكانت مدينة فاس ومراكش عواصم لهذه الدولة.

2 - في المغرب الأوسط: استقل بنو زَيّان، وأعلن زعيمهم يغمراسن بن زيان الاستقلال في تلمسان عام 613هـ.

3 - في المغرب الأدنى: استقلّ بنو حفص بزعامة عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص حوالي عام 623هـ[191].

هذا التمزق في عروة المغرب انعكس على الوجود الموحدي في الأندلس، ففي عام 627هـ/ 1230م سقطت جزيرة ميورقة بيد ملك أرغون جايمش بن بطرة (الأول) 610 ـ 675هـ، وقد عاونته جيوش إيطالية وفرنسية[192]. وبعدها سقطت جزيرة اليابسة، أما جزيرة منورقة فسقطت بيد القوات الأرغونية في عام 686هـ/ 1287م[193].

كما أن هذا الأمر المضطرب أدى إلى ظهور زعامات محلية في بلد

---

(190) ابن الخطيب: أعمال، ص 265 ـ 270. الإحاطة: 1/ 141، ص 409. المراكشي: المعجب، ص 415 وبعدها.

(191) ابن خلدون: العبر: 7/ 154، ص 349. السلاوي: الاستقصا: 3/ 6 وبعدها.

(192) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 318. التكملة: 1/ 155 ـ 156 (رقم 400). ابن الخطيب: الإحاطة: 1/ 383.

(193) ابن الخطيب: أعمال، ص 276 ـ 277. عنان: المرجع السابق: 2/ 408. سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص 455 وبعدها.

الأندلس، ومن أشهرها قيام مملكة غرناطة بزعامة بني الأحمر. وخلال المدة ما بين ضعف الدولة الموَحّدية وقيام مملكة غرناطة نحو عام 635هـ أو بعدها، سقطت عِدّة مدن أندلسية بيد الممالك الإسبانية[194].

كانت مدينة قرطبة أُولى الحواضر الأندلسية التي سقطت بيد القوات القشتالية بزعامة ملكها فرناندو الثالث (611 ـ 650هـ)، وذلك في عام 633هـ/1236م[195]. وتعرضت مدينة بلنسية لهجمات ملك أرغون جايمش الأول خلال الفترة 631 ـ 636هـ وسقطت أخيراً، ولم ينفعها مقاومة حاكمها أبي جميل زيان، والذي طلب العون من أمراء عُدْوَة المغرب دون جدوى[196].

وتلا ذلك سقوط جزيرة شقر في عام 639هـ، ومدينة دانية في عام 641هـ، ومدينة جيّان في عام 643هـ، ومدينة شاطبة في عام 644هـ، ومدينة إشبيلية في عام 646هـ، ومدينة مرسية في عام 664هـ[197].

وهكذا سقطت بيد ملوك الإسبان وبمساعدة دول أوروبية وبمباركة البابا، عدد من حواضر الأندلس في هذه الفترة التي عاصرت نهاية الدولة الموحدية، إلاّ أن المسلمين في الأندلس استطاعوا الحفاظ على بعض المناطق في جنوبي البلاد، حيث قامت مملكة غرناطة، والتي يمكن تسميتها بالأندلس الصغرى بعد انهيار الأندلس الكبرى[198]، والتي حافظت على الوجود العربي في الأندلس عدة قرون أخرى (635 ـ 897هـ).

---

(194) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 471 ـ 472.

(195) ابن الخطيب: الإحاطة: 1/ 551.

(196) ابن الأبار: الحلة السيراء: 2/ 127، ص 303. التكملة: 1/ 121، ص 900 ـ 901. الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 473 وبعدها.

(197) ينظر: السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 287.

(198) ينظر: الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 483. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص 289 وبعدها.

ضعف دولة الموحدين وانهيارها:

هناك عوامل عدة عملت على إضعاف دولة الموحدين وبالتالي سقوطها، ومن أجل إعطاء صورة واضحة لهذا الضعف، يمكن تقسيم فترة ضعف دولة الموحدين وانهيارها إلى مرحلتين، ولكل مرحلة خصائصها وعواملها التي كان لها الأثر المباشر في سقوط الدولة:

المرحلة الأولى: 581 ـ 609هـ

شهدت هذه المرحلة الأمور الآتية والتي عملت على إضعاف دولة الموحدين:

1 ـ التحالف بين بني غانية حُكّام الجزائر الشرقية وبين قراقوش التقوي وزير صلاح الدين الأيوبي: وكان هذا التحالف قد تمّ في عام 581هـ، وكان التحالف ضد الموحدين. وتمّ الاتّفاق على أن تُقسَّم منطقة المغرب العربي إلى قسمين: حِصّة بني غانية ما يقع إلى غربي مدينة بونة، وحصة قراقوش ما يقع شرقي مدينة بونة[199]. وقد وضحنا أعلاه مجالات هذا التعاون بين الطرفين. وتبادل الطرفان النصر والهزيمة، حيث انهزم الموحدون في معركة فحص عمرة أمام هذا التحالف بالقرب من قفصة ربيع الأول عام 583هـ/ 1187م، وانتصر الموحدون على هذا التحالف في معركة الحمة، رجب من عام 583هـ[200]. والمهم في هذا الأمر، أَثَر حركة بني غانية وقراقوش على الأوضاع العامة في منطقة المغرب العربي وكلّ له أهدافه في هذه المنطقة. فبنو غانية يهدفون إلى إرجاع دولة المرابطين وإعادة كيانها ومجدها، وقراقوش يهدف إلى أن تكون للأيوبيين نقطة ارتكاز في بلاد المغرب. وقد استغل الحلفاءُ هؤلاء بعضَ قبائل بني هلال وسليم العربية، وسخّروها في

---

(199) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 214.

(200) ينظر: ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 188، 190 وبعدها. التجاني: الرحلة، ص 134 وبعدها، المراكشي: المعجب، ص 348 وبعدها.

سبيل تحقيق أهدافهم.

وقد أثّرت العمليات العسكرية التي شهدتها منطقة المغرب العربي من جرّاء هذا التناحر إلى تعطيل وكساد الأحوال الاقتصادية في هذه المنطقة، بالإضافة إلى المآسي التي عاشتها البلاد المغربية من جرّاء عنف الحرب، فأثّرت على نفسية السكان الذين عانوا الأمَرّين من هذه الأوضاع. وتعطينا الحالة السيئة التي عاشتها مدينة بجاية خلال هذه الفتنة، صورةً صادقة لما عانته بلاد المغرب الأدنى والأوسط من ضِيق وخراب ودمار[201].

2 ـ تآمر بعض أفراد البيت الموحدي: في عهد يعقوب المنصور الموحدي (580 ـ 595هـ) تآمر عليه أعمامه الذين عارضوا مبايعة ٱبن أخيهم. فأوّل المتآمرين العمّ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد المؤمن، فأمر المنصور الموحدي بقتله، لعلّه يضع حداً لتآمر الأقرباء[202]، لكن هذه القسوة لم تمنع العمَّ الثاني من التآمر وهو أبو الربيع سليمان بن عبد المؤمن الذي كان يمنّي نفسه بالخلافة منذ وفاة أخيه يوسف بن عبد المؤمن (والد المنصور الموحدي)، ولم يبايع ٱبنَ أخيه إلاَّ مُكْرَهاً. ولكن أطماعه طغت وظهرت عندما حلت الهزيمة بجيش الموحدين في موقعة عمرة عام 583هـ، وحاول كسب الأتباع والأعوان، إلاَّ أنه فشل، فقُبِض عليه من قِبَل أبي زكريا يحيى بن عمر بن عبد المؤمن وسُجِن حتى تمّ قتله في عام 584هـ[203].

ولم تقتصر المؤامرات على الأعمام بل امتدت إلى إخوَةِ الأمير، فتآمر عليه أخوه أبو حفص عمر الملقّب بٱلرشيد وكان والياً على مرسية بالأندلس، فقبض عليه وقتله مع عمّه أبي الربيع عام 584هـ[204]. كما تآمر عليه أخوه أبو يحيى الذي كان والياً ببلاد الأندلس أيضاً، وقد سوّلت له نفسه بالتآمر على

(201) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 180 ـ 181.

(202) ابن خلدون: العبر: 6/ 510.

(203) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 221.

(204) المراكشي: المعجب، ص 352 ـ 353. ينظر ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 218.

أخيه في عام 585هـ، وبخاصة عند مرض الأمير الموحدي بعد رجوعه من الأندلس، فوصلت أخبار هذه المؤامرة إلى مسامع أخ الأمير الموحدي، فٱستدعى أخاه وأعدمه[205]. وبذلك عانت الدولة في هذه المرحلة من تآمر الأعمام والإخوة وهم أقرب المقرّبين إلى الأمير الموحدي.

3 ـ قيام بعض حركات التمرد ضد دولة الموحدين: وبالذات في عهد المنصور الموحدي (580 ـ 595هـ) وخلفه الناصر (595 ـ 610هـ)، والتي استنفدت الكثير من الجهد والوقت، ومن هذه الحركات:

أ ـ حركة عبد الله بن عبد الله الجزيري:

وهو بالأصل أندلسيٌّ من الجزيرة الخضراء، مال إلى التصوف ولربما اتخذ من منهج المهدي بن تومرت قدوة في الدعوة إلى الإصلاح[206]، فبادر إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عندما رأى الرعية قد مالت إلى حياة الدَّعَة والعيش الرغيد.

ظهر في مدينة مرّاكش في عام 586هـ وبدأ بنشر آرائه، فكسب حوله الأتباع، فخافه الموحدون وأبعدوه عن مراكش. وأخذ يجوب مدن المغرب الأقصى مبشّراً بتعاليمه حتى ظهر مرة أخرى في العاصمة مراكش. فطارده والي مراكش أبو الحسن بن أبي حفص، إلاَّ أن الجزيري اختفى مرة أخرى، وما لبث أن ظهر ثانية في مدينة فاس وٱستمر في دعوته، وطارده حاكم فاس (ٱبن ومازير) وقَبض على مجموعة من أتباعه، وفرّ الجزيري مرة أخرى وظهر في الأندلس[207].

وٱزداد اهتمام وُلاة الأمر بشأنه، وصدرت الأوامر إلى الولاة والعمّال

(205) المراكشي: المعجب: ص 357 ـ 358.

(206) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب: 1/ 323 ـ 324.

(207) ينظر: ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 207.

وأصحاب الشرطة وحرّاس الطرق بالترصّد له ومعرفة أخباره، وبخاصة أنه في الأندلس بدأ بكسب الأتباع وروّج حوله الكثير من الخرافات وقد صدّق ببعضها الناسُ. واستطاعت السلطات القبض عليه وعلى مجموعة من أعوانه في مدينة مالقة، إلاَّ أن الجزيري استطاع الإفلات من أيدي الموحدين بالأندلس، فصبت السلطات جام غضبها على أتباعه وعددهم (99 رجلاً) فقتلوا جميعاً في إشبيلية[208]. ثم جَدّت السلطات الموحدية بالأندلس في القبض على الجزيري، وأفلحت في مسكه بمدينة مرسية، فسيق إلى إشبيلية وأُعدِم في الحال وبذلك انتهت هذه الحركة التي أقلقت بال الموحدين كثيراً، وبخاصة كان يقوم بنزعة إصلاحية، ويطمح إلى إحياء سُنَن المهدي بن تومرت، وقد زاد الْتِفاف الناس حوله[209].

ب ـ حركة الأشل:

ووقعت في سنة 589هـ فتنة جديدة ببلاد الزّاب جنوبي أفريقية تزعمها الأشل[210]، وأظهر هذا الداعي أنه موعود به للقضاء على الظلم والعمل على توفير الخير للرّعِية والسّير على هدى السُّنّة النبوية[211]. والْتفَّت حوله جموع الناس، وبالذات عرب بني هلال وسليم، وأخذ يجوب المنطقة ويبشر بتعاليمه. فاهتم المنصور الموحدي بأمره وأصدر تعاليمه إلى والي بجاية أبو زكريا بتتبع أخبارَه ومطاردته والقبض عليه[212]. طارده والي بجاية وضَيّق عليه، إلاَّ أن قبائل العرب تستّرت على الأشل وحمته من خطر والي بجاية الموحدي، وبعد أن عَرف هذا الوالي، عن طريق جواسيسه، بوجود الأشل

(208) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 208.
(209) عنان: المرجع السابق: 2/ 179 ـ 180.
(210) ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 215.
(211) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 234.
(212) عنان: المرجع السابق: 2/ 193.

في مضارب العرب وأن هذه القبائل لا تسلّم دخيلها، لجأ إلى الحيلة، وٱستطاع دعوة بعض رؤسائهم وأبنائهم إلى قلعة حماد، وهناك هدّدهم بالقتل جميعاً أو تسليم الأشل[213].

جعل هذا الأمر عشائر العرب في حرج، وٱنقسموا على أنفسهم لأن البعض رفض تسليم الأشل، والبعض الآخر أصرّ على تسليمه وذلك من أجل الحفاظ على الآباء والأبناء من أفراد القبيلة المهددين بالقلعة. وإزاء ضغط أُمّهات الأولاد انتصر رأي الفريق الثاني، فَسُلّم الأشل إلى والي بجاية الموحدي، الذي قتله فوراً وأنهى بذلك حركته[214].

جـ ـ حركة محمد بن عبد الكريم القائد الموحدي:

في الوقت الذي كان فيه يحيى بن إسحق بن غانية يعمل على توطيد سلطانه في بلاد الجريد، بدأ محمد بن عبد الكريم الرجراجي بٱلتّمرد[215].

ومحمد بن عبد الكريم من كبار قادة الجيش الموحدي، وكان قائداً لجيش الموحدين في مدينة المهدية بتونس. وقد برزت شهرة هذا القائد نتيجة تصديه لقبائل بني هلال وسليم وغيرها من قبائل العرب في أفريقية. وفي إحدى معاركه مع قبيلة عوف غنم أموالها ومتاعها ووزّع هذه الغنائم على جنده، ولم تلبث أن أرسلت قبيلة عوف زعماءها إلى تونس وقابلوا حاكم تونس الموحدي أبا سعيد عثمان بن أبي حفص، فٱعتذروا عما بدر منهم، وجددوا العهد للموحدين ودخلوا في طاعتهم، وطلبوا من الوالي إعادة أموالهم[216].

---

(213) ينظر: ابن عذاري: البيان الموحدي، ص 216.

(214) ينظر: البيان الموحدي، ص 216 ـ 217. مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 235.

(215) عنان: المرجع السابق: 2/ 252.

(216) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 235 ـ 236.

ولما طلب والي تونس من القائد محمد بن عبد الكريم رد هذه الأموال إلى قبيلة عوف، اعتذر هذا القائد بأن الغنائم قد وزّعها على الجند ولا قدرة له على ردّها، فأساء الوالي معاملة القائد وهدده بالقتل إن لم يُعد الأموال، فطلب القائد مهلة للاتصال بجنده وجمع ما يمكن جمعه منهم وتعويض الباقي من عنده، وبذلك استطاع الإفلات من بطش الوالي[217].

رجع القائد محمد بن عبد الكريم إلى المهدية، واتصل بجنده واتفق معهم على التمرّد فوافقوه على ذلك. فقام هذا القائد وجنده بالسيطرة على مدينة المهدية ودخلوا قصر الوالي الموحدي أبي علي يونس بن أبي حفص (أخي والي تونس الموحدي) وحبسوه، ولم يطلقوا سراحه إلاّ بعد أن حصلوا من أخيه والي تونس مبلغ (12 ألف دينار) وُزِّعت بين المتمردين[218].

وبسط محمد بن عبد الكريم نفوذه على المهدية وذلك في شعبان من عام 595هـ ولُقِّب بالمتوكّل على الله[219].

وفي الوقت نفسه وصل أبو زيد بن أبي حفص من قِبَل الناصر الموحدي والياً على تونس بدلاً من أبي سعيد، وقرر محمد بن عبد الكريم أن يحاصره بتونس قبل أن يستعد الوالي الموحدي الجديد لقتاله، فسار القائد إلى جهة قرطاجنة وعسكر عند مدخل البحر إلى البحيرة، فسيّر أبو زيد السفن في البحر، والجند في البرّ لقتاله، وكان محمد بن عبد الكريم قد رتب كمائنه في بعض المواضع والتي أوقعت بالقوات الموحدية هزيمة منكرة وذلك في عام 596هـ/ 1200م، وعلى إثرها بَعَث والي تونس الموحدي إلى القائد محمد بن عبد الكريم وفداً موحديّاً يطلب منه الرجوع إلى الطاعة،

(217) ينظر: ابن خلدون: العبر: 6/ 517. عنان: المرجع السابق: 2/ 253.

(218) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص 236.

(219) ابن الأثير: الكامل، 9/ 245. التجاني، الرحلة، ص 350. أبو رميلة، علاقات، ص 167.

فاَستجاب القائد وعاد بقواته إلى المهدية[220].

وفي أثناء ذلك حدث شقاق بين محمد بن عبد الكريم ويحيى بن إسحق بن غانية الموجود في قابس، وأراد القائد محمد بن عبد الكريم انتزاع قابس من أبن غانية، فسار إليها بقواته، إلاَّ أنه ارتد عنها لمناعتها وعرج إلى قفصة فسيطر عليها، فخرج إليه آبن غانية واَلتقى الخصمان في موضع (قصور لالّه)، انهزم محمد بن عبد الكريم، ويمّم شطر المهدية ناجياً بنفسه وذلك في بداية عام 597هـ[221]. وعلى إثر ذلك دخل اَبنُ غانية مع والي تونس الموحدي في تحالف ضد محمد بن عبد الكريم، وقام الأسطول الموحدي بمحاصرة المهدية فضاق الأمر بالقائد محمد، مما أرغمه على التفاوض مع اَبن غانية علّه يجد له مخرجاً ومأمناً، فأجابه اَبن غانية إلى ذلك، ولما أن سلّم القائد محمد نفسه، وسيطر اَبن غانية على المهدية، قَبَض على القائد محمد بن عبد الكريم وولده وسجنهما، ثم تخلّص منهما وذلك في عام 599هـ[222].

إن تزامن تمرّد محمد بن عبد الكريم مع حركة بني غانية في المغرب العربي أحرج الدولة الموحدية، واستنفد طاقاتها من أجل التصدي لهذه الحركات، بالإضافة إلى أنها بادرة خطيرة في دولة الموحدين، إذ إن تمرد القائد محمد يُعتبَر أَوّل تمرد لقائد موحدي ضد الدولة[223].

د ـ حركة عبد الرحمن الجزولي:

لعل الأوضاع المضطربة في أفريقية، شجعت أصحاب المطامع في

(220) الوزير السراج، الحلل السندسية ص 254. أبو رميلة، علاقات، ص 167.

(221) ابن خلدون، العبر، 6/ 517. عنان، المرجع السابق، 2/ 254 Bell: Les Benou. Chanys, P. 202-203.

(222) الوزير السراج، الحلل السندسية ص 255. أبو رميلة، علاقات، ص 170 Bell: op. cit, P. 109-116 P. 203-204.

(223) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 237.

المغرب الأقصى بالتمرّد والدعوة لأنفسهم، ومن هؤلاء الطامعين عبد الرحمن الجزولي المعروف بأبي قصبة، الذي بدأ حركته في بلاد السوس بالمغرب الأقصى في عام 598هـ[224]. واستطاع من جمع الأتباع والأنصار وتصدى لجيوش الدولة الموحدية وانتصر عليها في أكثر من موقعة. ولمّا أحست الدولة بخطره، وجّهت إليه جيشاً قويّاً مكوناً من الموحدين والغزّ وأصناف المقاتلين الجيّدين، كما استعانت الدولة بقبائل المصامدة بالسوس ضد هذا التمرد، بعد ذلك تمكّنت الدولة الموحدية من القضاء على حركة الجزولي، الذي سيق إلى مراكش أسيراً وقُتل فيها[225].

الفساد الإداري:

وُجِد منذ قيام الدولة الموحدية عمّالٌ وحكّامٌ ووزراء قد فسدت ذِمَمُهم، وبالرغم من العقاب الصارم الذي نال أمثال هؤلاء، إلاَّ أن هذه الظاهرة بدأت تستشري في هذه المرحلة موضوع البحث:

وقد ذكرنا في أعلاه تآمر والي مرسية أبي حفص الرشيد، وكان من جملة ما فعله قبل التخلّص من خطره، هو إرهاق أهل ولايته بالضرائب، واستولى على ما في خزينة الولاية لشخصه، تمهيداً لتنفيذ مشروعه العريض في الوصول إلى سدّة الحكم[226]. فهذا الأمر يعطينا صورة جليّة عن مدى الخلل والفساد الذي دبّ بالإدارة الموحدية، وبذلك بدأت نفوس الرعية تتذمر مما أدى إلى قيام حركات تمرد عندما تسنح الفرصة[227].

وعند عبور المنصور الموحدي إلى الأندلس في عام 585هـ، واستقر في جزيرة طريف، جاءته وفود من المدن المجاورة تشكو إليه سوء إدارة العمّال

(224) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 239. المراكشي، المعجب، ص 295.
(225) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 237 ـ 238.
(226) ابن عذاري، البيان المغرب، ص 199.
(227) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 240 ـ 241.

والولاة، وتماديهم في ظلم الرعية[228].

وعندما كان المنصور الموحدي في مدينة إشبيلية عام 593هـ، بدأ حملته التطهيرية للعمال والولاة الفاسدين بعد أن تأكد من سوء تصرفاتهم ونياتهم، وشكّل لجنة للتحقيق مع هؤلاء الولاة، وضع تحت تصرفها خمسين كاتباً، واستمر التحقيق ستة أشهر، أدانت اللجنة الكثير منهم وغرّمتهم أموالاً طائلة بعد أن أُودِعوا السجن عقاباً على ما ارتكبوه من ظلم وجور في حق الدولة والرعية[229]. واشتطّ بعض الولاة في ظلمهم على عهد الناصر الموحدي[230]، ولم يقتصروا على إرهاق الرعية بالضرائب أو مصادرة أموالها، بل إن بعضهم تطاول على أَحكام القضاء وبدأ هو ورجاله يتدخلون في تسيير هذه الأحكام حسب مصالحهم الخاصة، كما هو الحال في مدينة إشبيلية في عهد حاكمها أبي إسحق، مما دفع بأمير الموحدين إلى عزله وتولية أبي موسى بن الناصر أمر إشبيلية[231].

وقد ازداد الفساد الإداري في المرحلة التالية وذلك عندما مرّت دولة الموحدين بفترة من الضعف حكم فيها أمراء ضعفاء، فكان هذا الأمر مع مجموعة عوامل أخرى قد عجلت في سقوط الدولة وانهيارها[232].

موقعة العُقَاب عام 609هـ/ 1212م:

انتصر الموحدون على مملكة قشتالة في معركة الأرك عام 591هـ/ 1195م، وعُقِدت هدنة بين الطرفين منذ عام 594هـ/ 1198م ولمدة عشر سنوات أو أكثر[233]، إلاّ أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة بدأ في عام 606هـ/

(228) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 204.

(229) أيضاً، ص 224 ـ 225. ينظر: المراكشي، المعجب، ص 262.

(230) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 243.

(231) ابن عذاري البيان الموحدي، ص 243.

(232) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 242.

(233) المراكشي، المعجب، ص 358 وبعدها.

1209م ـ وقبل انتهاء مدة الهدنة ـ بمهاجمة الأراضي الأندلسية يعاونه في ذلك بطرة الثاني ملك أرغون، ويدعمهم البابا وكثير من الدول الأوروبية[234].

عبر الناصر الموحدي إلى الأندلس في ذي الحجة من عام 607هـ/ 1211م، وافتتح عدّة حصون جنوبي قلعة رباح في عام 608هـ، وعاد بعدها إلى إشبيلية ينتظر انتهاء فصل الشتاء ويُعدّ العدّة لملاقاة العدوّ[235]. سار ملك قشتالة ومعه الجيوش الأوروبية من طليطلة بإتجاه الجنوب صوب قلعة رباح، فكان اللقاء في شهر صفر من عام 609هـ/ تموز 1212م في سهل يقع جنوب غربي حصن العُقاب وعُرِفت المعركة بإسمه (وقعة العقاب)، فلَحِقت الهزيمة بالموحدين وقُتِل منهم خلق كثير[236]. وكانت هذه الوقعة من أبشع الهزائم التي لحقت بمسلمي الأندلس، وكان لها وقع وأثر سيّء في كل من الأندلس والمغرب، على الرغم من قيام الموحدين بنشاط عسكري في الأندلس بعد هذه المعركة، إلاّ أنها مَثّلت بداية النهاية للدولة الموحدية، وبداية لضياع قواعد أندلسية كثيرة[237]، حتى أنها وُصِفت: «كانت السبب في هلاك الأندلس»[238].

رجع الناصر الموحدي ومن معه إلى إشبيلية بعد هذه المعركة، ثم سار إلى مراكش، حيث توفي في شعبان من عام 610هـ/ كانون الأول 1213م، وربما مات كمداً بسبب هذه الخسارة المؤلمة[239].

(234) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 490 ـ 491. عنان، المرجع السابق، 2/ 289.

(235) المراكشي، المعجب، ص 399.

(236) ينظر: ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 263 وبعدها. المراكشي، المعجب، ص 401 وبعدها. الحميري، الروض المعطار، ص 138. المقري، نفح الطيب، 1/ 446.

(237) عنان، المرجع السابق، 2/ 317 وبعدها. الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 494 وبعدها.

(238) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 263.

(239) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 497 ـ 498. سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 742. السلاوي، الاستقصا، 2/ 217.

المرحلة الثانية 609 ـ 674هـ

تميزت هذه المرحلة بتبلور مظاهر الضعف التي بدأت تعمل على ٱنهيار وسقوط دولة الموحدين، وبخاصة بعد الانكسار الكبير الذي لحق بدولة الموحدين من جراء معركة العقاب، وموت الناصر الموحدي، ومن هذه المظاهر:

1 ـ حروب بني غانية في منطقة المغرب العربي:

وعلى الرغم من أن رياح المعارك أخذت تهبّ في غير صالح بني غانية خلال الأعوام 601هـ ـ 631هـ (وفاة يحيى بن إسحق)، حيث تمكّنت الجيوش الموحدية من ٱسترجاع مدن أفريقية من سيطرة بني غانية وألحقت بهم الهزائم المتلاحقة.

لقد عملت حروب بني غانية ضد دولة الموحدين في المرحلة الأولى، وفي هذه المرحلة على بعثرة جهود الموحدين واستهلاكها، وقد فصّلنا أمر هذه الحروب في موضوع سابق.

2 ـ كما شهدت الأندلس خلال هذه المرحلة موجة من الاضطرابات العنيفة تتمثل في:

أ ـ تمرّد محمد بن هود على الموحدين (614 ـ 635هـ)، وكذلك تمرّد أبي جميل زيان (626 ـ 637هـ)، وتمرّد محمد بن يوسف بن الأحمر (629 ـ 643هـ). وهذه الحركات قد درسناها بٱلتفصيل في موضوع علاقات الموحّدين بالإمارات الأندلسية المستقلة.

ب ـ خلال الفترة من عام 633هـ إلى عام 664هـ سقطت أهمّ المدن والحواضر الأندلسية بِيَد القوات الإسبانية والأوروبية، مما أضعف الوجود الموحدي في الأندلس، وقد وضّحنا هذا الأمر في موضوع جهاد الموحدين.

3 ـ تناحر أفراد البيت الموحدي من أجل الخلافة:

ظهر هذا التناحر والصراع على كرسيّ الحُكم بين أفراد أسرة عبد المؤمن بن علي بعد موت الناصر عام 610هـ في ظروف غامضة[240]، فتولى الحُكم ٱبنه يوسف المنتصر وهو ٱبن ست عشرة سنة، فوقع تحت سيطرة كبار البيت الموحدي وكبار رجال الدولة وشيوخ الموحدين[241]. وقامت في عهده حركات في منطقة سجلماسة وفي بلاد جزولة من منطقة السوس، وقد تشبث هؤلاء المتمرّدون بٱلنَّسَب الفاطمي من أجل كسب الأنصار، وقد أفلحت الدولة من القضاء على هذه الحركات[242].

ولمّا توفّي المنتصر عام 620هـ/ 1224م، بدأ عهد التفكّك السافر والٱنقسامات الأسرية بين أفراد الأسرة الموحدية، وقد وصف ٱبن خلدون هذا الأمر بقوله: «... ومات (المنتصر) سنة عشرين (أي سنة 620هـ) وقد التاثَتْ الأمور...»[243].

وقد أجمع رأي الكتل المتناحرة على مبايعة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (620 ـ 621هـ) الذي لم يهنأ بٱلْحُكم إلاَّ عدة شهور، خُلِع على إثر ذلك فتفرّق: «أمر بني عبد المؤمن وٱضطرمت مطامعهم حول العرش الموحديّ...»[244].

وكان سبب خلعه، هو تمرّد أبي محمد عبد الله بن يعقوب المنصور والي شرقي الأندلس عليه، وقد عاونه وعاضده في هذا الأمر أبو زيد بن يوجان، على أمل أن يعود إلى سابق سلطانه، ولعلّه يتخلّص من ٱبن جامع ومن الأمير الموحّديّ[245]. وبٱلْفعل أعلن أبو محمد عبد الله نفسه خليفة

(240) المراكشي، المعجب، ص 402.
(241) ابن خلدون، العبر، 6/ 250.
(242) المراكشي، المعجب، ص 408 وبعدها.
(243) العبر، 6/ 251.
(244) المراكشي، المعجب، ص 415.
(245) ابن خلدون، العبر، 6/ 350.

وتَسمَّى بٱلْعادل وبايعه معظم حُكّام الأندلس الموحّدين، وهكذا أصبح أمر الموحدين منقسماً بين حاكمين: أحدهما بمراكش، والآخر بالأندلس[246]. وبٱلْفعل خُلِع الأمير عبد الواحد وتولّى الأمرَ العادلُ (621 ـ 624هـ)[247].

وقع العادل تحت سيطرة شَيْخَيْ هِنْتَاتة وتينملل، وهما: ٱبن الشهيد ويوسف بن علي[248]، فأثار عليه هذا الأمر سخط قبيلة هسكورة التي تعاونت مع قبيلة الخلط العربية وهاجمت ضواحي مراكش، وقد مُنِيَت قوات العادل بٱلْهزيمة عندما تصدّت لها[249].

وسط هذه الهزائم في عدوة المغرب، تمرّد عبد الله البيّاسيّ عام 623هـ وخلع طاعة العادل وتحالف مع الإسبان ومكّنهم من بعض الحصون، وتصدى له والي إشبيلية أبو العلاء المأمون أخو العادل، وكذلك ثار عليه أهل قرطبة وقتلوه في نفس السنة[250].

إزاء هذا الوضع المضطرب تطلّع أبو العلاء المأمون أخو العادل الموحدي إلى الحُكم، فنقض بيعة أخيه في عام 624هـ وبايعته إشبيلية وبعض نواحي الأندلس. أما العادل الموحدي فإن شَيْخَيْ هِنْتاتة وتينملل تخلّصَا منه وقَتَلاه في عام 624هـ وبايعوا يحيى بن الناصر، وبذلك أصبح للموحدين حاكمان: الأول في مراكش (يحيى بن الناصر)، والثاني في الأندلس (المأمون)[251]. وأخذ المأمون يعد العدة من أجل العبور إلى عدوة المغرب والسيطرة على مراكش، فتحالف أولاً مع ملك قشتالة فرناندو الثالث وعقد معه حلفاً تضمن إمداد ملك قشتالة للمأمون الموحدي بعدد من فرسانه

(246) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 247.
(247) المراكشي، المعجب، ص 416. ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 270.
(248) ابن خلدون، العبر، 6/ 252.
(249) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 273.
(250) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 271، ص 273.
(251) ينظر: الحلل، ص 136 ـ 137. ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 273 ـ 274. ابن خلدون، العبر، 6/ 252.

لمساعدته في الوصول إلى المغرب[252]، مقابل أن يتنازل المأمون عن عدد من الحصون لملك قشتالة، بالإضافة إلى تقديم الأموال وذلك في عام 626هـ[253]. ولمّا وصلت المأمون بيعة والي سبتة له، ووالي تلمسان، ووالي فاس، ووالي بجاية، وكذلك رئيس قبيلة الخلط العربية، عَبَر إلى المغرب وتصدّى لأبن أخيه يحيى بن الناصر (المعتصم)[254] وألحق به الهزيمة، وهرب إلى جبل درن يهيئ نفسه لجولة قادمة، ودخل المأمون مراكش، وبدأ عهده بقتل زعماء الموحدين وشيوخهم الذين ساندوا المعتصم[255]. كما أقدم المأمون على خطوة جريئة تُعتبَر الأولى من نوعها في تاريخ الدولة الموحدية، إذ أعلن بطلان إمامة المهدي الموحدي، وكذَّب عصمته، وبعث بألكُتُب إلى سائر الولايات يوضّح فيه هذا الأمر[256].

ولم يهنأ المأمون بكرسيّ الحُكم، حيث هاجمه يحيى بن الناصر (المعتصم) مرّتين في عام 627هـ/ 1229م، إلاَّ أن المعتصم فشل في إحراز النصر[257].

وفي عام 629هـ، دخل المعتصم مدينة مراكش منتهزاً خروج المأمون إلى سبتة لنقضها الطاعة، فحاصرها ثلاثة شهور[258]، إلاَّ أنه ترك الحصار وكَرّ راجعاً إلى مراكش من أجل إخراج المعتصم منها، غير أن المأمون توفي فجأة عام 629هـ[259]، وكتمت زوجته حبابة خبر موته، فبايعوا أبنه عبد الواحد ولُقّب بألرشيد وذلك في أول محرم من عام 630هـ، وكان سِنّ الرشيد

(252) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 284. روض القرطاس، ص 250.
(253) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 252.
(254) المراكشي، المعجب، ص 416. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 247.
(255) ابن خلدون، العبر، 6/ 253.
(256) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 286. السلاوي، الاستقصا، 2/ 230.
(257) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 254.
(258) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 298.
(259) الحلل، ص 139. ابن خلدون، العبر، 6/ 254.

لا يتجاوز أربعة عشر عاماً[260]. وسار ركب الحاكم الموحدي الجديد صوب مراكش، وتصدى له المعتصم الموجود في داخلها، إلاّ أن المعتصم وأعوانه فرّوا بعد معركة عنيفة، ودخل الرشيد مراكش منتصف محرم من عام 630هـ[261]، وأول عمل قام به الرشيد الموحدي هو إعادة رسوم الدولة التي كان والده قد محاها، فأعلن الاعتراف بإمامة المهدي الموحدي وعصمته، وبذلك كسب إليه قلوب الكثيرين من زعماء الموحدين، واستغل هذا الأمر في محاربة المعتصم الذي قرر الإغارة على مدينة مراكش في عام 631هـ عندما خرج الرشيد منها إلى بلاد هسكورة لقمع حركات التمرد هناك، فتصدى له الرشيد وهزمه في عام 632هـ عند جبال هزرجة وفرّ المعتصم إلى سجلماسة[262]. ولمّا أوقع الرشيد بقبيلة الخلط العربية وقتل زعيمها مسعود بن حميدان الخلطي، تعاونت هذه القبيلة مع قبائل هسكورة، ودخلوا جميعاً في طاعة المعتصم نكاية بالرّشيد، ووحّدوا قوّاتهم وهاجموا مراكش، فهرب منها الرشيد وأعوانه، واستطاع بعد عناء كبير من الاحتماء في مدينة سجلماسة، فدخل المعتصم وأعوانه مدينة مراكش وسيطروا عليها[263].

وفي عام 633هـ جمع الرشيد أمره وانحدر بقواته صوب مراكش، فتصدى له المعتصم وأعوانه ودارت معركة قرب وادي أم الربيع، انتصر فيها الرشيد، وفرّ المعتصم من المعركة، ولجأ إلى قبائل المعقل وعاش هناك شريداً إلى أن قُتِل في نفس العام 633هـ[264].

وظنّ الرشيد بأن الأمر استقر له، وصَفَت له الأحوال، إلاّ أن المتاعب

(260) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 298. ابن خلدون، العبر، 6/ 254. السلاوي، الاستقصا، 2/ 234. روض القرطاس، ص 254.

(261) البيان الموحدي، ص 298. روض القرطاس، ص 255.

(262) ابن خلدون، العبر، 6/ 254. البيان الموحدي، ص 306. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 284 ـ 285.

(263) ينظر: البيان الموحدي، ص 327 وبعدها. العبر، 6/ 255.

(264) الحلل، ص 139. المراكشي، المعجب، ص 418 وبعدها. العبر، 6/ 255.

تجددت له، وجاءه الخطر هذه المرة من قِبَل بني مرين الذين أَرهقوا فاس وسجلماسة ودرعة بغاراتهم في عام 635هـ، ودخلت كثير من مدن وولايات المغرب الأقصى في طاعتهم، ولم يستطع الرشيد من كسر شوكتهم حتى توفي عام 640هـ[265].

تولى أمر الموحدين السعيد بن المأمون (640 ـ 646هـ)[266]، وقد ٱتّسع الخرق على الراتق، وأمر الدولة في غاية التدهور، وبدا الطامعون يضعون خططهم لاقتسام أملاك الدولة الموحدية. فبجانب قوة بني مرين، بدأ الأمير الحفصي يكسب له الاتباع وبالذات في الأندلس، وكان يغمراسن بن زيان هو الوحيد المساند لحكم السعيد من أجل تحقيق أطماعه الخاصة[267].

رأى السعيد بأن البلاد قد خرجت من أيدي الموحدين، وعليه الآن أن يوحّدها بٱلْقوّة، فجهّز الجيوش وقادها ضد بني مرين في المغرب الأقصى وبني عبد الواد في المغرب الأوسط وبني حفص في المغرب الأدنى، إلاّ أن هذه الحملة فشلت، فقُتِل السعيد وقُتِل ٱبنه عبد الله في ذي الحجة عام 645هـ/ 646هـ[268].

وخلال الفترة من عام 646هـ إلى عام 674هـ حكم فيها المرتضى (ٱبن أخي المنصور) أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم إسحق (646 ـ 665هـ)، وأبو دبوس (ٱبن عمّ المرتضى والمتآمر عليه) 665 ـ 668هـ، وإسحق بن أبي إبراهيم 668 ـ 674هـ، وكانت الأمور تسير في صالح بني مَرِين الذين استطاعوا إسقاط دولة الموحدين بسهولة خلال هذه الفترة[269].

(265) البيان الموحدي، ص 354 وبعدها. الحلل، ص 139. العبر، 6/ 256. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 288 ـ 289.

(266) المراكشي، المعجب، ص 418.

(267) روض القرطاس، ص 256. البيان الموحدي، ص 359 وبعدها.

(268) العبر، 6/ 258. المراكشي، المعجب، ص 418. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 289 ـ 290.

(269) المراكشي، المعجب، ص 418 ـ 419. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 290 ـ 292.

4 ـ دور القبائل في إضعاف الدولة وسقوطها:

لمّا كانت دولة الموحدين في طورها الأول، أي في عصر القوة، استطاعت الهيمنة على معظم القبائل العربية منها والبربرية، ووظّفتها لخدمة الدولة وتحقيق النصر في معاركها الجهادية في الأندلس بالذات، ولكن لمّا بدأت بوادر الضعف والانحلال في جسم هذه الدولة في طورها الثاني، بدأت هذه القبائل تخلق المتاعب للدولة وساهم بعضها في إضعاف وسقوط هذه الدولة، ومن هذه القبائل:

أ ـ **بنو مرين:**[270] والذين أسسوا دولةً في المغرب الأقصى سُمّيت بالدولة ألْمَرِينية أو الدولة الوطّاسية[271].

وفي البداية ساهم المرينيون في معارك الجهاد الموحدية بالأندلس ضد الممالك الإسبانية، وبالذات في معركة الأرك، وأبلَوْا بلاءً حسناً، وأُصيبَ زعيمهم (محيو بن أبي بكر) بجروح قاتلة مات على إثرها في بلاد الزاب عام 592هـ، وتولى الأمر بعده ابنه عبد الحق، وفي عهده بدأ نجم بني مرين يبزغ في الأفق[272].

كانت مضارب بني مرين تمتدّ بين ملوية وسجلماسة ويبعدون في رحلتهم حتى الزاب[273]، ولكن في عهد عبد الحق دخلوا بلاد المغرب الأقصى وأقاموا ببلاد الريف في سنة 610هـ عندما لمسوا ضعف خليفة الموحدين يوسف المنتصر الذي تولّى الأمر بعد الناصر الموحّدي المهزوم في معركة العقاب عام 609هـ المشهورة، وبدأ خطرهم يُقلِق دولة الموحدين فقرر الحاكم الموحدي رد عدوانهم، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة أبي علي بن

---

(270) عن أصلهم ونسبهم، ينظر: عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 334.

(271) سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 782.

(272) ابن خلدون، العبر، 7/ 169. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 266. عنان، المرجع السابق، 2/ 336.

(273) السلاوي، الاستقصا، 3/ 3 ـ 4.

وانودين، وأنضمت إلى هذا الجيش قوّات والي فاس أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن الذي أصبح القائد الأعلى لهذه القوات، والذي كُلِّف بردّ خطر المرينيين والقضاء عليهم. ولمّا سمع بَنُو مَرين بهذا الإعداد الموحّدي تهيأوا للقتال فدارت رحى الحرب عند وادي نكور عام 613هـ/ 1216م، وكان النصر لبني مرين الذين هزموا الجيش الموحدي أقبح هزيمة، وسُمِّيَ هذا العام بعام المشعلة[274]. وفي نفس العام وصلت القوات المرينية إلى تَازَا وأنتصرت على القوات الموحدية فيها، وهكذا تمكّن المرينيون خلال عام واحد من إحراز النصر في معركتين ضد القوات الموحّدية[275].

ولكن الدولة الموحّدية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الخطر، فأستعانت أولاً بقبائل بني رياح العربية، كما قامت ثانياً بأستغلال الخلافات الموجودة بين المرينيين، حيث كان بنو عسكر ـ وهم أبناء عمّ المرينيين ـ يحسدون بني مرين على الزعامة وعلى انتصاراتهم الحربية، فوظّف الموحّدون هذا الأمر فأستعانوا بهذه الأطراف جميعاً من أجل محاربة المرينيين وكسر شوكتهم[276]. ففي جمادى الآخرة من عام 614هـ/ 1217م قامت الحرب بين الموحدين وحلفائهم وبين المرينيين بالقرب من وادي سبو على بعد أميال من تافرطاست، وكانت الجولة الأولى في هذه المعركة من صالح القوى المتحالفة، وقُتِل في المعركة أمير بني مرين عبد الحق وأبنه إدريس، إلاّ أن المرينيين أستبسلوا في القتال وتمكّنوا من إحراز النصر في الجولة الثانية، وبعدها بايعوا (أبا سعيد عثمان بن عبد الحق) أميراً عليهم[277].

---

(274) نسبة إلى نبات بهذا الاسم الذي وُجِد بكثرة هذا العام، وقد استتر به جند الموحدين بعد هزيمتهم، ينظر: ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 266.

(275) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 268.

(276) عنان، المرجع السابق، 2/ 337.

(277) ابن خلدون، العبر، 7/ 170. السلاوي، الاستقصا، 3/ 7. عنان، المرجع السابق، 2/ 337. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 268 ـ 269.

استغلّ عثمان بن عبد الحق ضعف دولة الموحدين، فأخذ يدعو قبائل المغرب إلى الدخول في طاعته، فدخلت هذه القبائل في طاعته إمّا خوفاً أو طمعاً في الحصول على الأمن والاّطمئنان تحت رعايته[278]. فبايعته قبائل هوارة ومكناسة ومديونة وزكارة وغيرها، وفرض عليهم حصة من الخراج يؤدونها كل عام وعَيّن عليهم عُمّاله. كما ألزم أهل فاس ومكناسة وتازا وقصر كُتَامة بضريبة معلومة يؤدونها له كل عام اَتّقاءً لخطره[279]. كما أخضع قبائل زناتة المتواجدة ببلاد فازاز وذلك في عام 620هـ، كما أطاعته قبيلة رياح وأدت له الأموال بعد أن غزاها في عام 621هـ[280].

وهكذا استطاع الأمير المرينيّ أبو سعيد عثمان من تأسيس الدولة المرينية وتوطيد بنيانها، في الوقت الذي نجد فيه دولة الموحدين قد أخذت في الأفول.

توفي أبو سعيد عثمان عام 638هـ/ 1240م غِيلةً، وتولى الأمر بعده أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق، وسار على نهج أخيه في محاربة الموحدين، وفرض الطاعة على قبائل المغرب وجباية الأموال منها. فتصدى له الرشيد الموحّديّ، إلاّ أن القوات الموحدية انهزمت أمام المرينيين بعد معركة عنيفة خارج مدينة مكناسة[281].

بعد وفاة الرشيد الموحدي عام 640هـ تولّى الأمر أخوه علي الملقّب بِاْلسّعِيد، والذي استطاع من إحراز النصر على بني مرين بعد معارك عنيفة دارت في أحواز مدينة فاس، وقُتِل أمير المرينيين أبو معرف محمد، وهربت فلول المرينيين إلى جبال غياثة من نواحي تازا، كما هربوا بعيالهم في جوف

(278) سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 783.

(279) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 270.

(280) السلاوي، الاستقصا، 3/ 10.

(281) ابن خلدون، العبر، 7/ 171. السلاوي، الاستقصا، 3/ 10. سالم، تاريخ المغرب، ص 783.

الصحراء، وذلك في عام 642هـ/ 1244م[282]. بايع بنو مرين أبا بكر بن عبد الحق بعد مقتل أميرهم[283]، وكان أوّل عمل قام به هو أن قسّم مناطق المغرب، الواقعة تحت سيطرة بني مرين، بين القبائل المرينية، وخص كل قبيلة بناحية منها، ثم سار الأمير المرينيّ صوب مكناسة[284].

ولكي يكسب بنو مرين لحربهم ضد الموحدين صفة شرعية، دخلوا في طاعة أمراء الدولة الحفصية بأفريقية. وقد أكسبهم هذا الأمر شرعية الحكم وحرية التصرف، كما أبعد عنهم خطر بني عبد الواد في المغرب الأوسط الذين كانوا يخافون من الحفصيين[285].

سيطر المرينيون في عام 643هـ/ 1245م على مدينة مكناسة بعد غارات متكررة، ودخلت في طاعة المرينيين والحفصيين[286].

ارتاع السّعيد الموحدي لهذا الأمر، ففي شهر ذي الحجة من عام 645هـ/ نيسان 1248م خرج بقوّاته الكثيرة المتكوّنة من الجند النظاميّ ومن قبائل العرب والبربر، والجند الإسبانيّ العامل في الجيش الموحديّ، واتجه لضرب بني مرين في مكناسة أولاً، ومن ثم ضرب بني عبد الواد في المغرب الأوسط ثانياً، وضرب بني حفص في تونس ثالثاً[287].

نزل الأمير الموحدي بقوّاته في وادي بهت في طريقه إلى بني مرين، وقد أدرك المرينيون قوة الجيش الموحدي، لذا بادر أميرهم بإرسال وفد إلى حاكم الموحدين يسترضيه ويقدّم له الطاعة، ويتعهّد بأن يمدّ الحاكم الموحديّ بفرقة من جيوش بني مرين تساعده في حربه ضد أمراء تلمسان

(282) الحلل، ص 146. روض القرطاس، ص 256. السلاوي، الاستقصا، 3/ 11.

(283) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 366.

(284) ابن خلدون، العبر، 7/ 171.

(285) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 271.

(286) السلاوي، الاستقصا، 3/ 12.

(287) عنان، المرجع السابق، 2/ 525. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 272.

وتونس[288]، كما أن أهل مكناسة قدّموا الولاء والطاعة للسعيد الموحدي[289].

سار السعيد الموحدي صوب تلمسان من أجل القضاء على إمارة بني عبد الواد، ولم يقبل السعيد طاعة يغمراسن بن زيان التي بعثها مع وزيره الفقيه عبدون، بل أصرّ السعيد الموحدي على قدوم يغمراسن إليه والذي تحصّن في قلعة (تامجر درت) جنوبي مدينة وِجْدة، فلما امتنع يغمراسن من القدوم، سار إليه السعيد الموحدي محاولاً اقتحام القلعة عليه، إلاّ أنه قُتِل في كمين دُبّر له وذلك في أواخر صفر عام 646هـ/ 1248م[290]. رجع الجيش الموحدي مهزوماً بعد هذا المصاب، فاعترضه بنو مرين عند موضع (أكرسيف) بجهات تازا، فاستولوا على ما بقي من متاعهم وقتلوا عبد الله بن السعيد، فسار أمير بني مرين أبو بكر صوب مكناسة فسيطر عليها[291]. ثم سيطر على بلاد وطاط وملوية في عام 646هـ/ 1248م، وأعاد كذلك مدينة فاس إلى طاعته وذلك في نفس العام، كما سيطر المرينيون على مدينة سَلاَ (رباط الفتح) عام 649هـ/ 1251م[292].

إزاء هذا التوسع المريني، تصدى المرتضى الموحدي له في عام 653هـ بجيش جرّار والْتَقى بِالْمَرينيين عند أحواز مدينة فاس فانهزمت القوات الموحدية أبشع هزيمة[293].

(288) الذخيرة السنية، ص 76 ـ 77. ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 385. العبر، 7/ 172.
(289) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 373 وبعدها.
(290) الذخيرة السنية، ص 78. روض القرطاس، ص 257. ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 386 ـ 387. الاستقصا، 2/ 242. عنان، المرجع السابق، 2/ 526.
(291) ابن خلدون، العبر، 7/ 174. السلاوي، الاستقصا، 2/ 244. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 272.
(292) سالم، تاريخ المغرب، ص 783 ـ 784.
(293) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 400. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 273.

بعد هذا الانتصار سيطر المرينيون على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة وذلك في عام 653هـ[294].

وبعد موت أبي بكر عام 656هـ/ 1258م تنافس على رئاسة بني مرين أخوه يعقوب بن عبد الحق، وابْنُه عمر، إلاّ أن الأمر استقام للعمّ يعقوب فدخل فاس قاعدة المرينيين عام 657هـ/ 1259م[295]. وخلال الأعوام من عام 660هـ/ 1262م إلى عام 668هـ/ 1269م هاجم المرينيون مدينة مراكش عاصمة الموحّدين عدة مرات وتبادلوا النصر والهزيمة حتى استطاعت القوات المرينية من دخول مراكش عام 668هـ وبذلك تسقط دولة الموحدين[296].

ويُعتبَر دخول المرينيين مراكش بداية تاريخ دولتهم، وقد ركز المرينيون نشاطهم بعد ذلك في مجالين: الأول في مجال الأندلس حيث قدّموا مساعداتهم لبني نصر أصحاب غرناطة في جهادهم ضد الممالك الإسبانية، والمجال الآخر هو تدخّلهم في شؤون المغرَبْين الأوسط والأدنى فدخلوا في حروب كثيرة مع بني عبد الواد ومع الحفصيين[297].

ب ـ **الحفصيون**: ينحدر الحفصيون من نسل الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي الذي يعود نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه[298]، وكان من رجالات الدولة الموحدية وضمن الطبقة الأولى في نظام المهدي بن تومرت (طبقة الجماعة)[299].

---

(294) عنان، المرجع السابق، 2/ 544 ـ 545.

(295) السلاوي، الاستقصا، 2/ 20.

(296) ينظر: ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 468. السلاوي، الاستقصا، 3/ 26 ـ 27. عنان، المرجع السابق، 2/ 570. مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 275.

(297) سالم، تاريخ المغرب، ص 784.

(298) ابن خلدون، العبر، 6/ 275. ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ص 48 ـ 49 (مقدمة المحقق).

(299) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 276. ينظر: الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 297.

ولمّا ازداد عبث بني غانية في منطقة أفريقية، مَنَح الناصر الموحدي هذه المنطقة إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص وذلك في عام 603هـ/1206م[300]. ويُعتبَر تعيين ابن أبي حفص هذا أوّل اقتطاع لإحدى الولايات المغربية عن جسم الدولة الموحدية، لكي تكون إمارة حدودية تقف في وجه بني غانية وغيرهم من الطامعين[301]، وجُرّد والي أفريقية الحفصيّ هذا من صلاحياته بعد وفاة الناصر الموحديّ، وتولي أمر الموحدين المنتصرُ، وذلك بسبب تباطئه في بيعة الحاكم الموحدي الجديد[302].

ولمّا توطدت الأمور للمنتصر الموحديّ، شعر بخطر الأمير الحفصيّ، لذا عَيَّن على تونس أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن، وبقي عبد الواحد الحفصي إلى جانبه، وزيادة في الاحتراز بعث والي تونس الجديد أبا زكريا وأبا عبد الله أبناء عبد الواحد الحفصي إلى مراكش ليظلاّ تحت أنظار الموحّديين هناك[303].

ولمّا توفي عبد الواحد في عام 618هـ، تولّى ابنه أبو زيد عبد الرحمن مكان أبيه. وفي عام 620هـ توفي والي تونس الموحدي أبو العلاء إدريس فتولّى أمرَ تونس ابنه أبو زيد بن إدريس، فأساء السيرة فعزله العادل الموحدي وعَيّن بدله أبا محمد عبد الله بن عبد الواحد الحفصي وذلك في عام 623هـ، فعقد لأخيه أبي إبراهيم على بلاد قسطيلية، ولأخيه أبي زكريا على بلاد قابس[304].

ويُعَدّ أبو زكريا يحيى الحفصي المؤسس الحقيقي لدولة الحفصيين

---

(300) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 248 ـ 249. ابن خلدون، العبر، 6/ 278.

(301) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 278.

(302) السلاوي، الاستقصا، 2/ 218.

(303) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 291 ـ 292.

(304) ابن خلدون، العبر، 6/ 279 ـ 280. السلاوي، الاستقصا، 2/ 220. محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 789. محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي، ص 13.

بتونس، فقد ٱستقلّ بإمارة أفريقية في عام 625هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله (الملقَّب بعبو) المشهور بولائه لدولة الموحدين[305].

وشجّعت الظروف التي تمرّ بها دولة الموحدين أبا زكريا الحفصي على الاستقلال، ومن هذه الظروف الأنشقاق بين أفراد البيت الحاكم حيث وُجِد في هذه الفترة أميران (المأمون ويحيى بن الناصر) متنازعان، بالإضافة إلى سياسة المأمون الجديدة التي شكّكت في عصمة المهدي الموحّديّ، مما أثار عليه حفيظة الكثير من قبائل الموحدين[306].

وفي البداية كان أبو زكريا الحفصي موالياً ليحيى بن الناصر الموحدي، ولكنه أدرك ضعف هذا الأمير ومنافسه المأمون، فأهمل ذِكْر يحيى بن الناصر في الخُطبة واقتصر على ذِكْر المهدي بن تومرت، وتلقّب بالأمير وجدد البيعة لنفسه عام 634هـ[307].

وبذلك خرجت ولاية أفريقية عن سلطان الموحدين واستقلت عنهم. وفي الوقت نفسه عمل الحفصيون على مدّ نفوذهم إلى المغرب الأوسط، وتطلّعوا إلى المغرب الأقصى.

ففي عام 626هـ سيطر الأمير أبو زكريا الحفصي على مدينة بِجَايَة وقَسَنْطِينة، وفي عام 639هـ سار الأمير الحفصيّ بقوات كبيرة صوب تلمسان، وسيطر عليها بعد أن هرب أميرها يغمراسن بن زيان الموالي للموحدين إلى مناطق الجبال. وتدخلت والدة يغمراسن الداهية وعقدت الصلح بين ٱبنها وبين الأمير الحفصيّ، وأُعِيد يغمراسن لحكم تلمسان ودخل في طاعة الحفصيين. ومن أجل إضعاف أمير تلمسان، عمل الأمير الحفصيّ على تنصيب بعض شيوخ زناتة المنافسين له أمراءَ على بعض جهات المغرب

(305) سالم، تاريخ المغرب العربي، ص 11.
(306) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 280.
(307) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 292. الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 298.

الأوسط وجعلهم بمستوى يغمراسن في الحكم[308].

وإزاء تصاعد نفوذ الأمير الحفصيّ، في الوقت الذي بدأت فيه دولة الموحدين بالأفول، بدأ الأمراء وزعماء القبائل يعلنون ولاءهم للأمير الحفصيّ، فدخل في طاعته بنو مرين في المغرب الأقصى، وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط، ودخلت في طاعته سجلماسة وسبتة، وكذلك أمراء الأندلس منهم محمد بن الأحمر صاحب جيان وقرطبة، وأبو جميل زيان وغيرهم[309].

وازداد نفوذ الدولة الحفصية، وبخاصة بعد أفول حكم العباسيين، بسيطرة المغول على بغداد في عام 656هـ/ 1258م، حيث بايعت الحجاز أمير الدولة الحفصية خليفة للمسلمين، وقد احتُفِل بهذا الأمر عام 659هـ وسَمّى الأميرُ الحفصيّ المستنصر بنُ الأمير أبي زكريا نفسه بأمير المؤمنين، وخضعت له بلاد المغرب العربي، وذاع صيته في بلاد السودان الغربي[310]. وحَكَم من عام 647هـ إلى عام 675هـ/ 1249 ـ 1277م[311].

---

(308) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 15.

(309) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 281 ـ 282. الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 298.

(310) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 31.

(311) الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 299.

دور المغرب في احتضان العرب المهاجرين من الأندلس، وفي حفظ الثقافة والحضارة

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

أول من تكهّن بمصير الأندلسيين بعد استقرار العرب المسلمين بإسبانيا بعد الفتح العربي، هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي (99 ـ 101هـ)، وقد كتب لعامله على الأندلس السَّمِح بن مالك الخولاني (100 ـ 102هـ) يطلب منه أن يكتب إليه صفتها، وأنهارها وبحارها[1]، فكتب إليه السمح يعرّفه بقوّة الإسلام وكثرة مدائنهم وقوة معاقلهم، فعدل الخليفة عمر بن عبد العزيز عن رأيه وأقرّ السمح على ولايته[2].

وأقام المسلمون بالأندلس بالرغم مما كان يتهددهم من أخطار، وبخاصة بعد تجمّع فلول الإسبان وظهور النواة الأولى للمقاومة الإسبانية في الشمال وذلك في عصر الولاة (95 ـ 138هـ). وبمرور الزمن تمكّنت هذه النواة أن تتحول إلى ممالك إسبانية مدعومة من قبل أوروبا، واستطاعت أن تسيطر على أهم المدن والقواعد الأندلسية تباعاً، على الرغم من الجهود

(1) أخبار مجموعة، ص 33. ابن عذاري، البيان، 2/ 26. مؤنس، فجر الأندلس، ص 137، ص 605.

(2) تاريخ افتتاح الأندلس، ص 39. ابن عذاري، البيان، 2/ 26.

الكبيرة التي قام بها مسلمو الأندلس شعباً وحُكّاماً من أجل صدّ هذا العدوان. كما أن المغرب منذ عهد المرابطين هبّ مسانداً للأندلس، وجاهدت الممالك الإسبانية بما استطاعت من قوة، فحافظت على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس عدة قرون، ولكن توالت النكبات وازدادت قوة العدوّ الإسباني الذي أسقط آخر معقل عربيّ بالأندلس عام 897هـ/ 1492م وهو مملكة غرناطة، وعانت الأندلس والمغرب الأمرّين بعد انحسار الوجود الإسلامي بالأندلس[3].

ومثلما كانت عدوة المغرب العربي المَعِين الذي لا ينضب في إسناد الوجود العربي بالأندلس منذ فتحها، فقد أصبحت كذلك الوطن الآمن الذي هرع إليه أهل الأندلس بعد نزول النكبات بهم.

إن هجرة الأندلسيين إلى المغرب، ودور المغرب في احتضانهم، لم يقتصر على القرون التي أعقبت سقوط غرناطة بِيَد الإسبان عام 897هـ، بل إن المغرب احتضن المهاجرين الأندلسيين منذ أن بدأ الإسبان يحتلّون أهمّ حواضر الأندلس، وبِالذات بعد سيطرتهم على مدينة طليطلة عام 478هـ/ 1085م، وبذلك تكُون هجرة الأندلسيين إلى المغرب قد مرّت بالمراحل الآتية:

المرحلة الأولى 478 ـ 897هـ/ 1085 ـ 1492م:

تبدأ هذه المرحلة بعد سقوط طليطلة بيد الفونسو السادس ملك قشتالة في عام 478هـ، وتنتهي بسقوط آخر مملكة عربية بالأندلس بِيَدِ الإسبان عام 897هـ وهي مملكة غرناطة. فهجرة الأندلسيين في هذه الفترة كانت مزدوجة: فقسم منهم هاجروا ـ بعد أن سقطت مدنهم بيد الإسبان ـ إلى الحواضر الأندلسية التي بقيت بيد المسلمين، وبذلك كان تجمّعهم الكبير في مدن مملكة غرناطة، وكان تجمعهم هذا من الإسباب التي مدت في مقاومة هذه

(3) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 227 ـ 228.

المملكة للعدوان الإسباني[4]. والقسم الآخر منهم هاجر إلى عدوة المغرب، وقد ازدادت هذه الهجرة عندما أصبحت الأندلس ولاية مرابطية، وولاية موحدية، وما تلاها من عصور إلى سقوط مملكة غرناطة.

عانى أهل الأندلس من تمزّق نفسيّ، وشعور مرير بآلخيبة بعد سقوط الخلافة الأندلسية وقيام عصر الطوائف 422 ـ 483هـ، وقد عبّر عن بعض هذا الشعور الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق بقوله:

مِمّا يُزَهِّدنِي في أرضِ أَنْدَلُسٍ   أسماءُ مُعْتَمِدٍ فيها ومُعتَضِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا   كَٱلْهِرّ يَحكِي ٱنْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ[5]

وقد كان هذا العصر عصر تفكّك وانحلال سياسيّ واجتماعيّ، ترامى فيه أمراء دويلات الطوائف في أحضان ملوك الإسبان يخطبون وُدَّهم ورعايتهم دون أن يقدّروا مشاعر أهل الأندلس، ودون أي اعتبار للأَنَفة العربية والعِزّة الإسلامية. فاستغلت الممالك الإسبانية هذا الموقف، فألحقت نكبات وكوارث بأهل الأندلس منها نكبة بربشتر عام 456هـ/ 1064م حيث غزاها النورمان مع قوات إسبانية وفرنسية وعاثوا فساداً في هذه المدينة الواقعة في منطقة الثغر الأعلى[6]، وكذلك سيطرة أَلْفُونسو السادس على مدينة طُلَيطِلة عام 478هـ تسانده قوات أوروبية[7].

كان لهذا السقوط والنكبات أثر سيّء على النفس الأندلسية، فظهرت دعوات تدلّ على الأنسحاب أوّلاً، وتطالب بترك الأندلس لمصيرها المجهول ثانياً. وقد عَبّر عن هذا الأمر بعض الشعراء بقصائد تدل على أنهيار النفس

(4) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 521 ـ 522.

(5) المراكشي، المعجب، ص 123.

(6) ينظر: ابن الكردبوس، ص 70. ابن الأبار، الحلة السيراء، 2/ Dozy, Histoire, 2,247 . P. 353. pidal, Laespana, P. 84.

(7) ابن الخطيب، أعمال، ص 242 ـ 243. عنان، دول الطوائف، ص 112 وبعدها.

الأندلسية[8]. ومع سقوط طليطلة، سقط أيضاً عدد كبير من المدن والحصون حولها، وكان لهذا السقوط وقعٌ أليم في سائر أنحاء الأندلس، وفي سائر أنحاء العالم العربي الإسلامي، ونُظمت القصائد التي تعبّر عن هذا الواقع المرير[9].

وفي هذا العصر ظهرت دعوة ترمي إلى توحيد الأندلس، والعمل على إيجاد قوة موحِّدة للصمود أمام خطر الإسبان، تزعّمها صالح العلماء والفقهاء، وبعض أمراء دويلات الطوائف، إلاَّ أن هذه الدعوة لم يُكتَب لها النجاح، فكان قرار أهل الأندلس الصائب الذي يتضمن دعوة المرابطين من عدوة المغرب لإنجاد الأندلس[10].

عبرت القوات المرابطية إلى الأندلس وساندت أمراء الطوائف وصدت عدوان الإسبان، فكان النصر الحاسم على الفونسو السادس في معركة الزلاّقة عام 479هـ/ 1086م، وفي معركة حصن لييط عام 481هـ/ 1088م[11]. وبعدها أدرك عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين أن لا فائدة من وجود أمراء الطوائف، فبدأ بعزلهم اعتباراً من عام 483هـ/ 1090م وجعل الأندلس ولاية مرابطية[12]. وفي هذا الوقت شهدت عُدْوَة المغرب هجرة قسم من أمراء دويلات الطوائف وعائلاتهم وحاشيتهم، إما بصورة قسرية أو هروباً قبل سقوط مدنهم بِيَدِ القوات المرابطية، فقد نُفِيَ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية

(8) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 118. المقري، نفح الطيب، 4/ 352. محمد رزوق، «الجالية الأندلسية بالمغرب العربي» مجلة المناهل، العدد، 34 (الرباط: 1986)، ص 123.

(9) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 351 ـ 352.

(10) السامرائي، «الدعوة إلى توحيد الأندلس. . .»، ص 82 وبعدها.

(11) ابن الخطيب، أعمال، 3/ 249، ص 251. السامرائي، علاقات المرابطين، ص 125 وبعدها.

(12) السامرائي، علاقات، ص 158. نصر الله، دولة المرابطين، ص 117 وبعدها.

وأسرته إلى مرّاكش، ثم فُرِضت عليهم الإقامة في مدينة أغمات[13].

وكذلك نُفِيَ الأمير عبد الله صاحب غرناطة وأهله إلى مدينة سبتة، واستقروا أخيراً في مدينة أغمات، كما نُفِيَ أخوه تميم أمير مالقة إلى السوس، وبعدها سكن مراكش[14].

وعندما وصلت القوات المرابطية مدينة ألمرية هرب حاكمها معزّ الدولة بن المعتصم بن صمادح إلى المغرب الأوسط، وعاش في كنف إمارة بني حَمّاد فيها وأُعطِيَت له مدينة تدلس[15]. كما نُقِل أبناء المتوكل بن الأفطس أميرِ بطليوس إلى مراكش بعد مقتل والدهم[16].

ولما أصبحت الأندلس إقليماً تابعاً لدولة المرابطين، ٱزدادت الهجرة من الأندلس إلى عُدوة المغرب لسببين:

الأول: التنقل ضمن حدود الدولة الواحدة، وقد رحّب المرابطون بهؤلاء الوافدين وبخاصة العلماء والأدباء والمفكّرين الأندلسيين للاستفادة منهم في الميدان الفكري.

الثاني: هروب طائفة من سكان المُدُن الأندلسية التي وقعت بيَدِ الإسبان في هذا العصر، وذهابهم إلى عدوة المغرب لينعموا بالاستقرار والطمأنينة[17]. وبخاصة بعد سقوط سرقسطة بِيَدِ الإسبان عام 512هـ/ 1118م[18]، وخسارة المرابطين في معركة قتندة عام 514هـ/

(13) مذكرات الأمير عبد الله، ص 171. ابن الأثير، الكامل، 10/ 190. ابن الأبار، الحلة السيراء، 2/ 55، ص 62.

(14) كتاب التبيان (مذكرات)، ص 163، ص 171. الحلل، ص 58.

(15) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 105، ص 107. نصر الله، دولة المرابطين، ص 132.

(16) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/ 123.

(17) السامرائي، علاقات المرابطين، ص 351 ـ 352.

(18) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 5/ 480. ابن الأبار، الحلة السيراء، 2/ 248. السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص 340.

1120م[19]، وسقوط بعض الحواضر الأندلسية بيد الممالك الإسبانية، مثل مدينة ألْمَرية عام 542هـ/ 1147م، ومدينة طرطوشة عام 543هـ/ 1148م وغيرها[20].

لم يستمر عهد المرابطين طويلاً في الأندلس (483 ـ 542هـ) وانضوت الأندلس تحت سيادة الموحدين (542 ـ 622هـ)، وبعدها مزّقتها الإمارات المستقلة. فإذا كان نصر الموحدين على الإسبان كبيراً وحاسماً في معركة الأرك عام 591هـ، فإن خسارتهم فادحة في معركة العُقَاب عام 609هـ.

على إثر هذه الخسارة، ضعف العون المغربي للأندلس أوّلاً، كما استطاعت الممالك الإسبانية فرض سيطرتها تباعاً على أهم الحواضر الأندلسية ثانياً. فسقطت جزيرة ميورقة عام 627هـ، وبعدها سقطت الجزر الشرقية الأخرى. وفي عام 633هـ سقطت مدينة قرطبة، وسقطت مدينة بلنسية عام 636هـ، وكذلك مدينة دانية عام 641هـ، ومدينة جيان عام 643هـ، ومدينة شاطبة عام 644هـ، ومدينة مرسية عام 664هـ، وغيرها[21]. لم يقف أهل الأندلس وحُكّامهم، سواء الموحدين منهم، أو حُكّام الإمارات المستقلة (أبو جميل زيان حاكم شرقي الأندلس، وابن الأحمر حاكم غرناطة وغيرهم) مكتوفي الأيدي أمام هذه الأخطار بل جاهدوا وكابدوا العدوّ، ورَوُوا بلد الأندلس بدماء الشهداء الأبرار، واستطاعوا أن يسترجعوا بعض المدن المهمة إلى حين.

من خلال استعراضنا لهذا الوضع نرى الأمور الآتية:

1 ـ استنجاد أهل الأندلس بدُوَل وإمارات المغرب العربي، فكان إنجادها

---

(19) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 429.

(20) المقري، نفح الطيب، 4/ 462. عنان، عصر المرابطين والموحدين، 1/ 494، ص 518 ـ 520.

(21) ينظر: بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 71. السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص 287. الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 480.

ضعيفاً يعكس الحالة السياسية والعسكرية المتردية لدول المغرب العربي حيث كانت دولة الموحدين تعيش أدوارها الأخيرة، كما قامت في منطقة المغرب العربي إمارات استقلت عن دولة الموحدين وساهمت في سقوطها، بالإضافة إلى الخلافات بين هذه الإمارات مثل الإمارة الحفصية في تونس، والإمارة الزيانية في المغرب الأوسط، وإمارة بني مرين في المغرب الأقصى.

وفي طليعة هذه الصرخات، صرخة أهل بلنسية التي أرسلوها مع سفيرهم ٱبن الأبّار ـ المؤرخ المشهور ـ إلى تونس يطلبون العون من أميرها الحفصيّ أبي زكريا يحيى بن أبي حفص (625 ـ 647هـ) وذلك في عام 635هـ عند اشتداد الحصار الإسباني لها، وقد ألهب هذا السفير المشاعر العربية الإسلامية في قصيدته المشهورة:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللَّهِ أَنْدَلُسَا إن ٱلسَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا[22]

وأُرسِلت النجدات ولكنّها لم تكن مجدية بسبب الحصار الإسباني الشديد للمدينة والتي استسلمت بعد فقدان الأمل بالإمداد والعون[23].

2 ـ هجرة الأندلسيين إلى عدوة المغرب بعد نزول هذه النكبات بهم، فخرج مئات الألوف منهم، استقر قسم منهم في المدن الأندلسية الجنوبية ـ مملكة غرناطة ـ وعَبَر القسم الآخر إلى عدوة المغرب، فقُدِّر عدد المهاجرين من مدينة بلنسية بخمسين ألفاً[24]، وقدّر عدد المهاجرين من مدينة إشبيلية بأربعمائة ألف[25]، وكما يقول ٱبن

(22) ابن خلدون، العبر، 6/ 283 وبعدها. المقري، نفح الطيب، 2/ 578 وبعدها. محمد رزوق: «الجالية الأندلسية. . .»، ص 127.

(23) عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 450.

(24) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 478.

(25) عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 486.

عذاري: «... خرج منها الخاصّ من أهلها والعامّ...»[26]، منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى مدينة سبتة، وثلاثمائة ألف ساروا برّاً نحو شريش وتفرّقوا في مدن مملكة غرناطة، وعبروا إلى المغرب واستقروا في مدينة سبتة وفي تونس[27]. وقد استفادت الإمارة الحفصية من هؤلاء الوافدين وبخاصة من الناحية الفكرية والاقتصادية، وبلغت عناية الإمارة الحفصية بمهاجري الأندلس أنها لا تستعمل في وظائفها إلاّ الأندلسيين وتُفضِّلهم على التونسيين، وقد أثار هذا الأمر حفيظة أهل تونس[28].

3 ـ لاقى أهل الأندلس الوافدون إلى عدوة المغرب العطفَ والترحيبَ من وُلاة الأمر فيها، وذلك جبراً لخاطرهم وإشعارهم بالأمان في موطنهم الجديد.

فلما سقطت بلنسية وبعض مدن شرقي الأندلس بيد الممالك الإسبانية ونزح الكثير من أهلها إلى عدوة المغرب كما ذكرنا، أصدر الرشيد الموحدي أمراً «ظهيراً» في عام 637هـ، يَأذن لهم فيه بالّنزّول في رباط الفتح، ويَسمَح لهم بأمتلاك الأراضي وحِرَاثتها، وأنهم آمنون في موطنهم الجديد ترعاهم الدولة وعمّالها وتحميهم وتردّ عنهم أي اعتداء أو أذى[29]. احتشدت بقايا أهل الأندلس المتداعين في مملكة غرناطة 635 ـ 897هـ، وقُدِّر عَدَد سكانها زهاء ستة ملايين نسمة، استفادت منهم في صد عدوان الممالك الإسبانية، وفي مدّ الوجود العربي بالأندلس عدة قرون أخرى[30].

---

(26) البيان الموحدي، ص 384.

(27) عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 486.

(28) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 29، 38.

(29) ينظر: نص الظهير، عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 456. عبد الكريم كريم، رباط الفتح، ص 12 ـ 14.

(30) عنان، نهاية الأندلس، ص 70.

المرحلة الثانية: 897 ـ 1008هـ/ 1492 ـ 1598م

صمدت مملكة غرناطة أمام الخطر الإسباني زهاء قَرنَيْن ونصف من الزمان، وعزّز هذا الصمود أحياناً مساندة عُدوَة المغرب لهذه المملكة وبالذات المساعدات التي قدمتها الدولة المرينية للأندلس من خلال مشيخة الغزاة، وهي القوات المرينية في الأندلس التي تساند مملكة غرناطة[31].

كان سقوط مدينة جبل طارق بيَدِ القشتاليين عام 867هـ/ 1462م قاصمة الظهر لمسلمي غرناطة، حيث حال هذا الأمر دون وصول الإمدادات من عدوة المغرب إلى الأندلس، هذه الإمدادات التي بدأت بالضعف منذ بداية ضعف الدولة المرينية وسقوطها عام 869هـ/ 1464م، وحلّت محلّها دولة فتيّة هي دولة بني وطّاس، ولكنها لم تكن في مستوى الدولة المرينية من حيث تقديم الإمدادات إلى الأندلس[32].

وكانت بداية النهاية باتّحاد مملكتَيْ قشتالة وأرغون في عام 884هـ/ 1479م على إثر الزواج الذي تمّ بين فرانده الخامس مَلِك أرغون وإيزابيلا مَلِكة قشتالة في عام 874هـ. فبعد هذا الاتّحاد بدأت خططهم الحثيثة لإسقاط مملكة غرناطة من خلال السيطرة على مدنها وحصونها تباعاً، ولم تبق أمامهم إلاّ مدينة غرناطة التي رضخت لمعاهدة التسليم في 25 كانون الأول من عام 1491م، أي يوم عيد الميلاد، ومن ثم فتحت أبوابها للغزاة في 2 كانون الثاني من عام 1492م/ 2 ربيع الأول من عام 897هـ[33]. ونَصّت معاهدة تسليم غرناطة على 67 شرطاً[34]، أهمّها المادة السادسة، وهذا نصها:

---

(31) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص 294.

(32) فرحات، غرناطة، ص 55 ـ 56.

(33) بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 81 ـ 82. السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص 298 ـ 300.

(34) عن عدد شروط المعاهدة، ينظر: المقري، نفح، 6/ 277. عنان، نهاية الأندلس، ص 244 وبعدها.

«يُسمَح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة، أو أي مكان آخر، من أهالي غرناطة والبيازين والبشرات، والمناطق الأخرى التابعة لمملكة غرناطة ببيع ممتلكاتهم وأراضيهم لمن شاؤوا، ولن يحاول صاحبا السُّمُوّ، وذُرّيتهما منعهم من ذلك أبداً. . .»[35].

أما المادة السابعة فنصّها: «الأشخاص الذين يرغبون في العبور إلى العدوة (أرض المغرب) تُجَهَّز عملية نقلهم في غضون ستين يوماً من تاريخه، على متن عشر سفن كبيرة تتوزّع على الموانئ القريبة منهم، حسب رغبة المبحرين، ليُحمَلوا أحراراً وطوع إرادتهم إلى المكان الذي يرغبون النزول إليه فيما وراء البحر (أرض المغرب) خاصة الموانئ التي كانت ترسو بها تلك السفن. أما الأشخاص الذين يرغبون في العبور في غضون الأعوام الثلاثة القادمة، فتُهيَّأ لهم السفن الخاصة من الموانئ القريبة لمكان إقامتهم شريطة أن يقدّموا طلباتهم قبل موعد الرحيل بخمسين يوماً، ويُنقَلون برعاية تامة إلى الميناء الذي يرغبون بالنزول فيه، ولا يترتب على من يريد العبور إلى العدوة ـ خلال الأعوام الثلاثة هذه ـ أجر أو نفقة. أما الذين يرغبون في العبور بعد انتهاء الأعوام الثلاثة، فعليهم دفع دوبلة واحدة[36] فقط عن كل شخص. أما الذين لا يتمكّنون من بيع أملاكهم الموزَّعة في جميع أنحاء مملكة غرناطة قبل سفرهم فيحقّ لهم تفويض أيّ شخص من أجل تحصيل حقوقهم، وليقوموا مقامهم، ويتولوا بعد ذلك إرسال هذه الحقوق لأصحابها أينما كانوا وبدون أية عوائق»[37].

خلال هذه المرحلة نرى المظاهر الآتية:

(35) حتاملة، التنصير القسري، ص 23.

(36) الدوبلة Dobla عملة ذهبية إسبانية قديمة كانت تساوي عشر بزيتات. حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 75.

(37) حتاملة، التنصير القسري، ص 23 ـ 25. فرحات، غرناطة، ص 64 ـ 65. عنان، نهاية الأندلس، ص 246.

أ ـ هجرة الأندلسيين إلى عدوة المغرب، وأوّل من بدأ هذه الهجرة أمير الأندلس المخلوع أبو عبد الله الصغير وأسرته وحاشيته والتي قدرت بألف ومائة وثلاثين شخصاً، كما هاجرت معه بعض الأسر الأندلسية المشهورة، وعدد كبير من الوزراء والقادة[38].

نزل الأمير وحاشيته في ميناء مليلة ثم سار إلى مدينة فاس مستجيراً بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى الوطاسي 876 ـ 910هـ/ 1472 ـ 1504م[39]، معتذراً له عمّا أصاب الإسلام في الأندلس على يده. وقد رعى الأمير الوطاسي هذه الأسر المنكوبة واعتمد عليها في الشؤون الحربية، وبقي أبو عبد الله الصغير في فاس حتى توفي عام 940هـ/ 1534م[40].

وبموجب المادة السابعة من معاهدة تسليم غرناطة بدأ الكثير من أهل الأندلس الهجرة إلى عدوة المغرب، فأوّل من هاجر أهلُ مدينة مالقة ونزحوا إلى باديس، وخرج أهل ألمرية ونزلوا مدينة تلمسان، وهاجر أهل الجزيرة الخضراء ونزلوا مدينة طنجة، واستقر أهل رندة وبسطة وحصن موجز وقرية قردوش وحصن مرتيل في تطوان وأحوازها، وهاجر أهل ترقة ونزلوا المهدية المغربية القريبة من القُنَيْطرة على شاطئ المحيط الأطلسي، وخرج أهل منسيين ونزلوا بلاد الريف، ونزل أهل دانية في الجزائر وتونس والقيروان. أما أهل لوشة وقرية الفخار وقسم من أهل غرناطة وأهل مرشانة وأهل البشرات فاستقروا في مضارب قبيلة غمارة. ونزل أهل برجة وبربرة وبولية وأندرش ما بين طنجة وتطوان، ثم انتقل البعض منهم إلى قبيلة بني سعيد

---

(38) حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 69. عنان، نهاية الأندلس، ص 278.

(39) عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 375. يذكر أن أمير غرناطة قصد تلمسان، وهذا خطأ تاريخي.

(40) ينظر: المقري، نفح، 6/ 281. أزهار الرياض، 1/ 168. حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 73 ـ 74. دائرة معارف الشعب، ص 334.

من قبائل غمارة. وهاجر أهل مرينية إلى مدينة أصيلا وما حولها، ونزل أهل بليش وشيطة وقرية شريش في مدينة سَلاَ. وخرج من بقي من أهل غرناطة ونزلوا بِجَاية ووهران وسوسة وسفاقس وقابس ونفطة. ونزل أهل طريف في مدينة زمور وانفي (الدار البيضاء)، واستقر أهل القلعة في أغادير. وهناك آخرون من أهل الأندلس استقروا في مدينة الإسكندرية وبعض مدن المشرق العربي[41]. وكان من هاجر من غرناطة إلى عدوة المغرب جماعة من أهلها برئاسة أبي الحسن علي المُنَظّري وكان من كبار قادة الجند الغرناطي، فنزلوا في موقع قرية مرتيل على مقربة من تطوان، وكانت يومئذ مهجورة. فاستأذنوا سلطان الوطاسيين محمد الشيخ في تعميرها وسُكناها فأَذِن لهم، فعمّروها وحصّنوها وبَنَوْا فيها الدّور والمساجد وذلك في عام 898هـ/ 1492م[42].

إن هذا المثال يدلّ على أن جماعات المهاجرين الأندلسيين الذين سكنوا بلاد المغرب العربي عَقِب سقوط غرناطة قد عَمّروا البلاد التي سكنوها، ومارسوا الأعمال المختلفة، وساهموا في الحياة العامة، فكان قدومهم خيراً إلى عدوة المغرب من بعض جوانبه.

2 ـ قيام الثورات الأندلسية ضد التسلّط الإسباني الذي اخترق بنود معاهدة تسليم غرناطة، وأهم هذه الثورات:

أ ـ ثورة البيازين في غرناطة عام 904هـ/ 1499م:

قامت هذه الثورة عندما اعتدى رجل شرطة وخادم الأب خمنيس[43]

---

(41) حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 75 ـ 76. عنان، نهاية الأندلس، ص 211. السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص 301 ـ 302.

(42) عنان، نهاية الأندلس، ص 311.

(43) الأب خمنيس مطران طليطلة، استدعته سلطات غرناطة الأسبانية عام 905هـ ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين، وقد عُيّن رئيساً لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي (محاكم التحقيق). عنان، نهاية الأندلس، ص 315. عبد العظيم رمضان، «محاكم التفتيش» مجلة العربي، العدد 258، ص 48.

على فتاة مسلمة في حي البيازين في غرناطة، فَقَتَل أهلُ الحيّ رجلَ الشرطة وفرّ الخادمُ. وبعدها سارت جموع الثوّار إلى دار خمنيس الواقع قرب قصر الحمراء للقضاء عليه لاْعتقادهم بأن هذه الحادثة هي من تخطيطه، واْختار الثوار أربعين رجلاً منهم يمثّلون حكومةً موريسكية مستقلّة عن الإسبان، واْحتمى الأب خمنيس في دار حاكم غرناطة الإسباني (الكُونْت دِي تَنْديّا) مستغلاً المحبة والاْحترام بين هذا الحاكم والموريسكيين. وأغلق الثوار الطرقات أمام الحملات العسكرية التي أرسلتها السلطات الإسبانية ورموها بالحجارة، واستنجدت السلطات بمطران غرناطة (الأب تالافيرا) الذي يحظى باْحترام الموريسكيين فهدّأ من ثورتهم واْقتنعت حكومتهم بأقواله، والتي لا تعدو مجرد الوعود البراقة، لأن إخلاص هذا الرجل وغيره هو لصالح الإسبان مهما اْدّعى من تعاطف واْحترام للموريسكيين[44].

حاولت السلطات الإسبانية تهدئة أهالي حيّ البيازين بأساليب ماكِرة منتظرةً الفرصة المواتية من أجل إبادتهم، وفي الوقت نفسه هربت حكومة الموريسكيين (حكومة الأربعين) من غرناطة إلى إقليم البشرات خلاصاً من المطاردة، وانتهازاً للفرص الملائمة لمواصلة الثورة[45]. وبعد إخماد ثورة حيّ البيازين عام 1499م قرّر ملك غرناطة الإسباني تأسيس محاكم التفتيش في غرناطة[46] والتي فرضت سياسةً شديدة في تنصير المسلمين، ولم يبق أمام هؤلاء الموريسكيين سوى اللجوء إلى المعاقل المنيعة في رؤوس الجبال، ومن هناك شنّوا الغارات على القوات الإسبانية التي كانت تلاحقهم

---

(44) حتاملة، التنصير القسري، ص 76 ـ 77.

(45) بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 96 ـ 97.

(46) تأسست محاكم التفتيش في إسبانيا منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ولقد أقام الملكان الكاثوليكيان محاكم التفتيش أولاً في إشبيلية عام 1480م، وفي جميع المدن الأندلسية التي سيطروا عليها. وكانت هذه المحاكم سلاحاً فتّاكاً بيد الكنيسة تسحق به كل من لم يذعن لأوامرها، ينظر: عنان، نهاية الأندلس، ص 323، ص 329.

بأستمرار، وتُبيد مجموعات كبيرة منهم[47].

ب ـ ثورة البشرات عام 906هـ/ 1501م:

نتيجة قيام ثورة البيازين، ثار إخوانهم في منطقة البشرات الواقعة جنوبي غرناطة، فأرسلت الحكومة الإسبانية حملةً عسكرية للقضاء على هذه الثورة بقيادة (الكُونْت تَنْدِيًا) وغيره، وقد أَحرقت هذه الحملة القرى وقتلت النساءَ والأطفالَ والشيوخ وهي في طريقها إلى إقليم البشرات. ولحق بهذه الحملة الملك الإسباني فرديناند وبعضُ قُوَّاده الذين سيطروا على بعض الحصون والقرى في الطريق، ولقيت الحملة الإسبانية مقاومة عنيفة من الموريسكيين الذين دافعوا عن حصونهم ومُدُنهم ببسالة[48].

ومن مدينة ألمرية خرجت حملة إسبانية تجاه البشرات، فأوقعت هذه الحملات الخسائر الفادحة بالموريسكيين وأخذت الكثير منهم رهائنَ. وفي عام 1502م كانت الثورات قد أُخمِدت عموماً في جميع نواحي البشرات وما جاورها، وأضطَهَد الإسبانُ الموريسكيين اضطهاداً لا نظير له، ووُضِع هؤلاء الموريسكيون المغلوبون على أمرهم أمام أَحَد خيارَيْن: إما التنصير القسري، أو التهجير خارج أسبانيا، وانسحب هذا الأمر على مدجَّني قشتالة وليون[49].

جـ ـ الثورة في الجبل الأحمر:

بعد إخماد ثورة البشرات، ثار سكّان الجبل الأحمر غربي رندة في وجه التسلّط الإسباني الذي نقض جميع العهود والمواثيق، فأَرسَل إليهم الملكُ الإسباني حملةً عسكرية بقيادة (دي أجيلار) وأبنه الدُّونْ بِدْرُو، فأستعدّ لها الثوار ونَصَبوا لهذه الحملة الكَمَائنَ. فلمّا مرّت هذه الحملة عبْر الممرات الجبلية أنهارت عليها الصخور فأُبِيدَ معظم الجيش وقُتِل قائده وجُرِح أبنه.

(47) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص 304.

(48) فهمي هويدي: «في بلاد الموريسك غرباء الأندلس»، مجلة العربي، العدد 228، ص 71.

(49) حتاملة، التنصير القسري، ص 83 وبعدها.

ولما وصلت أخبار أنتصار الموريسكيين على الجيش الإسباني، قاد الملك الإسباني الجيش بنفسه، وآتخذ من مدينة رَنْدَة قاعدةً للهجوم على معاقل الثوّار في الجبل الأحمر، إلاّ أن هذا الجيش تعرض لمقاومة عنيفة أَجبرت الملكَ الإسبانيّ التراجعَ عدة مرات، فلجأ الملك الإسباني إلى سياسة الحصار الطويل حتى يضطر الثوار إلى الآستسلام. فطال أمد الحصار وجاع المُحاصَرون من الثوّار فأستسملوا بعد أن وعدهم الملك الإسباني بالأمان إنْ أرادوا العبور إلى عدوة المغرب[50].

أَخمدت القوات الإسبانية هذه الثورات بوحشية، ولم يتلقَّ الثوار الموارِكة أية مساعدات من إخوانهم خارج الأندلس، بالرغم من صرخات الآستغاثة التي أرسلوها إلى إخوانهم في عدوة المغرب، وإلى السلطان بايزيد الثاني سلطان العثمانيين (1481 ـ 1512م)، وإلى الملك الأشرف قانصوه الغوري (1501 ـ 1516م)[51]، ولكن أمالهم خابت حيث لم يُنجَدُوا من أحد، فلم يبق أمامهم إلاّ الموت أو التنصير القسريّ أو الهجرة القسرية خارج البلاد.

3 ـ مراسيم تنصير الأندلسيين:

أصدرت السلطات الإسبانية في 20 تموز 1501م/ 906هـ أمراً يُحرّم على الموريسكيين ممارسة أي عمل يمتّ إلى عقيدتهم ولغتهم بِصلةٍ. مما دفع الكثير منهم إلى الألتحاق بإخوانهم في مناطق الجبال الوعرة[52]. وفي أيلول من عام 1501م أصدرت الحكومة الإسبانية قانوناً يحرّم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سرّاً، وينص على معاقبة المخالفين لأوّل مرة بالحبس

(50) بشتاوي، الأندلسيون الموراكة، ص 98 ـ 99.

(51) ينظر: المقري، أزهار الرياض، 1/ 109 وبعدها. حتاملة، التنصير القسري، ص 99 ـ 100.

(52) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 572.

والمصادرة، ثم بالموت بعد ذلك[53].

وفي شباط من عام 1502م أصدرت إيزابيلا مرسومها الشهير الذي خيَّر جميع الأندلسيين بين التنصير والرحيل، وطُبّق هذا المرسوم على مُدَجَّنِي قشتالة وليون، ويفرض على الأندلسيين في هاتين المملكتين ممن لم يتعمّدوا بعد الرحيلَ، فلا يبقى ذَكَر فوق سِنّ 14 سنة ولا أنثى عمرها يزيد على 12 سنة بعد شهر نيسان من العام نفسه إلاَّ إذا تنصروا. وسمح المرسوم المذكور لمن يرغب من الأندلسيين في الرحيل ببيع العقارات والأملاك، ولكنه لا يسمح له إخراج الذهب والفضة من قشتالة وليون. ووَظّفت السلطة جميع رجالها في مملكة غرناطة للتأكّد من تنفيذ بنود هذا المرسوم.

وبنهاية المدة التي حددها المرسوم، رحل من الأندلس حوالي (300000) شخص، منهم من توجّه إلى المغرب، ومنهم من رحل إلى مصر أو الشام، وفضّل البعض البقاء في الأندلس فأصبحوا مسيحيين بموجب هذا المرسوم[54]. وهكذا أضافت الكنيسة إلى رعيتها حوالي نصف مليون مُنَصَّر بالاسم، وحوّلت مساجدهم إلى كنائس أو هُدِّمت، ومُنع الأذان والصلاة، ولكنهم استمروا يمارسون طقوسهم الدينية في الخفاء، وكابدوا من أجل المحافظة على التقاليد العربية الإسلامية الكثير. وقد تعرّض بعضهم نتيجة ذلك إلى الإبادة بسبب زلّة لسان من صبيّ يعيش حالة الازدواجية[55].

وفي السنوات اللاحقة شددت الكنيسة والسلطات المدنية والعسكرية القشتالية الضغوط على الأندلسيين، فأصدر الملك فرناندو عام 914هـ/ 1508م مرسوماً آخر يحظر على الأندلسيين استخدام اللغة العربية وارتداء الملابس التقليدية، وممارسة أية عادات أو طقوس إسلامية أو عربية. ولكن الأندلسيين

(53) عنان، نهاية الأندلس، ص 226.

(54) بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 100 ـ 101.

(55) حتاملة، التنصير القسري، ص 111 ـ 112.

تجاهلوا هذا المرسوم، ولم تَجِد السلطات فائدة من متابعة تطبيقه وذلك لتمسك الأندلسيين بعاداتهم، وخوفاً من اندلاع ثورات أخرى ضد السلطات الإسبانية، وبخاصة أن الملك الإسباني كان مشغولاً في محاربة فرنسا وغيرها[56].

وكانت السلطات الإسبانية تخشى تجمّع الموريسكيين في غرناطة وما حولها، ولهذا صدر في شباط من عام 1515م/ 921هـ مرسوم ملكيّ أُعلِن في مدينة طليطلة، وفيه يحرّم على المسلمين المتنصّرين حديثاً، والمُدَجَّنين من أية جهة في مملكة قشتالة، أن يخترقوا أراضي مملكة غرناطة، ويُعاقَب المخالف بالمصادرة والموت. ونصَّ المرسوم كذلك بأنه يحرّم على المتنصّرين حديثاً في غرناطة أو في أية جهة أخرى من المملكة أن يبيعوا أملاكهم لأي شخص دون ترخيص مسبق مطلقاً، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة. وذلك لأنه تَبيّن كما ورد في المرسوم أن كثيراً من المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم ويحصلون على أثمانها، ثم يعبرون إلى المغرب وهناك يعودون إلى الإسلام[57].

وبعد وفاة الملك فرناندو عام 1516م وصل إلى حكم إسبانيا الإمبراطور شارلكان (شارل أو كارلوس الخامس) وقد بدأ هذا الملك الجديد عهده بالتسامح واللين، إلاَّ أنه عاد إلى التعصب وسياسة الشدة فأصدر في مايس عام 1524م مرسوماً يحتّم تنصير كل مسلم بقي على دينه، وإخراج كل من يرفض التنصير من إسبانيا، وأن يعاقَب كل مسلم أبى التنصير أو الخروج في المدة الممنوحة بالاسترقاق مدى الحياة، كما نص المرسوم على تحويل جميع المساجد إلى كنائس[58].

---

(56) بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 113.

(57) عنان، نهاية الأندلس، ص 326 ـ 327.

(58) بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص 116 ـ 117.

لاقى المواركة الأمرّين في عهد هذا الملك الذي استمر في إصدار القوانين المرهِقة بِحقّ الأندلسيين، ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة، صدر قرار في سنة 1541م يحرّم عليهم تغيير مساكنهم، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية التي كانت دائماً طريقهم المفضَّل في ركوب البحر، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من أي الثغور إلاّ بترخيص مَلَكيّ مقابل أموال كبيرة. وكانت السلطات الإسبانية تخشى دائماً اْتصال الموريسكيين بمسلمي المغرب، وكان ديوان التحقيق (التفتيش) يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بشدة. ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتي من سُفَراء إسبانيا في المدن الإيطالية بأن كثيراً من المورسيكيين الفارّين يمرّون بها في طريقهم إلى أفريقية والشرق الإسلامي[59].

تنازل الإمبراطور كارلوس الخامس عن العرش عام 1556م وتولى الأمر ولده فيليب الثاني (1556 ـ 1598م) وكانت نفسه توّاقة إلى إبادة المواركة والقضاء عليهم. ولتحقيق هذا الهدف أصدر مرسوماً في عام 1963م يحرّم فيه حمل السلاح على الموريسكيين إلاّ بترخيص من الحاكم العام. وأمر في مايس عام 1566م بأن يجدّد القانون القديم بتحريم اللغة العربية والثياب العربية، كما جاءت فيه قرارات جائرة اْستهدفت عقيدة الموريسكيين الدينية[60] أُعلِنت على الشعب في غرناطة في فاتح كانون الثاني من عام 1567م، وأدى هذا الأمر إلى اْندلاع الثورة الأندلسية الكبرى في 15 نيسان 1568م في جبل البشرات واْستمرت إلى شباط من عام 1570م، وقد تفننت السلطات الإسبانية في اْستخدام أساليب القمع والإرهاب من أجل إخماد هذه الثورة والتي كان من أهم نتائجها هروب الكثير من الموريسكيين إلى عدوة المغرب فراراً بأرواحهم من بطش السلطات الإسبانية[61].

(59) عنان، نهاية الأندلس، ص 355.

(60) بشتاوي، المرجع السابق، ص 137. عنان، نهاية الأندلس، ص 358 ـ 359.

(61) عنان، نهاية الأندلس، ص 374. لين بول، العرب في إسبانيا، ص 223.

ومن نتائج هذه الثورة أصدر الملك الإسباني مرسوماً في 18 تشرين الثاني من عام 1570م يتضمن نفي الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ومصادرة أملاكهم العقارية، وشُتِّتوا في مختلف أنحاء قشتالة وليون[62]، أي إنهم مُنِعوا من العبور إلى المغرب.

وفي السادس من تشرين الأول عام 1572م أصدر فيليب الثاني مرسوماً حرّم فيه على الأندلسيين الموراكة التخاطب باللغة العربية أو الكتابة بها، وحدد المرسوم عقوبات صارمة بحق المخالف، كما نص المرسوم على عدم ترك أي شخص مكان سَكَنِه، وسيكون الإعدام نصيب الفارّ إذا تجاوز عمره 17 سنة. . . إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي[63].

المرحلة الثالثة من 1008 ـ 1024هـ/ 1598 ـ 1615م:

تعاصر هذه المرحلة حُكْم الملك الإسباني فيليب الثالث الذي تسلّم الحُكمَ عام 1598م. وقد ازداد في هذه المرحلة توَجّس إسبانيا من العرب المتنصرين فيها، واعتبارهم خطراً قوميّاً يجب العمل على التخلص منه، وكان هذا التوجس يزيد على مرّ الأعوام بسبب ثورات الموريسكيين المستمرة، وغارات القراصنة على الشواطئ الإسبانية، وصِلاَت الموريسكيين الدائمة بمسلمي أفريقية، وبخاصة صلتهم بمولاي زيدان (1017 ـ 1037هـ/ 1608 ـ 1627م) صاحب المشاريع الواسعة لغزو إسبانيا[64].

وأخيراً قررت الحكومة الإسبانية تحت ضغط الكنيسة أن تتخلّص من الموراكة نهائيّاً، وأن تُجْلِيهم عن أراضيها، فأصدرت مرسومها الشهير في جمادى الآخرة عام 1018هـ/ 22 أيلول 1609م الذي يتضمن ٱلنّفيَ النهائيّ

(62) بشتاوي، المرجع السابق، ص 150.

(63) أيضاً، ص 148.

(64) عنان، نهاية الأندلس، ص 393، 395. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 329.

للموريسكيين، وقد نُفِّذ هذا المرسوم تباعاً إلى عام 1615م[65]. وقد تضمن هذا المرسوم الأسباب التي دعت إسبانيا إلى نفي المواركة، كما حددت لهم الموانئ التي يتجمّعون بها، ومنها تنقلهم السفن إلى بلاد المغرب (بلاد البربر كما سماها المرسوم). ونص المرسوم على أستبقاء 6٪ من الموريسكيين للأنتفاع بهم في الأمور العامة، وتضَمّن أيضاً كثيراً من الأوامر والنواهي[66].

أُصيبَ المواركة بخيبة أمل مريرة إزاء هذا المرسوم، وقَلّبوا الأمور من جميع الوجوه، فقرّروا القبول بالأمر الواقع، وإلاّ تعرضوا للإبادة، ما عدا جماعات قليلة لم تقبل بالأمر من البداية فقامت بثورات محلّية في المناطق الجبليّة، إلاّ أن هذه الثورات أخمدت فكانت كما يُقال: فورة المحتضر[67].

تضمّن مخطَّط ترحيل الأندلسيين المواركة تجمّعهم بادئ الأمر في ثمانية مراكز هي: بلنسية ـ أرغون ـ قشتالة ـ الأندلس الصغرى (أندلوثيا) ـ مرسية ـ برغش ـ قطالونيا ـ غرناطة. ومن هذه المراكز شَرَعت السلطات الإسبانية المكلَّفة بعملية الترحيل في توزيع المواركة على عدة نقاط تسفير وأهمها: دانية ولقنت وقرطاجنة وجفية وساقونته ومنكوفة وأبن العروس والأَفَاق على الساحل الشرقي لإسبانيا، ومالقة وإشبيلية في الجنوب، وسومبورت وأيرون ورنشفالة في الشمال[68].

ولمّا كانت معظم أعمال التسفير تجري عن طريق البحر فقد نُقِل المواركة في أندلوثيا (الأندلس الصغرى) إلى إشبيلية ومالقة أوّل الأمر، بينما توجّهت أعداد أقل تحت حراسة مشددة إلى جبل طارق وقادس، وهؤلاء نُقِلوا من جبل طارق إلى مدينة سبتة وتطوان، ونُقِلوا من قادس إلى الجزر الخضراء (جزر الكناري)، أما مواركة غرناطة فنُقِلوا إلى المنْكَب ومالقة، أما

(65) لين بول، العرب في أسبانيا، ص 225. بشتاوي، المرجع السابق، ص 170.
(66) ينظر، عنان، نهاية الأندلس، ص 396 ـ 397. بشتاوي، المرجع السابق، ص 167.
(67) عنان، نهاية الأندلس، ص 398.
(68) بشتاوي، المرجع السابق، ص 168.

موراكة قشتالة فنُقِل القسم الأعظم منهم إلى قرطاجنة، بينما توجهت مجموعات أخرى إلى باب الشيزري ومدينة برغش ومن هناك ذهبوا إلى أيرون. وفي أرغون نُقِل الموراكة على ثلاثة محاور إلى الأفَاق وسومبورت وباب الشيزري. وكانت الأفَاق كذلك نقطة تجمع قسم من موراكة قطالونيا، وأُرسِل القسم الثاني إلى برشلونة ومن هناك إلى لِيفُورْنُو (لَقْهُورن) في إيطاليا بحراً، ومنهم من وصل إيطاليا عبر الأراضي الفرنسية(69). ومن إيطاليا أبحر الموراكة إلى الشام ومصر والقسطنطينية، ولما بلغ السلطان العثماني (السلطان أحمد) ما أصاب الموراكة من عذاب واْضطهاد خلال مرورهم بالأراضي الفرنسية أرسل احتجاجاً إلى ملكة فرنسا (ماري دي مديتشي) الوصية على ولدها لويس الثالث عشر، ويطلب حماية الموراكة المارّين بأراضي فرنسا(70).

ومن إشبيلية نُقِل الموراكة إلى تونس، وإلى طنجة وأغادير. ومن مالقة توجّه القسم الأكبر إلى تونس عن طريق مرسيلية، والباقي ذهب إلى المغرب. أما الموراكة الذين تجمّعوا في قرطاجنة فقد توجّهوا إلى تونس على الأغلب، ومن نقاط التسفير في لَقّنْتْ وجفية ودانية وساقونته ومنكوفة نُقِل الموراكة إلى وهران.

أما الموراكة في أبن العروس والأفَاق فنُقِل قسم منهم إلى أرزيو في الجزائر ولعلّ القسم الأكبر منهم قد ذهب إلى تونس(71).

وفي الشمال اْنتقل الموراكة المنفيون من أيرون على محورين: الأول إلى المغرب، والثاني إلى مدينة أورْتِيز الفرنسية والتي كانت أيضاً نقطة تجمّع للموراكة المرحَّلين من رنشفالة وسومبورت، ومنها رحلوا إلى تونس(72).

(69) بشتاوي، المرجع السابق، ص 169 ـ 170. عنان، نهاية الأندلس، ص 400 ـ 401.

(70) عنان، نهاية الأندلس، ص 401.

(71) بشتاوي، المرجع السابق، ص 170.

(72) عنان، نهاية الأندلس، ص 400. بشتاوي، المرجع السابق، ص 170.

رافق عملية الترحيل مآسي جديدة أُضيفت إلى مآسي المواركة، حيث مات منهم بسبب الجوع والبرد، كما قامت السلطات الإسبانية بسبي عدد كبير من النساء والأطفال وباعوهم رقيقاً، وكانت مناظر ترحيلهم تُدْمي القلب، وتعبِّر عن قسوة الحكومة الإسبانية آنذاك تجاه المواركة(73).

وعلى الرغم من ٱختلاف الروايات حول عدد الأندلسيين الموراكة الذين رحلوا من إسبانيا خلال هذه الفترة (1609 ـ 1615م) فإن بعضها قدّرهم بعدة ملايين، فكان نفيهم وترحيلهم خسارة كبيرة لإسبانيا، وقد تَبيّن بأن إسبانيا قد «قتلت الإوَزة التي كانت تَبِيض لها ذهباً» كما يُقال(74).

وبينما كان الأندلسيون الموراكة يستعدون لبدء حياة جديدة في موطنهم الجديد ببلاد المغرب، كانت السلطات الإسبانية ورجال الكنيسة يروّجون الشائعات بأن معظم الموراكة المنفين لاقوا حتفهم، وكانوا يزعمون كذلك بأن أهل المغرب شقّوا بطون المنفيين بحثاً عن الذهب والأحجار الكريمة التي اعتقد أهل المغرب بأن الموراكة ٱبتلعوها لإخفائها(75).

وعلى الرغم من بعض الصعوبات التي لاقاها الموراكة في مواطنهم الجديدة في عدوة المغرب، إلاَّ أن أهل المغرب العربي ٱستقبلوا الوافدين المُرَحَّلين بٱلتّرحاب والحفاوة، وساهم المهاجرون في عملية بناء مدن المغرب وقراها، كما ساهموا في ٱزدهار النشاط الٱقتصادي والعلمي فيها أيضاً، وٱعتمدت عليهم السلطات المغربية إلى درجة كبيرة بحيث أثار هذا الأمر حفائظ أهل المغرب الأصليين(76).

---

(73) عنان، نهاية الأندلس، ص 400. عنان، «تستور بلد الموريسكيين الأندلسيين»، مجلة العربي، العدد 156، ص 139.

(74) بشتاوي، المرجع السابق، ص 171، 175. ينظر: عنان، نهاية الأندلس، ص 402. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 108 ـ 109 (هامش).

(75) ينظر: عنان، نهاية الأندلس، ص 401. بشتاوي، المرجع السابق، ص 173.

(76) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 38.

وقد وصفت بعض المصادر العربية المعاصرة والقريبة من هذه الأحداث دور المواركة في عملية بناء وأزدهار بلاد المغرب العربي، فيقول المقري وكان معاصراً للأحداث: «. . . إلى أن كان إخراج النصارى إيّاهم (المواركة) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف، فخرجت أُلوفٌ بفاس، وألوف أُخر بتِلِمْسان من وَهْران، وجمهورهم خرج بتُونِس، فتسلّط عليهم الأعراب. . . ونهبوا أموالهم. . . وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسَلِم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمّروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاون (تطْوَان) وسَلاً وفيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جَرّاراً وسكنوا سَلاً، كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصّنوا قلعة سلا وبَنَوْا بها القصور والحمامات والدور، وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى، وإلى مصر، والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وَصَفْتُ»[77].

وقال ٱبن أبي دينار التونسي ـ وقد كتب بعد هذه المأساة بنحو سبعين عاماً ـ في أخبار عام 1017هـ: «وفي هذه السنة والتي تلتها جاءت جالية الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب إسبانية، وكانوا خلقاً كبيراً، فأوسع لهم عثمان داي[78] في البلاد، وفرّق ضعفاءهم على الناس، وأَذِن لهم أن يعمروا حيث شاءوا. . . وعمّروا نحو عشرين بلداً. وصارت لهم مدن عظيمة، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين، ومهّدوا الطرقات، وصاروا يُعتبَرون من أهل البلاد»[79].

وأهم المدن التي عمروها والتي أشار إليها النص السابق مدينة تَسْتُور والقلعة وسليمان وبِلِّي وتُرْكِي والجَدِيْدة وزَغْوَان ومَجَازَ ٱلباب وغيرها. وأهم

(77) نفح الطيب، 4/ 527 ـ 528.

(78) عثمان داي حكم تونس 1007 ـ 1019هـ ينظر: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، ص 203 ـ 204.

(79) المؤنس، ص 204.

هذه المدن، مدينة تستور التي تدل مظاهرها العمرانية على أندلسية أصلها، وشُبِّهت بمدينة أسْتَجَة الأندلسية(80).

ويُلاحَظ في جميع مدن المغرب العربي التي نزل بها الموراكة احتفاظها بخِطَطِ مدنهم العمرانية وبأسمائهم الموريسكيية القديمة اعتزازاً بأصلهمْ الأندلسي(81).

وكحقيقة تاريخية هامة نُشيرُ إلى أن وُجُود الأندلسيين بالمغرب قد أثّر كثيراً على حركات الجهاد التي عمّت المغرب في أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر في البرّ والبحر، وغداة الغزو الإسباني - البرتغالي للسواحل المغربية. وكان للأندلسيين دور في قيام الدولة السعدية وتوطيد دعائمها في المغرب لا سيما أن الحكّام السعديين كانوا يُعلِنون بٱستمرار عن عزمهم على ٱسترداد الأندلس فردوس الإسلام المفقود(82).

وأسسْ الملوك السعديّون فِرَقاً عسكرية تتكون من المجاهدين الأندلسيين عُرِفت بٱسم (جيش الأندلس من جيوش النار) يقودها قادة أندلسيون أمثال سعيد بن فرج الدغالي: «فأما الدغالي وهو سعيد بن فرج... فأصله من نطيش قرية من قرى شلير الجبل المطلّ على غرناطة... عَبَر البحر إلى العدوة... ونزل بتَطَاون من ثغور المغرب... ثم ٱتصل بالغالب بالله(83)... فعقد له على الغُرَباء من قومه النازعين إلى المغرب من بلاد الأندلس فجمعهم من كل بلد وتَألّف منهم على يده جيش

(80) أيضاً، ص 204. عنان، «تستور بلد الموريسكيين الأندلسيين»، ص 140. محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص 228.

(81) ينظر: عنان، نهاية الأندلس، ص 312 (هامش). عنان، «تستور بلد الموريسكيين الأندلسيين»، ص 140 - 141.

(82) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 279، والسعديون عرب يرفعون نسبهم إلى محمد النفس الزكية، محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص 221.

(83) عبد الله الغالب بالله حكم من عام 961 - 978هـ/ 1557 - 1574م ينظر، عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 85 وبعدها.

كثيف من النار بمراكش»[84].

وأبلى المجاهدون الأندلسيون البلاء الحسن في معركة وادي المخازن الشهيرة عام 986هـ/ 1578م بين قوات عبد الملك المعتصم السعدي وبين القوات البرتغالية، وعُرِفت هذه المعركة أيضاً بمعركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة[85]. وقد الْتَحق المجاهدون الأندلسيون بقوّات المعتصم السعدي بضواحي مدينة الرّبَاط[86]، وهم ضمن فرقة الأندلسيين من قوات أو عساكر النار السعدية التي أبلت بلاءً حسناً في هذه المعركة بقيادة (الكاهية محمد زرقون قائد قواد عساكر النار)[87].

أثر المهاجرين الأندلسيين في بلاد المغرب العربي

يبدو لنا من تتبّع هجرة الأندلسيين إلى الشمال الأفريقي في هذه المرحلة أنّ معظم الأندلسيين الذين هاجروا إلى المغرب الأقصى في المرحلة الأولى قد ضاق بهم الأمر فيها بسبب كثرة الفتن التي كانت تقلقه، بالإضافة إلى أن معظم الأندلسيين لم يرتاحوا في ظل الموحدين، وٱعتبروهم مسؤولين عن ضياع الأندلس، لذلك ولّوا وُجُهوهَم شطر الحفصيين مؤمّلين منهم أن يعملوا على إنقاذ الأندلس، ولذا ظهرت دعوات من قِبَل الشعراء تحثّ أبا زكريا الحفصي على الٱستيلاء على المغرب، وتشكو إليه حال الأندلس[88]:

(84) عبد الكريم كريم، رباط الفتح، ص 14. ألّفت الدولة السعدية قوات خاصة عُرِفت باسم عساكر النار، وكان لها دور مشهور في المعارك الكبرى وبالذات ضد القوات الإسبانية والبرتغالية، وقد جعل الملوك السعديون قوات المجاهدين الأندلسيين ضمن عساكر النار فسميت جيش الأندلس من جيوش النار، أي القوات الأندلسية ضمن عساكر النار السعدية.

(85) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 105، اشترك باشا الجزائر في هذه المعركة مع المعتصم لصد العدوان البرتغالي.

(86) عبد الكريم كريم، رباط الفتح، ص 15.

(87) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 108.

(88) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 129.

والأَمْرُ فيه قدِ أنقَضَى إلاَّ لُقَى يَكْفِيه منك تَنَاوُلٌ بِٱلْخِنْصرِ
ولأرضَ أندلسٍ إليك بِحَالِها شَكْوَى ٱلْهَشيمِ إلى السَّحابِ المُمْطِرِ

ومن الأندلسيين الذين أستقرّوا في المغرب الأقصى ثم رحلوا إلى تونس القاضي أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة وقَوْمُه، فلقد حاولوا أولاً الاستقرار بطنجة، ولكنهم غادروها عام 661هـ/ 1263م بعد ما قَتَل غدراً بنو مرين أميرَها يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بأبن الأمين، قال أبن خلدون: «أنتقل بَنُوهُ إلى تونس، ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة، أنتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها، وأصهر إليهم بنو الأمين، وأرتحلوا معهم إلى تونس»[89].

وقد أدركت الدولة السعدية أهمية الأندلس للمهاجرين، فكانت دعواها دائماً بأنها ستَرُدّ الأندلسَ إلى دولة الإسلام، بالإضافة إلى أن هذه الدولة قد جَنّدت الجاليات الأندلسية في أراضيها وشَكّلت منهم فِرَقاً عسكرية ضمن جيش النار السعدي، كما ذكرنا، وكان لهم دور مشهود في معارك الجهاد المختلفة.

أولاً ـ في تونس (المغرب الأدنى ـ أفريقية):

أصبح النفوذ الأندلسي في البلاد الحفصيّ على عهد الأمير أبي زكريا الأول 625 ـ 647هـ/ 1228 ـ 1249م، وعن الأمير المستنصر 647 ـ 675هـ/ 1249 ـ 1277م مساوياً لنفوذ الموحدين، وأصبح الأندلسيون أهل الشورى، ولهم وزنهم في البلاط الحفصي، كأبن الأبار، والأندلسي الرئيس أبي عبد الله محمد بن أبي الحسين، وأبي بكر بن سيد الناس الإشبيلي وأولاده أحمد وأبي الحسين. وكان لهم دور سياسيّ بارز في هذه المرحلة من تاريخ الدول

(89) العبر، 7/ 186.

الحفصية، وزجّوا أنفسهم أحياناً في تيّارات الصراع السياسي فيها[90]. أثّر الأندلسيون المهاجرون إلى تونس في الحياة الفكرية تأثيراً واضحاً، وأهم ميادين التأثير:

1 ـ ميدان التدريس في المدارس الحفصية:

التي كان أهمها مدرسة جامع الهواء، والمدرسة المغرضية[91]، وقد تمّ إحصاء العلماء الذين جاءوا مع جالياتهم وسكنوا تونس بما يقارب 33 إلى 35 عالماً أندلسيّاً، في طليعتهم الفقيه الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد القريشي الغرناطي، وعالم الحديث أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد النّاس[92]، وكان الحفصيون يميلون إلى المدرّسين الأندلسيين عموماً لشهرتهم وكفاءتهم ولاستغلالهم في الدعاية لهم[93].

2 ـ في ميدان اللغة وآدابها:

برز في ميدان النحو علماء من الأندلس استقروا في تونس وماتوا بها ومن أشهرهم: أبو الحسن حازم القرطاجني (توفي عام 684هـ/ 1285م) صاحب كتاب القوافي ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء، وأبو الحسن علي بن موسى المعروف بابن عصفور الإشبيلي (توفي عام 669هـ/ 1270م) ومن تأليفه: المقرب في النحو، وأبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلي (توفي عام 691هـ/ 1292م)[94].

وفي ميدان الأدب، انتقل إلى تونس في هذه الفترة جمعٌ من مشاهير

---

(90) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 132 وبعدها.
(91) الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 40 ـ 41.
(92) الغبريني، عنوان الدراية، ص 294، 347 ـ 348.
(93) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 139.
(94) الغبريني، عنوان الدراية، ص 317، 345. محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 141 ـ 142. محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 59 ـ 60، 68.

الأدباء والشعراء، منهم: أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي (توفي بتونس عام 653هـ/ 1255م) وهو صاحب كتاب الحماسة. وأبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (توفي عام 685هـ/ 1286م) أحد مؤلّفي كتاب المغرب في حلى المغرب. وأبو الحسن عيسى بن الحسين بن وسيم البلنسي (توفي بتونس عام 692هـ/ 1293م). كما اشتهر في تونس أيضاً في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي شاعران أندلسيان: هما محمد الخير الذي قدم من مالقة عام 864هـ/ 1460م، ومنافسه أحمد بن محمد الخلوف (توفي عام 899هـ/ 1494م)[95].

3 ـ في ميدان العلوم الشرعية:

اْهتمّ الأندلسيون الوافدون إلى تونس بالقرآن وعلومه، وبدأوا بأساليب تربوية أندلسية في ميدان تعليم القرآن للأولاد الصغار، وقد طغت هذه الأساليب على الأساليب التونسية[96].

ومن أشهر القُرّاء الذين اْستقرّوا بتونس: أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن محمد من أهل شاطبة ولد بها عام 613هـ/ 1216م، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الأنصاري الشاطِبيّ ولد سنة 635هـ/ 1237م، وأبو العباس أحمد بن موسى الأنصاري البطرني، وأبو العباس بن محمد بن محمد بن لب المرسي[97].

وأشهر الروّاة المحَدِّثين: أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى البلنسي من مواليد بلنسية في عام 610هـ/ 1213م، وكان أحد الفضلاء الأتقياء.

وأبو الكرم محمد بن إبراهيم بن محمد الحِمْيَري، ولد عام 618هـ في

(95) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 142 ـ 143.

(96) ابن خلدون، المقدمة، ص 420.

(97) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 148.

بلنسية، وأبو ٱلتُّقى صالح بن محمد بن سليمان البَلَنْسِيّ، وأصله من طَرْطُوشَة.

وأبو محمد عبد الحق بن بريطلة ٱلْمُرْسِيّ (توفي بتونس عام 661هـ/ 1262م)[98].

ومن أشهر الحُفّاظ الفقهاء: أبو عبد الله بن الأبّار المؤرخ المشهور، وأبو البركات موسى بن عبد الله المُرسيّ (توفي بتونس عام 684هـ/ 1285م)، وأبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف المُرسيّ (توفي بتونس عام 685هـ/ 1286م) وكان قاضي تونس، وأبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغَمّاز البَلَنسِيّ (توفي بتونس عام 693هـ/ 1294م)[99].

ومن الفقهاء المحَدِّثين: أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الإشبيليّ المعروف بٱبن سيّد الناس (توفي بتونس عام 659هـ/ 1261م)[100].

4 ـ في ميدان العلوم الصرفة:

ففي ميدان الرياضيات كان أهم رياضيّ أندلسيّ ٱنتقل إلى تونس هو القلصادي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي (توفي بأفريقية عام 891هـ/ 1486م)، وقد بلغت مؤلفاته في الحساب 13 كتاباً، ألّف بعضها في تونس مثل (كشف الجلباب عن علم الحساب)[101].

وفي علم ٱلنّبات يأتي في المقدمة ٱبن ٱلْبَيْطار الذي جاء إلى تونس من مالقة، وتابع سيره إلى المشرق فتوفي بدمشق عام 646هـ/ 1248م[102]. أما ميدان الطب فقد تولى زمامه في تونس جملة من الأطباء الأندلسيين من

(98) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 149.

(99) محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص 63، 127.

(100) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 151.

(101) أنور الرفاعي: الإنسان العربي والحضارة، ص 339. السامرائي: دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 348.

(102) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص 333.

أشهرهم: أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بٱبن أندراس (توفي عام 674هـ/ 1273م) من أهل مرسية، وٱبنه أبو يعقوب يوسف بن محمد (توفي بتونس عام 739هـ/ 1329م)[103]، وكذلك أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة[104].

5 ـ ميدان الموسيقى:

كان أبو الصّلت أُميّة بن عبد العزيز الإشبيليّ 460 ـ 529هـ/ 1067 ـ 1134م) صاحب اليد الطولى في إدخال الموسيقى الأندلسية إلى تونس، حيث هاجر إلى الإسكندرية ومنها رحل إلى تونس وٱستقر في المهدية وذلك في حوالي عام 489هـ/ 1096م أي بعد سقوط طليطلة بيد أَلْفُونْسو السادس، وبَثّ في تونس الألحان الأندلسية وعُرِف بملحن الأغاني الأفريقية. وبعد عصره ٱشتهرت الألحان الأندلسية وبخاصة في عصر ٱبن سعيد الذي يذكر لنا ٱشتهار هذه الألحان[105] (610 ـ 685هـ/ 1213 ـ 1286م).

وقد لعب أبو الصلت بأفريقية دوراً شبيهاً بذلك الدور الذي لعبه من قبل زرياب في الأندلس[106].

وشاع الفن الموسيقي الأندلسيّ خاصة في المدن التي ٱستقر بها المهاجرون الأندلسيون وبالذات مدن الساحل وبخاصة في مدينة بجاية التي ٱكتظّت بالمهاجرين مما جعلها شبيهة بمدينة إشبيلية الأندلسية في شغفها بالموسيقى وٱنصرافها إلى الطرب. وكذلك أهل مدينة دلس التي اشتهر أهلها بالمرح والبشاشة، وحُسْن العزف على العود[107].

---

(103) الغبريني: عنوان الدراية، ص 76.

(104) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 145.

(105) المقري: نفح الطيب: 2/ 105 ـ 106. حسن حسني عبد الوهاب: ورقات: 2/ 227 وبعدها.

(106) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 152.

(107) الحسن الوزان: وصف أفريقيا: 2/ 42، ص 51. ينظر: محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي، ص 141.

إن هذه الموسيقى التي طرقت باب أفريقية على يد أبي الصلت وذاعت في أيام ٱبن سعيد وعمّت المدن التونسية بالتدريج، يعود أمرها إلى ما وَفّر لها المهاجرون الأندلسيون من وسائل الاْنتشار.

6 ـ في الميدان الاجتماعي:

بعد هجرة الأندلسيين إلى تونس وٱستقرارهم في مدنها الساحلية بالذات، بقوا على مَرّ السنين محافظين على ذاتهم، وظلوا أندلسيين في كل شيء على الرغم من مظاهر الحفاوة التي استقبلت بها أفريقية هؤلاء المهاجرين.

وقد زار الرحالة المصري (عبد الباسط بن خليل) صاحب كتاب (الباسم في حوادث العمر والتراجم) تونسَ في عام 866هـ/ 1462م، أي بعد قرنين من قدوم جالية شرقي الأندلس وغربها إلى تونس، وقبل هجرة جالية غرناطة التي لم تسقط بعد. وبالرغم من مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن التي تعاقبت خلالها ثمانية أجيال، فإنه لاَحَظَ ٱحتفاظ العنصر الأندلسي بذاته، وقد أُتِيح له حضور حفل أقامه التاجر الأندلسي الحاج أبو القاسم الغرناطي الأندلسي نزيل تونس وكبير التجّار بها وذلك في عام 867هـ، وكان هذا الحفل بمناسبة رجوع وفود الحجاج من مكّة المكرّمة، وكان مكان إقامته في منتزه الحفصيين (رأس الطابية). ورأى الرحالة المصري مظاهر الترف في هذا الحفل بالإضافة إلى أن أغلبية الحضور من أهل الأندلس، ممّا يدل على صلات الرحم القوية بينهم رغم مرور هذه السنين الطويلة. وسادت وجبات طعام الحفل أشهر المأكولات الأندلسية. وحضر الحفل شعراء الأندلس المهاجرون إلى تونس، ومن أشهرهم محمد الخير المالقي وأحمد الخلوف[108]. كما نقل الأندلسيون المهاجرون أنواعاً معَيّنة من الملابس شاع

---

(108) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 154 ـ 156. محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي، ص 183. ينظر: دائرة معارف الشعب، ص 167.

ٱستعمالها في تونس، وبخاصة صناعة الشاشية وبعض الألبسة الأخرى[109].

7 ـ في الميدان الاقتصادي:

بعد استقرار المهاجرين الأندلسيين في أفريقية مارسوا الأعمال المختلفة، فقِسم منهم مارس الأعمال الحكومية حيث انخرط في سلك الجيش أو في خدمة الدولة أو في سلك التعليم، وقِسمٌ آخر مارس الزراعة حيث طبّقوا خبرتهم الأندلسية في ميدان الزراعة والريّ في المدن التونسية التي سكنوها وبخاصة المدن التي تتعدد فيها المجاري المائية، وقسم آخر مارس التجارة الخارجية لأنّ خبرتهم بالبلاد المسيحية كانت تؤهّلهم لأنْ يلعبوا الدور المهمّ في هذا الميدان. وقد أشرنا سابقاً إلى غِنَى التاجر الأندلسي الحاج أبو القاسم وأنه وصل إلى رتبة كبير التجار، ممّا يدل على أن ميدان التجارة قد هيمن عليه الأندلسيون وبخاصة أن هؤلاء كانوا منظمين في إطار جماعات، فمثلاً كان أبو بكر بن محرز (توفي عام 655هـ/ 1257م) على رأس الجماعة الأندلسية في مدينة بجاية[110].

ويبدو لنا من كل هذا قوّةُ تأثير الجالية الأندلسية في تونس والذي لا يقل عن تأثير الهجرة الثانية التي سوف تأتي بعد الطرد النهائي عام 1609م، أي الهجرة الموريسكية. فٱلدّورُ الذي لعبه أندلسيو هذه الفترة يفوق بكثير الدورَ الذي سيلعبه مورسكيو القرن السابع عشر، وذلك يعود إلى أن الأخيرين كانوا يجهلون اللغة العربية، وهو جهل يتجاوز الحدود اللغوية إلى جهل بِٱلحضارة العربية الإسلامية ككل، وذلك بفعل الممارسات الطويلة والعنيفة التي مورست عليهم وهم في إسبانيا، والتي كانت ترمي أساساً إلى إدماجهم وصهرهم في المجتمع الإسباني بسماته الأوروبية المسيحية[111].

---

(109) محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي، ص 141.

(110) الغبريني: عنوان الدراية، ص 287.

(111) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 159.

ثانياً ـ في الجزائر (المغرب الأوسط):

لم تكن الجزائر مكاناً ملائماً لاستقرار المهاجرين الأندلسيين قياساً إلى بلاد تونس وبلاد المغرب الأقصى، وذلك لأن منطقة المغرب الأوسط كانت خلال هذه الفترة منطقة قلقة وبخاصة في عهد الإمارة الزيّانية، حيث كان جزء كبير من الشرق الجزائري (قَسَنْطِينة ـ عنَّابَة ـ بِجَاية ـ بِسْكَرَة) وغيرها تحت نفوذ الإمارة الحفصية، واكتفت الإمارة الزيانية بالجزء الغربي من الجزائر متخذة تلمسان قاعدة لها، في حين كانت منطقة الوسط ـ وهي منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين ـ منطقة صراع دائم بين الإمارتين، وبخاصة بعد ظهور إمارات محلية صغيرة تميل إلى تأييد الأقوى في بعض الأحيان، بالإضافة إلى تدخّل الإمارة المرينية في هذا المجال التنافسيّ، تارة ضد الزيانيين، وتارة ضد الحفصيين. فقد وصلت جيوش المرينيين إلى تونس والزاب وقسنطينة، كما وصلت جيوش الحفصيين إلى مليانة وتلمسان.

فكانت هذه الأوضاع القلقة غير مشجّعة لاستقطاب المهاجرين الأندلسيين الذين كانوا بحاجة إلى مناطق آمنة في الشمال الأفريقي للاستقرار بها بعد طول عناء وجهد من وضعهم الصعب في الأندلس الذي أجبرهم على الرحيل والهجرة[112].

وعلى الرغم من أنّ العلاقات ـ وبخاصة التجارية والسياسية ـ بين الأندلس والمغرب الأوسط قديمة، حيث جدد الأندلسيون عمران مدينة وهران عام 290هـ/ 903م، وشيّدوا مدينة تنس عام 262هـ/ 876م، وأصبحت بذلك موطناً للأندلسيين من أهالي ألبيرة وتدمير، كما أعادوا الحياة إلى مرسى الدجاج وإلى المسيلة في أوائل القرن الرابع الهجري، وإلى أرزيو التي اشتهرت بتجّارها الأندلسيين الذين كانوا يصدّرون الملح إلى الأندلس[113]،

---

(112) ينظر: الحسن الوزان: وصف أفريقيا: 2/ 8. محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 160 ـ 161. محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي، ص 116.

(113) ينظر: البكري: المغرب، ص 70. الإدريسي: نزهة، ص 57. ابن الخطيب: أعمال، ص 66.

إلاَّ أن إقامة المهاجرين الأندلسيين في المرحلة الأولى في منطقة الجزائر كانت قليلة للأسباب التي ذكرناها، إلاَّ أن هذه الهجرة قد اْزدادت فيما بعد وذلك نتيجة استقبال الإمارة الزيانية لجاليات أكثر من المرحلة السابقة بفعل سقوط عدد كبير من الثغور الأندلسية بيد الإسبان. وبسبب اكتظاظ المدن المغربية والتونسية بالأندلسيين، فجدّ المهاجرون الأندلسيون في البحث عن مناطق شاغرة لاْستثمار مواهبهم السياسية والعلمية والاقتصادية في منطقة المغرب الأوسط المجاور[114].

ومن خلال التراجم التي قدّمها لنا يحيى بن خلدون أخو المؤرخ الأندلسي الأصل عبد الرحمن بن خلدون[115] في كتابه بغية الرواد، نرى الدور الكبير للمهاجرين الأندلسيين في الجزائر، ويتمثل دورهم في:

1 ـ **الميدان السياسي**: اشترك يحيى بن خلدون في الأحداث السياسية وبخاصة الصراع السياسي بين الإمارة الزيانية والإمارة الحفصية، وقد ذهب ضحية هذا الصراع في عام 780هـ[116].

كما اعتمد الأمير الزياني أبو حمو بن أبي سعيد على أسرة (اْبن الملاح) فأعطى مقاليد الوزارة والحجابة إلى محمد بن ميمون بن الملاح، ثم إلى ولده محمد الأشقر، ثم إلى ولده إبراهيم، وعمّه علي بن عبد الله، وهم أسرة من قرطبة مشهورة بالصّلاَح[117].

2 ـ **ميدان الأدب**: اشتهر محمد بن عبد الله بن داؤد الغافقي من أهل مرسية، ونزيل تلمسان، ووُصِف بأنه من أبرع الكُتّاب والأدباء، وفي تلمسان أصبح من كُتّاب الأمير يغمراسن بن زيان وتوفي عام 636هـ.

(114) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 167.

(115) ينظر: عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص 26، 13 ـ 14.

(116) محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي، ص 151.

(117) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 181 ـ 182.

ومن الذين برعوا في الكتابة والشعر أيضاً أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي الإشبيليّ الأصل. وكذلك محمد بن أحمد الحداد من وادي آش، وغادر غرناطة قبل سقوطها بقليل ونزل تلمسان[118].

3 ـ **العلوم الدينية**: اشتهر بعلوم القرآن أبو بكر بن سعادة الإشبيلي الذي نزل تلمسان وعمّر بها وتوفي عام 600هـ. وكذلك اشتهر أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي ـ ٱلْمارّ الذكر ـ بتفسير القرآن وكتب في أصول الفقه. كما اشتهر ٱبنه عبد الرحيم بسعة العلم والمعرفة بالفرائض. واشتهر أبو الحسن بن الصيقل المرسي برواية الحديث. وأما أبرز أقطاب التصوف الأندلسيين الذين استقروا في المغرب الأوسط فأبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الإشبيلي وٱستقر في تلمسان ودُفِن في قرية خارجها. وكذلك الشيخ أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بٱلْحلوي، حيث نزل تلمسان أيضاً[119].

4 ـ **العلوم الصرفة**: اشتهر في ميدان الحساب والهندسة عبد الرحيم بن أبي العيش الإشبيلي المار الذكر، وكان من أبصر العلماء بهذه العلوم. وكذلك العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبليّ الأندلسيّ شيخ عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور، أصله من جالية الأندلس من أهل أبلة، أجاز أباه وعمّه أحمد، فٱستخدمهم يغمراسن بنُ زيان وولدُه في جندهم.

وبعد أن مَلَّ هذا العالم الخدمة العسكرية في الإمارة الزيانية والإمارة المرينية، انصرف إلى العلم والمعرفة، وكان يميل إلى العقليات وبالذات علم المنطق، وبرع كذلك في علم الحساب[120].

---

(118) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 178، 180. عنان: نهاية الأندلس، ص 491.

(119) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 178 وبعدها.

(120) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 33 ـ 36. محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 178، 180.

وكذلك عالم الرياضيات المشهور أبو الحسن علي بن محمد البَسْطِيّ، الذي رحل من الأندلس وٱستقر في تلسمان إلى أن مات عام 891هـ/1486م[121].

ثالثاً ـ في المغرب الأقصى:

كانت منطقة المغرب الأقصى وبخاصة مدنها الساحلية، ومدنها الداخلية المهمّة، محطّ أنظار الأندلسيين المهاجرين في المرحلة الأولى والثانية، وذلك لقرب هذه المنطقة من السواحل الأندلسية وللعلاقات التاريخية المباشرة بينهما كما هو معروف، وكان للمهاجرين الأندلسيين دور كبير في منقطة المغرب الأقصى يتمثل بالآتي:

1 ـ الميدان السياسي:

بعد سقوط مدينة بلنسية عام 636هـ وبعض مدن شرقي الأندلس بِيَدِ الممالك الإسبانية وهاجر الكثير من أهلها إلى عدوة المغرب، أصدر الرشيد الموحّديّ مرسوماً في عام 637هـ يسمح فيه بنزول المهاجرين الأندلسيين مدينة رباط الفتح بعد أن اتخذت الدولة الموحدية كل التدابير لحمايتهم وأمنهم وتوفير العيش الرغيد لهم[122]، إلاّ أنهم ضاقوا ذرعاً بمسكنهم في بلاد المغرب الأقصى لكثرة الفتن التي وقعت فيه، وكذلك بسبب الصراع بين الموحدين في المراحل الأخيرة من تاريخهم والمرينيين، وقد دخل هذا الصراع الإمارة الحفصية والإمارة الزيانية والقبائل العربية، فكانت منطقة المغرب الأقصى منطقة قلعة، أدّت إلى هجرة بعض الأندلسيين منها إلى تونس بالذات، بالإضافة إلى أن معظم مهاجري الأندلس كانوا يَعتبِرون الموحّدين مسؤولين عن ضياع الأندلس[123]. كما وظفت الدولة السعدية

(121) عنان: نهاية الأندلس، ص 491.
(122) عبد الكريم كريم: رباط الفتح، ص 12 ـ 13.
(123) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 129.

هؤلاء المهاجرين وشكّلت منهم فِرَقاً عسكرية ضمن قواتهم الضاربة التي عُرِفت بعساكر النار السعدية، وكان لهؤلاء الأندلسيين دور كبير ومشرِّف في معركة وادي المخازن عام 986هـ/ 1578م كما ذكرنا. كما أن الإمارات الحاكمة في منطقة المغرب العربي استعانت ببعض رجالات المهاجرين الأندلسيين، ووظّفتهم كوزراء أو مستشارين أو حُجّاب، وقد أدى هذا الأمر إلى وجود نوع من العداء بين رجالات البلاط المغاربة وبين رجالات المهاجرين الأندلسيين، وقد تعرض كثير من رجالات الأندلسيين إلى القتل والتشريد. كما أن تهالكهم على المناصب في البلاط المريني ودورهم في الصراع بين المرينيين والزيانيين في المغرب الأوسط، كَوَّنت صورةً قاتمة عن هؤلاء المهاجرين، مما دفع العالم يحيى بن خلدون أن يمحو هذه الصورة القاتمة من خلال التراجم التي تعرّض لها في كتابه بغية الروّاد[124].

2 ـ الميدان الفكري:

في المرحلة الأولى والمرحلة الثانية من تاريخ المهاجرين الأندلسيين عَبَر إلى بلاد المغرب العربي عدد كبير من مفكّري الأندلس سواءٌ قبل سقوط غرناطة بيد الإسبان أو بعد ذلك، وكان لهم دور كبير في مجالات الحياة الفكرية في بلاد المغرب العربي، وأهم هذه المجالات:

أ ـ **مجال اللغة وآدابها**: هناك الكثير من علماء الأندلس الذين هاجروا إلى بلاد المغرب ضمن هذا المجال، وسوف نذكر عدداً منهم للتدليل لا للحصر، فمن أشهرهم: إدريس بن محمد بن موسى الأنصاري من أهل قرطبة، وكان بارعاً في الأدب، هاجر من قرطبة بعد أن تملّكها الإسبان عام 633هـ، وعبر إلى سبتة وتوفي فيها عام 647هـ[125]. وكذلك أبو المطّرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي صاحب

(124) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 183.

(125) ابن الأبار: التكملة (القاهرة: 1956)، ترجمة رقم (692).

الرسائل المشهورة، من أهل جزيرة شقر، عَبَر إلى المغرب لمّا توالت النكبات على شرقي الأندلس، وٱلْتَحق بخدمة الأمراء الموحدين المتأخرين الرشيد والسعيد، ولما قُتِل السعيد الموحدي لَحِق بمدينة سبتة وفيها هاجمه جمع من بني مرين وسلبوا أمواله، فهاجر إلى تونس وبها توفي عام 658هـ[126].

وكذلك أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور، من أهل ألْمرية، برع في الأدب، وركوب البحر، عَبَر إلى عدوة المغرب وتوفّي بمراكش عام 755هـ[127]. وأبو عبد الله محمد بن جزي من أهل غرناطة الكاتب المشهور، وهو الذي كتب رحلة ٱبن بطوطة، رحل إلى المغرب ودخل في خدمة السلطان المريني أبي عنان، وتوفي بمراكش عام 757هـ[128]. ومن أشهر الكُتّاب محمد بن عبد الله العربي الشريف العقيلي كاتِبُ السلطان أبي عبد الله الصغير الذي عَبَر إلى المغرب مع سيّده كما هو معروف[129].

ب ـ **مجال العلوم الدينية**: ومن الذين اشتهروا في هذا المجال الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم الأموي المعروف بالرقّاص، كان مدرّساً بمدرسة (أنفا) بالمغرب الأقصى المُلْحَقة بجامعها الكبير[130]. وٱشتهر في مجال التصوف محمد بن مفصل بن حسن بن عبد الرحمن اللّخمي من طبيرة من أعمال الغرب الأندلسي، سكن ألْمرية، وعَبَر إلى تونس، ومنها رحل إلى سبتة وبها توفي عام 645هـ[131]. وكذلك الفقيه محمد بن إبراهيم بن محمد الليثي

(126) ينظر: القلقشندي: صبح الأعشى: 6/ 534، 7/ 94 ـ 98، ص 116.
(127) عنان: نهاية الأندلس، ص 470.
(128) رحلة ابن بطوطة: 1/ 25 و 2/ 803.
(129) عنان: نهاية الأندلس، ص 492 ـ 493. دائرة معارف الشعب، ص 334.
(130) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 170 ـ 172.
(131) ابن الأبار: التكملة، (ترجمة رقم 1682).

الأندلسي، توفي بمراكش عام 707هـ[132].

والفقيه المشهور أبو الحسن علي بن قاسم بن محمد ٱلتَّجِيبيّ الزقّاق من أهل غرناطة، عَبَر إلى المغرب عندما سقطت غرناطة وبها توفي عام 912هـ[133].

جـ ـ **مجال العلوم الصرفة**: ففي علوم الحساب، ٱشتهر محمد بن يوسف المعروف بٱبن مشون، وهو من علماء ألمرية، رحل إلى سبتة، وٱشتهر في علم الجبر والمقابلة، وتوفي عام 989هـ[134].

وفي مجال الطب، فقد ٱحتكر الأندلسيون الطب في بلاد المغرب العربي، واعتمد عليهم كثيرٌ من حُكّام المغرب في مختلف عصورها. ففي طليعتهم، عبيد الله بن علندة الأمويّ من أهل سرقسطة هاجر إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية، بعد سيطرة الإسبان على مدينة سرقسطة عام 512هـ. وفي أواخر حياته عَبَر إلى المغرب وٱستقر في مراكش وبها توفي عام 581هـ[135]. وكذلك أبو جعفر بن الحسين بن أحمد بن الحسين القُضَاعيّ، من أندة من عمل بلنسية، وقد رافق ٱبن جُبير في رحلته، توفي بمراكش عام 599هـ[136]. ومن أشهرهم أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي صاحب خزانة الأشربة والمعاجين، توفي بمراكش على عهد المستنصر الموحدي (610 ـ 621هـ) وتولّى بعده ٱبنه إدارة هذه الخزانة[137].

وهكذا ٱستقطبت مدن المغرب الأقصى خيرة علماء الأندلس المهاجرين الذين قدّموا خدمات جليلة في وطنهم الجديد، وقد جذبتهم مدينة فاس على

---

(132) المقري: نفح الطيب: 1/ 353.

(133) عنان: نهاية الأندلس، ص 491.

(134) عبد العزيز بن عبد الله: «الأندلس والمغرب وحدة أم تكامل؟»، مجلة المناهل، العدد 31 (الرباط: 1984)، ص 112.

(135) ابن الأبار: التكملة: ترجمة رقم (2180).

(136) أيضاً: ترجمة رقم (241).

(137) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص 79.

وجه الخصوص التي جمعت علماء الأندلس وعلماء القيروان فٱستحقت بذلك لقب بغداد المغرب[138].

3 ـ مجال الفن المعماري:

التأثير المعماري الأندلسي له تاريخ طويل وتأثير كبير في الفن المعماري المغربي، فإذا تجاوزنا الأبعد وبدأنا بالتاريخ الأقرب، نرى أن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وٱبنه علي يعتمدان على الصُّنّاع المَهَرة والمهندسين الأندلسيين في بناء مساجد المغرب مثل مساجد مدينة فاس، وبناء القناطر (قنطرة تانسيفت)، وٱستمر مثل هذا المجال في عهد الموحدين. كما أن المرينيين استفادوا من بني نصر وَرَثَةِ الحضارة الأندلسية، وتجلّى ذلك في المدارس والمساجد وقِبَاب الأضرحة التي دلّت على روعة وبهاء الطابع المريني في مجال الفن المعماري. وقد جمع الفن المريني بين الطابع الأندلسي والطابع المغربي. وظهر فنّ جديد سُمّي بٱلفنّ الإسبانيّ الموريسكيّ[139]، وامتاز هذا الفن بٱلتّناسق الذي يعود إلى مهارة المهندس الأندلسي الذي كان تأثيره ملحوظاً في جميع المآثر المعمارية.

وإذا كان الفن المعماري قد استطاع الصمود في نهاية العصر ٱلْمَرِينيّ، فإنما يعود الفضل بذلك إلى العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب، بحيث أصبح المغاربة منذ عهد الْوَطّاسيين عالَةً في كثير من الفنون والحِرَف على الأندلس[140]. واستمرت الدولة السعدية تعتمد على أهل الأندلس في هذا المجال، فمثلاً نرى في هندسة قصر البديع وزخرفته الذي بناه المنصور السعدي في عام 986هـ الأثرَ الأندلسيَّ، بحيث لم يفرق في مخطّطه العام عن قصور الأندلس الشهيرة كالحمراء بغرناطة، ممّا يؤكد التأثير القوي الذي كان

(138) عبد العزيز بن عبد الله: «الأندلس والمغرب...»، ص 100.

(139) عبد العزيز عبد الله: «الأندلس والمغرب...»، ص 141.

(140) أيضاً: ص 142 ـ 143.

للمهاجرين الأندلسيين في المغرب، مع تأثيرات أوروبية وإيطالية بوجه خاص، وذلك لوجود العدد الكبير من الفنّيّين المَهَرة في فَنّ البناء الذين جلبهم المنصور من فلورنسا[141].

4 ـ المجال الاقتصاديّ:

مارست الجاليات الأندلسية في بلاد المغرب العربي نشاطاً اقتصاديّاً ملحوظاً، حيث مارسوا التجارة الخارجية مع مدن إسبانيا ومدن الأقطار الأوروبية الأخرى لمعرفتهم اللغات الأجنبية، وقد نشط هذا الأمر لمّا بدأت بلاد المغرب الأقصى تستقبل التجّار الأجانب سواء من إيطاليا أو من بريطانيا. وفي الحيّ الخاص باليهود والمسمى (الملاح)، وفي الفنادق المغربية التي أُعِدّت لاَستقبال وفود التجار الأجانب وتُعَرف (بالديوانة) يتمّ اَتصال التجار الأجانب مع السماسرة الذين كانوا في الغالب أندلسيين أو يهوداً لهم إلمام باللغات الأجنبية، وعن طريقهم تتم عمليات بيع البضائع والمصنوعات الأجنبية إلى تُجّار الجملة والتجزئة (المفرد) المغاربة الذين يحملونها بدورهم إلى الداخل لبيعها في المدن والقرى وفي الأسواق والمواسم بالبادية[142].

وفي مجال الزراعة كان للأندلسيين المهاجرين أثرٌ كبير في نشاط الزراعة في منطقة المغرب الأقصى، وبخاصة منذ عام 637هـ عندما أصدر الرشيد الموحّديّ ظهيراً يأذن للمهاجرين الأندلسيين سُكْنَى مدينة الرباط واَستثمار الأراضي المحيطة بها: «. . . وأن يتوسّعوا في الحرث ففي أرضه هناك مُتَّسَع ويتبسّطوا في كلٍّ ما لَهُم منه معاش وبه منتفَع ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عادتهم ببلادهم. . .»[143]. وسارت دُوَل المغرب الأقصى

(141) عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 299، 304.

(142) عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 266.

(143) عبد الكريم كريم: رباط الفتح، ص 13.

على هذا المنهج، فأولت الدولة السعدية المهاجرين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة الاهتمام نفسه والامتيازات نفسها، فأقطعتهم الدولة أراضيَ فسيحةً، فٱغترسوا بها الغَراسات المتنوّعة وحوّلوا كثيراً من أراضي المغرب الأقصى إلى جَنّات معروشات أغرقت عليهم الخير ممّا أنساهم نكبات الأندلس نوعاً ما. وإذا كان من الصعب ٱستقصاء جميع التأثيرات الأندلسية في المجتمع المغربي، فإنه يمكن الإشارة إلى أن العديد من مقوّمات المجتمع المغربي الحديث ترجع في أصولها إلى المهاجرين الأندلسيين. فلمّا تَفرّق المهاجرون الأندلسيون في مناطق المغرب العربي، مال أهل البادية إلى ما ٱعتادوه، فٱستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحاء الطاحنة بالماء، فعمّت الخيرات وكَثُر الإنتاج. ومال أهل الحواضر إلى المدن فٱستوطنوها ففاق الصُنّاع منهم أهل البلاد وكانوا محل إعجاب سكّان المغرب الأقصى[144]. كما عُمِرت مدن وازدهرت بسبب هجرة الأندلسيين قُبَيل سقوط غرناطة وبعدها، مثل مدينة تطوان التي عمرها المهاجرون الأندلسيون وأعادوا لها الحياة[145].

وتطوان الحالية إذن هي تطوان الأندلسية التي أسسها وجدّد معالمها المجاهد الأندلسي أبو الحسن علي المنظري (نسبة إلى قلعة المنظر بغرناطة) الذي هاجر إليها مع نخبة من أعيان غرناطة وفرسانها ونزلوا في ناحية تطوان، ثم قدِموا على السلطان محمد الشيخ الوطاسي بفاس، فأكرمهم ومنحهم مدينة تطوان لتجديدها وتعميرها وٱتخاذها مدينة لهم ومقرّاً لإقامتهم، وأسند ولايتها إلى القائد المنظري الذي شرع ببناء مدينة تطوان في عام 898هـ/ 1493م. وبقي هذا القائد عاملاً على المدينة ونواحيها إلى وفاته عام 919هـ/ 1514م، فخلفه ٱبن أخيه المعروف بالمنظري الحفيد (المنظري

(144) ينظر: المقري: نفح الطيب: 2/ 764. عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 279 ـ 280.

(145) عنان: نهاية الأندلس، ص 311.

الثاني)، فواصل خطة عمه المنظري الأول في تعمير المدينة التي صارت ملجأً للمهاجرين الأندلسيين الذين حوّلوا المدينة إلى رياض عامرة[146].

5 ـ في الميدان الاجتماعي:

بقي الأندلسيون المهاجرون إلى مدن المغرب الأقصى محافظين على كيانهم من خلال تجمّعهم في هذه المدن، فضلاً عن حفاظهم على عاداتهم وتقاليدهم، وبالرغم من وسائل العيش الرغيد والاستقرار الذي وفّرته لهم إمارات المغرب الأقصى، إلاّ أن هؤلاء المهاجرين بقوا يشعرون بالاغتراب والقهر وضياع الحق، ويتجلى ذلك في شعور عميق بالأسى والاضطراب النفسي الذي أوصى بالْتِزام الحداد في ظاهرة التلميطة البيضاء[147].

وهذا التقليد جاء من أن المهاجرين الأندلسيين اتخذوا اللون الأبيض في اللباس والفراش شعاراً لهم وتعبيراً عن الحداد على مفارقة الأوطان. ولكنهم وجدوا في مدن المغرب الأقصى وبالذات فاس وتطوان، من الرفق والعطف ما عوّض الحنين والشوق إلى الفردوس المفقود. ولكن الفراش الأبيض بقي كما كان أيام المحنة والحداد، حتى صار مع مرور الزمن هو القاعدة والعرف، فلا تدخل داراً من دُور الأغنياء والفقراء من سكان مدينة تطوان بالذات إلاً وتجد الغُرَف وقاعات الاستقبال مغطّاة بالقماش الأبيض، ومن خالف ذلك شَذّ عن القاعدة. وأطلقوا على هذه الأغطية البيضاء كلمة (تلامط) جمع (تلميطة) ولعلها مشتقة من كلمة (لمط) ومعناها اللغوي ضياع الحق والاضطراب، فنقول: لمط الرجل أي اضطرب، والْتَمَط فلانٌ حقَّ فلانٍ أي ذهب به. فهي بهذا المعنى قريبة من كلمة (غمط) بمعنى قهر وسلب[148].

---

(146) محمد العربي الشاوش «إشارات حول الاشعاع الفكري والحضاري لمدينة تطوان»، مجلة دعوة الحق: العدد 227 (الرباط: 1983)، ص 223، 225.

(147) محمد العربي الشاوش: المقال السابق، ص 225.

(148) محمد العربي الشاوش: المقال السابق، ص 225.

ومن الظواهر الاجتماعية الملفتة للنظر وبخاصة في مدينة تطوان هو زواج القائد المنظري الثاني من السيدة عائشة الحُرّة بنت أبي الحسن علي بن راشد صاحب مدينة شفشاون (أسس هذه المدينة في عام 1471م وتوفي عام 1511م، وتعاون مع القائد المنظري الأول عندما بنى مدينة تطوان)، وأن هذه السيّدة قد حكمت مدينة تطوان بعد وفاة زوجها المنظري الثاني عام 1528م، إلى أن تزوجها بمدينة تطوان السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسيّ البرتغاليّ (لأنه عاش في البرتغال فترة من الزمن) عام 1541م. وقد عُرِفت عائشة الحرة أيضاً بألستّ الحرة وكانت أمها إسبانية أسلمت وسُمّيَت لَلاَّ زهرة وأنجبت الست الحرة التي وُصِفت بالذكاء والدهاء وقوة الشخصية، وهو ما جعلها تتحمل أعباء الحكم في عصر لم تكن فيه المرأة تتمتع بمكانة سياسية ملحوظة، وحُكْم هذه السيدة لتطوان ظاهرة حضارية مبكرة تميزت بها تطوان عن بقية مدن المغرب الأقصى[149].

ويمكننا ملاحظة أنماط من السلوك الأندلسي على أوجه العموم في بلاد المغرب العربي:

1 ـ **سلوك فئة العلماء**: حاولت هذه الفئة إبراز الثقافة الأندلسية ومدى إشعاعها على الساحة الفكرية بالمغرب العربي، ونرى فئة من هؤلاء العلماء حاولت الارتزاق بالعلم، وذلك عن طريق الاتصال بحُكّام المغرب العربي، أو عن طريق ممارسة التعليم في المساجد والمدارس والزوايا، وفئة أخرى عزفت عن ذلك وتفرّغت للعلم والتعليم وزهدت، وذلك نتيجة التجربة المريرة التي عانوا منها ببلدهم والتي خلقت في أنفسهم اليأس[150].

2 ـ **سلوك فئة الحرفيين**: وكان جُلّ همّهم ضمان موارد عيشهم في موطنهم

(149) محمد العربي الشاوش: المقال السابق، ص 226.

(150) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 184.

الجديد ولم تطمح إلى أكثر من ذلك، ولكن هذه الفئة وجدت نفسها وجهاً لوجه مع صنّاع وحرفيين منافسين لهم، مما أدى إلى وجود نوع من الصراع الاقتصادي خفّت حدّته وتضاءل مع مرور الزمن[151].

3 ـ **سلوك فئة السياسيين والعسكريين**: دخلت هذه الفئة في صراع حاد مع سكان المغرب العربي، لأنها كانت تطمح للوصول إلى مناصب قيادية، معتمدة على ماضيها العريق في السياسة والقضاء والجيش، ونرى نتيجة حاجة أمراء المغرب العربي إلى الاسترشاد بذوي الرأي بسبب مشاكلهم الداخلية والخارجية، استعانتهم برجال هذه الفئة أولاً، ثم دخول بعض رجال هذه الفئة معترك السياسة كوزراء أو حُجّاب أو مستشارين، وحقق بعضهم نجاحاً كبيراً بسبب كفاءتهم ومقدرتهم ثانياً، إلاّ أن هذا الأمر أثار حسد رجال البلاطات المغربية فدخلوا في صراع عنيف معهم حِيكت فيه المؤامرات والدسائس، وقد ذهب كثير من رجالات الأندلس المهاجرين ضحية هذا الصراع بالتشريد أو القتل ثالثاً[152].

---

(151) ينظر: محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي، ص 293 وبعدها. محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 184.

(152) محمد رزوق: «الجالية الأندلسية»، ص 184 ـ 185.

المصادر والمراجع

المصادر الأولية

- **ابن الأبار**: أبو عبد الله محمد بن محمد (توفي سنة 658هـ).
- التكملة لكتاب الصلة، الجزء الثاني (القاهرة: 1956).
- الحلّة السيراء، تحقيق حسين مؤنس (القاهرة: 1963) ـ ط1
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي (القاهرة: 1967).
- **ابن أبي أُصَيْبعة**: موفق الدين أحمد بن القاسم (توفي سنة 677هـ). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (بيروت: 1965).
- **ابن أبي دينار**: أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني (توفي سنة 1092هـ). المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، (تونس: 1967).
- **ابن أبي زرع**: أبو الحسن علي الفاسي (كان حيّاً قبل عام 726هـ). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة (الرباط: 1972).
- الذخيرة السَّنية في تاريخ الدولة المرينية (الرباط: 1972).
- **ابن الأثير**: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (توفي سنة

630هـ). أسد الغابة في معرفة الصحابة (طهران: 1377هـ). الكامل في التاريخ، دار صادر (بيروت: 1965 و1979).

- **الإدريسي**: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (توفي سنة 560هـ). وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه: هنري بيرس (الجزائر: 1957).

- **اماري ميخائيل**: المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم، (ليبسك: 1857) أعادت طبعها بالأوفست مكتبة المُثنى ـ بغداد.

- **ابن بسام**: أبو الحسن علي الشنتريني (توفي سنة 542هـ). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس (بيروت: 1979).

- **ابن بشكوال**: أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأنصاري (توفي سنة 578هـ). كتاب الصلة، قسمان: الأول والثاني، (القاهرة: 1966).

- **ابن بطوطة**: محمد بن عبد الله اللواتي (توفي سنة 770هـ). رحلة ابن بطوطة، تحقيق ونشر الدكتور علي المنتصر الكتاني، (بيروت: 1979).

- **البكري**: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (توفي سنة 487هـ). جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد، (بيروت: 1968).

- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر دِي سلان، (الجزائر: 1857).

- **البلاذري**: أحمد بن يحيى بن جابر (توفي سنة 279هـ). فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان (مصر: 1959، 1956).

- **ابن بلكين**: الأمير عبد الله. كتاب التبيان، تحقيق لِيفي بروفنسال (القاهرة: 1955).

- **البيذق**: أبو بكر الصنهاجي. أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين (الرباط: 1971).
- **التجاني**: عبد الله بن محمد (توفي سنة 717هـ). رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (تونس: 1958).
- **ابن تغري بردي**: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (توفي سنة 874هـ). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: 1963).
- **ابن جبير**: أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسي (توفي سنة 614هـ). رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال (بيروت: 1981).
- **الجزنائي**: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، (الرباط: 1967).
- **ابن حزم**: أبو محمد علي بن أحمد (توفي سنة 456هـ). جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة: 1962).
- الملل والنحل، ج ـ 4.
- **الحِمْيَري**: عبد المنعم السبتي (توفي حوالي 710هـ). الروض المِعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس (بيروت: 1975).
- **ابن حوقل**: أبو القاسم النصيبي (توفي سنة 380هـ). صورة الأرض، (بيروت: 1979).
- **ابن حيان**: أبو مروان حيان بن خلف (توفي سنة 469هـ). المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، نشر ملشور أنطوينة (باريس: 1937).
- **ابن الخطيب**: لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمساني (توفي سنة 776هـ). الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان (القاهرة: 1973 و1977).
- أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، نشر ليفي بروفنسال (بيروت: 1956).

- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبّادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب (الدار البيضاء: 1964).
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.
- **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (توفي سنة 808هـ). التعريف بابن خلدون (دار الكتاب اللبناني: 1979). العبر وديوان المبتدأ والخبر، (بيروت: 1956 و1971).
- المقدمة (بيروت: 1978).
- **ابن خَلِّكان:** أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (توفي سنة 681هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: 1968).
- **ابن خياط:** أبو عمرو خليفة (توفي سنة 240هـ). تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري (النجف: 1967) ط1.
- **الدبّاغ:** أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (توفي سنة 696هـ). معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شبوح (القاهرة: 1968).
- **الذهبي:** شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (توفي سنة 748هـ). العبر في خبر من غبر، ج ـ 4، تحقيق صلاح الدين المنجد (الكويت: 1963).
- **الرقيق القيرواني:** أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (توفي سنة 417هـ). تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، (تونس: 1968).
- **الزركشي:** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس: 1289هـ).
- **السرّاج:** محمد بن محمد الأندلسي الوزير (توفي سنة 1149هـ). الحلل

السندسية في ذكر الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: 1984) و (تونس: 1970).

- **ابن سعيد**: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة: 1964).
- **السيوطي**: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (توفي سنة 911هـ). تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: 1964).
- **ابن الشمّاع**: الأدلة البينة النورانية، (طبعة 1984).
- **الضبي**: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (توفي سنة 599هـ). بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس (القاهرة: 1967).
- **ابن صاحب الصَّلاَة**: عبد الملك بن محمد الباجي (توفي بعد سنة 594هـ). تاريخ المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي (بغداد: 1979).
- **الطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير (توفي سنة 310هـ). تاريخ الرسل والملوك، نَشْر: دي غوية، ليدن: (1879، 1901) و (القاهرة: 1970) دار المعارف.
- **ابن عبد الحكم**: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (توفي سنة 257هـ). فتوح مصر وأخبارها، نشر، شاري توري، (نيوهيفن: 1920).
- فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة.
- **عبيد الله بن صالح**: بن عبد الحليم (توفي في القرن الثامن الهجري). نص جديد عن فتح العرب للمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد الثاني سنة 1954.
- **ابن عَذَاري**: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيّاً سنة 712هـ). البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمَغرب، نشر: كولان

وليفي بروفنسال (ليدن: 1948) أعادت دار الثقافة نشره في بيروت.
قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين (بيروت: الدار البيضاء 1985).

- **أبو العرب**: محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (توفي سنة 330هـ).
طبقات علماء أفريقية وتونس، (الدار التونسية: 1978) تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن اليافي.
- **الغبريني**: عنوان الدارية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض (بيروت: 1969).
- **ابن القاضي**: جذوة الاقتباس في ذِكْر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، (الرباط: 1973).
- **ابن قُتَيبة**: أبو عبد الله بن مُسْلِم (توفي سنة 270هـ). الإمامة والسياسة (المنسوب إليه) (القاهرة: 1331هـ).
- **ابن القَطّان**: نَظْم الجُمَان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكّي (تطوان: 1965).
- **القلقشندي**: أبو العباس أحمد بن علي (توفي سنة 821هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة: 1963).
- نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري (الشركة العربية للطباعة: 1959).
- **ابن القوطية**: تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد: 1926.
- **ابن الكردبوس**: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبّادي (مدريد: 1971).
- **الكِنْدِيّ**: أبو عمر محمد بن يوسف (توفي سنة 350هـ). الوُلاة والقضاة، (بيروت: 1908).
- **المالكي**: أبو بكر عمر بن محمد بن يوسف (توفي سنة 350هـ). رياض

النفوس، تحقيق حسين مؤنس، (القاهرة: 1951).

- **مؤلف مجهول**: أخبار مجموعة (مدريد: 1867).
- **مؤلف مجهول**: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المرّاكشية، تحقيق سُهيل زَكّار، وعبد القادر زمامة (الدار البيضاء: 1979).
- **مؤلف مجهول**: مفاخر البربر، تحقيق ليفي بروفنسال (الرباط: 1934).
- **المراكشي**: أبن عبد الملك. الذيل والتكملة، ج ـ 6، تحقيق إحسان عباس (بيروت: 1973).
- **المراكشي**: محيي الدين أبو محمد عبد الله بن علي التميمي (توفي سنة 647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، (القاهرة: 1963).
- **المقري**: أحمد بن محمد التلمساني (توفي سنة 1401هـ)، أزهار الرياحين، تحقيق مصطفى السقّا، وآخرين (القاهرة: 1939 ـ 1940).
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت: 1968).
- **المقريزي**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن علي (توفي سنة 845هـ). اتّعاظ الحنفا (القاهرة: 1948).
- **الناصري**: أبو العباس أحمد بن خالد، (توفي سنة 1315هـ). الأستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء: 1954).
- **النباهي**: أبو الحسن عبد الله (توفي سنة 793هـ)، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا) (بيروت: لا. تاريخ).
- **النويري**: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (توفي سنة 732هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ـ 21 (القاهرة: 1976)، ج ـ 22 (غرناطة: 1917).
- **الواقدي**: أبو عبد الله بن عمر (توفي سنة 207هـ)، فتوح أفريقيا

(تونس: 1351هـ).

- **الوَزّان**: الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بجَانْ لُيُون الأفريقي. وَصْفُ أفريقيا، ترجمة محمد حجّي، ومحمد الأخضر (الرباط: 1980).
- **ياقوت**: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (توفي سنة 626هـ). معجم البلدان (بيروت: 1957).
- **اليعقوبي**: أحمد بن يعقوب بن واضح (توفي سنة 284هـ). كتاب البلدان، نشره: دي غوية مع كتاب الأعلاق النفيسة لأبن رسته (ليدن: 1892).
- تاريخ اليعقوبي. (بيروت: 1960).

المصادر الثانوية:

- **أحمد**: عزيز، تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، (ليبيا ـ تونس: 1980).
- **أدهم**: علي، المعتمد بن عباد (بيروت: لا. تاريخ).
- **أرسلان**: شكيب، الحلل السندسية، (القاهرة: 1936).
- **إسماعيل**: عثمان عثمان، تاريخ شالة الإسلامية ـ دار الثقافة، (بيروت: 1975).
- **أشباخ**: يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان (القاهرة: 1940) وطبعة أخرى (القاهرة: 1958).
- **أمين**: أحمد، ضحى الإسلام، ج ـ 3 (القاهرة: 1962).
- **أومان**: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب: مصطفى طه، مطبعة الأعتماد (مصر: 1953).

- **الأنصاري**: أحمد بك النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ج ـ 2، طرابلس.
- **بروفنسال**: ليفي، الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب: محمود عبد العزيز سالم، وصلاح الدين حلمي، نهضة مصر (القاهرة: 1956).
- **بروكلمان**: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس وآخرين (بيروت: 1965).
- **بشتاوي**: الأندلسيون الموراكة (دمشق: 1985).
- **بل**: ألفرد، الفِرَق الإسلامية في الشمال الأفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي (بيروت: 1981).
- **بول**: لين، قصة العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم (القاهرة: 1947).
- **بيضون**: إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا (بيروت: 1980) ط2.
- **التازي**: عبد الهادي، جامع القرويين، دار الكتاب اللبناني (بيروت: 1972).
- **التواتي**: عبد الكريم، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس (الدار البيضاء: 1977).
- **الجمل**: أحمد محمود، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (القاهرة: 1977).
- **جوليان**: شارل أندريه، تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر (تونس: 1985) و (تونس: 1958 ـ 1978) وطبعة أخرى: 1969. وج ـ 3.
- **الجوهري**: يسري عبد الرزاق، شمال أفريقية «دراسة جغرافية»، مطبعة الإسكندرية.

- **حتاملة**: محمد عبده، التنصير القسري لمسلمي الأندلس (عمان: 1980).
- محنة مسلمي الأندلس (عمان: 1977).
- **الحجّي**: عبد الرحمن، التاريخ الأندلسي (دمشق: 1976).
- **حركات**: إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، طبع ونشر دار السلمي، (الدار البيضاء: 1965).
- **حسن**: حسن علي، تاريخ المغرب العربي (عصر الولاة) (القاهرة: 1977).
- الحضارة الإسلامية في الغرب والأندلس (القاهرة: 1980).
- **حسين**: كريم عجيل، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية (بيروت: 1976). دائرة المعارف الإسلامية، مادة الزّاب.
- **دنيز**: بولم، الحضارات الأفريقية، ترجمة سليم نصار، ط2 (بيروت: 1982).
- **الدوري**: تقي الدين عارف، صقلية، علاقاتها بدُوَل البحر المتوسط الإسلامية، دار الرشيد للنشر (بغداد: 1980).
- **رابح**: بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر: 1981).
- **الرفاعي**: أنور، الإنسان العربي والحضارة.
- **أبو رميلة**: هشام، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية، وبالدول الإسلامية في الأندلس (القاهرة: 1979) رسالة الدكتوراه غير منشورة.
- **الزاوي**: الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا (القاهرة: 1963).
- **السائح**: الحسن، الحضارة المغربية عبر التاريخ، ط1 (الرباط: 1975).

- **سالم**: السيد عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية: 1982).
- المغرب الكبير (الإسكندرية: 1966).
- **السامرائي**: خليل إبراهيم، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس (الموصل: 1986) وآخرين.
- دراسات في تاريخ الفكر العربي (الموصل: 1983).
- علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية في الأندلس وبالدول الإسلامية (بغداد: 1958).
- الثغر الأعلى الأندلسي (بغداد: 1976).
- **سعد زغلول**: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي (الإسكندرية: 1979).
- **سليمان**: أحمد سعيد، تاريخ الدولة الإسلامية، ومعجم الأُسَر الحاكمة، دار المعارف (بمصر: 1969).
- **سيسالم**: عصام سالم، جزر الأندلس المنسية (بيروت: 1984).
- **شعيرة**: محمد عبد الهادي، المرابطون تاريخهم السياسي (القاهرة: 1969).
- **الطالبي**: محمد، الدولة الأغلبية، تعريب: المنجي العباوي - دار الغرب الإسلامي (بيروت: 1985).
- **طرخان**: إبراهيم علي، إمبراطورية غانا الإسلامية: (القاهرة: 1970) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- **طه**: عبد الواحد ذنون، دراسات أندلسية، المجموعة الأولى، (الموصل: 1986).
- الفتح والاستقرار العربي في شمال أفريقيا والأندلس (بغداد ميلانو:

.(1982

- **العامري**: محمد الهادي، تاريخ المغرب العربي (بيروت: 1974).
- **عباس**: إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي.. عصر الطوائف والمرابطين (دار الثقافة: 1962).
- العرب في صقلية، دار الثقافة (بيروت: 1975).
- **العبّادي**: أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (الإسكندرية: 1968).
- في تاريخ المغرب والأندلس، طبعة بيروت.
- **أبن عبد الله**: عبد العزيز، تاريخ الحضارة المغربية.
- **عبد الرحمن**: حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (الموصل: 1977).
- **عبد الوهاب**: حسن حسني، ورقات في الحضارة العربية ج ـ 2 (تونس: 1964).
- **عبد المجيد**: عبد العزيز، أبن الأبّار حياته وكتبه (مانشيستر: 1951).
- **العدوي**: أحمد إبراهيم، الدولة الإسلامية وإمبراطورية (القاهرة: .(1958
- **عَلاّم**: عبد الله، الدعوة المُوَحّدية بالمغرب (طبعة أخرى: 1964).
- الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي (دار المعارف: 1968).
- **العربي**: إسماعيل، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، دار الغرب الإسلامي (بيروت: 1983).
- **عويس**: عبد الحليم، دولة بني حَمّاد في الجزائر (القاهرة: 1972).
- **عنان**: محمد عبد الله، دول الطوائف (القاهرة: 1969).
- عصر المرابطين والموحدين (القاهرة: 1964).

- نهاية الأندلس (القاهرة: 1966).
- **الغربي**: محمد، بداية الحكم الغربي.
- **الغناي**: مراجع، قيام دولة الموحدين (بنغازي: 1971).
- سقوط دولة الموحدين (بنْغَازي: 1975).
- **غنيم**: اسمت، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، (جدّة: 1977).
- **فازيلين**: العرب والروم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، وطبعة الأعتماد، مصر، بدون تاريخ.
- **فرحات**: يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر (بيروت: 1982).
- **فكري**: أحمد، مساجد الإسلام، المسجد الجامع بالقيروان (القاهرة: 1936).
- **كريم**: عبد الكريم، رباط الفتح (الرباط: 1986).
- المغرب في عهد الدولة السعدية (الرباط: 1978).
- **الكعّاك**: عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر (تونس: 1975).
- **كنّون**: عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي (بيروت: 1975).
- **لويس**: أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500 ـ 1100م). ترجمة: أحمد محمد عيسى، نشر مكتبة النهضة المصرية مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (القاهرة: دون تاريخ).
- **مؤنس**: حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة: 1980).
- فتح العرب للمغرب (القاهرة: 1947).
- **محمود**: حسن أحمد، قيام دولة المرابطين (القاهرة: 1975).
- العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي (القاهرة: 1973).

- **المرزوقي**: محمد، قابس (تونس: 1962).
- **الطِّيبي**: أمين توفيق، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار التونسية للكتاب (تونس: 1984).
- **ابن منصور**: قبائل المغرب (الرباط: 1968).
- **مورينو**: المسلمون في صقلية، المطبعة الكاثوليكية (بيروت: 1957).
- **موسى**: لقبال، المغرب الإسلامي ط1، (قسنطينة: 1969).
- **الناظوري**: رشيد، المغرب الكبير «العصور القديمة» طبعة 1966.
- **نصر الله**: سعدون عباس، دولة المرابطين.
- **نهلة شهاب**: المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع الفهري (رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة)، كلية الآداب، جامعة الموصل ـ 1987.
- **نوري**: دريد عبد القادر، تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء (الموصل: 1985).
- **هونكة**: زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، دار الآفاق الجديدة ـ (بيروت: 1980).
- **ولد دادة محمد**: مفهوم الملك في المغرب (دار الكتاب اللبناني: 1977).

الدوريات:

- **رزوق محمد**: «الجالية الأندلسية بالمغرب العربي» مجلة المناهل العدد 34 (الرباط: 1986).
- **رمضان**: عبد العظيم، «محاكم التفتيش» مجلة العربي العدد 258.
- **السامرائي**: خليل إبراهيم، «إمارة كريت الأندلسية» مجلة الجامعة، الموصل: أيلول 1978.

- «إمامة الدفاع الثانية عند خوارج المغرب العربي» مجلة التربية والعلم، العدد 4.
- «الجزائر الشرقية، البليار ـ في أيام الطوائف» مجلة التربية والعلم العدد 2.
- **الشاويش**: محمد العربي، «إشارات حول الإشعاع الفكري والحضاري لمدينة تطوان» مجلة دعوة الحق، العدد 277، (الرابط: 1983).
- **طه**: عبد الواحد ذنون، «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال أفريقيا من الفتح إلى نهاية عهد المرابطين»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج ـ 4 ـ 362، بغداد 1986.
- **الطيبي**: أمين توفيق، «واقعة الزلاّقة المجيدة»، مجلة كلية التربية، جامعة الفاتح العدد السادس (1976 ـ 1977) ليبيا.
- **عبد الحميد**: سعد زغلول، «العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي والمنصور الموحّدي» مجلة كلية الآداب، الإسكندرية (1952 ـ 1953) ج ـ 6 ـ 7.
- **عثمان**: سعدي، الأصول العربية للبربر، بحث منشور في مجلة آفاق عربية العدد 9، السنة الخامسة.
- **عنان**: محمد عبد الله، «تستور بلد الموريسكيين» مجلة العربي، العدد 156.
- **مؤنس**: حسين، التنظيم الإداري والمالي في أفريقية والمغرب خلال عصر الولاة، مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت، العدد الأول، سنة 1972).
- **مكي**: محمود علي، «وثائق مرابطية جديدة» صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلة 7 ـ 8 (مدريد: 1959 ـ 1960).
- **ميراندة**: أمبروزيو، «علي بن يوسف وأعماله في الأندلس» مجلة تطوان العدد 3 ـ 4 (1958 ـ 1959).

- هويدي: فهمي، «في بلاد الموريسيك غرباء الأندلس» مجلة العربي العدد 228.

المراجع الأجنبية

1- Altamira, Rafael. A History of spain from the Beginings to the present day, translated from the spanish by: Muna Lee, (Toronto; Canad: 1949).
2- Bell, F. Les Benou Chanya (Paris: 1903).
3- Dozy, R. L'Histoire et la Littérature des Arabes d'Espagne Vol, 1, 2, (Amsterdam: 1965).
4- Callaghan, J. A history of medieval spain. (Newyork - London: 1975).
5- Pidal, R. The cid and his spain (London: 1934).
6- Scott, S. A history of the Morish Empire in Europe, Vol, 2, (London:1904).
7- Sebag, P. «Les Travaux maritimes, de Hassan ibn Nu'man» Institut de Belles Letters Arabes, XXXIII, 1970.
8- Miles, G, C. The Coinage of the Umayyads of Spain. New-York, 1950.
9- Cambridge Medieval History, Cambridge, 1964.

المحتويات

ذنون طه - السامرائي - مطلوب

تاريخ المغرب العربي

تاريخ المغرب العربي

لا تخفى أهمية مادة تاريخ المغرب العربي، ودورها في حث الطالب على النظر دائماً إلى وحدة الوطن العربي، وذلك لتأثر أحداث كلّ من المشرق والمغرب فيما بينها.

فقد كان العرب في المغرب العربي جزءاً لا يتجزأ عن إخوانهم في المشرق، وما الأحداث التاريخية التي مرّت بهم إلاّ صدى للأوضاع العامة في قلب الدولة العربية الإسلامية.

ولهذا فقد كان من الضروري أن يطّلع طلاب أقسام التاريخ على تاريخ المغرب العربي، وأن يكون بين أيديهم هذا الكتاب، الذي يمثّل الحد الأدنى من منهج هذه المادة الحيوية.

ردمك ISBN 9959-29-206-1





موقعنا على الانترنت:
www.oeabooks.com